إيماني

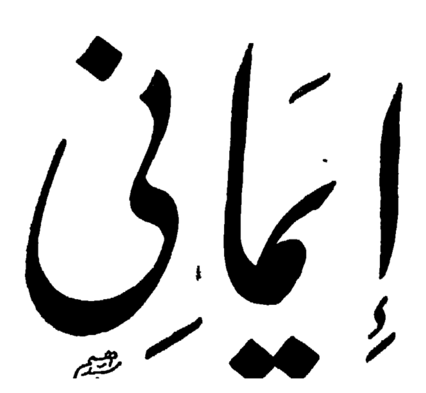
"لا حد لإيماني بعظمة مصر وقدرتها
على قيادة العالمين، ولا حد لإيماني
برسالة الإسلام وصلاحيتها لهداية
الإنسانية وهذا ما كرست حياتي من
أجل تحقيقه أو الموت في سبيله."

أحمد حسين

الجزء الأول — الطبعة الثانية

١٩٤٦

آلمجد لمصر



آليت على نفسي أن أقضي
حياتي مجاهدا من أجل مصر
ومجدها ، وكل الذي أطمع
فيه أن أملأ قلوب الجيل
الجديد إيمانا بمصر وعظمتها ،
وثقة بأنفسهم ، وطموحا للمثل
الأعلى .

أحمد حسين



الأستاذ أحمد حسين

مؤلف هذا الكتاب بروحه وكفاحه وقلبه وقلمه



الدكتور مصطفى الوكيل

سطر هذا الكتاب بدمه وتضحياته فى سبيل مصر والعرب والمسلمين

كلمة الناشر

هذا كتاب أصدر الأستاذ احمد حسين رئيس حزب مصر الفتاة طبعته الأولى في سنة ١٩٣٦ ، ولما يمض على تاسيس مصر الفتاة أكثر من ثلاث سنوات ، وأشار فى آخر صفحات الكتاب الى أنه لايزال مفتوحا . واليوم وبعد انقضاء عشر سنوات على نفاذ الطبعة الأولى قد تضخم كتاب مصر الفتاة ، وان لم يزل مفتوحا ، وأصبح من اللازم اعادة كتابته وترتيبه وتنسيقه .

فى هذه العشر سنوات الماضية نمت شجرة مصر الفتاة وترعرعت وتأصلت جذورها فى تربة الحياة المصرية وامتدت فروعها حتى شملت سائر البلاد العربية وطبقت شهرتها وأنباؤها وتعاليمها الخافقين .

وفى هذه العشر سنوات الماضية استشهد من أبطال مصر الفتاة فى ميدان الوغي وحومة الجهاد من استشهد ، وسجن من سجن ، واضطهد من اضطهد .

وفى هذه العشر سنوات تخلف عن جهاد مصر الفتاة من تخلف ، وسار فى ركبها من سار ، وغيرت الحوادث والتجارب من خطط مصر الفتاة وأساليب مصر الفتاة .

وفى هذه العشر سنوات قامت حكومات فى مصر ، وسقطت حكومات ، ووقعت انقلابات فى اثر انقلابات .

وفى خلال هذه السنوات العشر اندلعت نيران حرب ضروس جبارة عصفت بأوربا عصفا وأغرقت الدنيا في طوفان من الدم وأسقطت دولا عظمي من عليائها وبوأت أمما أخري مكان الزعامة والصدارة .

ومن خلال ذلك كله تنطلق مصر الفتاة متفاعلة مع الحوادث المحلية والعالمية مندفعة نحو غايتها ومهمتها الكبري فى تحرير وادى النيل من نير الاستعمار الأجنبي ، وتوحيد البلاد العربية فى وطن واحد ، وبعث الأمة الاسلامية الى سابق مجدها وعزها . ولما كان كتاب «ايمانى» هو بمثابة دستور لهذه الحركة الروحية الكبرى ، التي لم تشهد لها مصر مثيلا فى تاريخها الحديث ، فقد طلبت من الاستاذ احمد حسين زعيم هذه الحركة وقائدها أن يعيد اصدار كتاب «ايمانى» متضمنا تاريخ كفاحنا هذه السنوات الطويلة مشتملا على برامجنا وخططنا ومبادئنا واضعا الأسس لحياة الشرق الجديدة .

وهاهو الكتاب بين أيديكم فاقرأوا ثم احكموا ، وانى لمعتز كل الاعتزاز أن يكون لى نصيب متواضع فى اخراج هذا الكتاب .

ابراهيم شكرى

سكرتير حزب مصر الفتاة

الى من كانت حياته أشرف لواء تلتف حوله مصر الفتاة

الى مثلي الاعلى في الاخلاص والوطنية والاخلاق والتضحية

الى من تمنيت على الله لو بقى لمصر وذهبت

الى من كان أملي في الدنيا وبات اليوم أملي في الآخرة

الى شهيد الشهداء وبطل الابطال

الى الدكتور مصطفى الوكيل نائب رئيس حزب مصر الفتاة

الذي استشهد في حومة الوغى في برلين في مارس سنة ١٩٤٥

اغانى

— ١ —

رحلة فى الصعيد

كنا في رحلة كشفية في صعيد مصر ، على رأسها حامد افندي نبيه المدرس بالمدرسة الخديوية ، وكان يرافقنا أستاذ الكشافة الكبير عبد الله سلامه افندى ، وكان معسكرنا على ضفة النيـل الغربية في الأقصر . . هبطنا إلى أرض المعسكر فى وقت الظهيرة وكانت الشمس تسطع وترسل أشعتها الملتهبة ، وكان علينا أن نبادر بتشييد الخيام حتي نجد ما نستظل به فأخذنا نعمل ونعمل حتى انتهينا من هذه المهمة الشـاقة بعد مجهود دام ساعتين . وكان الحر يتفصد من جباهنا خلالها وقد أخذ منا التعب كل مأخذ فاستلقينا في الخيام أشبه بالمغمى عليهم ، ناسين أننا لم نتناول طعاماً منذ الأمس وأن الساعة قد قاربت الثالثة بعد الظهر . . وكنت أحس في أعماق نفسي بخيبة أمل فقد كنت أمنى نفسى برحلة سـعيدة ممتعة فاذا بنا نبدأ وسط الهجير والتعب . . وها نحن ملقون داخل الخيام ، أنفاسنا مبهورة ، وصدورنا ضيقة فنحن فى حالة أقرب إلى الأغماء منها إلى النوم كما قدمت لك . . . ولكن الشمس سرعان ما آذنت بالمغيب . . وعند الأصيل تظهر الصحراء كل فتنتها . . وإذا بنا وقد استيقظنا من نومنا وغسلنا رؤوسنا بالماء البارد وبدأ نسيم الشمال ينعش نفوسنا ويداعب ملابسنا وشعورنا . .

دوى البوق مؤذنا بميعاد إنزال العلم الذي كان يرفرف فوق صاريته الشامخة مظللا المعسكر بأسره . . دوى النفير فأسرعنا جميعا حول صارى العلم ووقفنا في مثلث متسـاوي الأضلاع وارتفعت رءوسنا إلى هذا العلم الأخضر الجميل . . ولست أرى أن في الدنيا بأسرها ما يخفق له الفؤاد

كرؤية علم الوطن العزيز بعيدا عن العمران والمساكن .. فهو في المدن وفوق نواصى الأبنية العامة أشبه شيء بالزينة والزخارف .. ولكن العلم في الصحراء ، أو فى الجبال ، أو فى البحار ، أو بعيدا عن أرض الوطن ، يصبح شيئا آخر .. يصبح مصدرا للحياة والقوة والسعادة .. فهو يؤنسك فى وحدتك وهو يشجعك ويشد أزرك .. علم الوطن العزيز فى الغربة هو أعذب الأناشيد وأكثرها سحرا فى نفس المواطن المغترب .. ولا يشعر بجمال ما أحدثك عنه إلا هؤلاء الذين سافروا تاركين وطنهم العزيز كيما تتلقفهم بلاد جديدة كل ما فيها متنكر لهم ومتجهم .. كل ما فيها يشعرهم لذعة فراق الأوطان ، سل هؤلاء عندما يرون علم بلادهم ماذا يكون أثره فى نفوسهم . إنهم ليرتعشون وتطفر الدموع من أعينهم .. ذلك أن علم بلادهم يذكرهم بأعزائهم وأحبابهم .. يذكرهم بحياتهم السعيدة فوق الأرض التى درجوا عليها والسماء التى استظلوا بها .. وفي كلمة يذكرهم العلم بأغلى ما تنطوي عليه الحياة وأعنى بها العزة والوطنية والكرامة .. أما في الصحراء وفى القفار فان العلم يؤثر فى النفس بما هو أبلغ .. ذلك أنه يطرد وحشة المكان ويملؤه أنساً وحياة .. ومن هنا كان هؤلاء الذين يضربون في مجاهل الدنيا شرقاً وغرباً وشمالا وجنوباً ، مستكشفين ومستطلعين ومستعمرين ، ينصبون أعلام بلادهم أول ما يفعلون كيما تربطهم بأوطانهم ويستمدون منها الحياة والحيوية والنشاط . ولست أحسب أن موسيقات الدنيا بأسرها لو أنها عزفت تكون أشجى على النفس والروح من حفيف العلم وهو يرفرف فوق الرؤوس ولذلك فقد وقفت لأول مرة فى حياتى أمام العلم وكأننى في صلاة .. وعندما هتف بنا الرئيس « تحية العلم — تعظيم سلام » ارتفعت يدى إلى جبهتى فى حركة لا شعورية بينما اشرأبت رأسى إلى قمة الصارى تتابع العلم وقد أخذ يهبط مع غروب الشمس .. وحانت منى التفاتة إلى زملائى فاذا بهم منتصبوا القوام مرفوعوا الأيدي .. تسطع أعينهم بهذا اللهب المقدس والذى تعكسه العيون عندما يكون

الانسان فى نشوة روحية . . كان العلم يهبط من ثانية لأخرى ولكن هذه الثواني كانت تعدل عندى الدهور ، ذلك أن روحى حلقت لأول مرة كيما تشرف على هذا الوطن العزيز وتفكر فى أمره ولست أستطيع أن أصور لك أحساسى ساعتئذ فلستأ شك في أنه كان إحساساً غامضا لم يتضح بعد . . فقد كنت قريب عهد بحياة من نوع آخر لم تكن مما يساعد على توضيح المشاعر الوطنية . . وإذن فقد كانت المشاعر تتلاطم فى نفسى وتتجاذب . . وعندما وصل العلم إلى مستقره وتلقاه الرئيس وصاح بنا « جماعة — اعتدال » أحسست بمولود جديد قد نما في روحى وأفكارى ، ولم يكن من الوضوح بحيث أعرف ما هو وما هى حدوده ، ولكنه كان من القوة بحيث أشعر بوجوده في نفسى . . ولقد كان ذلك يملؤنى رضا واغتباطا بالحياة . . وعندما أعطانا الرئيس الأمر بالانصراف أخذت أنظر إلى ما حولى من الفضاء والرمال والنيل الذي ينساب في ليونة وعذوبة . وهذه الجبال التي تقع إلى يسارنا والتى سنرتقيها فى الصباح كيما نهبط بعدها إلى وادى الملوك والملكات . . أما على الضفة الأخرى للنيل فقد بدأت أنوار الأقصر تطالعنا وهذا الفندق الشهير « ونتر بالاس » قد انكفأت أضواؤه فى المياه فأخذت تتلاعب بها . . وشرع الظلام يرخى سدوله وأخذت العوامل والكائنات تزداد فتنة . . نظرت حولى وفوق رأسى واستنشقت عبير الهواء المحيط بى فاذا بي أستنشق طويلا وأفتح صدرى ورئتى للنسيم كأنما أريد أن أطوى هذه الكائنات وهذا الجمال فى أعماق نفسى . . لقد كان يوما خالدا من أيام حياتى وبالرغم من أنه قد مر عليه حتى كتابة هذه السطور ثمانية أعوام ، لأنا كنا فى ديسمبر سنة ١٩٢٨ ، فلا يزال منقوشاً بكل حوادثه حتى التافه منها فى ذاكرتى . . ذلك أنه كان بدء التطور في نفسى ودخولى إلى عالم جديد . . ولقد كنت أحس هذا التطور وهو يتم بشدة وأنا جد مبتهج . . حتي إذا جلسنا هذا المساء حول النار نتجاذب أطراف الحديث طلب منى أن أتكلم فساءلت

إخوانى أيشعرون جميعا بالسعادة التى أشعر بها .. أم أنها وقف علي ..
لقد كان يخيل إلى أننى أسعد الناس طرا فى هذه الساعة .. ولعمرى فقد
عشقت مصر وامتلأت غراما بها وهياما وأى شيء في الدنيا يملأ الحياة
سعادة وهناء أكثر .. من الحب .

فى وادى الملوك

كان علينا أن نبكر فى اليوم التالى لزيارة وادى الملوك وقد أخذنا
نتسلق هذه الجبال الشاخة حتى أشرفنا على وادي الملوك .. فشرعنا فى
زيارة المقابر المختلفة .. هذه لسيتي وتلك لرمسيس .. وثالثة لتوت عنخ .
وقد كنت في كل مرة كلما انتهيت من زيارة إحدى المقابر أشعر بالوجوم
وبالرغبة في البكاء ، فهذه الدهاليز داخل الجبل كانت تملؤنى اكباراً لهذا
الجهد الجبار الذى نحتها .. حتى إذا توسطنا حجرات الدفن وأبهاءها راعتنا
كل هذه الألوان وكل هذه النقوش والتى خيل الى ساعة أن وقع بصري
عليها للمرة الأولى أن مصلحة الآثار قد فرغت من إعادة طلائها أخيراً ..
فسألت من حولى متى دهنوا هذه الألوان للمرة الأخيرة .. فأجابونى
بضحكة فيها كل معانى السخرية والاشفاق من هذا الجهل .. ذلك أن
الألوان قد نقشت منذ نيف وأربعة آلاف سنة .. وعلى الرغم من سخريتهم
فانى لم أصدق هذا القول ساعة أن قالوه لأنه كان يبدو مستحيلا، ولم أكن
من هؤلاء الذين يصدقون كل مايقال لهم .. أجل .. مستحيل .. مستحيل
أن تكون هذه الألوان الزاهية .. هذه النقوش البراقة .. مستحيل أن
تكون هى بذاتها من صنع الفراعنة وهى التى يبدو بجلاء أن النقاش قد
فرغ منها بالأمس .. ومع ذلك فقد أكدوا لى هذه الحقيقة مرة ثانية
وثالثة فامتلأت بهذا الوجوم الذى أشرت اليه ذلك أنى أخذت أفكر فى
هؤلاء الأقوام ومدنيتهم .. هذه المدنية التى بدأت تبدو لى بكل إعجازها

فهذه القصور المشيدة فى باطن الجبل ومن صميم الصخر .. ترى ماذا يمكن أن تكون هذه الأيدى التي نحتتها .. وماهى هذه الآلات التى استعانت بها ماذا يمكن أن تكون هذه الآلات التى تذيب الصخر وتحيله كأنه العجينة اللينة حتى تنحت فيه هذه الدهاليز وهذه الحجرات وهذه الأعمدة .. إن مدنية القرن الحديث بكل ما تملك من نظريات ومخترعات وأدوات لتعلن إكبارها لهذا العمل المعجز فما قيمة ماوصلت اليه البشرية من علوم وفنون وطيارات وبرق إذا كان ماقام به أجدادنا منذ ألوف السنين يبدو بالنسبة لنا معجزاً ومحيراً للألباب .. وفي مقابر الملوك لايسعك إلا أن تسائل نفسك سؤالا لاجواب له .. فعلى أى ضوء نقشت كل هذه الرسوم الدقيقة والتى تزين الجدران بل تزين الأرض تحت قدميك وتزين سماء الحجرات مادام أنه من الواضح أن نور الشمس لايمكن أن ينفذ إلى داخل الجبل .. تحت أى ضوء استطاع الفنان الماهر أن يجيد هذه النقوش وأن يبرزها هكذا فى كل هذه الفتنة وهذا الرواء والذى يحتاج في إتمامه لنور ساطع كضوء النهار .. يقولون أن نوراً واحداً هو الذي لايرسل دخانا ولايترك آثاراً وهو نور الكهرباء .. فهل عمل الصانع المصرى فى ضوء الكهرباء .. هذا هو السؤال الذى لايجيبك عليه فطاحل العلماء .. وأنت مضطر أن تسلم بعجزك وأن تعترف أن هؤلاء الجدود قد عرفوا من أسرار الطبيعة وفنونها مالم نعرفه حتي الآن .. وعلام نذهب بعيداً ونتساءل عن الضوء فهذه الألوان في ذاتها .. هذه الألوان الباهرة بأحمرها وأزرقها وأصفرها كيف استطاعت أن تقاوم كل هذه الألوف من السنين وأن تبقى حتى اليوم لامعة ساطعة كأنما فرغ منها الفنان منذ لحظات .. يقولون أن ألمانيا الحديثة هى أمة الكيمياء .. يقولون أنهم يستطيعون أن يخرجوا من الهواء سمادا وأن يحولوا كل شىء إلى غذاء .. يقولون إنهم يحولون العناصر وإنهم يصطنعون كل شىء .. فما بال ألمانيا بعلومها وجامعاتها وعلمائها عاجزة عن أن تدرك السر فى ألوان مصر القديمة وأن تخرج من الألوان

مايقاوم البلى بضع عشرات من السنين لامئات من القرون كما هوالحال مع قدماء المصريين . مابال علماء الألمان ، بل الدنيا بأسرها ، يقفون حياري أمام هـذه الألوان الساحرة والتي هزأت بالزمن وهزأت بالشمس والمطر والحرارة والبرودة وكل الظواهر الجوية .. هزأت بكل عناصر الفناء وبقيت حتى اليوم تسطع فيخيل إليك أنها قد صنعت بالأمس أليس هـذا إعجازا أي إعجاز . وأليست علوم القرون الحديثة لايزال أمامها أشواط وأشواط كيا تدرك أسرار علوم مصرنا القديمة وفنونها . ؟ على أن معجزة الألوان ليست هى المعجزة الوحيدة التي تنطوي عليها مقابر الملوك وتثيرها في نفسك .. بل أنها لتحمل معجزة أكثر عمقا وتأثيراً وأعنى بها تحنيط الموتى .. فهـذه القدرة العجيبة على حفظ الجسم من الفناء عشرات الألوف من السنين تبدو بالنسبة لعلوم القرن العشرين عملا مستحيلا .. فكل ما استطاعوا الوصول اليه هو أن يحنطوا الجسد سليما لعدة سنوات كما فعلوا فى الروسيا بجسد لينين .. على شريطة أن يعيدوا تحنيطه من عام لآخر .. ولم ينقض على هذه العملية عشرون سنة حتى بدأ الانحلال يدب إلى الجسد .. وقد لاتمضى سنوات أخرى حتي يستسلم جسد زعيم الشيوعية إلى الفناء ، وهذه هى كل مقدرة الحضارة في القرن العشرين .. أما علوم أجدادنا فقد استطاعت أن تحافظ على أجساد الفراعنة هـذه الألوف من السنين . ولست أقول تحافظ على هياكلها ، بل تحافظ على أدق خواصها فقد استطاع الأطباء أن يشخصوا كثيرا من أمراض مصر القديمة عن طريق هذه الأجساد المحنطة ، فقد وجدوا فيها آثار العمليات الجراحية المختلفة ووجدوا فيها كثيراً من الظواهر التى تخلفها بعض الأمراض .. ولازالت هذه الأجساد قادرة على أن تقطع عشرات الألوف من السنين لوأنهم لم يزعجوها من مراقدها ويخرجوها من هـذه القبور التى أعدت لحفظها ولصيانتها والتى تتناسب وعظمتهم ومجدهم .. كيا يحشرونها حشراً داخل دواليب زجاجية فينظر اليهم الناس كما ينظرون إلى قطعة الآثار أو دمية

من الدمى . . فيتطرق اليها الفســاد ويتعلم الناس واحسرتاه كيف ينبسون جلائل أعمالهم وهم يرونهم كالرمم تعافهم الكلاب .. ياله من إجرام مابعده إجرام . ويالها من شناعة وقذارة . إن المهانة التي تعيش فيها مصر اليوم ، والذل الذى تعانيه ، وظلمات الجهل التى تكتنفها والتى يرمز لها سوء معاملة الأجداد والعبث بأجسادهم وعرضهم فى المتاحف، لا يمكن مقابلتها إلا بشىء واحد وهو هذه العظمة وهذا الخلود الذي سطره هؤلاء الأجداد .. حاضر مصر وماضيها هما كطرفي نقيض كالعدم والحياة والنور والظلام واليأس والرجاء .

كنت أفكر في ذلك كله فامتلأت بالوجوم والحسرة وأنا أقوم بهذه المقارنة بين الأمس واليوم..وأنا أستعرض مظاهر الجحود والنكران لأجدادنا..بل أستعرض الشقة البعيدة التي تفصلنا عنهم..ذلك أن المصريين قد قطعوا كل الصلات التي تربطهم بهؤلاء الجدود فأخذوا يتحدثون عنهم ويشاهدون أعمالهم تماما كما يفعل السواح والأجانب .. أستغفر الله بل أقل تقديسا واحتراما مما يفعل السواح .. فالمصرى يخيل له إذ يسمع حديث قدماء المصريين أن هؤلاء قوم كانوا من العفاريت لايكاد يتمثل صورتهم في ذهنه وفي خياله إلا كما يتصور الغيلان ومردة الجان .

كنت أفكر في هذا وأشباهه ونحن نتحسس طريقنا نحو المعسكر ، وسرعان ماشعرت بالدم يغــلى فى عروقى .. وأحسست بدقات قلبي وقد تزايدت .. ولم أكن أميز الطريق تحت قدمى فكنت أصطدم وأتعثر، وأنى لأذكر أننى سقطت إلى الأرض أكثر من ثلاث مرات فى ذلك اليوم وعندما عدنا إلى المعسكر وجلسنا لنتنــاول العشاء أذكر أننى لم أتذوق طعاما .. كنت أرى إخواني وزملائى يملأون الدنيا صراخا وتهليــلا ويضحكون ويلعبون فامتلأت دهشة وإعجابا إذ أقارن ذلك بما في نفسى ومافيها من ثورة غضب وضيق .. وبينما كانوا يتجاذبون أطراف الحديث حول النار كما هى عادتهم : هذا يقص نادرة ، وذاك يمثل دوراً من الأدوار،

وثالث يغنى إحدى المقطوعات الحديثة .. تمددت بعيداً عنهم فوق الرمال وكان القمر يرسل أشعته فيغمر الكون بالهدوء والسلام .. بينما كانت مياه النيل تتكسر على الشاطىء الرملي فى خرير ودوى خافت ، فأخذت أسائل نفسى ترى ماذا كانت عليه هذه البقاع وأى أناس كانوا يجلسون جلستيهذه ، وأى أفكار كانت تدور فى رءوسهم . وسرعان ماأحسست أن الحاضر لايفترق عن الماضى وأن النفس البشرية هى هى فى كل عصر وزمان ، وأن المادة لاتفنى ، والجواهر لاتتغير ، وكل ماتتناوله الأيام بالتغيير هى الأغراض التافهة .. فما لاشك فيه أن النيل كان يجرى كما يجرى اليوم وأن هذه النجوم كانت تلمع كما تلمع اليوم .. وليس شك فى أن كثيرا من الناس قد جلسوا مجلسى هذا على مر السنين يستمتعون بضوء القمر ويرسلون لخيالهم العنان .. ولو أن هذه الجبال التي تحيط بنا أنطقها الله لحدثتنا عن هؤلاء الذين اعتادوا أن يسيروا فوقها منذ ألوف وألوف من السنين .. ولأدهشنا أن نسمع منها أننا جميعاً نتشابه وأننا نضحك كما كانوا يضحكون وأن تقاسيم وجوهنا كتقاسيم هذه الوجوه .. وأن كل شىء كما هو ، وليس يميزنا إلا شىء واحد ، وهو هو الذى يؤخرنا ويشقينا ، وهو هو الذى يعذبنا ويذلنا . . وذلك الشىء هو الجهل . . الجهل ببلادنا الجهل بتاريخنا .. الجهل بأنفسنا .. الجهل بقدرتنا .

بين صخور الكرنك

وجاء دور الكرنك فاقترحوا علينا أن نزوره في ضوء القمر أى فى المساء المتأخر . . وقد فعلنا . . ولكن زيارة المعبد فى المساء لا بد لها من تصريح خاص فالخفراء يغلقون الأبواب ويتهيأون للنوم وإذن فقد كان لا مناص من الانتظار . . والانتظار الطويل حتى يرد لنا التصريح بالزيارة فجلسنا أمام هذه البوابة الشامخة والتي تزرى بأقواس النصر التي رأيتها فيما

بعد فى باريس وروما ولندن ولكني ساعتئذ لم أكن أقارن ولم أكن أعرف ولذلك فقد كنت مبهوراً إزاء هذا الجلال وهذا الشموخ الذى يملأ النفس إحساساً بالعظمة والقوة . . قوة هؤلاء الذين رفعوا هـذه الأحجار فأصاروا هذه الجدران المتسـامية نحو السحاب وأقاموا هذه البوابة الضخمة الرائعة .

قلت لك إنهم ذهبوا لاستحضار التصريح لجلسـنا فيما يسمونه طريق الـكباش واحتطنا بهذه الحيوانات التى أودعوها العقل القوة . . وكان كل ما يحيط بنا يبعث السحر فى النفوس . . فالقمر والسكون وهذه الجدران بل هذا المكان الذى وقفت فى ظله يوما من الأيام عشرات الألوف من الناس تلتمس البركة وتدعو الله ... هذا المكان الذى شاهد جيوش مصر الظافرة تروح وهى ممتلئة بالقوة والحماسة وتعود وهى تهزج أهازيج النصر . . والذى شاهد ملوكا تجيء من آخر الدنيا مصفدة بالأغلال لتقدم خضوعها للأمبراطور المصرى . . وأى كنوز تلك التي اجتازت عتبة هذه الأبواب يشيع منها بريق الذهب فيملأ هذه الأرجاء ثروة وغنى . . هذه هى البقعة التى وقفنا فيها حتى يجيء التصريح بالدخول فاذا بأحساسات قوية تغمر نفسى وإذا بي أنطلق في ترتيل أناشيد رواية (مجد رمسيس) تلك التي ألفها الأستاذ محمود مراد سنة ١٩٢٣ ، فصور بها مجد مصر الغابر وأودعها كل أمل المصريين فى مستقبل زاهر ، فأخذت أهتف من الأعماق يصاحبنى بعض الرفاق الذين يحفظون هذه الأناشيد :

« سودى على رغم الزمن يامصر يانعم الوطن »
« دوسوا العدا يوم الردى لبوا النداء ، كونوا فدا »

وتملكتنى الحماسة فأخذت أنتقل من نشيد إلى نشيد . . ثم رأينا أن نعيد تمثيل الرواية لحناً لحنا وكلمة كلمة . . ثلاث سـاعات قضيناها أمام أبواب الكرنك نرتل أناشيد المجد والفخار . . ولعل هذه الأناشيد وهذه الهتافات قد أعادت الحياة إلى هذه التماثيل الجـاثمة طوال طريق الكباش

ولا شك أن هؤلاء الأطفال الذين وقفوا يرتلون أهازيجهم قد أعادوا إليها بعض ذكريات الماضى السعيد عند ما كانت أصوات الألوف ترتفع بالغناء تمجيداً لله ولفرعون . وتنتظر التصريح لها بالدخول . وكما كانوا يصرحون لهم بالدخول كذلك جاءنا التصريح ففتحوا لنا الأبواب . . واجتزنا عتباتها . . وقد كان دمى يجرى حاراً فى عروقى إثر هذه الاناشيد وكان قلبي يخفق لاجتيازى هذا الأثر العتيد والذى طالما حدثوني عنه . . وكنت أريد أن ألتهم كل ما يحيط بى . . وأن أحمله معى وأن أخبئه فى طيات نفسى . . اجتزنا هذه الدهاليز التى تصادف الأنسان أول ما تصادفه فوقفت وزملائى نعجب لهذه القدرة الخارقة التى رفعت هذه الجدران وسوت هذه الأعمدة التي تناطح السحاب . . وقفنا بجانب هذه الأعمدة فاذا بالمكان يبلعنا ولا نكاد نشعر بوجودنا . . وساءلت نفسى هل يوجد فى الدنيا بأسرها أضخم من هذه الأعمدة . . وهل وجد على سطح الأرض صناع حاكوا قدماء المصريين ؟ ولم نكد نتمالك روعنا حتي فاجأنا ماهو أضخم . . فاجأنا دهليز الاثنى عشر عمودا والذي يزرى بكل ما رأينا وبكل ما يمكن أن نراه في المستقبل . . . الله أكبر تجلت قدرته وتقدست أسماؤه . . هل يمكن أن أصف لك ماذا رأيت . . هل يستطيع الفنان مهما أوتى من حذق أن ينقل لك الجمال والعظمة فما بالك ولست فنانا . . ولست أديبا . . ولست من حاذقى الكتابة . . ماذا أقول عن هذه الأعمدة التى تخيل للأنسان أن لانهاية لها . . ولا حد لجمالها وعظمتها . . ولكنى أحدثك عما كان يدور فى نفسى . . وإنى لأتصور نفسى كما كنت ليلتئذ . . لقد كنت معقود اللسان جاحظ العينين . . بينما كان زملائى يعلقون ويظهرون إكبارهم ودهشتهم كنت لا أستطيع أن أحير جوابا أو أنبس ببنت شفة ولقد أحسست بقلبي يدق دقا عنيفا وبرأسى تتصاعد إليها أبخرة غريبة . . وكان ذلك كله يتزايد ويتضاعف كلما انتقلنا من مكان إلى آخر ومن حجرة إلى حجرة . . وفجأة إذا بى أرى نفسى فوق صخرة من هذه

الصخور المبعثرة هنا وهناك ووقفت خطيبا أخطب الزملاء فيما يجب أن نقول وما يجب أن نعمـل . . هذه العظمة التى تحيط بـكم ليست غريبة عنـكم . . هؤلاء الذين شادوا كل ذلك قد أورثوكم عزمهم وقوتهم . . ومصر التي حملت لواء الانسانية فى يوم من الأيام يجب أن تبعث من جديد كيما تعيد سيرتها الأولى . . وأخيرا يجب أن ننفض عنا غبار الخمول والكسل . . يجب أن نملأ أنفسنا إيمانا وعزما . . يجب أن نتذرع بالشجاعة والقوة . . يجب أن نعمل وأن نعمل حتي نبعث مصر بكل قوتها بكل جلالها وبكل عظمتها .

ولقد صفقوا . . أما أنا فقد كنت مذهولا لأنني لأول مرة فى حياتى كنت أخطب وأرتجل . . لأول مرة فى حياتى . أستطيع أن أقول بضعة عبارات دون أن أتلعثم أو أتوقف . . لأول مرة فى حياتي عرفت أن أتكلم كنت مندهشا لهذا الانقلاب . . فان حياتى السابقة على هذه الزيارة كانت تحول بينى وبين الارتجال أوالخطابة ، فقد كنت من غواة التمثيل وكنت رئيسا لفرقة التمثيل فى المدرسة الخديوية ، وكنت شغوفا بالتمثيل مفتونا به . والممثل لا يستطيع إلا أن يردد الكلمات التى حفظها من قبل فتتعطل فيـه ملكة الارتجال وتقوى فيه ملـكة الحفظ . . وكذلك كنت . . ولذلك فقد كانت لى مواقف . . كثيراً ما أخجلتنى . . فقد دعيت مرة من المرات أن أشكر بعض الناس فلم أقل سوى بضع عبارات في تعثر وخفوت . . وفى مرة أخري حاولت أن تكلم فعجزت . . أما هذه الليلة فقد خطبت . . خطبت بقوة خفية . . خطبت بكل قلبى ، بكل دمى ، بكل صوتى . . ألا فهتافا لنفسى وتهليلا ، فقد بعثت من جديد مخلوقا جديداً . . وعند ما كنا نجتاز عتبات المعبد فى سبيلنا إلى الخروج ارتفع صوتى في حماسة وقوة :

« سودي على رغم الزمن   يامصر يانعم الوطن »
« دوسوا العدا يوم الردى   لبوا الندا كونوا ، فدا »

ولـكن شتان بين إنشادى هذه المرة وبين إنشادى لها منذ ساعة قبل

أن ندخل المكان . . لقد كان إنشادى لها من قبل تمثيلا وغناء وتسلية . . أما الآن فقد كنت أقولها وهى تخرج من أعماق قلبى . . كنت أغنيها وأنا أومن بكل حرف من حروفها . . وأنا أرفع ذراعى ورأسى مقسما ومعاهداً . . لقد بعثت . . لقد بعثت . . وهكذا يجب أن يبعث كل شاب فى مصر . . لقد خلقت من جديد ، وهكذا يجب أن يخلق كل شاب فى مصر .. لقد كنت أنظر إلى أعمدة الكرنك وآثاره لا على اعتبار أنها آثار بل كأنها شىء حى يتكلم . لقد وقفت أمام المسلة المرتفعة هناك ووقفت أمام البركة وأمام مئات التماثيل المبعثرة هنا وهناك . . وقفت كأنما أتلقى الأوامر والتعليمات . . وقد كان كل متر من الأرض . . بل كل شبر ، يحدثنى عن القوة والمجد . . وكنت أرى الجيوش المحتشدة التى سارت خلف تحتمس ورمسيس والتى فتحت دنيا ذلك الزمان . . . وكنت أسمع أهازيج الانتصار وأتمثل النور الذى كان يسطع من هذا المكان . . وفى كلمة لقد بعثت . . لقد بعثت ، ولقد صرت مخلوقا جديداً ..

وعندما رقد الكل فى خيامهم ظللت ساهراً متولياً الحراسة . . وجلست حول النار أشاهد ألسنتها وهى تتقاتل وتتشاحن ويحرق بعضها بعضاً . وكانت فى يدى عصاة أخذت أعبث بها في التراب بينما كان عقلى مشغولا وروحى هائمة .. وكل شىء في نفسى يبحث خلف العلاج والحل لهذا اللغز .. ماذا . . ماذا يجب أن نعمل كيما نستعيد كل ماضينا الذهبى . ماذا يجب أن نعمل كيما نعيد الحياة إلى هذه الأطلال . . كيما نعيد الأمل إلى هذه النفوس . . كيما نبرز كل فضائلنا التي غطت عليها الرذائل . . ماذا نفعل وما هو الطريق . . نظرت إلى السماء أستمد منها الجواب . . ولكنى لم أتلق جوابا وكانت يدي تعبث بالرمال وتخط عليها خطوطا وقد أحسست أننى شرعت فى كتابة شىء . . فأكملت الكتابة وطالعت ما كتبت فاذا بها كلمة واحدة ولم تكن سوى « الأيمـــــــــــان » ..

خزان أسوان

انتقلنا وفقا لبرنامج الرحلة لزيارة مدينة أسوان . . وأسوان مدينة جميلة كالعروس . . فاجأتنا بجوها الساحر ورشاقتها وقد علمونا أن الذاهب إلى أسوان كالذاهب إلى الجحيم سواء بسوء .. عودونا أن يكون نقل الموظف إلى اسوان نوعا من العقوبة والنفى . . فلا يرسل إليها إلا موظف مغضوب عليه . . حتي لقد تمثلت اسوان في رءوسنا قطعة من الجحيم إن لم تكن الجحيم بذاته . . ولذلك فقد كان مفاجئا وكان مسعداً أن نرى كل هذا الجمال وكل هذه الفتنه . . فمياه النيل الزرقاء تنبثق على جانبها الغربى تلال صفراء ، ويتوج ذلك كله سماء صافية وشمس ساطعة فى غضون الشتاء ، إنها لنعمة وأية نعمة . ويتصل بأسوان ولا يبعد عنها بأكثر من بضعة كيلو مترات الخزان والشلال الذي أسرعنا إليه غداة وصولنا إلى أسوان . وإذا كنت لا تزال تذكر هذه الانفعالات التي طافت بنفسى وإذا كان الكرنك قد نال من نفسى الذي نال . . فقد كان تأثير خزان أسوان هو الحلقة الأخيرة التي طغت على كل حواسى وتفكيرى وقررت مستقبل حياتي نهائيا . وإذا كان الكرنك قد أشعرني الحاجة إلى الأيمان بعظمتنا كما يبعث مجد مصر القديم .. فقد منحنى خزان أسوان هذا الأيمان وأشعرنى بأننا عظماء فعلا . . وكل ما هنالك أننا لا ندرى ذلك فأن قليلا من المصريين هم الذين جاءوا إلى هذا المكان ووقفوا موقفى هذا وشاهدوا ماذا فعل أحفاد الفراعنة .. وماذا فعل بناة الأهرام والكرنك ومن حولوا مجري النيل .. فان خزان أسوان يذكرك بهذه الأمجاد البعيدة ويقربها إلى قلبك وعقلك لأنك تراها من جديد .. ياإلهى ما أعظم هذا العمل الجليل . . أن ترى مياه النيل محجوزة خلف سد شامخ لا بد لك من نصف ساعة كيما تقطعه سيرا على الأقدام .. أن ترى هذا الحائط الذى يناطح السحاب من صنع الانسان والمياه تتدفق من بعض عيونه فيصم زئيرها الآذان ..

ويملأ هديرها الأجسام ارتعاشاً ورغبا خفيا . . وهذا الزبد أشبه شيء بالقطن يغلي فيتناثر منه رذاذ يملأ أجواء الفضاء وتتسلط عليه الشمس فتتحلل أشعتها وتستحيل إلى بنفسجية وحمراء وزرقاء .. ياله من مشهد خالد لا ينساه الأنسان مدى الحياة .. لقد ظل هذا المشهد يساور أحلامى ويملأ على ذكرياتى حتي وقفته ثانية بعد سبع سنوات عند ما شرعت في القيام برحلتى خلال الوجه القبلى تلك الرحلة التى ستبقى إلى الأبد حدثاً هاما فى تاريخ مصر الفتاة .. سبع سنوات كاملة هى التى فصلت بين زيارتى الأولى لخزان أسوان وزيارتي الثانية .. ولست أدري كم سيمر على من الزمن أيضا حتى أعود من جديد لزيارة خزان أسوان .

ولقد وقفت أمام الخزان فى هذه الأيام الأولى وأنا أشاهد المياه المنحدرة من بعض عيونه في عنف وقوة وقد توارد إلى رأسى كل ما قرأته عن إمكان توليد الكهرباء من هذا الخزان .. وكنت أستعيد مايقولون فأمتليء غيظاً وكمدا لهذا الأهمال وهذا التهاون فيما يحقق الثروة والمجد لمصر .. يقولون أنه يمكن توليد الكهرباء من خزان أسوان فيستطيعون تسيير جميع السكك الحديدية فى أنحاء مصر ويوفرون بهذا خمسة عشر مليونا ندفعها سنويا ثمناً للفحم إذا ما ارتفع ثمنه قليلا .. ويقولون بل ويستطيع أن يمد القرى كلها حتى الاسكندرية بالضوء والحرارة اللازمة للأعمال الصناعية ويقولون إن هذا الخزان كفيل بأن يجعل مصر قطراً صناعيا .. إذن ما الذي يؤخرهم .. ما الذى يقعدهم .. لماذا لا يولدون الكهرباء من خزان أسوان .. لماذا يتركون كل هذه الثروة تتطاير في الهواء .. لماذا يدعون القوة والحياة تنساب إلى البحر .. ثم ينعون علينا أننا شعب فقير . . أننا شعب حقير .. أننا أمة زراعية لا تصلح للصناعة لأن الفحم لا يوجد فى بلادنا .. وهذه الكهرباء .. هذه الكهرباء التى تزري بالفحم ما بالها وعلام لا نستغلها ؟ أو ليس خداعا إذن كل ما يقصوه علينا من عجز مصر أو ليس تمويها وتغفيلا هذا الذى دسوه علينا فى كتبنا وصحفنا وعلمونا

إياه فى المدارس والمعاهد وفي كل مكان ، وأعنى به أن مصر لا تصلح للصناعة ؟ ! لأول مرة أحسست بجريمة الانجليز على هذا الشعب بمقدار ما أفقدوه كل معنويته ودسوا عليه الشك فى قدرته وقدرة بلاده .. لأول مرة أحسست بجناية الاحتلال على هذا البلد وبمقدار ما تعمل انجلترا على عرقلة هذه الأمة وتطورها إلى الأمام . . لو أنهم تركونا وشأننا لاستخرجنا الكهرباء منذ سنوات وسنوات . وملأنا الدنيا مصانع ومعاهد. ألم تكن مصر منذ نيف ومائة سنة تزخر بالمصانع التى لاتنتج الطرابيش والمنسوجات والزجاج فحسب ، بل والمدافع والذخائر والأساطيل .. ومع ذلك فها نحن بعد مائة عام من هذه النهضة يعلموننا أن مصر لا تصلح للصناعة لأن القوي المحركة لا توجد بها . . لقد عدت من زيارة الشلال ونفسى مليئة بالسخط على الاحتلال والحكومات الضعيفة وعقلى مشغول بالتفكير فيما يمكن أن تكون عليه مصر ، غدا عند ما تستطيع تحقيق هذا المشروع .

عدت من الخزان .. بل عدنا من الخزان وكيفية عودتنا تحتاج إلى تسجيل . . لأننا عدنا سيراً على الأقدام . . من الشلال حتي أسوان ولم أكن أعرف مقدار المسافة وقتذاك ولكنى عرفتها فيما بعد عند ماعاودت السير فى هذا الطريق مصحوبا برفقائي من مجاهدى مصر الفتاة . . عدنا وكان الطريق وعرا فى أحشاء الصحراء . . وكانت الشمس محرقة والرفقاء صغاراً لا عهد لهم بالسير فطلب منى رئيس الرحلة أن أنشد لهم أناشيد رمسيس ومجد رمسيس . . وأن أرتل قبل كل شيء نشيد السلامة . . والذى حفظوه من كثرة التكرار .. ولذا فقد صحت بهم هلموا يارفاق .. واحد .. اتنين

اسلمى يامصر أننى الفدا   ذي يدى إن مدت الدنيا يدا
أبدا لن تستكينى أبدا   اننى أرجو مع اليوم غدا

ولما انتهى النشيد هتفت بغيره . . حتي إذا اقتربنا من المدينة دبت

الحماسة إلى عروقنا ونفضنا عن أنفسنا مظاهر التعب والكلال . . ونظمنا صفوفنا على أبواب المدينة . . وسرنا أربعة أربعة وأخذنا تقرع الأرض بأقدامنا وقد رفعنا رءوسنا إلى السماء وارتفعت أصواتنا من جديد :

اسلمى يامصر اننى الفدا　　ذى يدى إن مدت الدنيا يدا

وعلى هذه الصورة المجيدة دخلنا أسوان منــذ سبع سنوات واجتزنا شوارعها الرئيسية فوقف النـاس على جانبي الطريق يصفقون .. وفتحت النوافذ وانطلقت منها الزغاريد .. وخيل إلينـا أننا عائدون من الحرب فاتحين منتصرين . . ياللذكرى وياجلالها ما أروعها وما أكثر تأثيرها في نفسى فلقد كانت هذه هى العناصر التي تألفت منها فيما بعد مصر الفتاة .

كوم أمبو

لم نكد نفرغ من زيارة أسوان والشلال ونستعد للعودة إلى القاهرة حتي تلقينا دعوة من أحد رفاقنا فى الرحـلة لنقل ضيافتهم في كوم أمبو ولنشاهد مزارع القصب ونزور مصانع السكر وطلمبات الرى .. ولقد قبل رئيسنا الدعوة شاكراً ونزلنا في كوم أمبو فرأينا فيها عجبا وسمعنـا ماهو أعجب .. رأينا فيها مصانع السكر الضخمة والتي لايـكاد يتصور الأنسان ضخامتها أو أن يتصور أن فى مصر صناعات بهذه الدقة وهـذا الأحكام .. وعلى الرغم من مضى زمن طويل على هـذه الزيارة فلازلت أتمثل هذه الزيارة ، ولازلت أتمثل هذه الكتلة الضخمة من الآلات والتى ترتفع فوق بعضها فى طبقات مختلفة ليصعد اليهـا الانسان بدرجات فوق درجات .. والعمال المصريون وسط ذلك كله يشرفون على أعمالهم فى حذق ومهارة ومثابرة .. ولأول مرة أري عمليـة صناعية فيأخذ بلبي تحويل المواد من حالة إلى حالة . فالقصب وهو ينظف ثم يقطع ثم يعصر .. ثم يرشح ثم يركز .. وهكذا . . وهكذا عدة عمليـات يتتبعها الأنسان في شوق

وشغف حتى يصل إلى نهايتها فيرى السكر وهو يعبأ فى الأكياس ثم يحمل إلى الخارج كيما يشحن إلى القاهرة ليكرر فى مصانع الحوامدية والتى حدثونا عن ضخامتها التي لاحد لها .. ولقد حدثونا عن الأرباح الطائلة التي تغتنمها شركة السكر .. وعن رأس المال الضخم الذي أصبحت تمتلكه والذى بدأت به صغيراً .. وهنا لأول مرة أصطدم باستغلال الأجانب للمصريين وأفكر طويلا فى دلالات ذلك ومايتطوى عليه .. ولكن المشكلة لم تأخذ شكلها الصريح إلا عند مازرنا طلمبات الري وعرفنا أسرارها .. لقد رأينا أربع أنابيب ضخمة قد ركبت على النيل، ولازلت أذكر أن المهندس الذى كان يحاضرنا أخبرنا أن هذه الأنابيب هى أضخم أنابيب من نوعها في العالم، وأنها تأخذ ١ على ٢٠ من مياه النيل فى أيام التحاريق، ولست أعرف مدى دقة هذه المعلومات وصحتها، ولكنها كانت كافية لأزعاجى ، وخصوصاً عندما علمت أن هذه الشركة الأجنبية قد وضعت أيديها على ألوف من الأطيان فى هذه الناحية بثمن تافه لا تزيد عن بضعة قروش للفدان ، وأنها الآن قد تحولت إلى أرض كأجود الأرض ، أى أن شركة كوم أمبو قد أصبحت مستعمرة أجنبية على أرض الدولة وحكومة داخل الحكومة وأن ألوفا من الفلاحين المصريين يعيشون فى حالة رق لهذه الشركة الأجنبية التى تستنزف كل مجهوداتهم فى نظير ثلاثة أو أربعة قروش لكل عامل .. لقد كانت هذه المعلومات كافية لأشعال نار الثورة فى صدرى . لماذا .. لماذا نعيش فى بلادنا فقراء وخدما وعبيداً للأجانب .. لماذا يجىء هؤلاء الناس إلى مصر بقروش قليلة فيصبحون من أغنى الأغنياء .. لماذا يسخروننا ولماذا يتحكمون فينا ويملكون علينا كل شىء ، حتي الأرض .. الأرض التى هى ملك لنا والتى نزرعها منذ ألوف السنين يغتصبونها منا .. وفى ظل الاحتلال وفي ظل الامتيازات يعرفون كيف يكبلون أعناقنا فى خدمتهم .. لماذا لاتكون هذه الأراضى ملكا للدولة .. لماذا لاتوزع على هؤلاء الفلاحين الفقراء

في أى قانون وبأى نظام وبأية شريعة يشقى أحفاد الفراعنة والعرب والذين سادوا العالم وعلموا الدنيا .. لماذا يارب يشقون من أجل الأجانب .. ويكدحون من أجل الأجانب .. وهم فى نهاية الأمر شعب منحط صغير لا يصلح الا للعبودية .. لا .. لا .. إن نفسى تثور وإن روحى تتمرد على هذا الوضع المقلوب .. ولذلك فلم أكد أدع للكلام فى حفلة أقامها لنا احمد بك مصطفى مدير الشركة حتى اندفعت أخطب .. كما خطبت على صخور الكرنك .. واندفعت أهاجم الأجانب .. واندفعت أدعو من حولى إلى معرفة حقوقهم والكفاح فى سبيل تحرير بلادنا .. وكان علينا أن نسافر بعد خمس دقائق ولذلك فقد شرع إخوانى يشيرون لى أن أنهى كلامى .. ولكنى نسيت كل شىء .. نسيت القطار ، ونسيت ميعاد السفر ، بل ولم أكن أعرف معنى هذه الاشارات ، حتى اضطروا إلى أن يحملونى حملا وأن يسرعوا بنا إلى القطار ، والذى نجحنا فى ادراكه فى نهاية الأمر ، ولم يكد يتحرك القطار حتى عدت إلى نفسى وشعرت كأنما استيقظ من حلم .. ذلك أن الحالة التى كنت فيها كانت أشبه شىء بنوبة المحموم ولم يكن يعنينى في ذلك كله إلا أنى قد خطبت للمرة الثانية دون أن أتلعثم ودون أن اتردد .. خطبت للمرة الثانيـة مرتجلا .. وإذن فقد أصبحت أعرف التحدث إلى الناس .. وأن أتحدث اليهم من أعماق قلبى وأن أنقل لهم كل أفكارى .. لقد كانت هذه بدء صفحة جديدة من صفحات حياتى

عدت من الرحلة بأفكار جديدة وآمال جديدة ومشاريع جديدة كذلك . . ولقد تطورت حياتى منذ هذه السـاعة فى ناحية الكفاح السياسى تطورا سريعا . . ولعل هذا أصدق برهان على فوائد هذه الرحلات وضرورة تعميمها وجعلها جزءا لا يتجزأ من برنامج التعليم بل والتوسع فيها إلى أقصى حد . . فيجب على كل طالب فى المدارس الثانوية أن لا يتم تعليمه حتى يكون قد زار مصر من الأسـكندرية حتى أقصى الحدود الجنوبية فى السودان .. وأن يزور أعلامها وآثارها ومصانعها وبلدانها

وبهذا وبهذا فقط ينشأ جيل جديد يعرف بلاده حق المعرفة ومتى عرفنا بلادنا أحببناها .. ومتى أحببناها فقد امتلأت قلوبنا بالحافز الذى يدفعنا للتضحية واحتمال الحرمان والعذاب، من أجل حرية من نحب، وسعادة من نحب .. ينشأ الطالب في مصر ويكبر وهو لا يكاد يعرف من أمر وطنه الا الجدران الأربعة التى تحيط بمدرسته وبيته وبعض الشوارع التى يجتازها إلى مدرسته وملاهيه فيخيل له أن وطنه ككل الأوطان .. وأن الحياة هى أكل وشرب ومنام .. وربما أزعجته كلمة الوطن والدفاع عن الوطن لأنه يرى الأمر كله ليس إلا خيالا فى خيال .. أو كما اعتاد كثير من الصبية الذين يحاولون أن يظهروا بمظهر العظمة والفلسفة أن يقولوا عنه (مواضيع انشائية) . فشباب مصر يرى الكلام عن الوطن موضوعا إنشائيا وليس ذلك الا إغراقا فى الجهل لا أكثر ولا أقل .. ولكن عندما يركب الطالب ويذرع أرض وطنه من الشمال إلى الجنوب .. وتمر به الساعات وهو في القطار والمناظر تتوالى تحت أنظاره مابين سهل وجبل ووديان ومياه وهذه كلها ليست إلا بلاده التى ينسب اليها .. عندما يسافر الساعات الطويلة ثم يدخل مدينة أو قرية فاذا بهم يتحدثون اليه بلغته وإذا بهم يرحبون به ويتبادلون وإياه أطراف الحديث فاذا ما يشغل باله يشغل بالهم وإذا بالذى يفرحه قد أفرحهم .. وإذا بالجميع وكأنهم عائلة واحدة واخوان متحابون .. هنا .. وهنا فقط سيدرك الشاب معنى الوطن الواحد والشعب الواحد ومعنى تضامن الأفراد .. وعندما يشاهد الشاب آثار بلاده التى تحدثه من مجد أسلافه وعظمتهم سوف يشعر بالفخار والعزة .. وعندما يدرك موارد الثروة فى وطنه ويزور مصانعها الكبيرة فى كل مديرية وفي كل بلد فسيقف على مقدار الحيوية التى تسري في شرايين بلاده وسيمتلىء ثقة واعتزازا بنفسه .. ووالله إن هذه هى الدراسة وهذه هى وسيلة إذكاء الوطنية والروح المعنوية لمن يريدون إذكاءها . .
فاذا كانت هذه الرحلات فى مجاميع تعيش في نظام شبه عسكرى فان

أثرها سيكون مزدوجا من حيث التأثير على الأخلاق وتكميلها . . فالحياة وسط الجماعة تعلم التعاون والأخاء والصراحة . . والعيش فى الخلاء وفى الخيام والسير على الأقدام والاستيقاظ فى وقت مبكر والنوم فى وقت مبكر كذلك . . وتحية العلم في الصباح وفى المساء ومزاولة الألعاب الرياضية كل هذه من شأنها أن تنضج الرجولة في نفوس الشباب وتفجر القوة الكامنة في أعطافهم وهى أخيرا توحد بين المشتركين فيها وتجعلهم أسرة واحدة . . هذه هى الرحلات وهذا أثرها فى تكوين الجيل الجديد وبحسبك أن تعلم أن مصر الفتاة بأسرها مدينة لهذه الرحلة التى قمت بها في عام ١٩٢٨ .. فقد علمتنى كيف أحب وطنى وكيف أمتلىء إيمانا بعظمته . علمتنى أسرار القوة الكامنة فى هذا الشعب والسبيل إلى إبعاثها . . وأخيرا علمتنى أثر الأناشيد وحياة الجماعة والنظام فى نفوس الشباب . فكان ذلك كله هو أسلحتي التى استخدمتها فيما بعد كيما أقوم بهذا العمل الذى أخذت على نفسى تحقيقه .

من تاريخ مصر

أحسست برغبة ملحة فى أن أطالع تاريخ مصر على ضوء هذا التحول الجديد فعدت إلى كتبي الدراسية والتي فيها حديث عن مصر وأخذت أربط الحوادث المختلفة . . وأستعرض الصفحات المتفرقة فى عديد من الكتب .. فاذا بى أرى ظواهر عجيبة لم تلفت نظري قبل ذلك وهى مع هذا ذات دلالات كبيرة .. فقد كنت أعتقد كما يعتقد كل طالب وكل مصرى على العموم .. أن الحضارة فى مصر ، أو بمعنى آخر العصر الذهبي في مصر ، كان قاصراً على عهد الفراعنة وأنه منذ ذلك التاريخ قضى على استقلال مصر نهائيا ودخلت فى دور المستعمرات . . وأن هذا العهد الذهبي لم يعد إلى الوجود بين ضفاف النيل ثانية .. وسرعان ماوقفت على خطئى وخطأ كل مصرى فى هذا التصور .. فقد عاد العصر الذهبي مرتين وثلاثة وأربعة ..

بل إن مصر في أغلب عصورها كانت هى دائما كما كانت في عهد الفراعنة موطن العلوم والمعارف والأديان . . فان عصر الفراعنة لم يكد ينتهى على الصورة التى نعرفها ، ولم تكد تمضى بضع سنوات على فتح الاسكندر المقدوني لمصر ، حتى أخذت مصر تعود من جديد لتحتل الصف الأول بين دول العالم . وليس ينقص من عظمة هذا التطور أن كان على رأس مصر في ذلك الوقت دولة البطالسة والذين هم من أتباع الأسكندر أى من عنصر الفاتحين .. فالتاريخ يحدثنا أن هؤلاء البطالسة قد اندمجوا فى الجنسية المصرية اندماجا عجيبا . . ودانوا بدين المصريين وارتدوا أزياءهم وتسموا بأسمائهم .. وحكموا فى عدل وقوة لخير المصريين ومجد المصريين . . ولم يترددوا في جعل كلمة مصر هى العليا وما عداها فى الدرجة الثانية من الأهمية حتي بلادهم الأصلية . . وإذن فقد أصبحوا ملوكا مصريين بالدم واللحم والتفكير . . يحكمون بالمصريين ولأجل المصريين . . وسرعان — كما قدمت — ما تبوأت مصر المركز الأول بين دول العالم . فاذا بأسطولها يتسيطر على البحر الأبيض ، وامبراطوريتها تعود من جديد فتمتد شرقا وغربا وجنوبا . . وإذا بجامعة عين شمس القديمة فى هليوبوليس فى أبان مجد الفراعنة ، والتى جاء اليها أرسطو وأفلاطون وصولون وغيرهم من فلاسفة اليونان كيما يتعلمون فيها الحكمة والفنون . . إذا بجامعة عين شمس هذه تفتح أبوابها من جديد في جامعة الأسكندرية والتى طبقت شهرتها الخافقين وجاء اليها العلماء والفلاسفة من جديد يتلقون العلم والحكمة والفنون . . ومضت عشرات الأجيال ومصر تتبوأ هذه المكانة العليا بين دول الأرض . . وعند ما جاء المسيح بعد ذلك وأصبح النزاع الروحى هو ما يشغل العالم وسكان العالم رفعت مصر لواء المسيحية على الرغم من اضطهاد الرومان وتعذيبهم . ولا زالت مصر حتى اليوم تحتفل بذكرى الشهداء الذين سقطوا تحت سيوف الرومان تمسكا بالمسيحية ولولا كلمة جاءت فى الأنجيل على لسان المسيح وهى أعطوا ما لقيصر

لقيصر وما لله لله » . لولا أن المسيح عليه السلام لم يشأ أن يقود الأمم والجماعات التي تدين بمبادئه إلى العصيان والثورة ضد الرومان بل على العكس دعا للتسامح واحتمال العذاب وترك المادة والتعلق بالروح ، لولا أن هذه كانت فلسفة المسيح والمسيحية ، لما صبرت مصر على حكم الرومان هذا العهد الطويل ، ولثارت عليه وقهرته واسترجعت استقلالها . ولكنها تأثرت بالديانه المسيحية التى حالت بينها وبين هذا النوع من الكفاح كما قدمت لك ، وهذا هو السر فى تبعية مصر للرومان طوال هذه العصور التى يذكرها التاريخ . . ولما كان الصراع روحيا فقد انتصرت فيه مصر على طول الخط وقاومت اضطهاد الرومان حتى انتصرت المسيحية واضطرت روما فى نهاية الأمر الاعتراف بها . . وإذن فمصر حتى فى هذه اللحظات التى حكمتها فيها الرومان كانت تلعب دورا خطيرا في تاريخ البشرية وأن ما جعلها ترضى بالمساس بسيادتها ليس إلا شدة إمعانها فى التمسك بدينها والزهد في مادياتها . . ولذلك لم تكد مصر تنفض عنها الدين المسيحى بدخول الاسلام اليها عن طريق العرب . . والاسلام فيه من تعاليم القوة مافيه ، حتى قامت مصر تلعب الدور الأول في تاريخ الأسلام وتتصرف فى أقداره وتذيع رسالته ولما يمض على وفاة سيدنا محمد بضع سنوات وعشر .

والتاريخ يحدثنا أن الفتنة التى ثارت على سيدنا عثمان كان قوامها مصر .. وأن المتظاهرين الذين أحاطوا بمسكن عثمان رضى الله عنه وانتهوا بقتله كانوا قادمين من مصر.. وبغض النظر عن قيمة هذا العمل واستنكارنا له ، فان الذي يهمنى هو أنه يدل على الدور الخطير الذي بدأت مصر تلعبه في تاريخ الأسلام وأنها لم تكن الكم المهمل الذى لا رأى له أو فكرة .. بل كانت الدولة القوية صاحبة الكلمة العليا فى سياسة الاسلام .. وأرجو أن تعلم إذا كنت ممن لا يعلمون أن سيدنا على رضى الله عنه قد بويع في مصر وأن المصريين هم الذين ارتضوه إماما للمسلمين . ولم تكد الخلافة القرشية يذهب ريحها ويتنكر المسلمون للخلفاء ، ويغيرون من نظرتهم التى

اعتادوا أن ينظروا إليهم بها حتى رأينا مصر فى طليعة الدول التى استقلت من جديد بشئونها ودولتها . فاذا بمصر منذ أحمد بن طولون وهى دولة مستقلة لها سيادتها وشخصيتها ، وسرعان ماصارت مصر الجيدة فى عهد الفاطميين . . بل إذا بها على رأس دول العالم طراً فى العصور الوسطى ، وإذا بالأمبراطورية المصرية تعود إلى الامتـداد شرقاً وغرباً وجنوباً ، وتبسط نفوذها على الأمبراطورية الأسلامية بأسرها ، وإذا بالعلوم والفنون والحضارة تصبغ كل شىء فى مصر ، وتؤثر على العالم بأسره ، وإذا بجامعة عين شمس التى تقمصت يوماً ما ، جامعة الأسكندرية تظهر من جديد للمرة الثالثة في ثوب جامعة الأزهر .. مشعل النور والهدى في العصور الوسطى .. وبينما كانت أوربا تعيش فى دياجير الظلمات . . وبينما كان العالم الأسلامى تأكله الفتن والمحن والويلات . . كانت الجامعة الأزهرية موئل الوافدين من أطراف العـالم الأسلامى لتلقى رسالة الأسلام . . ولم يكن الأزهر جامعة الدين فحسب . . بل كان الجامعة التى حفظت علوم العرب بأسرها ، فدرسوا بين جدرانه الطب والـكيمياء وعلوم الهيئة والفلك ..

ورأيت بعد ذلك مصر وهى تقف فى وجه أوربا بأسرها فى الحروب الصليبية وتهزمها . . وتكسرها شر كسرة سواء فى ميادين الشـام ، أو فى الميادين المصرية بالذات ، عند ما فكروا فى الأغارة على مصر . . وإذا كانت أوربا قد نهضت من ظلمات العصور الوسطى فقد كان الفضل فى ذلك راجعاً إلى هذه الأيام التى احتكت فيها بمصر والحضـارة العربية فاقتبست منا العلوم والفنون والمعارف . . وهكذا بدا لى تاريخ مصر سلسلة متصلة من الفتوحات والانتصارات الأنسـانية بصفة خاصة : أعنى فى عالم المدنية والحضارة . . ورأيت كيف استطاعت مصر أن تفنى جميع غزاتها وأن تنتصر عليهم في نهاية الأمر ، بعد أن تحولهم إلى مصريين في الدم واللحم والتفكير . . وكيف دالت دول العـالم وتألفت امبراطوريات وسقطت امبراطوريات وبقيت مصر . . هى . . هى دائماً قلب العالم النابض ومصدر

علومه وثقافته فى أكثر الأحيان .. ولا عبرة بتغلب بعض المغيرين من حين لآخر عليها . . إذ لا يرجع ذلك إلا لأن مصر قد استيقظت فى فجر التاريخ قبل تكوين هذه الدول بأسرها ، ولم يكن معقولا ولا طبعيا في شيء أن تبقى طوال أربعة آلاف سنة سيدة العالم وزعيمته .. فالشعوب كالأنسان عرضة لتقلبات الصحة والمرض . . وكما يصاب الجسم بضعف من حين لآخر بتعطيل في بعض أجهزته فكذلك الأمم . . وهكذا كانت مصر عرضة بين حين وآخر لهذه النوبات التى يضعف فيها جسدها ، فتكون محلا عندئذ لسطوة مغير.. ولكنها كانت تبادر سريعاً باسترداد عافيتها ، وتقوم بدورها الذى عرضته عليك .. ومن عجب أن هذه الأمم التى أغارت على مصر، لم تكن مصر هى أولى ضحاياها ، بل كانت تجيء دائماً في النهاية . . فعندما فتح الأسكندر مصر لم تكن مصر أول ما فتح ، ولكنه جاء إليها بعد أن فرغ من أوربا . . وإذا كان الرومان قد دخلوا مصر فقد دخلوا إليها بعد أن حكموا البحر الأبيض بأسره واحتلوا انجلترا ذاتها .. وإذا كان العرب قد دخلوا مصر غزاة بعد ذلك ، فقد فتحوا الدنيا بأسرها .. وهكذا . . أى أن مصر لم تكن كما يحاول المستعمرون أن يصوروها لنا ذليلة حقيرة .. بل على العكس تغلبت مصر على بعض هذه الدول الجديدة التى مدت ظلها على العالم . . ولقد جاء دور مصر أكثر من أربع أو خمس مرات فمدت ظلها على امبراطورية واسعة الأرجاء .. مع أن هذا الأمر لم يتكرر فى حياة غيرها من الأمم .

على أن الذى أثر في نفسى أكثر من غيره من تاريخ مصر، هو تاريخها أيام محمد على ، الذى كان مقرراً علينا دراسته فى هذا العام الدراسى . . فقد عدت من رحلتى وكان على أن أستذكر تاريخ مصر في هذه الأيام .. ولقد دفعنى شغفى إلى حد أن لا أقنع بهذا المختصر الذى كان يقدم لنا عن تاريخ مصر في عهد محمد على . . فرجعت إلى كثير من المطولات . . ورأيت في ذلك كله العجب العجاب . . رأيت كيف وثبت مصر وثبة سريعة

في مستهل القرن التاسع عشر. ولم يزد عدد سكانها عن ثلاثة ملايين. ومع ذلك فقد أصبحت امبراطورية ضخمة ذات جيش يهزم الأتراك (أسياد الحروب في أوروبا) وذات أسطول يحول البحر الأحمر إلى بحيرة مصرية ، يسود شرق البحر الأبيض المتوسط .. فاستطاعت مصر أن تخيف أوربا مجتمعة فتتحالف عليها، كما تحطم الأسطول المصرى بخدعة دنيئة ، في موقعة (نفارين) وكيف استطاعت مصر بعد ذلك أن تجدد بناء هذا الأسطول بأيد مصرية ، وفي موانىء مصرية . . ولقد كانت أياماً عجيبة بهرت فيها مصر العالم . . فقد بدأت مصر نهضتها فى وقت لم تكن اليابان قد نزلت إلى ميدان الجهاد بعد .. ولم تكن الولايات المتحدة وحدت صفوفها بعد .. ولم تكن ألمانيا الحديثة وإيطاليا الحديثة ، قد خرجتا إلى الوجود كأمم مستقلة موحدة .. ففى تلك الأيام لعبت مصر هذا الدور الخطير ولولا انجلترا . . لولا انجلترا عدو مصر اللدود لكنا اليوم نعيش في أضخم امبراطورية . . ولكن انجلترا نجحت فى تأليف كتلة من الدول الأوربية ضـد مصر ، فاذا بنا فى معاهدة سنة ١٨٤٠ ، نجرد من ثمار انتصارنا الذى حصلنا عليه بدمائنا وأموالنا وإيماننا .. وإذا بمصر المنتصرة فى نصيبين .. مصر ذات الجيوش والأساطيل والمصانع والمعاهد . . تقف غداة انتصارها كما تجرد من كل شيء حتي الشرف .. شرف الاستقلال التام ، وليس ذلك إلا بعمل انجلترا التي أرادت أن تثأر لنفسها من مصر التي طردت جيوشها في سنة ١٨٠٧ وقذفت بها إلى البحر . كما أرادت أن تمهد لابتلاع مصر فى المستقبل ولم يكن ممكنا أن تتغلب مصر على أوربا مجتمعة .

لقد كانت هذه الحوادث بعيدة الغور في نفسى .. ولقد ملأتنى بالمرارة والغضب وجعلتنى أشعر بمقدار الظلم الذى نعانيه . . فنحن أسياد العـالم قديماً .. نحن الذين علمنا الأنسانية العلوم والنور .. نحن الذين حملنا مشعل الحضارة ، تقف فى مؤخرة الأمم بفعل انجلترا التى حطمت امبراطوريتنا التى شيدناها وسلبت استقلالنا الذى ظفرنا به بجهادنا ثم نلقن بعد ذلك فى المدارس

والمعاهد وفى كل مكان أننا أمة صغيرة ضعيفة ذليلة فقيرة . . لا . . لا . . إننى أثور على ذلك وأتمرد عليه . ويجب أن تزول هذه الغشاوة عن أعين المصريين . . يجب أن يعرفوا أنفسهم على حقيقتها . . يجب أن نقضى على الجهل بتاريخنا ، ويجب أن تعاد كتابة تاريخ مصر وأن تطهر الأذهان من هذه المفتريات المجرمة التى حشرها الاستعمار فى رءوسنا حشراً .

ولذلك فقد جعلت أول خطوة في برنامجى أن أذيع الحقائق من تاريخ مصر، وأن أظهر صفحات مصر المجيدة، وعلى هذا فلم أكد أنتهى من إلمامى بتاريخ مصر فى أطواره المتعددة ، حتي أعددت محاضرة في هذا الموضوع ، وطلبت من لبيب بك الكرداني ناظر المدرسة :أن يسمح لى بألقائها فى مسرح المدرسة فسمح بذلك ، فدعوت لحضورها المدرسين والطلاب . . ولأول مرة وقفت أحاضر فى تاريخ مصر كما أفهمه ، فامتلأ المستمعون بالحماسة والنشوة ، ونجحت المحاضرة نجاحاً عظيما . وسرعان مابدأت أعرف مقدار ما تفعله هذه الحقائق عن تاريخ مصر من الأثر فى نفوس الشباب !.

فزاد إيماني بهذا العلاج !. ودأبت على استعماله بعد ذلك فى كل خطبي وفى كل أحاديثى . . وسوف يرى القارىء فى مجموعة الخطب والمقالات التى ستأتى في هذا الكتاب ، والتى ألقيتها فى إبان اثنتى عشرة سنة ، انه لم تخل خطبة واحدة من الأشارة إلى هذا التاريخ المجيد . . ذلك لأننى مؤمن أن نصف قضيتنا يحل متى عرف كل مصرى قدر نفسه ، وآمن بقدرته على العمل . .

△△△

التمهيد لمصر الفتاة

— ٢ —

لم أكد أفرغ من تحليل عناصر القوة فى تاريخ مصر، حتى اتجهت إلى تحليل عناصر الضعف فى مصرنا الحاضرة .. ولقد راعنى أول ماراعنى، ماسبقت إشارتي إليه، وأعنى به الجهل فقد كان الجهل يجابهنى دائماً أبداً كلما حاولت أن أتبين السر فى مسألة من المسائل .. فهنــاك تدهور دينى مصدره الجهل بتعاليم الاسلام الصحيحة .. وهناك تدهور وطنى مصدره الجهل بتاريخ الوطن وقيمته .. وهناك جهل بحقوق الناس بعضهم لبعض، فالجهل في جميع مظاهره هو أول ماروع الانسان الذى يحاول أن يدرس مصر الحاضرة!. ولست أعنى بالجهل قلة انتشار التعليم والمدارس .. فليس هناك ماهو جدير بالزراية والاحتقار من هذه المدارس الثانوية والابتدائية التى تفتحها الحكومة ! .. وان أردت أن تعرف من هم أجهل الطبقات فى مصر فصدقنى أنهم الذين ينعتون أنفسهم بالمتعلمين .. ممن دخلوا المدرسة فى مصر وهم أجهل الجهال، وخرجوا منها بالقشور .. بعد أن فقدوا فيها غريزتهم السليمة فى فهم الحقائق، واستعاضوا عنها بذاكرة مشوهة محشوة ببعض معلومات متناثرة لايربطها منطق ولاتوحى بها منفعة .. خذ مثــلا هذا العامى البسيط أو الفلاح الساذج واسأله عن مصر ومكانتها فانه سرعان مايجيبك بأن (مصر هى أم الدنيا) ولقد رأيت كيف أن هـذا الجواب صحيح وأنه ثمرة الاحساس بعظمة مصر وجغرافيتها .. ثم سل المتعــلم بعد ذلك عن مصر فسيقول لك إنها بلاد لاتصلح لشىء فرض الله عليهــا العبودية والذل إلى الأبد، وأننا شعب (زلط) وأننا لا نفلح في شىء !. وهكذا ..

تعال إلى العامى أو الفلاح وناقشه في إحساسه بشخصيته بالقياس إلى الأجنبي فستستشعر منه اعتزازاً بنفسه بالرغم من كل شىء، وتدرك منه حاسة

النفور من كل ماهو أجنبي ، ومن كل ماهو انجليزي بصفة خاصة ، وهذه غريزة متأصلة في نفسه .. أماهذا الذى تلقى التعليم فى المدارس ، فسوف ترى منه احتراما لكل ماهو أجنبي ، وسوف تري منه احتقاراً لنفسه وجنسه واكباراً للأجنبي وأزومته . فالأمة المصرية فى مجموعها سليمة من هذه الناحية فاذا حدثتك عن الجهل ، فلست أعنى به قلة المدارس والتعليم الالزامى فان إيمانى بهذا التعليم قليل . وإنما أعنى بالجهل .. الجهل الذى تشترك فيه الجماعه . . فلقد ساد العرب الدنيا بايمان وأخلاق !. وكذلك الرومان وكذلك الانجليز وعندما انتشر التعليم في جميع هذه البلاد مصطحبا معه الترف والاسراف اضمحلت هذه البلاد وانحدرت نحو الهاوية .. فالعلم الذي أعنيه هو العلم الجماعى لا العلم الفردي .. بمعنى أن يكون الشعب في مجموعه يعرف لنفسه حقوقاً مقررة لا يمكن المساس بها .. وبمعنى أن يكون للشعب مثلا أعلى يسعى للحصول عليه . . وبمعنى أن يكون الشعب بأسره على بينة من بعض الحقائق فى تاريخ بلاده .. وفى طبيعة بلاده .. وبمعنى أن يكون الشعب على بينة من روح دينه وقواعده . . فالدين الأسلامى الذي بنى على العزة والقوة والجهاد ، يعرف فى مصر على أنه استسلام وركود وجهل وهكذا !. فأعدى أعدائنا فى مصر الجهل .. الجهل بديننا .. الجهل بوطننا الجهل بأنفسنا . . الجهل بحقوقنا . . وإذن فلا مناص من تعليم الشعب هذه التعاليم ولست أشك لحظة في مقدار الخطوة التى نخطوها إلى الأمام بأحلال العلم محل الجهل السابق الذكر .. ويروعنا بعد ذلك أكثر مما يروعنا ، فقر الأغلبية الساحقة من المصريين !. فأكثر من ثلاثة عشر مليونا يعيشون عيشة الضنك وهم جمهرة الفلاحين ، مع أنهم يفلحون الأرض وينتجون الذهب .. ومع أن النيل كان دائماً سخياً وفياً لأبنائه وأحفاده ولقد أنعمت النظر طويلا في ذلك فعرفت السر فى كل هذا الفقر ، فهو ناجم عن سوء توزيع الثروة ، فبينما يحتكر الأجانب جميع رءوس الأموال ، وكل تجارة مصر الخارجية ويداينون مصر هذا الدين المشئوم ، الذى هو أقرب

إلى الديون غير المشروعة، التي يجب على الدولة أن تلغيها بمجرد استيقاظها !
والأراضى المصرية مرهونة للأجانب !. وفى ظل الامتيــازات يضمن
الأجانب لأنفسهم التفوق المالى والاجتماعى .. وهـذا ماجعل المصريين في
هذا الفقر المدقع إذا ماقيسوا إلى الأجانب .. وبجانب ذلك تضع الحكومة
يدها على جانب كبير جداً من الأراضى الزراعية قد يزيد على مليون فدان
وهى تستغله أسوأ استغلال ، بينما لو وزعت هذه الأراضى على صغار المزارعين
لعادت على الدولة بفوائد جزيلة، ولأغنت الكثيرين وأنقذتهم من هـــذا
الفقر المميت .

وهناك طائفة من الموظفــين ، تستولى على مايقارب نصف
الميزانية وبينهم عشرات الألوف من صغار الموظفين يتضورون جوعا !.
بينما مئات من كبـــارهم يأكلون الذهب . . فالثروة في مصر موزعة
توزيعاً سيئا . . والأجانب يستولون على كل غنائمها ، والفلاحون فقراء ..
فحياتنا الاقتصادية إذن مهشمة كل التهشيم !. ولامناص من بذل جهد كبير
لأصلاحها .. بل ولامناص من البدء باصلاحها .

وفوق ذلك كله افلاس روحى وخلقى، فأحكام الدين قد نبذت ظهريا
في جميع أنحاء مصر ! . خاصة فى المدن والعواصم !. وفى صفوف المتعلمين
والحكام . . فانتشرت دور الخمر واللهو الحرام وجميع صنوف الموبقات !
وضعف الوازع الدينى وكثر التظاهر بالألحاد ، والكتابة في الهجوم على
الدين ، حتي لقد أصبح ذلك طريقة للشهرة والتظاهر بالعلم .. وأصــبح
التقاطع والتنابذ والحقد والحسد من مظاهر الحياة المصرية . . وقد جر
التدهور الدينى تدهوراً خلقياً بطبيعة الحال ، فاذا بالفوضى الخلقية تعم كل
مكان . . فالمحسوبية وملء الوظائف بالأشياع السياسيين والمناصرين، وإغداق
المرتبــات الضخمة عليهم ، وإهمال الأكفاء وانتشار الرشــوة والاتجار
بالأعراض والتملق للرؤساء والعبث بالقوانين والاندفاع مع الشهوات، أصبح
طابع الأداة الحكومية وموظفى الحكومة وحكامها!. ثم انتقل منها حتى
عم جميع الطبقات خاصــــة ذات الأثر فى حياة مصر السياسية .

وهناك في نهاية الأمر الاحتلال الانجليزي!. وإصبع الانجليزي في السياسة المصرية التي أضعفت كل مقاومة، وحطمت وحدة الأمة، وخلقت العديد من الأحزاب، ولوحت بالمناصب والرتب، لكل من يكون في خدمتها.

وهكذا حيثما قلبت الطرف في أي مكان لاترى إلا آثار التدبير الخلق والسياسي والاقتصادي والثقافي، وهذا هو ما جعل القلوب تمتلىء يأسا وشكا في إمكان النجاح والوقوف على الأقدام بين دول العالم .. ولقد نسى كل مصري حوادث الأمس القريب، وأعنى بها حوادث ثورة ١٩١٩ وحسبوها فلتة من فلتات الطبيعة لا أمل في العودة لمثلها.. والواقع أن حاضر مصر يبدو غريبا بالنسبة لماضيها .. بل ويبدو منقطع الصلة لأول وهلة، ولكن إيماني بدأ يتغلب على كل هذه المظاهر، وبدأت تظهر أمام عيني أنها ليست بعيدة الغور، وأن الحيوية المصرية لا تزال سليمة في انتظار من يحركها ويبعثها، وأن شيئا من الصبر والثبات والارادة كفيل بتحقيق كل مانصبو اليه !.

ولقد كان مقرراً علينا في ذلك العام لامتحان البكالوريا أن نعيد دراسة تاريخ القرن التاسع عشر، مضافا إلى تاريخ محمد على .. وتاريخ القرن التاسع عشر طافح بأخبار النهضات الحديثة وأحاديث الثورات والكفاح، ففي ايطاليا مثل مافي المانيا مثل مافي بولندا مثل مافي ايرلندا، استمر الكفاح عنيفا حتى كلل بالنجاح !.. ولم تكن دولة من هذه الدول التي ظفرت باستقلالها ووحدتها باسعد حالاً من مصر! فقد كانت فريسة قوات ضخمة وظروف سيئة !. ومع ذلك فان الكفاح المتواصل والايمان العميق فدأدى دائما إلى النجاح !. ولقد أثر في نفسي بصفة خاصة كفاح إيطاليا .. ويظهر أن هذا الشعب يقترب إلى حد ما من الشعب المصري، قد أعجبتني هذه العبارات التي تفيض إيماناً وحماسة، والتي ملأ بها مازيني صدور الشباب الأيطالي، وهزت نفسي هزاً، حملات جهاده من أجل ايطاليا الفتاة، الذي كان من مميزاته تأليف الوحدة الايطالية.

وليست مصر بأقل من هـذه الدول .. وليس الشعب المصري بأقل من هذه الشعوب واذن فالى العمل .. وإلى العمل فى صبر وثبات وإيمان.

هكذا بدأ العزم يملأ نفسى، وبدأت خطوط الكفاح الأساسية ترتسم أمام عينى ، وبقيت الخطوة الأخيرة ، خطوة التقدم للعمل ولكن هـذه الخطوط لم تتخذ إلا بعد أربع سنوات بعـد أن ختمت دراستي العاليـة وخرجت من مدرسة الحقوق ، أى فى عام ١٩٣٣ وان كانت جهودى منـذ سنة ١٩٢٨ حتى هذا التاريخ الأخير سلسلة أعداد وترتيب وتمهيد ، كيما أخطو هذه الخطوة الأخيرة .. فقبل أن أغادر الخديوية ، وفى أشهرى الأخـيرة بها شرعت أكتب سلسلة من المقالات تحت عنوان « رسالتى » وضعت فيها بذرة مصر الفتاة الأولى ولو أنك رجعت إلى هذه المقالات الآن لعلمت اننى فيما كتبته بعد ذلك طوال ثمانية عشر سنة لم أخرج عن ماكتبته فى هذه المقالات (١)

---

(١) رسالتى : من مقالة نشرت فى مجلة المدرسة الخديوية .. العدد الأول .. العـام الثامن فى أول ديسمبر سنة ١٩٢٨ .

نظرية واحدة تسود العالم من أقصاه الى أقصاه ، عبر عنها الفيلسوف الألمانى « نيتشه » بصراحة اذ قال « الأرض ارث القوى والمستقبل للشعب الظافر وللصـالح وحده حق الحياة » فى هذا الصراع المخيف حول الموت والحياة .. فى هذا السباق الذى تشترك فيه كافة المخلوقات تتقدم مصر العتيـدة كأمة قوية خالدة ماخلدت الأيام . فمن بين أمم الأرض طرا لاتوجد واحدة تضارع الأمة المصرية . هاجتها عاديات الدهور فما استطاعت أن تنال منها ، وحاربتها الأقدار فارتدت عنها مخذولة واحتملت مصر التجربة بثبـات وخرجت من الأعاصير ملؤها الحياة والفتوة تعلن إلناس أنها معيدة مجدها القديم . ماواجبنا نحن الطلبة .. تلك هى رسالتى وذلك هوندائى ، ألا أننا شباب حرمهتنا العمل للمستقبل القريب تعالوا نبني بناء جديداً .. تعالوا نشيد عظمتنا المستقبلة على أساس من الفولاذ مما تبنى عليه الأمم . الصناعة والتجارة مدنية القرن العشرين وروح الأمم الحديثة . أن اليوم الذى لا نلبس ولانشرب ولا نأكل فيه من الخارج يجب أن يكون جد قريب وفي

على أن تطوراً سريعا قد حدث عقب هذه الأيام ، فى نشوة الحماسة التى ملأتنى فجأة وقتذاك ، فلم أكد أحصل على البكالوريا ، حتى كانت وزارة محمد باشا محمود فى الحكم ، وكان محمد باشا محمود قد عاد إلى مصر بمعاهدة تفضل جميع المعاهدات السابقة عليها ، وكنت أصبو إلى أن تتمتع مصر بشىء من الاستقرار الحزبى والحرية السياسية حتى نتمكن فى ظلها من الاندفاع فى تنظيم شئوننا الاجتماعية والاقتصادية والخلقية ، تمهيداً للقيام بالثورة الكبرى ! . التى أعنى بها تحقيق مجد مصر وبعث امبراطوريتها العتيدة . ولذلك فلم أتردد عندما عرض على بعض المتصلين بمحمد باشا محمود ، أن أعمل لمناصرة المعاهدة ، والدعوة لقبولها ، على أن يشرع محمد باشا محمود ، إذا ماقدر للمعاهدة النجاح فى تنفيذ برنامج مصر الفتاة .. ولقد كانت طلائع الحال لاتجعل هذا الأمر مستحيلا ، فلقد كان لوزارة محمد باشا برنامج إصلاحى بالذات ، وإذن فمن الممكن اكماله بحيث يشمل نواحى الاصلاح الاجتماعى والخلقى والاقتصادى فى ظل المعاهدة .

وقد ألفنا لهذا الغرض جمعية صغيرة اطلقنا عليها اسم « جماعة الشباب الحر » . ولقد كان من حظى أن خطبت فى حضرة محمد باشا محمود ، بمجرد عودته فى نادي شباب الأحرار الدستوريين ، ولم أتردد في أن يكون خطابى

هذا يجب أن نعمل ان أردنا حقا مجد الوطن . الأخلاق هى التي تجعل الانجليزى محترما فى كل مكان . وهي التى تجعل الألمانى يمتلىء من الرجال . فى المقال التالى ترون صورة لأخلاقنا . ترون الغرور والجهل والسفسطة . فى اصلاح هذه الأخلاق يجب أن نعمل ان أردنا حقا مجد الوطن . فلنحارب الخزعبلات والعقائد الفاسدة . فلنبشر بعظمة مصر ومجد مصر وتاريخ مصر فلننشد (بنك مصر) و مشروعاته وشركاته فى هذا رفاهيـة لأهل الوطن .. فلنناصر التجـديد الاجتماعي والخلقى والأدبى والاقتصـادى.. ولنبذر بذور الاصلاح فى كل مكان حللنا به .

قالوا قديما ومازالوا يقولون حسب الأمة التى تريد الرفعة والسؤدد أن يقوم أفرادها بواجباتهم كل فى دائرة عمله .. التاجر فى متجره والصانع فى مصنعه والموظف فى مكتبه والطالب فى معهده .. تلك هي رسالتى وذلك هو ندائى

محتويا على عناصر إيماني ووجهة نظرى ، وانى أثبت هنا الذكرى والتاريخ بعض فقرات من الخطاب المذكور كما نشر فى جريدة السياسة فى عددها الصادر فى أول سبتمبر سنة ١٩٢٩ وهى :

ياصاحب الدولة

بينما كان العالم يعيش فى دياجير الظـلام وكان الأنسان يساكن أخاه الحيوان ، كانت على ضفاف النيل مدنية هى أم المدنيات ، وحضارة معجزة ، فمنذ ستة آلاف سنة كان المصريون يبنون الأهرام ويحنطون الأجسام ويبرعون في سائر العلوم .

هذه هى مصرنا يادولة الرئيس . وهى الجامعة التى تلقن فيها الأغريق والرومان علومهم ، فألى عين شمس جاء أفلاطون ، وصولون ، وليكرغ ، وغيرهم ليتلقوا الحكمة عن المصريين .

وهى مصرنا يادولة الرئيس التى أنقذت العـالم بأن وقفت أمام سيل التتار الذى اكتسح طريقه من أقاصى الهند إلى مصر .

وهى مصر يادولة الرئيس التى خرجت في أيام محمد على من الظلام إلى النور ومن العدم إلى الحيـاة ، فوقفت أوربا فى طريقها وطريق آمالها .. مصرهذه تريد أن تنهض وأن تسترد مركزها القديم بين دول الأرض ، ولن تصل إلى ذلك بهتاف الرعاع فى الشوارع ، ولا بالخطب تلقى من فوق المنابر ، ولكن بالعمل والعمل وحده ، فهى في حاجة إلى الزعيم العامل ، وهذا الزعيم العامل لن يكون من دم تركى أو شركسى بل من دم فرعونى تنساب فيه كريات رمسيس ومينا ... » الخ

هذه هى بعض الفقرات التى ألقيتها أمام محمد محمود باشا ، وأنت واجد فيها نفس العبارات والأفكار التى لم أخرج عليها حتى الآن ، فهى فكرة واحدة تلك التى تملأ حياتى وتملك على مشاعرى ، وأعنى بها بعث مجد مصر وتحقيق عظمة مصرنا بأسرها .. وليست حياتى إلا سلسلة متصلة الحلقات من العمل فى هذا السبيل .

على أن وزارة محمد باشا محمود لم تلبث أن سقطت ! . وسقطت معه معاهدته ، ولكنني ظللت ماضيا فى طريقى . . فلم أكد أدخل إلى الجامعة ويلحق بى أخى فتحى رضوان ، حتى فكرنا فيما يجمع الشباب ويوحد أفكارهم ، ويدفع بجهادهم إلى ميدان جديد هو ميدان مصر الفتاة ، فدعونا إلى الاحتفال بـ ١٣ نوفمبر على أسلوب جديد ، وهو أن نجتمع فى سفح الأهرام ونقيم به معسكرا نبيت فيه ليـلة العيد المذكور ، وفى الصباح نحيي العلم وننزل إلى المدينة . . ولقد نفذنا المشروع فحصلنا على الخيام وأقمنا المعسكر ، ولكن لم يوافنا فى المعسكر إلا نفر لم يتجاوز عدد الأصابع ، وهكذا لم تكن البيئة مستعدة وقتئذ لقبول هذه الروح الجديدة . . ولقد انقضى على هذا التاريخ سبع سنوات قبل أن أرى تحقيق هذا المشروع ، عندما اجتمع مندوبو شعب مصر الفتاة في عامها الثالث فى سفح الأهرام ، واحتفلنا بالعيد كما سترى ذلك فى متن الكتاب

لم ينقض العام المذكور قبل أن نقوم بمحاولة جديدة لنشر مبادئنا ، فاتفقنا مع أحد معارفنا للحصول على رخصة جريدة ، واخترت لها اسم البعث فاذا هواسم لجريدة أخرى فاختارأخى فتحى اسم الصرخة ، فكانت الصرخة التي ستبقى إلى الأبد علما على مصر الفتاة ، وسجلا لوقائعها ، وإذا كان الناس لم يسـمعوا عن الصرخة مقترنة بمصر الفتاة إلا فى اكتوبر سنة ١٩٣٣ ، فان الصرخة فى الواقع قد صدرت أعدادها الأولى في مارس سنة ١٩٣٠ ، وكانت تحمل فى صدرها وفى ثنايا سطورها هذه المبادىء والأنظمة التى أخذت شكلها النهائي وأعلنت رسميا بعد ذلك بأربع سنوات تقريبا . .

فقد نشرت الصرخة فى عددها الصادر في ٧ مارس سنة ١٩٣٠ مقالة عن مصر الفتاة تحت عنوان « طريقنا إلى العظمة » . وقد جاء فى هذه المقالة بعد مقدمة تخيلت فيها أن جموع شباب مصر الفتـاة قد اجتمعت حول الأهرام لتدرس الوسائل التى يجب عليها انتهاجها لبعث الحياة في مصر ولاعادة مجدها القديم — ما يأتى .

أنظر .. أنظر وحدق النظر ، فهذا هو العلم المصرى يرتفع فوق الاهرام وسط هذه الموسيق والأناشيد ، وهاهي الجموع ترفع يدها بالتحية ، حتى اذ وصلت القمة دوى النفير. وانطلقت الصرخة الكبرى التى تناثرت لها الرمال وتفتت الصخور.

المجد لمصر

تلك صرختهم وهذا ما اجتمعوا لأجله . انهم شباب مصر الناهضة جاءوا من أقصى الصعيد حتى الاسكندرية ، جاءوا من الأكواخ والقصور ليجتمعوا في حقل المجد ، تحت سفح الاهرام الخالدة ، جاءوا كلهم ارادة وعزيمة ، ليقوموا بالمعجزات فى سبيل الوطن. فلنسمع ماذا يقول لهم الشاب الذى تقدم بجانب الصارى ! .

« ياشباب النيل ويابسلالة الفراعنة ، يا أحفاد المجد ويا أرباب العبقرية . هذه الاهرام تظلنا وهذا أبو الهول يرمقنا ، وهذه الراية ترف فوقنا ، وهاهى الشمس تلهب نفوسنا كلها ، تسألكم لماذا تخليتم عن الزعامة بين الأمم . هل كلالم أو أصابكم الملال ؟ .. أم استسغتم طعم الذلة والهوان .. فدوى صوت الجموع لاجيا صارخا .. كلا والنيل والاهرام ، سنعيد المجد وندرك أسباب السماء .

فصاح الشاب ثانية . وماذا أنتم فاعلون .

فاندفع الجميع ينشدون .

سنكرس حياتنا لأجل مصر .

سنبذل أرواحنا فداء لمصر

سنعلم الطفل والفتى والكهل ان يحب مصر

في كل صباح وظهر ومساء سنتغنى بمجد مصر

خفتت أصوات الجموع ، فعم السكون السكون ، وعاد الشاب يتكلم (اذن هلموا الى المدينة نسير فيها بموسيقانا وأناشيدنا ، هلموا نكهرب جو القاهرة بأنفاسنا وعزماتنا وليعد كل منا بعد ذلك الى عمله وجهاده فى سبيل مصر) فاصطف الشباب جماعات وكتائب وانحدروا من الاهرام وساروا فى الطريق تتقدمهم الموسيقى وترتفع عقائرهم بالغناء يحمل كل منهم مشعلا موقدا رمز النور الذى سينبعث من مصر ا.

وعندما وصل الجيش الي القاهرة ودوت أناشيده فى سمائها رجعتها النوافذ والأبواب ووقفت المركبات والسيارات وكلها تصيح

المجد لمصر

أسمعت ذلك كله ورأيته أيها الرفيق . . تلك هي مصر الفتـــاة وهذه هي الميليشـيا الفرعونية .

بهذه الطريقة استقلت الممالك وارتقت ، ومن قبل كانت ايطاليا الفتاة وبولندا الفتاة والمانيا الفتاة وايرلندا الفتاة وتركيا الفتاة.. وكل أمة أرادت استقلالا أونهوضا أو مجداً اتبعت هذا الطريق ،طريق الشباب الملتهب بحماسة الايمان !.

فما أحرانا بتكوين مصر الفتاة لتعيـد لمصر بهجتها ومجدها !.

***

هذا هو الصوت الأول من أصوات مصر الفتاة في صورتها الأخيرة ولـكننا لم نستطع أن نستمر فى مواصلة إصدارالصرخة لسبب صغير جداً ، وهو أننا لم نجد موزعا يوزع الجريدة،ومن ناحية أخرى فقد رأى صاحبها أن يستقل بأصدارها بعيداً عن مبادئنا وبرنامجنا ،واقترب ميعاد انتهاء السنة الدراسية وشغلتنا الامتحانات . وفى الصيف نفذت مشروعاً كان يخالجنى منذ ثلاث سنوات، وهو زيارة باريس ومشاهدة أعلامها ودراسة الحضارة والنهوض الأوربى،فجمعت من الأموال مااقتصدته طوال هذه السنوات،وماأعاننى به أخي فتحي رضوان ،وسافرت إلى باريس على ظهر أحدى المراكب، ولقد كان عالماً جديداً ذلك الذى فتح أمام باصرتى فقد رأيت مظاهر النهوض والقوة . . رأيت حيوية الشعوب كيف تتجلى وكيف تستثمر . . رأيت ماذا يمكن أن تفعله يد الأصلاح والنظام فى تجميل الحيـاة وجعلها أكثر منطقاً .. على أن الذى هزنى أكثرماهزنى هوقوة الشعب ، وإحساس كل فرد بشخصيته وحريته وقوة رأيه وعقيدته !. راعنى كيف تقف الحكومة نفسها فى خدمة المجموع فعلا . . وكيف تعتمد وتستمد قوتها من العمل لخير المجموع وسعادة الفرد . . على أن إيماني بمصر قد زادا كمالا ، فقد أحسست بقوة أننالا يمكن أن نقل عن هؤلاء الأقوام، وأن شعبنا لا تنقصه المواهب والـكفاءة التى تؤهله لمنافسة هذه الشعوب والارتقاء عليها !.. بل كل مشكلته أنه بقى محروماً من الحاكم الصالح والزعيم الصالح،فلم يتطور التطور الطبيعى ووقف حيث سار الناس . . لم يسـتطع الفرنسيون مطلقاً أن يقنعونى أن لهم جوهراً يخالف جوهر المصريين وأننا أعجز من أن

تحقق مااستطاع الفرنسيون أن يحققوه . . بل بالعكس زدت إيماناً بقوة شعبنا ، إذا ماشرع في التطور تحت قيادة زعيم مصلح .

وثمة أثر آخر تركته في نفسي زيارة باريس في ذلك العهد، وهو تزعزع ثقتي بالمدنية الغربية في مظهرها المادي ،وشعوري بأن هذه القواعد المادية الألحادية التي لاتعترف بحق أوفضيلة أو دين أو عرف أوتقاليد لن تنتهي إلا بنتيجة واحدة ، هي تدمير أوربا شر تدميرا. ولقد كان هذا فيا بعد مبدأ أساسياً من مبادىء مصر الفتاة ،التيقامت على التمسك بكل ماهو مصري وشرقي، واحتقار كل ماهو أجنبي ،والتعصب للمصرية والأسلامية،حتى آخر حدود التعصب فقد امتلأت إيماناً بأن هذا هو الأسلوب السليم لأنهاض مصر وإنقاذها من التردي في الهوة التي تتردي فيها أوربا ! . أجل إن في أوربا وفي شعوب أوربا بعض الفضائل وبعض المظاهر الطيبة ،ولكن من العجب أن كل هذه الفضائل وهذه المظاهر الطيبة ليست ثمرة من ثمار المدنية الغربية، ولكنها ثمرة من ثمار الأنسانية الناضجة على العموم ، ولقد كان الشرق بصفة عامة والأسلام بصفة خاصة هو مصدر هذه الفضائل والقوي . . لقد أعجبني في باريس من أخلاق القوم الصدق والصراحة في المعاملة والأمانة والنظافة والنظام والتعاون والتضامن ! . ولعمري أليست هذه كلها فضائل الأسلام ومبادئه ؟ أليس هو الذي يدعونا إلى كل هذه الخصال الحميدة ، وكل هذه الأسس العمرانية . . فاذا كنا قد جهلنا هذه القواعد واستفاد منها الغرب ، فعندما نهيب بأنفسنا من جديد لاعتناقها والتمسك بها ، فلسنا في هذا نقلد أو نسير خلف الغرب ، ولكنا في الحق نستوحي ديننا وماضينا وتاريخنا.. وإن كانت أوربا تتميز بشيء فهي تتميز بهذا الذي حدثتك عنه من الألحاد والرغبة في التحرر من الأخلاق والقوانين وإشباع الشهوات المادية ، بل والتطور بها تطوراً مخيفاً .. وأخيراً تتميز بروح الاستبداد بالشعوب الضعيفة ونزعة الخصومة والعداء والتحاسد فيما بينهم

وسريان الشيوعية المخربة المدمرة لكل ماهو جميل وروحي وكذلك الاشتراكية المتطرفة . . هذا القسم الذي تتميز به أوربا هو ناحية الضعف فيها ، وهو بدأ النهاية لحضارتها ومدنيتها .

***

وهكذا عدت من فرنسا بعد شهر ونصف شهر وفى نفسى ألف رغبة ورغبة للعمل والعمل فى ميادين مختلفة . . وأفكاري تتبلور وتتكون نهائياً ، وإيماني بمصر وضرورة العمل لبعثها بعثاً جديداً داخل إطار الصبغة المصرية الأسلامية ، بعيداً عن زيف المدنية الغربية قد أخذ صورته النهائية التي لم يطرأ عليها تغير بعد ذلك فى أي تفصيل من تفاصيلها .

ولذلك فلم نكد نستقبل العام الدراسى الجديد ، وقد انتقلت إلى كلية الحقوق حتى ألقيت محاضرة عن باريس في الجمعية الجغرافية ضمنتها آرائى السابقة الذكر. وعرضت فيها بالفانوس السحرى عشرات من الصور التي أحضرتها معي من باريس وتلا هذه المحاضرة عدة مناظرات جرت بينى وبين بعض النظراء فى الجامعة وفي جمعية الشبان المسلمين وقد جعلت أختار فى هذه المناظرات دائماً الطرف الذي يكون مبدأ من مباديء مصر الفتاة .. ففى مناظرة بين المدنية الشرقية والغربية وأيهما أولى بالتفضيل اخترت الشرقية وشرحت وجهة نظري ، وأن مايعجبنا فى الغربية هو فى الأصل شرقى، ويبقى بعد ذلك امتيازنا بعقائدنا الروحية وتقديسنا للأخلاق والفضيلة وفى مناظرة بين الفرعونية والعربية ، أى هل نتمسك بفرعونيتنا داخل حدود مصر، ونهمل الأقطار العربية والمسحة العربية فى حياتنا وحضارتنا . أم العكس فاخترت جانب العروبة وشرحت وجهة نظرى في الرابطة التى تربط مصر بالدول العربية والتى تخول لها زعامة الأسلام، وأن مصر يجب أن تكون حريصة على هذا التراث وهذا المجد، فلاتتخلى عنه جريا

خلف بعض الذين يريدون أن يفصلوا مصر عن هذاالمجتمع الدولى العظيم، الذى تربطنا به اللغة والدين والعادات والماضى المشترك . . والذى تربطنا به أخيراً رابطة المصلحة الشخصية لمصر . . وليس يعنى هذا أن لا نستغل التراث الفرعونى في الوقت ذاته، فنفخر به ونزكى به إيماننا وثقتنا بأنفسنا ونتخذه مظهراً من مظاهر العزة والقوة !.

وهكذاتوالت عدة مناظرات في أمكنةمختلفة ،وكنت أخرج فى ختام هذه المناظرات منتصراً وحاصلا على أغلبية الرأى العام،ولقد حددت بهذه الانتصارات كما قلت وجهة نظرى فى مختلف الشئون العامة تحديداً نهائياً . .



مشروع القرش

— ٣ —

كان المتفق عليه أن نبدأ كفاحنا السياسي حالما أنتهى من الدراسة وأصبح طليقا من الدرس والامتحانات ، ليكون الانسان متفرغا للكفاح أولا وأخيرا .. وكنا في ذلك الوقت نعيش في ظل عهد لا يسمح للطلاب بالاشتغال بالمسائل السياسية ، وأعنى به عهد وزارة اسماعيل صدقى باشا ومع ذلك فقد بدأت أشعر برغبة قوية فى العمل ، وفى عمل ضخم يهز كيان الامة هزا ، ويمهد السبيل لخطواتنا النهائية ، فاذا بفكرة مشروع القرش تخطر لى !. وسرعان ما شرعت فى تنفيذها ..

كانت مصر في هذه الأيام تعانى أزمة اقتصادية مخيفة ، فقد هبطت أسعار القطن وأصبح لا يجد مشتريا ، وفي وسط ذلك اختل الميزان التجارى ضد مصلحة مصر اختلالا لا عهد لها به من قبل ، وأصبحت الأزمة والشئون الاقتصادية هى مايشغل بال كل مصرى ، وزاد هذا التدهور السريع الارتباك فى ماليـــة مصر واقتصادياتها !. وأصبح لامناص من مراجعة الموقف الاقتصادي برمته .. وقد تجلى خطر اعتماد مصر على الزراعـــة فقط وزراعة القطن بصفة خاصة .. كما تجلى خطر اعتماد مصر اعتمادا كليا على أوروبا في كل ما تحتاجه من مصنوعات، ومن هنا فقد أدركت أن أكثر ما تحتاجه مصر وسط الظروف المختلفة التي تحيط بها!! هو العمل على إيجاد الصناعات بها، ونشر روح الصناعة الوطنية فى كل مكان .. ولما كانت الصناعة تحتاج إلى رءوس أموال ، لم أشأ أن تجمع رءوس الأموال من بضعة أفراد ، بل رأيت أن مما يحقق غايتنا بكمالها أن يساهم الشعب مجتمعا فى انشاء هذه الصناعات القومية ليظل حريصا على تشجيعها فيما بعد ، ويسمح لنا أثناء جمع هذه الاكتتابات الصـــغيرة أن نلقن أبناء الشعب دروسا فى التعاون والاعتماد على النفس، ونشر الدعوة للصناعات المصرية ..

وأخيرا سوف يكون لنجاح مثل هذا المشروع ، وقيام مصنع من المصانع بأموال الشعب ، أكبر الأثر فى احساسه بقوته إذا ما تعاون وتضامن ..

وهذه كلها هى المعانى التى صغتها فى شعار مشروع القرش وقتذاك « تعاون وتضامن في سبيل الاستقلال الاقتصادى »

وكان اختيار وحدة الاكتتاب بعد ذلك أمرا سهلا ، فقد جعلته قرشا حتى يسهل على كل فرد دفعه .

ولست أريد الآن أن أذكر تاريخ الجهود التى بذلت في سبيل تحقيق هذا المشروع ، ولكنى لا أستطيع أن أنسى كيف قوبلت بالسخرية في بادىء الأمر ، بدعوى ، أن المشروع ليس إلا حلما من الأحلام ، أوخيالا من الخيالات . . حتى إن المحرر في جريدة الأهرام الذى حملت اليه فكرة المشروع مسطورة ، رمى الورقة فى وجهى قائلا لى : إن هذا (لعب عيال) . . وبعد أيام قلائل قيل لى من محرر آخر : إن كرامة الجريدة لا تحتمل نشرهذه السخافات ! ولقد كانت هناك ألف عقبة وعقبة فى طريق المشروع ! . . أقلها قيام الحرب الحزبية في مصر على أشدها وقتذاك وتربص كل جانب بالآخر . . وكانت هناك رقابة وزارة المعارف الشديدة التى لا تكاد تسمح لطالب بكتابة كلمة فى احدي الجرائد .

وكان المشروع يبدو بذلك مستحيلا . . وأحيانا مضحكا . . .

فقد قال فيه بعض القانونيين كلاما طويلا عريضا ، عندما بدأنا نشاطنا ، وبدأ المشروع يطرق الآذان . . فما كنت تسمع إلا اعتراضا ، وسخرية ، فى كل مكان ، في الجامعة وسط صفوف الطلاب ، وفى الشارع وفي النادي . . ولكن الله سبحانه وتعالى وفقنى توفيقا عجيبا إذ هدانى إلى سعادة على باشا ابراهيم ليكون رئيسا للجنة التى تدرس الموضوع وتبحثه ، وكان هذا الاختيار بدء تطور جديد في حياة المشروع . فقد أسرعت الصحافة لنجدته ، وأصدرت دار الهلال عدداً خاصا من إحدى مجلاتها خصصت إيراده للمشروع ، فجمعنا من هذا العدد مايقارب الثلاثمائة جنيه مصري

فكان ذلك نواة لرأس مال المشروع ، واستطعت بهذا المبلغ أن أمضى حتى النهاية فى إخراجه إلى حيز التنفيـــذ ، من حيث اعداد الطوابع اللازمة لجمع الاكتتابات ، وعمل الشارات والصناديق ، والدعاية اللازمة فى كل مكان .

نجح المشروع واهتزت له مصر من أقصاها لأقصاها . . ورأيت بعينى رأسى صورا ومشاهد جعلت الدموع تطفر من عينى . . رأيت شـــبابا ينتسبون إلى الوزراء ، وإلى المستشارين، وإلى كبار الأعيان، يسهرون الليل وسط الصقيع !. كيما يستلموا أعداد الجرائد وطوابع المشروع ليقوموا بتوزيعها في الصباح كباعة الجرائد ! . رأيت شبابا يعملون واصلين الليل بالنهار لا يكلون ولا يملون . . يسافرون من الاسكندرية حتى اسوان!. ليحملوا الطوابع والشـارات وليتصلوا باللجان . . رأيت حولى عشرات الأوانس وألوف الشباب ، تلمع عيونهم ويهتفون بمجد مصر ويستعذبون العمل فى سبيل استقلالها وتحريرها ! .. هذا هو نجاح مشروع القرش كما كنت، أريد هذه هي المعنوية التى رغبت فى إثارتها . . هذا هو الكسب العظيم الذى أفادته مصر من جراء هذا المشروع . . وعندما أقمنا مهرجان المشروع فى حديقة الأزبكية ، واكتظت الحديقة بما يزيد على خمسين ألفاً من خيار الناس جاءوا كلهم ليحتفلوا برسالة التحرر الاقتصادى .. وليعلنوا رغبتهم فى أن يستقلوا بصناعتهم، وأن لا يلبسوا إلا من صنع بلادهم ، وأن لا يأكلوا إلا من ثمراتها . . وقفت في ركن من الحديقة وكان قد مضت على عدة أيام لم أنم فيها وبضع عشرات من الساعات لم أتذوق طعاما .. وقفت في ركن من الحديقة مختبئا عن الناس !. وقلبي ينبض بشدة والدموع تذرف من عينى !. وأنا أقول بصوت مرتفع .. هذه هى . . هذه هى روح مصر الفتاة التى أنشدها .

***

كان النجاح المادي فى مشروع القرش أقل بكثير من نجاحه المعنوى ، فلم يزد المجموع عن سبعة عشر ألفا فى العام الأول ، وثلاثة عشر ألفا فى العام الثانى . . ولكنى مع ذلك شرعت فى العمل حتى أحقق ما وعدت الناس به . وكانت الصناعة الوحيدة التى استهوتنى منذ أمد بعيد، هى صناعة الطرابيش . . فالطربوش هو شعار مصر القومى ، ولقد كنت أشعر دائما بالمهانة إذ كان شعارنا الوطنى أجنبيـــاً تنسجه لنا بلاد أخرى لا تلبس الطرابيش، فتقوم بحياكته، كما تقوم مصانعها الأخرى بعمل الزجاج الملون، والعقود البراقة ، لتباع فى أواسط أفريقيا وآسيا !. وكانت لمصر صناعة عريقة فى الطرابيش إبان محمد على واسماعيل ! . بل وكانت لمصر صناعة الطرابيش فى مدينة قها ، فتدخل الأجانب وحطموا هذه الصناعة المصرية !. فرغبت فى أن أثأر لمصنع قها وأن ألبس كل مصرى طربوشا من صنع بلاده !.

ولقد كان التفكير فى إنشاء مصنع للطرابيش بهذا المبلغ الصغير ، أي بسبعة عشر ألفاً من الجنيهات ، يعتبر أمراً جنونياً ، ومع ذلك فقد قررت أن أمضى في الموضوع حتى النهاية .

كان أول عقبة صادفتها فى هذا السبيل ، هو تنحى سعادة طلعت باشا حرب عن العمل معنا لتحقيق المشروع، فقد رأى أنه من المستحيل إنشاء مصنع الطرابيش ، واستدعانى فى يوم من الأيام إلى مكتبه وسلمنى ملفا (دوسيها) يتضمن مجهودات البنك ومساعيه لأنشاء مصنع للطرابيش، وأخبرنى كيف أن بنك مصر بكل حوله وطوله ، قد عدل عن تنفيذ الفكرة لصعوبتها ، وخوفاً من المنافسة الأجنبية القاتلة !. فصناعة الطرابيش كانت فى القديم احتكاراً نمسوياً، ثم أصبحت احتكاراً تشيكوسلوفاكيا بعد أن تحولت مصانع النمسا القديمة إلى سيادة تشيكوسلوفاكيا، وهذه المصانع من القوة وضخامة رأس المال والاقتدار الفنى، بحيث لا يمكن مقاومتها بحال من الأحوال. ولكن هذه الصعوبات لم تؤثر فى تصميمى، لأننى لم أكن من رجال الصناعة أو المال لحسن الحظ، ولكنى كنت صاحب فكرة معنوية وصاحب الفكرة لا يعبأ

بالصعوبات .. فافترقنا أنا وطلعت باشا حرب مختلفين في هذه النقطة ، ولكن الرجل تمنى لى النجاح والتوفيق فى مهمتى وأعطانى (الدوسيه) الخاص بصناعة الطرابيش لأنتفع به فى محاولتي ..

وقد يدهش كل إنسان لأن يتصدى طالب مثلى فى كلية الحقوق ، ليأخذ على عاتقه إنشاء مصنع للطرابيش وهو الذى لا يعلم من أمر الصناعة شيئاً !. ولكنه الأيمان . ولكنه العزم والتصميم .

وسرعان ماجاءت الحوادث والأقدار لنجدتى، فقد تقدم إلى مهندس ألماني يسمى (فورهانز) وأخبرني أنه اطلع فى الصحف الأفرنجية على تفكير جمعية القرش فى إنشاء مصنع للطرابيش ، وأنه مستعد لأن يقدم مشروعاً وعطاء كاملين عن إنشاء مصنع للطرابيش بالمبلغ الذى جمعناه من المال!. فناشدته على الفور أن يفعل. فانصرف من عندى واعداً إياى أن يرجع إلى بعد ثلاثة أو أربعة أسابيع. ولقد عاد بعد الموعد المضروب وهو يحمل في جعبته مشروعاً كاملا لأنشاء مصنع للطرابيش ، وراح يعرض على الرسوم ويعرض على صور الماكينات ، ويعرض على فوق ذلك كله تعهد الشركة أن تنتج لنا طرابيشاً كأحسن طرابيش فى السوق المصرية !. وأن لا تأخذ ثلث المبلغ المستحق لها من ثمن الآلات إلا بعد أن تنجح فى إنتاج طرابيش كالعينة المتفق عليها ، وأنها على استعداد لأن ترسل الخبراء الذين يتولون إنشاء المصنع وتعليم العمال المصريين إنتاج الطرابيش. ولم تكن الشركة فى نهاية الأمر تطلب ثمناً لآلاتها وماكيناتها أكثر من بضعة عشر ألفاً من الجنيهات . كان ذلك المشروع المقدم من هذه الشركة الألمانية المسماة « هارتمان » بمثابة نجدة إلهية لى، فقد عزز وجهة نظرى فى إمكان إنشاء مصنع الطرابيش !. وبعد أن كنت أدعو لهذا المشروع على غير أساس وهدى ، أصبح تحت يدي مشروع كامل أستطيع أن أتحدى به كائناً من كان ...

ولكن الشركة التشيكوسلوفاكية راحت من ناحيتها تعمل لأحباط المشروع !. فأوفدت مندوبين لها في مصر سعوا لمقابلة رئيس الحكومة المصرية

وكان في ذلك الوقت هو اسماعيل صدقي باشا!. وأقنعوه بأنه من العبث أن نفكر بهذا المال التافه فى أن ننافس شركتهم العتيدة !. واقترحوا عليه أن يقنعنا بالعدول عن إنشاء مصنع للطرابيش فى مقابل أن يساعدونا فى إنشاء مصنع لعمل البطاطين!.. وأن يقدموا الآلات اللازمة لهذا المصنع بالمجان. ولقد كان هذا عرضاً مغرياً جداً، جعل رئيس الحكومة يستدعى مصطفى بك الصادق مدير مصلحة التجارة والصناعة وقتذاك، ووكيل مشروع القرش، ويطلب منه العدول عن إنشاء مصنع الطرابيش، والاتفاق مع الشركة الأجنبية .!

وقد حمل مصطفى الصادق بك هذا الرأي إلى مجلس إدارة المشروع، وكادوا يوافقون عليه لولا اعتراضى واحتجاجى الذى لم يفلح وقتها إلا فى تأجيل إصدار القرار النهائى، لمدة أسبوع واحد... فأسرعت فى اليوم التالى إلى مقابلة صدقى باشا رئيس الوزراء، وأقنعته بأن لا يقف في وجه هذا المشروع الوطنى. بل ينبغي عليه أن يشجعه ويعاونه باعتباره حامى النهضة الصناعية فى مصر !. فأصغى الرجل لآرائى وأفكارى وتأثر بحماستى للمشروع، فأعطاني موافقته الكتابية على المضى فى إنشاء مصنع الطرابيش .! وقد كان هذا أعظم نجاح لى فى وجه أعضاء مجلس الادارة الذين دهشوا كل الدهشة لتوفيقى فى الحصول على هذا التأييد من ناحية صدقى باشا .

وهكذا لم تستطع الشركة أن تنجح في هذا المضمار، فرأت أن توجه مجهوداتها نحوى شخصيا، فدعتنى للمفاوضة معها وراح مندوبها يساومنى ويغرينى بالعدول عن إنشاء مصنع الطرابيش فى مقابل أن تقدم لنا الشركة مصنعا للبطاطين !. وتتولى هى بنفسها إنشاء مصنع للطرابيش في مصر، وتجعل منى مديرا لكلا المصنعين.. ولكنى احتقرت هذه المساومة وأعلنت أننى ماض فى تنفيذ المشروع بالرغم من أنف الشركة وبالرغم من أنف محاولاتها الشائنة. ولقد مضيت بالفعل..

وليس يتسع المجال الآن لذكر كل التفاصيل وكل الصعوبات والعقبات التى اعترضت طريقى فى كل خطوة !. والمهم أنه جاء اليوم الذي وضع فيه حجر الأساس لانشاء مصنع الطرابيش بشارع برج الظفر فى حفل رائع تجلت فيه حماسة الشباب وروعة انتصاره !.

***

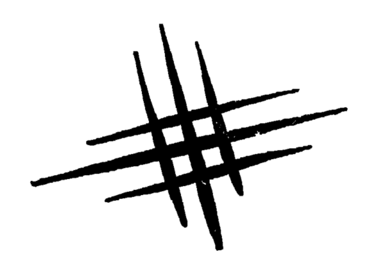
وتم التعاقد مع شركة هارتمان الألمانية على توريد الآلات اللازمة. على أن مصاعبنا لم تنته عند هذا الحد، بل أنها بدأت بصورة عنيفة، فلم نكد نفرغ من التعاقد مع الشركة المذكورة حتي فاجأتنا بعجزها عن المضى فى تنفيذ المشروع!. بحجة أنها كانت تعتمد في تنفيذه على خبير تشيكوسلوفاكى. وقد سعت الشركة التشيكوسلوفاكية المنافسة إلى هذا الخبير وأغرته بالمال، حتى حملته على التخلى عن العمل مع الشركة الألمانية !..

وكان معنى ذلك انهيار كل آمالى وأحلامى فى إنشاء مصنع الطرابيش !. ولكنى لم أدع اليأس يتغلب على، وسعيت إلى وزير ألمانيا المفوض فى مصر بصحبة سعادة على باشا ابراهيم رئيس المشروع واحتججنا لدى الوزير على موقف الشركة، وأفهمناه أن ذلك التراجع من ناحية الشركة عن تنفيذ تعهداتها سيضر بسمعة ألمانيا فى مصر !. بل وفى الشرق كله، فاهتم الوزير اهتماما عظيما بالموضوع، وكتب لوزارة الخارجية الألمانية طالبا منها التدخل، وانتهى الأمر بأن عادت الشركة الألمانية لتنفيذ تعهدها وأعلنت من جديد استعدادها لتوريد الآلات اللازمة بعد ستة أشهر . . .

ومضت الأشهر ووصلت الآلات أخيرا وارتفع بناء المصنع شامخا أنيقا جميلا ذا طراز فرعونى بديع !.

وتم تركيب الآلات، وجاءت اللحظة الخالدة التى قررنا فيها إدارتها لأول مرة !. ولقد مضت على هذه الذكري الآن سنوات وسنوات. ومع ذلك فمازلت أتمثل هذه اللحظة الرهيبة التى شعرت فيها بقشعريرة الانتصار!. ومازلت أسمع أصوات الماكينات تدوى بين جدران المصنع والصوف يأخذ

طريقه من آلة إلى أخرى ، لاخراج أول طربوش مصرى صنعته الارادة المصرية والايمان المصرى!. وما زلت أحس بحرارة الدموع التى سالت على وجنتى فرحاً وابتهاجا واذن لم أكن عابثا ولا ماجنا ... لم أكن خيالياً ولا معتوها !. وانما كنت مصريا مؤمنا ، عرف كيف يحول إيمانه إلى عمل فانتصر ، وانتصرت مصر كلها ، وراحت تكلل رءوسها بهذه التيجان المصرية الصميمة ، وأثبتت الدنيا أن العامل المصري لا يقل اقتدارا عن أى عامل أوربى ، وأثبتت الدنيا أن الارادة المصرية تستطيع أن تتغلب على كل شيء متى صدق العزم وخلصت النوايا !.



نص الخطاب

الذي ألقى فى حفل وضع الحجر الاساسى لمصنع الطرابيش

سيداتي وسادتي .. اخواني وأصدقائي :

سمعتم منذ لحظات سعادة رئيسنا يلقى كلمة الجمعية الرسمية ولن أعود فأحدثكم عن ماهية مشروع القرش وتاريخ نشأته ، والأطوار المختلفة التي مر بها

فلقد عدد لكم الأشخاص الذين هم جديرون بشكرنا وتقديرنا ، فلم يبق لدى ما أقوله من هذه الناحية ، الا أن أحدثكم عن مصنع الطرابيش بالذات ولماذا اخترناه دون سواه من المشاريع الأخرى ، وماهى قدرته على الانتاج الى آخر هذه المعلومات التي يهم الرأى العام الوقوف عليها .

على انني فى حديثي أيها السادة لن أكون الا كما انا ، بصفتي الشخصية شابا عاديا من شباب مصر الفتاة ، أو بالأحرى متطوعا من متطوعى القرش صريحا بكل ما فى الشباب من صراحة وجرأة ، متفائلا بقدر ما فى الشباب من ايمان وأمل .

تتساءل أيها السادة؟ لماذا اخترنا الطرابيش لتكون أول صرح من صروح القرش ، أو بمعنى أصح لتكون أول حجر فى بناء استقلالنا الاقتصادى ، الذي يسعى لأجله مشروع القرش . هل كنا فى ذلك نطيع عاطفة فحسب أم أن ذلك كان نتيجة تفكير وامعان ؟. الحق أيها السادة أن الامر لو كان وحى عاطفة لكان ذلك وحده سببا كافيا للبدء به فالعاطفة هى كل شيء فى حياة الأمم ! وما الاستقلال والمجد والعزة الا مجموع عواطف الشعب ! متخذة هذه الصورة المادية .. أوليس من العار أن شعبا ناهضا مجاهدا يصاغ له شعاره القومى فى الخارج ؟ فى بلاد لاتعرف الطربوش ولا يلبسه أهلها . والله لو لم يكن هناك الا هذه الفكرة تحفزنا لانشاء مصنع طرابيش لكفى بها مبررا ، فما بالكم وقد تضافرت الظروف والحيثيات لتدفعنا فى هذا التيار .

فقد خرجنا من موسمنا أيها السادة بسبعة عشر الفا من الجنيهات لا أكثر ، وهذا المبلغ لا يصلح لصناعة لها قيمتها سوى الطرابيش فقبل الجم كنا فكرنا في انشاء مصنع (للبدل) الصوفية ولكن المبلغ الذى حصلنا عليه لايحقق هذه الغاية التي تحتاج الى أموال طائلة ، وكانت هناك غير صناعة الطرابيش صناعات عدة صغيرة يمكن اعتمادها على هذا المبلغ مثل صناعة الالبان أو السجاير على أن مثل هذه الصناعات موجود بالفعل في مصر يقوم به مصريون ، ويشرف عليه مصريون ، وما كان مشروع القرش ليبدأ برنامج أعماله بمنافسة المصريين ، وهكذا ترون أننا كنا محكومين بالظرف المالى لانشاء مصنع للطرابيش . وتلفتنا فى عالم الصناعات المصرية فاذا بنا قد وضعنا الأسس فى مختلف صناعات النسيج والغزل

الا صناعة الصوف وغزل الصوف ، فكان علينا أن نبذل جهداً لسد هـذا النقص بانشاء صناعات الصوف ، وصناعة الطرابيش ليست الا فرعا من صناعة الصوف تعتمد على غزله ، هـذا الغزل الذي يمكن استغلاله في الوقت نفسه في صناعة البدل والبطاطين والصدارى والجوارب الخ هذه الصناعات الهامة

وإذن فقد انتصرت صناعة الطرابيش أيضا على غيرها من حيث أنها خطوة في سبيل صناعة من أم الصناعات .

على أننا نتساءل في النهاية وهل هي عملية مربحة بقدر ماهي هامة ، فاذا أقدمنا عليها جمعنا بين الغاية القومية والربح؟ فكان جواب التساؤل غريبا !. لان المباحثات انتهت الى أن الطربوش بسعره الحالى يزيد أضعافا مضاعفة عن تكاليف انتاجه ، وما ذلك إلا نتيجة الاحتكار وأهواله .

وصناعة الطرابيش بعد كل هذا ايها السادة ليست بشيء ذي بال أو هي سر من الاسرار ، بل هي صناعة من صناعاتنا التي مارسناها ونمارسها بنجاح غريب ، فمنذ نيف ومائة سنة أوجد محيي مصر الحديثة محمد على باشا صناعة الطرابيش بنجاح ، واتخذ مقرا لها مدينة فوة ، وقد قيل لى ان السائر الى هذه المدينة يرى آثار المصنع العظيم . ولقد عفت كل الصناعات التى أوجدها محمد على باشا تقريبا الا صناعة الطرابيش ، فقد ظلت حتى اليوم وحتى الساعة قائمة رغم كل شيء ، ولعل هذا يدهشكم بل لا يكاد يصدق ، ولكنها الحقيقة ، فصناعة الطرابيش موجودة فى القلعة منذ عشرات السنين ، تعمل بدون انقطاع لسد حاجة الجيش والبوليس من الطرابيش ، أى تنتج مايزيد على مائة ألف طربوش سنويا ، وهى كمية لا يستهان بها بالنسبة لاستهلاك مصر العام . ولاتحسبون أن طرابيش القلعة لاقيمة لها ، أو أنها ليست جيدة ، فسترونها رأى العين بعد قليل فى مصنعنا الصغير وعندها ستعرفون الحقيقة الجيلة وهى أن العامل المصري ينتج طرابيش جيدة على بعد خطوات منكم ولولا أنهم فى القلعة يستخدمون صوفا غير جيد ليلائم حاجات الجيش لكانت طرابيشهم من أرفع درجة لا تكلفهم الا بعض قروش قلائل

وقبل الحرب العظمى أنشأ سعادة اسماعيل باشا عاصم مصنعه فى مدينة قها ، هذا المصنع الذى أمد مصر بكل ماتحتاجه من طرابيش فى سنى الحرب ووصل فى نهاية الامر الى درجة عظيمة من الاتقان بشهادة الجميع .

وكأنى بكم تتساءلون لماذا أغلق هذا المصنع العظيم . كيف يقضى عليه هكذا بعد أن كان ناجحا موفقا؟ فأقول لكم انه كان ضحية منافسة غير شريفة فى وقت كانت فيه الامة حكومة وشعبا عاجزة عن حماية صناعاتها ، فبانتهاء الحرب وعودة المياه الى مجاريها نزلت الصناعات الاجنبية الى سوق الطرابيش المصرية بخيلها ورجلها لتقضى على المصنع الوطنى فأخذت تصرف وتصرف وتوزع النقود فى كل مكان ، وتبيع الطرابيش بأسعار غير معقولة لأنها تنقص عن تكاليف الانتاج ، وبالاختصار أنها لجأت الى سياسة الاغراق فى أبشع صورها ، حيث لا تستطيع الضرائب أن تحد من قوتها أو تخفف من هولها وظل اسماعيل

باشا عاصم وسط العاصفة يخسر ويخسر! . ولكنه ما كان يقوى على الاستمرار طويلا، وهو رجل فرد وهذه الشركات أقسمت أن تقضى عليه بأى ثمن! فبدأ المصنع يعانى الآلام! وهنا تقدم السادة الغزاة للرجل وعرضوا عليه الشراء فباعه لهم وهو مرغم على ذلك ومن خلفه أمة تندب حظها العاثر الذى جعلها تسقط هكذا فريسة المنافسة الاجنبية! واليوم لا يوجد مصرى واحد لا يعرف هذه القصة . بيع المصنع وحطمت آلاته تحطيما وسمح لى صاحبه أن أزوره، فذهبت لأرى أطلالا بالية، وبقايا أخشاب وأنقاض تتحدث عما كان لهذا المصنع من صولة وجولة فيما مضى !

هل تريدون الحق أيها السادة، لقد خرجت من زيارتى لمصنع قها وأنا أقسم أن أجاهد وأجاهد لأعادة هذه الصناعة، لا لشيء الا لنثأر لكرامتنا الاقتصادية التي أمتهنت امتهانا، بحيث باتوا يضربون المثل بمصنع قها ويذكرون قصته ليستدلوا بها على أن المصريين لا يفلحون في الصناعة، هذه العوامل مجتمعة من قومية ومالية واقتصادية وتاريخية، هي التى حدت بنا كما قلت لكم الى العمل على انشاء مصنع للطرابيش، وعرف الرأى العام ذلك منا فقابله بالتهليل والترحاب فازددنا بذلك قوة على قوة، ومضينا فى عزمنا لا نلوى على شيء، ولاشك أنه قد وصل الى علمكم جميعا صعوبة المهمة التى أخذناها على عاتقنا والعقبات الجسام التى تعترض طريقنا ولكنا عازمون على السير الى النهاية رغم كل شيء وسنجاهد ونجاهد، حتى نقيم المصنع كاملا وعندها نكون قد قمنا بواجبنا وأرضينا مصر وكرامة مصر .

سنجاهد أيها السادة وتفتتح المصنع، آن وفقنا الله وسيوفقنا لأننا مخلصون ثم نسلمه وديعة لكم، والكلمة يومئذ أيها الشباب لكم، ولكنى أعرفها سلفاً، وهذا مايجعلنى واثقا من المستقبل تقي بوجودكم الآن . انها كلمة سيسجلها لكم التاريخ انها كلمة العزة والفخار والمجد، سوف تخلعون عن رءوسكم طرابيشهم ولو كانت أكثر أناقة وأرخص ثمنا، لتلبسوا طرابيش الوطن! وسينظر لكم العالم فى يقين واعجاب بأن مصر قد بعثت من جديد فتية قوية ذات عزم ونبوغ

أما مصنعنا أيها السادة وقدرته على الانتاج فسيخرج لكم طرابيشا تضارع أحسن ماتلبسون ولكن ذلك لن يجيء طفرة واحدة، وان كان لا يتأخر كثيراً، وسيكون الطربوش رخيصا جدا يضمن لتجار الطرابيش ولكم ربحا ووفراً عظيما . وسيكفى المصنع حاجة القطر كله من الطرابيش وذلك بأن ينتج ألف طربوش يومياً أي ثلثمائة ألف طربوش فى السنة أي ماتستهلكه مصر في الوقت الحاضر، أما قبل سنة ١٩٣٠ فقد كانت تستهلك ضعف هذه الكمية، فاذا فرض وعادت المقطوعية الى سابق عهدها فلا على مصنعنا الا أن يشتغل طريحتين بدلا من واحدة فتتضاعف كمية الانتاج بحيث يكون هناك مجال لتصدير الطرابيش الى الأقطار الشقيقة، سوريا وفلسطين والهند التي يسرنى أن أصرح لكم أنها تنتظر طربوش القرش بحماسة لا تقل عن حماستنا ولاعجب فنحن وهم أمة

واحدة، تربطنا اللغة والثقافة والدين ، والأماني القومية . وثمت سؤال هام يتردد على الأفواه دائما ويوجه الى أينما ذهبت ألا وهو ماذا يكون الحال لو عدل المصريون عن لبس الطربوش الى القبعة . وليس الآن مجال التفاضل بين القبعة والطربوش، ولكني أطمئن هؤلاء المتسائلين فني في مثل هذه الساعة لن نخسر مصنعنا شيئا، بل سوف يستطيع أن يساير التطور الجديد. (١)

. هذا هو مصنع الطرابيش أيها السادة الذي عزمنا على اقامته والمسألة الآن مسألة زمن فكل شيء يسير أحسن مايكون السير الوئيد الحكيم ، وبعد أشهر قلائل لاتتجاوز الستة تزينون رءوسكم بتيجان القرش ،وتجنون ثمار التعاون والاخلاص والعزيمة ، كل هذا بقرش كما يقول لكم رئيسنا فهل تبخلون على مصر بقرش آخر ، وهلا ترون أنها صفقة رابحة أن نشترى استقلالنا الاقتصادى بقرش فى كل سنة

ستجيئكم جموع الشباب فى مثل ميعادها من السنة الماضية لتجمع قرشاً جديدا لتنشيء به صرحاً جديداً،سوف يجيئونكم ولكن فى نظام وتجربة وسط مهرجانات عظيمة واحتفالات قومية! وستتضاعف قوانا علنا نحقق حلمنا الجميل ألا وهو انشاء مصنع للبدل الصوفية أو أى صناعة أخرى من هذه الصناعات التى تؤثر تأثيراً كبيراً على حياتنا الاقتصادية !

سادتى — فى نفسى آمال وأمانى تريد أن تنطلق ولكنى أحبسها على الرغم ، منى لأنى أريد أن نعمل وأن نترك الكلام الى العمل . أريد أن أحدثكم عن مشروع القرش ومستقبله ولكنى أترك ذلك لكم وأهيب بأخوانى لنعمل ولنعمل فى صمت والله معنا .

ولست أغادر هذا المنبر قبل أن أرسلها صرخة من روحى وقلبي ونفسى تنفذ الى قلوبكم وأرواحكم . أي اخواني الشبان لقد فكرتم في مشروع القرش و نفذتم مشروع القرش وأعددتم برنامج القرش ، ولا يزال أمامنا للوصول لغايتنا شوط طويل لكى نقطعه . نحن في حاجة الى جهود .. وجهود جبارة . بل نحن فى حاجة الي ماهو أكثر من الجهود نحن فى حاجة الى الايمان والتضامن .. ايمان بحقنا وعزمنا .. ايمان بأنا أقوام علموا الانسانية فى أيامها الخوالى وأخذوا بيدها من الظلمات الى النور!. وأنا على استعداد لتعليمها ثانية ، ايمان بأنا قادرون فنقدر .. وانا فاعلون فنفعل .

ونحن فى حاجة الى التضامن كحاجتنا الى الايمان فلنتضامن ولنتحد جميعاً تحت راية واحدة، ولنعمل بفكرة مشتركة لغاية جليلة. فلنحب أنفسنا فلا نكون حرباً عليها بأفعالنا، وليحب بعضنا بعضا كأخوة أشقاء، ولنحب مصر بتقديس واجلال، ولنفكر دائما فى اسعادها، وليكن كل جهد تبذله فى سبيل مجدها وهنائها .

ووالله لئن فعلنا هذا ، بأن آمنا وتضامنا ليكونن مستقبلنا جليلاورائعاً لنحلق فى سماء المجد ولنشرق على العالمين من جديد .

الى الأمام اذن أيها الشباب .. الى الامام بعزم ويقين وثبات فرحين طروبين مخلصين الى الأمام متحدين متضامنين شعارنا الله والوطن والملك .

وايماننا أن مصر فوق الجميع .

---

(١) ينتج مصنع الطرابيش فى الوقت الحاضر أجود أنواع (البيريهات)

جمعية مصر الفتاة

— ٤ —

إلى هنا كان مشروع القرش قد نجح وحقق كل ، أغراضه فقد أثمرت دعاية الشباب الأقتصادية فاندفع المصريون يشجعون كل ماهو مصرى ويقبلون عليه وتعددت المصانع فى مصر والتى قام بانشائها الأفرادوالشركات المصرية.

وحققنا للناس أن العمل في تعاون وصبر وثبات يؤدى إلى النجاح ، فقد وجدوا قرشهم الصغير يشيد مصنعاً ويلبسهم طرابيش وطنية . . على أن النجاح المنقطع النظير هوهذه اليقظة التي شملت صفوف الشباب فتعددت الجمعيات وكلها قد اتخذت من مشروع القرش ومن مثاله قدوة وطريقاً للعمل ، فتألفت جمعية القرى لمحاربة الأمية وأنشىء عيد الوطن الأقتصادي وغيرها وغيرهما من عشرات الجمعيات والمشاريع التى أقدم عليها الشباب فى ثقة وعزم ونجاح بعد تحقيق مشروع القرش . بل لقد تجاوز نجاح مشروع القرش الحدود المصرية فنسج السودانيون على منواله وكذلك جميع البلاد العربية ، ولا يزال جمع القروش عن طريق الطوابع هو الاسلوب المتبع فى كل العالم العربى في جميع مشروعات البر والاحسان .

وكان من تأثير مشروع القرش أن استيقظت فى نفوس الشباب كل عناصر القوة والطموح والرغبة فى العمـــل . . وهؤلاء الذين عملوا معى طوال عامين فى مشروع القرش بدءوا يفهمون إيمانى الكامل ورسالتي المقبلة ، فاذا بي لم أكد أخرج من الكلية متما تعليمى العالى ، حتى رأيتهم يتطلعون إلى ويطالبوننى بخطوتى الثانية ، وأعنى بها تأليف ماحدثتهم عنه وماوعدتهم به ، وهوجمعية مصر الفتاة. ولما أيقنت بالعزم منهم جمعتهم فى إحدي الليالى وسألتهم ، هل هم مستعدون حقاً لبدء النزال ، فأقســموا جميعاً على استعدادهم فأنذرتهم أن سوف تقابلهم عقبات وسوف تتزلزل الأرض تحت أقدامهم وسوف تهاجمنا الأحزاب وسوف تهاجمنا الحكومة وسوف يكون أمامنا كفاح طويل . . ولست أدرى هل كانوا يصدقوننى ساعتئذ أم أنه

قد خيل لهم أنى أختبر شجاعتهم فقد اتفقوا جميعاً على الهزء بهذه المصاعب ، بعد أن تعلموا في مشروع القرش كيف تكون الغلبة على المستحيل .

وإذن فقد عدت إلى بيتي وجلست أكتب برنامج الاحياء ووسيلته ، جلست أستجمع كل ماأشعر به فى نفسى من إيمان وعزم وأمسكت بالقلم وكتبت كل ماجرى به القلم على القرطاس ، فكان ذلك برنامج مصر الفتاة الأول .

وعدت إلى إخوانى وزملائي فوقعوا على هذا البرنامج الذى وضعته لمصر الفتاة فى الثاني عشر من أكتوبر سنة ١٩٣٣ وكان الموقعون عليه لا يزيدون عن الأثنى عشر . ورأيت أن تكون الصرخة هى لسان حال هذه الحركة ، وهى التي جرى على صفحاتها فى الأعداد الأولى أول آمالي فى مصر الفتاة . رأيت أن تكون الصرخة وهى التي أسميناها بهذا الاسم منذ أربع سنوات معبرة عما فى نفوسنا من إيمان وما لنا من برنامج فبحثت عنها حتى وجدتها ، في حوزة شخص غير صاحبها القديم . فكتبت معه عقدا بمقتضاه يضع الجريدة تحت تصرفنا مقابل إيجار معلوم . . . وفى ٢١ اكتوبر سنة ١٩٣٣ وعلى صفحات العدد الثالث من الصرخة أعلنا برنامج جمعية مصر الفتاة ، وهكذا بدأ الفصل الأخير أو بالأحرى بدأ الفصل الأول من جهادى في سبيل تحرير أمتي ووطنى وتحقيق المجد لبلادي . فلم يكن كل الذي مر سوى تمهيد لهذه الخطوة الأخيرة التى كانت تجول في فكري وقلبي منذ أمد بعيد . وقد قدمت البرنامج بنداء دعوت فيه إلى عشر سنوات من الايمان والعمل وانى إذ أعيد نشر هذه الكلمات بعد اثنتي عشرة سنة من هذا التاريخ ، أشعر بالشوط الكبير الذي قطعناه والذى بقى علينا أن نقطعه .

وإذا أستعرض الحوادث الكثيرة التى مرت بى منذ ذلك اليوم لا أجد حادثا واحدا لا يؤكد إيماني بكل الحقائق التي قدمتها لك ويدفعنى إلى الآمام دائما . . فمنذ اثنتى عشرة سنة ونحن نتطور ونسير دائما من فوز إلى فوز ومن نجاح إلى نجاح . . ودائرة مصر الفتاة تتسع أكثر فأكثر .

واليك نص برنامج مصر الفتاة فى صورته الأولى وما صدر به من نداء

نداء

يا شعب مصر

أيها الشعب الذى صاحب الزمن . . . يا أمجد شـــعب فى الوجود وأعظمه . . . لقد حانت ساعة اليقظة . . . لقد حانت سـاعة العمل . . بل لقد حانت ساعة الجهاد . . . وهذه هى مصر الفتاة تتقدم إليك لتجاهد عنك ولتذود عن حياضك ، ولترفع صوتك ولتطعم جائعك، ولتعلم جاهلك ولترد عليك كرامتك ، ولتعيد إليك سابق مجدك .

يا شباب مصر

لقد طال ما رقدنا وها نحن أولاء قد صحونا . . . لقد طال ما أهملنا وها نحن أولاء قد حرصنا . . لقد طال صمتنا وها نحن أولاء قد تكلمنا وإذن فليكن صوتنا مدويا ولتكن صرختنا من الأعماق ، وليكن إيماننا جبارا يدك الجبال ، وليكن شعارنا مصر فوق الجميع .

إن الأجانب يغزوننا ويسدون علينا طريق الحياة . . والاحتلال قطع أوصالنا وحرمنا السودان . . . والأمية والجهل يخيمان على ســوادنا ويملآن القلوب حيرة وظلاما . . . والأزمة فتاكة تهلك الحرث والنسل وتسلبنا القوت والماء ، ونحن في كل ذلك نلهو ونتخاصم . . ونحارب بعضنا حتي لقد سـقطنا صرعى ، ووقف العدو يشاهد كل هذا باسما ظافرا فخورا . . أنه تغلب على النسر المصرى بأهون سبيل .

وواجب الشباب أن يصلح كل هذا . . وها نحن نفعل . . لســنا نريد أن نتكلم كثيرا ولكننا ندعو الشعب للايمان بحقه وقوته وندعوه

لعشر سنوات من الايمان والعمل لله والوطن .. نابذا الخلافات الحزبية.. مهملا ما اعتاد الناس أن يسموه سياسة .

ونحن نقدم اليوم عناصر هذا الايمان ، وعناصر هذا العمل، برنامجا معنويا زراعيا وتجاريا وصناعيا وعلميا واجتماعيا . . يتبسط حتي ليشمل أدق التفاصيل وما ذلك إلا ليكون السبيل واضحا وممهدا . . وهو ليس تفكير يوم وليلة ولكنه عمل خمس سنوات قضيناها فى التحضير والدرس والأيمان.. والآن وقد خرجنا إلى ميدان الجهاد ، فنحن نعلن رسالتنا .. نعلنها لك ياشعب مصر ، وياشبابها . دعوة بريئة مخلصة لا تتصل بشخص من الأشخاص ، ولاترمى لغاية إلا لسعادة مصر ومجدها . . . إنها دعوة صادرة من القلوب فلتنفذ إلى القلوب ، وهى صادرة من الأرواح إلى الأرواح فلا تسخروا منها إن لم تعاونوها ، ولا تحاربوها لأنها لم تمسكم بشر ، فهى عقيدة مخلصة مقدسة ، وستنتصر فى النهاية كما ينتصر كل إخلاص وإيمان . . ستنتصر بالرغم مما يوضع في طريقها من عقبات . . بالرغم من القوات التى ستحاربها .. بالرغم من القوات الهدامة التى ستكرس نفسها للقضاء عليها . . .

سننتصر ، لأننا سنحتمل كل شيء من أجلك يامصر .

ولأننا سنضحى فى سبيلك يامصر .. ولأننا سنموت وكلمتنا الوحيدة:

مصر فوق الجميع

أحمد حسين

المحامى

برنامج مصر الفتاة ومبادؤها

ايماننا

مصر التى علمت الانسانية وأضاءت على العالمين ، مصر التي رفعت لواء الأديان جميعا وأعلت كلة الله والاسلام ، مصر مركز العالم وزعيمة الشرق . بعد أن طهرتها الآلام وصقلتها المحن ، بعد أن حاربها الزمان فارتد وانهزم ، لن تموت أبداً بل ستبعث من جديد لتعيد سيرتها الأولى منارة للعالم وتاجا للشرق وزعيمة للاسلام ، وهى من أجل ذلك فى حاجة الى دم الشباب الملتهب ، فى حاجة إلى الايمان والعمل ، فى حاجة الي نفر من بنيها يفا بلون الموت ويستعذبون الألم ويرحبون بالتضحية . وتلك صفات لن تتوفر فى أبناء الجيل القديم .

شعارنا

الله — الوطن — الملك

يجب أن نعبد الله ، وأن نعلى كلمته .
يجب أن نقدس الوطن، ونفنى فى سبيل مجده .
يجب أن نعظم الملك ، وأن نلتف حول عرشه .

غايتنا

أن تصبح مصر فوق الجميع ، امبراطورية عظيمة تتألف من مصروالسودان، وتحالف الدول العربية وتتزعم الاسلام .

جهادنا العام

١ — يجب أن نشعل القومية المصرية ، ونملأ نفوسنا ايمانا وثقة واعتزازا .. ويجب أن تصبح كلة « المصرية » هى العليا وماعداها فلغو لا يعتد به ، ويجب أن يؤمن الجميع بأن ارادة الشعب من ارادة الله، وأن مصر يجب أن تصبح فوق الجميع .
٢ — يجب أن نضع الأجانب فى مركزهم الطبيعى ضيوفا فى مصر وليسوا أصحابها ،

وذلك يكون بالغاء الامتيازات والمحاكم المختلطة بجرة قلم ، وتمصير الشركات الأجنبية ، وجعل اللغة العربية هى اللغة الرسمية في الحياة التجارية ، ويوم الجمعة يوم عطلة عامة ، وعدم التصريح لأجنبي بمزاولة عمل فى مصر الا بتصريح خاص .

٣ — يجب أن نؤمن بأن الفلاح هو تاج مصر وسر قوتها ، وأنه الحقيقة الوحيدة التى لم تتبدل فى العالم منذ ستة آلاف سنة ، وهوهو الذى أبقى مصر نابضة قوية حتى اليوم . فيجب أن نعلم الفلاح : بأن نقضى على الأمية والجهل ، ونرتقى بمعيشته ، فنضمن له اليسر والرخاء ، ونحفظ له صحته ، وندخل الى بيته الجديد النور والهواء والماء النقى !.

جهادنا الاقتصادى

فى الزراعة

٤ — يجب أن نرتقى بالزراعة التى تكون ثروة مصر الحقيقية ، فنجدد وسائلها وننوع محاصيلها ، ونزرع أراضى جديدة ، ونشق الترع وننشىء المصارف ، ونعمل لمضاعفة الأنتاج أضعافا مضاعفة .

٥ — يجب أن يعم نظام التعاون في كل مدينة وفى كل قرية ، بل وفى كل ضيعة ، لأقراض الفلاحين وتوزيع البذور واستخدام الآلات وبيع الحاصلات وتنظيم المعاملات.

فى الصناعة

٦ — يجب أن تسترجع مصر مركزها القديم كدولة صناعية تمد الشرق القريب والبعيد بالمصنوعات والحاجيات المختلفة .. فيجب أن نشيد المصانع لنغزل كل قطننا ، وصوفنا ، وكتاننا ، ويجب أن نشيد المصانع للصناعات الكيمائية والزراعية والحديدية . . وتمهيدا لهذا الانقلاب يجب أن ينشأ بنك صناعى لتمويل المشاريع المختلفة ، وأن تتولد الكهرباء من خزان اسوان .

٧ — يجب أن توضع الحماية الجمركية اللازمة لحماية المصانع الوطنية ، وأن تحتم الحكومة على موظفيها وعلى طلبة مدارسها أن تكون ملابسهم من المصانع المصرية ، وأن تفضل الحكومة دائما المصنوعات المحلية مهما كان ثمنها مرتفعا .

٨ — يجب أن ينشط استغلال الثروات المدفونة فى باطن التربة المصرية العظيمة ، فنستخرج البترول والحديد والذهب والنحاس وغيرها من المعادن التى تحتاج اليها الصناعات المختلفة ، والتى توجد فى الصحارى المصرية العظيمة بوفرة .

فى التجارة

٩ — وفى التجارة يجب أن نحتكر تجارتنا الداخلية ، فلا نأكل إلا كل ماهو مصرى ، ولا نلبس الا كل ماهو مصرى ، ولا نشترى الا من مصرى ، كلما استطعنا الى ذلك سبيلا .

١٠ — يجب أن نستولى على تجارتنا الخارجية ، وتتصل بدول الشرق القريب والبعيد لنحمل اليها ومنها المتاجر ، وأن نقوم بدورنا الطبيعى فى تجارة العالم كوسطاء بين الشرق والغرب . ولكى نتبوأ هذا المركز يجب أن نعيد بناء أسطول مصر التجارى ، لينقل متاجرنا ، وليرفع العلم المصري فى أنحاء البحار .

١١ — يجب أن تستعد موانينا لهذه الحركة العظيمة ، فتوسع ميناء الاسكندرية ، وتنشأ ميناء دمياط ، وتحول بعض موانينا الى موان حرة لا تتقاضى الحكومة عن البضاعة الموجودة بها ضرائب .

١٢ — يجب أن يؤلف أسطولنا الجوى على نطاق واسع ، وأن تنشأ المطارات فى كل المدن المصرية ، وأن تنشأ الخطوط التى تصل مصر بجميع البلدان العربية ، وبكل أفريقيا ، وبلاد أوربا الهامة .

١٣ — يجب أن نمهد الطرق من الاسكندرية حتى اسوان ، وأن ننظم الملاحة في النيل والترع ، وأن نمد الخطوط الحديدية الى كل مكان .

١٤ — يجب أن ينشأ بنك مركزي للاصدار ، ليجارى هذا التقدم التجارى ويزكيه ، وأن يصلح نظام الائتمان بحيث يكون وسيلة لخدمة التجارة ومدها برءوس الأموال .

جهادنا العلمى

١٥ — ومصر ة التى ستتزعم الشرق وتضيء على العالم ، يجب أن تستمد هذا النور من قرائح أبنائها ، فيجب أن يصبح التعلم الابتدائي مجانا ، وأن تقل نفقات التعليمين الثانوي والعالى لتكون فى متناول أفقر الطبقات ، ويجب أن تنشأ معاهد الدراسات المختلفة فى كل نواحى الحياة ، وأن ترصد عليها المخصصات ليعيش منها العلماء والباحثون .

١٦ — يجب أن تفتح الجامعة أبوابها على مصراعيها لكل من يريد الانتساب اليها من مصر أو الشرق ، وأن تشجع البحث العلمى ، وأن ترسل البعثات الى سوريا وفلسطين والعراق وايران والهند ومراكش وغيرها ، لتبحث وتنقب وتعلم وتنشر العقلية المصرية فى أرجاء العالمين .

١٧ — يجب أن نهتم بالحفريات الخاصة بالآثار لنكشف مغاليق التاريخ المصرى فى عصوره المختلفة ولنخرج الكنوز التى لم تكشف بعد .

١٨ — أماني الطب ، فيجب أن يعاود المصريون نبوغهم وأعجازهم الفنى، لينقذوا الشعب فى مصر ، ولينقذوا الانسانية من الأمراض التي تفتك بها .

١٩ — أما الأزهر ، فله دور عظيم يجب أن ينهض به ، وأن يستعيد مركزه القديم، ويجب أن يسري رسالته فى أنحاء العالم ، وأن يرتفع صوته عاليا بين الأمم الاسلامية . ويجب أن تفتح المدارس والمعاهد باسمه لتعليم اللغة العربية والاسلام فى كافة أنحاء الشرق والغرب، وفي أمريكا أيضاً . ويجب أن يتطور ويستخدم الأساليب الجديدة فى اعلاء كلمة الحق والدين .

٢٠ — يجب أن تنشيء الحكومة المؤسسات لمساعدة المكتشفين والمخترعين.

٢١ — يجب أن يكون فى كل قرية مكتبة وأجهزة للراديو لسماع التعاليم الدينية والخلقية والعمرانية .

جهادنا الاجتماعى

فى الدين والاخلاق

٢٢ — يجب أن نعيد للأديان كامل احترامها وقداستها .

٢٣ — يجب أن نرق الأخلاق ، وأن نحارب الدعارة والخمور والتخنث .

٢٤ — يجب أن نعلم الصدق ، وأن نخلص فى العمل ونستمسك بالتعاون ، وأن يحب بعضنا بعضاً .

٢٥ — يجب أن نقدس الشرف والواجب، وأن نقلل من اللهو والمزاح .

٢٦ — يجب أن يصبح التجنيد اجباريا للجيش ، وأن تنقص مدة الخدمة فيه ، وأن يمتلىء الشباب بالروح العسكري .

فى الأسرة

٢٧ — يجب أن تنظم الأسرة على قواعد قوية من الحب ، والاحترام المتبادل بين الأبناء والآباء ، والجهاد المشترك ، والوفاء بين الزوج وزوجته .

٢٨ — يجب أن نعنى بالطفولة باعتبار أنها مصر المستقبل .. مصر العظيمة .. فيجب أن نعدهم ليكونوا علماء وغزاة ونوابغ وعمالا منتجين .

٢٩ — يجب أن نرق المرأة ونعلمها العلم الكامل ، لكى تكون زوجة صالحة ، ولتكون أماً تخلق الأبطال ، وليكون بيتها نعيم الحياة .

٣٠ — يجب أن نقضي على الأنظمة البالية التى تعرقل حركة الزواج ، فتلغى المهور الباهظة والحفلات الهوجاء .

فى الصحة

٣١ — يجب أن يكون للصحة العامة المقام الأول فى جهود مصر الفتاة . ويجب أن تكون سياسة الصحة هي سياسة الوقاية لاسياسة العلاج ، واذن فيجب أن ينصرف الجهد الى حماية الطفولة .. والى حماية الأبصار والى حماية الأبدان من الأمراض المتوطنة .

٣٢ — يجب أن توضع قوانين صارمة لأحلال النظافة فى كل شىء ، ويجب أن يجند الشعب في الملاعب الرياضية، لنخلق جيلا كاملا قوياً سليما . وتمهيداً لذلك يجب أن ينشأ ملعب كبير بالقاهرة .

فى التأمين الاجتماعى

٣٣ — يجب أن ينظم التأمين الاجتماعي بحيث يصبح لكل فرد فى الأمة الحق فى أن يكون له عمل يعيش منه ، واذا كان عاجزاً لا يستطيع العمل وجد الملاجىء ليأوى اليها .

٣٤ — يجب أن تعد المستشفيات بحيث تتسع لقبول أى مريض يلجأ اليها ، وأن تنشأ فروع لكل أنواع الأمراض .

٣٥ — يجب أن يصبح الشعب شعباً مدخراً ، وأن يقلع عن الاسراف ، بتكوين رءوس الأموال اللازمة لتكوين الأمبراطورية المصرية .

٣٦ — يجب أن يكون للشعب أعياده ليحتفل بها كما يليق بشعب كبير لتكون أعظم مشجع على المضى فى طريقه الى الأمام .

الأغانى والفنون

٣٧ — يجب أن تتبدل الأغانى لتكون مليئة بالقوة والحياة ، أن يحفظ المصريون النشيد القومى .

ويجب أن نعيد الى الفنون عظمتها الفرعونية والعربية ، حتى تقف فى خدمة البعث والأحياء ، لا أن تكون وسيلة للهو والفجور .

القاهرة

٣٨ — ويجب أن تنظم القاهرة تنظيما يليق بعاصمة الشرق فتؤلف لها بلدية، وتوضع التشاريع لتجديدها وتنظيم أبنيتها وازالة الأحياء القديمة بأسرها .

ويجب أن تطبع فى تخطيطها بالطابعين العربى والفرعونى ، وأن تبنى منشآتها العامة على هذا الطراز، وأن تنظم ميادينها وشوارعها وحدائقها كذلك . .

وسائلنا

أما وسائلنا للوصول الى كل ذلك فليست حربا وقتالا ، وليست عدوانا أو صداما ، ولكنها تتلخص فى كلمتين :

الايمان . . . والعمل



نحو العمـــل

— ٥ —

كان أول إجراء فكرنا فيه لنبدأ كفاحنا أن نرفع صورة من برنامجنا إلى جلالة الملك المغفورله أحمد فؤاد ، وكان لايزال يقيم فى الأسكندرية ، حيث يمضى فصل الصيف . فكلفت أحد الخطاطين المهرة أن يكتب لى البرنامج على ورق فاخر بخط جميل . فأحسن القيام بهذه المهمة . ووضعت البرنامج داخل مظروف كبير وسافرت إلى الأسكندرية ، وتوجهت على الفور ، إلى سراى رأس التين، فاستقبلنى الأمناء هناك ، وعلى رأسهم محمد بك حسين . الذى كان يعرفنى من قبل بمناسبة مشروع القرش . وبعد أن وقعت في دفتر التشريفات باعتباري رئيس جمعية مصر الفتاة ، قدمت اليهم رسالتى التى حضرت إلى الأسكندرية لرفعها لجلالة الملك . فأسرعوا إلى فضها ، وتلاوة ما فيها ، حتى إذا ماوصلوا في تلاوة البرنامج إلى الفقرة الخاصة بغايتنا والتى تقول « وغايتنا أن تصبح مصر فوق الجميع ، امبراطورية عظيمة تتألف من مصر والسودان، وتحالف الدول العربية ، وتتزعم الأسلام » لم يكد القوم يصلوا إلى هذه العبارة حتى غصت بها حلوقهم وجحظت أعينهم ، ونظروا إلى في ريبة وتشكك ... من أنا ؟ أمجنون أم عاقل ، وراحوا يتناجون فيما بينهم ، ويعرض كل منهم على زميله هذه العبارة فلايلبث أن يدهش الدهشة كلها ، ويتساءل عن ماهية الموضوع ، ومن أكون ، فيتقدمو ننى له كسكرتير لمشروع القرش ، فيرفع حواجبه في استغراب وتعجب !. وأخيرا جاء بعض الأمناء فأخرجهم من هذه الدهشة ، إذ سألنى « هل سبقت لك معالجة الروايات التمثيلية ؟ إنك تجيد التأليف بدرجة مدهشة ، إن لك خيالا ساحراً .. » وراح يسخر ويهزأ على هذه الوتيرة . ولقد واجهت هذه العاصفة من الدهشة والسخرية والاستنكار

بهدوء وصبر ! . إذ كنت قد وطدت نفسى على احتمال كل شيء فى سبيل دعوتى . وكنت أقدر سلفا ماسوف يلاقينى من صعوبات وويلات واضطهادات .

طلبت الى القوم أن يرفعوا رسالتي إلى جلالة الملك بالرغم من آرائهم فيها، ولكن واحداً منهم لم يجسر على أن يمس الرسالة بيده !. فقد تحولت فى نظرهم إلى عمل منكر ، قد يعرضهم لما لاتحمد عقباه . وراحوا يتفاوضون ويتداولون فيما يعملونه ، وأخيراً استقر رأيهم على إبلاغ الموضوع لعبد الوهاب بك طلعت، وكيل الديوان فى ذلك الوقت ، فحملوا اليه الرسالة . وقد كان الرجل أكثر إدراكا منهم ،فلم يرحرجا في استقبالى وسماع ماجئت من أجله ! . فتمت المقابلة وتلطف معى ووعدنى بالنظر فيموضوع رسالتي، ورفعها إلى جلالة الملك ، ففرحت غاية الفرح ، وخرجت من القصر وأنا أتنفس الصعداء إذ فرغت من هذه المهمة التي كان لابد من القيام بها لدى جماعة جعلت تعظيم الملك ، والالتفاف حول عرشه أحدشعائرها !.

لم أعرف مصير هذه الرسالة إلابعد انقضاء فترة طويلة من الزمن قد تبلغ الشهر ، عند ما استدعانى محمود فهمى القيسى باشا وزير الداخلية في وزارة عبد الفتاح باشا يحيى، التي كانت فى الحكم فى ذلك الوقت ، وأطلعنى علىهذه الرسالة وقال : إن القصر الملكى قدحولها إليه ليتكلم معى فيها . وقد أثنى الرجل على الروح التيانطوت عليها مبادىء حزب مصر الفتاة، وراح يحدثني عن حماسته لتشجيع الصناعات المصرية ، وكيف أن أثاث مكتبه في الوزارة مصنوع كله فى مصر ، ودعانى للتعاون معه فى تحقيق كل مايمكن تحقيقه من برنامج مصر الفتاة بصدد تشجيع الصناعات المصرية . ولقد علمت فيما بعد ، وبعدانقضاء أكثر من سبع سنوات على تأسيس مصر الفتاة، عندما قابلت المرحوم زكى باشا الابراشى لأول مرة ، وقد كان متقاعدا في ذلك الوقت ، أن جلالة الملك فؤاد تقبل برنامج مصر الفتاة بقبول

حسن ، وابتهج ابتهاجا عظيما لروح الأخلاص الذي تفيض به كل عبارات البرنامج المذكور ، وروح التعمق في دراسة المشاكل المصرية . وأنه استدعى زكى باشا الابراشى ناظر خاصته وموضع سره وأطلعه على هذا البرنامج، مزهوا بالشباب المصرى الذى وصل إلى هذه الدرجة من النضوج . وقال له إن هذه الروح هى التى يجب أن تزدهر فى مصر ، ولابد لازدهارها من أن تبتعد كل البعد عن القصر ، لئلا يحاربها الانجليز حربا باطشة ، فان أخشى ما أخشاه أن يظن الانجليز أننى المحرض للشباب على السير فى هذا الطريق ، فيبطشون بهم ، فلا ينبغى أن تكون لهم بنا أى علاقة أو صلة على أن ذلك لا يمنع أن نوصى بهم وزير الداخلية القيسى لكى يبذل لهم كل عون مستطاع . ولقد فسر لى هذا الحديث المتأخر ، سر دعوة القيسى باشا فى ذلك الوقت للتعاون معه ، والتي لم أكن أدرك لها معنى بعد أن كانت الحرب قد أعلنت بين وزارة الداخلية وبين مصر الفتاة .

مصر الفتاة والشباب

واندع حديث الحكومة وموقفها من مصر الفتاة ريثما نتحدث أولا عن موقف الشباب منها .

خرجت مصر الفتاة إلى الوجود فى صورتها الأخيرة ، بهذا النداء ، وهذا البرنامج الذى أذعناه فى طول البلاد وعرضها . فهؤلاء الذين عملوا فى مشروع القرش والذين طافوا بالقطر المصرى ، فى أثناء دعوتهم لهذا المشروع ، قد انطلقوا فى ليلة واحدة ، شرقا وغربا ، يوزعون مئات وألوفا من هذا النداء ، بحيث أحست البلاد من أقصاها لأدناها بهذه القذيفة الجديدة .

ولقد كانت قذيفة من غير شك فلم يسبق لحزب من الأحزاب أو هيئة من الهيئات ، أن تقدمت للشعب المصرى بهذا البرنامج الكامل ، الذي يتناول مختلف المشاكل المصرية ، اجتماعيـة كانت أو اقتصادية أو سياسية . . لم يسبق لمصر أن عرض عليهـا مثل هذا المشروع لأعادة بناء كيان البلاد . فالوفد الذي يمثل أغلبية الرأى العام لم يكن له برنامج واضح محدود ، فيما خلا هذه العبارة العامة الغامضة « السعى لتحقيق استقلال مصر ما وجد

لذلك سبيلا» . ومن قبل ذلك، كان الحزب الوطنى يكافح فى سبيل إجلاء الأنجليز ، وكان زعماء مصطفى وفريد يقدران خطورة المسائل الاجتماعية والاقتصادية في كفاحهما ضد الأنجليز، ولذلك فقد عملا على نشر التعليم، وتأسيس الجامعة ، وتدعيم الحركة التعاونية فى البلاد ، ولكن جهدهما الرئيسى كان موجها للكفاح من أجل الجلاء ، ونشر الدعاية للقضية المصرية فى أنحاء العالمين، فلم يكن للحزب الوطنى برنامج مفصل. ولقد وجدت فى مصر بعد إنشاء الوفد هذه الأحزاب الطفيلية التى انشقت على الوفد وخرجت عليه، وهذه بدورها لم يكن لها برنامج ولا هدف محدود، إلا محاربة الوفد والتعاون مع الانجليز، ليكون ذلك سلماً للوصول إلى الحكم. فلم تكن لها مهمة فى الداخل، أو الخارج، إلا تقلد مناصب الحكم. وظلت البلاد ، حتى خرجت مصر الفتاة إلى الوجود، وليس لها برنامج كامل شامل ، يتناول نواحى الحياة المصرية بالدرس والتحليل، ويضع العلاج لكل قضية من القضايا، أو مسألة من المسائل.

واليوم ، وبعد انقضاء ثلاثة عشر عاما من اذاعة برنامج مصر الفتاة ، قد تعددت البرامج، وتسابقت الهيئات والجمعيات والأحزاب ، بل والحكومات، فى نشر برامج إصلاحية . بل أن من هذه البرامج ، ماقد يذهب إلى أبعد مما ذهبت إليه مصر الفتاة في بعض أجزاء برنامجها ، وليس ذلك كله إلا آية نجاح مصر الفتاة وانتصارها ، فقد كانت أول دعوة مصرية رسمت لأحيـــاء مصر وانهاضها ، مشروعا كاملا ، ينتهى بمصر إلى تحقيق كل ماتصبو إليه من مجد وحرية ... ومازلت أذكر ، حتى هذه الساعة ، تعليق سعادة على باشا ابراهيم على برنامج مصر الفتاة ، إذ وصفه لأعضاء مجلس إدارة جمعية القرش بأنه أشبه الأشياء ببرنامج موسولينى لأحياء إيطاليا، وراح على باشا ابراهيم يتحدث فى حماسة وحرارة عن الصدى الذي تركته في نفسه تلاوة هذا البيان فـكان أجمل مكافأة شعرت بها في هذه الأيام ، أن أسمع من فم ذلك الجراح العبقري مثل هذا الثناء على برنامج مصر الفتاة .. وحدث عن حماسة الشباب التي استقبلوا بها برنامج مصر الفتاة . هؤلاء الشباب الذين تحمسوا

لمشروع القرش بالأمس ،فسرعان ما أدركوا أن مصر الفتاة ليست سوى الخطوة الطبيعية التى ينبغى أن تتلو ماصادفناه من نجاح فى مشروع القرش، فأقبلوا على إدارة جريدة الصرخة ، التى اتخذنا لها مقرا فى مكتب أحد المحامين بشارع محمدعلى، فكانت تغص بأرقى طبقات الشباب المثقفين من طلاب الجامعة وخريجيها من المحامين والأطباء والمهندسين ، ولا تزال جريدة الصرخة تحمل آثار هذا الرعيل الأول من الشبان ، الذين لبوا صرخة مصر الفتاة الأولى ونداءها، وهرعوا من كل فج عميق يبايعونها، ويأخذون على أنفسهم العهد والميثاق أن يمضوا حتى النهاية في نصرتها .

مصر الفتاة والوفد

ولكن ميلاد مصر الفتاة قد أحدث انزعاجا فى دوائر الوفد العليا ، فقد نظرت إليها نظرة شك وريبة ، وكان على أن أواجه هذه المشكلة أول ما أواجه ... فقد سبق للوفد أن أبدى عدم ارتياحه لمشروع القرش ، فى مراحله الأولى ، إذ توجس منه خيفة ، وساورته الشكوك والوساوس . كان الوفد يحارب فى تلك الأيام وزارة صدقى باشا ، وكان أقصى مايتمناه أن يكرس الشبان كل نشاطهم ، وكل جهدهم ، لمحاربة صدقى باشا وإسقاط حكومته. فلما أن دعوت إلى مشروع القرش، وهو مشروع قومى بحت لا يمت إلى الحزبية بصلة ، ويعتمد على معاونة كل مصرى بدون تفريق بين الحكومة والشعب، أو بين حزب وحزب، لم ترق هذه الدعوة لدى الدوائر الوفدية ، ورؤى فيها محاولة لأضعاف كفاح الوفد، وصرف الشبان عن الاشتغال بالسياسة الحزبية ، والتفرغ للمسائل الاقتصادية والاجتماعية، وهو ما كان الوفد ينفر منه أشد النفور فى ذلك الوقت ، باعتباره صارفا لجهود الأمة، ومهدئا من حدة كفاحها. وغنى عن البيان أنى لم أكن أشاطر الوفد هذه النظرة ، فأنا منذ الساعة الأولى التي عرفت فيها نفسى أو من أشد الايمان بضرورة الكفاح الاقتصادي والاجتماعى والعمرانى ، إلى جوار الكفاح السياسى . بل إن غاية الكفاح السياسى هى أن يتاح للأمة أن

تنهض وترقى بدون عائق يعترض مشيئتها . فكل عمل في سبيل الاستقلال الاقتصادى هو عمل فى سبيل الحرية ، وكل عمل من أجل الحرية هو وسيلة للوصول إلى الاستقلال الاقتصادي والاجتماعى والروحى . ولذلك فلم ألق بالا لاعتراض الجرائد الوفدية ضد مشروع القرش فى بادىء الأمر ، ومضيت في طريقى لا ألوى على شىء ، إلى أن تبنت الأمة كلها المشروع كما رأينا ، وأصبح مشروعا قومياً ، يتحمس له كل مصري . فلم يسع الوفد إلا أن يجارى التيار فى ذلك الوقت ، وخف النحاس باشا إلى تأييد المشروع ، وإنى لأذكر الآن هذه الليلة التي ذهبت فيها إلى دار مصطفى باشا النحاس بمصر الجديدة ، لأتلقى منه اكتتابه فى مشروع القرش ، وكان الوفد هذه الليلة مجتمعا ، فتبرع النحاس باشا بخمسة عشر جنيها ، وتبرع كل عضو من أعضاء الوفد بجنيه ، ثم رؤى أن يضاعف النحاس باشا اكتتابه ، فزاد المبلغ إلى ثلاثين . وفى ذلك الوقت دخلت متطوعتان من متطوعات مشروع القرش تعرضان طوابع القرش فاشترى النحاس باشا من كل واحدة منهما بخمسة جنيهات أخرى ، ثم عاد أعضاء الوفد فضاعفوا من قيمة اكتتابهم ، وخرجنا هذه الليلة بما يقرب من السبعين جنيها اكتتابا فى المشروع ، وقد كان إعلان ذلك نجاحاً كبيراً إذ استطاع ، فى نهاية الأمر ، أن ينال ثقة الدوائر الوفدية التى كانت لاترضى عنه أولا .

على أننى لم أكد أجهر بدعوة مصر الفتاة ، حتى انفجر سخط الوفد ورأى فى ذلك مايعزز شكوكه القديمة وأوهامه ، من أن مشروع القرش لم يكن إلا خطة مدبرة لتحويل أنظار الشبان عن الجهاد تحت راية الوفد . وبدأت الصحف الوفدية تناوش المشروع وتتهمه بأنه أداة سياسية . فرأيت أن أسرع إلى مقابلة النحاس باشا ، لكى أزيل كل لبس وغموض فى موقفى ، ولأبرهن له على وطنيتى وإخلاصى ، وأننى سأكون عنصرا معاونا له في كفاحه ضد الانجليز ، ولست عنصرا معارضا . وقد قابلنى النحاس باشا فى بيت الأمة ، ولازلت أذكر هذه المقابلة الأولى بينى وبين رئيس الوفد ، والتى كان معنا فيها الاستاذ حسن يس فى أحد أركان القاعة .

واجهنى النحاس باشا كعادته مهاجما بسيل من الاتهامات ، فلا بد أن أكون صنيعة للابراشى باشا ناظر الخاصة الملكية ، الذى كان يسيطر على السياسة المصرية فى ذلك الوقت ، وكان الوفد يعتبره خصمه اللدود. وعلم الله أننى لم أكن رأيت الابراشى باشا هذا فى حياتى ، بل أنى لم أره إلا بعد بضع سنوات من هذه المقابلة، وبعد أن زال كل سلطان للابراشى باشا، بل وبعد أن أصبح مرضيا عنه من الوفد بالذات . ومع ذلك فقد اتهمنى النحاس باشا بأننى صنيعة له ، وأنه قد اختـــارنى لكى أحارب الوفد بأسـلوب ملتو. وكانت حجة النحاس باشا الكبرى فى اتهامه نى تتلخص فى المال الكثير الذي تخيل أننى أنفق منه على حركة مصر الفتاة ، فقلت له هل إذا استطعت أن أثبت لك مورد رأس مالى فى جهـادى ، وإذا استطعت أن أثبت لك براءته وطهارته من كل شائبة ، فهل يرضيك ذلك ويقنعك أنني لست صنيعة للابراشى، وإنما أنا شاب وطنى مجاهد ، يتلمس السبيل لنصرة بلاده . إذن فاعلم يادولة الباشا أنني بمجرد تخرجي من كلية الحقوق سعيت لعقد قرض فى بنك مصر بمبلغ مائتى جنيه ، بضمانة أحد أصدقائى وهذا المبـلغ الصغير المتواضع هو الذي بدأت به عملى فى الحياة . وهو الذي أنفق منه على جريدة الصرخة ، وهو الذى أنفق منه على جمعيـة مصر الفتاة ، فى مقدروى أن أطلع دولتك على مصاريفنا بالتفصيل، لترى أننا لسنا أغنياء، كما تتوهم، وأنه لامورد لنا إلا ثمرة مجهودنا فى تحرير المجلة ونجاح توزيعها .

ولقد أسرعت على الفور فأطلعت الباشا على بعض الأوراق التي تثبت صحة ماأقول. ولكن الرجل ظل يرتاب فيما أقول . وانتقل من الشكل إلى الموضوع ، وأخذ يتفحص مبادىء مصر الفتاة، ويناقش محتوياتها، ثم وقف طويلا أمام شعارنا « الله ــ والوطن ــ والملك » وقد كان من الواضح أن هذا الشعار المثلث يضايقه كل المضايقة ، ومازلت أذكر حتى الآن اعتراضه على وضع كلمة الله فى برنامج سياسى وكيف رأي في ذلك لونا من ألوان الشعوذة، ثم حام حول كلمة الملك ولكنه لم يقل إلا خـيرا . ولقد رحت أحاجه

على الفور ، وأرد كل اعتراضاته ، ومازلت أذكر قولى رداً على اعتراضه على ابتداء الشعار بكلمة الله : « إن الذي لاخير فيه لربه لا يمكن أن يكون فيه خير لوطنه أبدا ، وكل عمل لا يبدأ باسم الله فهو عمل لا ينجح ، وإننى أؤمن كل الايمان أن التدين والوطنية يسيران جنبا لجنب ، فكلاهما يفيض من نبع واحد ، نبع المحبة للمثل الأعلى والحق والعدالة . »

ولقد تضايق النحاس باشا أشد المضايقة لمناقشتي إياه ، ورأى فيها اجتراء عليه ، فراح ينعى على عدم انضمامى إلى الوفد والعمل تحت لوائه ، مع أن هذا هو السبيل الوحيد لأبراز وطنيتى ، والكفاح فى سبيل بلادى ، وتوعدنى أن مصيري لن يكون غير الخذلان والفشل الذريع الذى كان من نصيب كل من حاول الخروج على الوفد أو التصدى لمحاربته ، ولأن الأمة لم ترحم أحدا خرج على الوفد وانشق على زعامته . وراح دولته يعدد لى أسماء الذين خرجوا على الوفد ، أفرادا وجماعات ، وكيف نبذتهم الأمة وهدمتهم وحطمتهم تحطيما . فأسرعت بالرد على دولته ، مظهرا له أننى استطيع أن أخدم بلادى ، بل وأن أخدم الوفد نفسه ، باستقلال حركتى . فان وجود حركة وطنية متطرفة إلى جوار الوفد تفيده ولا تضره ، تفيده لأنها تظهره أمام الانجليز والأجانب بمظهر الاعتدال ، فيسرعون إلى التفاهم والاتفاق معه ومقابلته فى منتصف الطريق ، وقيام هذه الهيئة المتطرفة لا يضر الوفد ، لأنها لا تنتسب اليه . وهكذا يستطيع الوفد أن يكسب من وجودنا ، ولا يخسر ، وأن يكسب للأمة ، بأسلوبه وطريقته ، مايستطيع من مكاسب ومغانم .. أما عن التهديد الذى وجهه إلى فقد قلت له « إننى رجل مؤمن ولا توجد قوة على ظهر الأرض تستطيع أن تنال من المؤمن ، وإذا كان النحاس باشا قد نجح فى هدم كل الذين خرجوا عليه فما ذلك إلا لأنهم كانوا يستحقون الهدم ، بل كانوا يحملون عناصر هدمهم فى نفوسهم . أما بالنسبة لى وإخوانى

فنحن نحمل في أنفسنا كل عناصر الصلاحية للحياة ، نحمل الأيمان والشباب والاخلاص ، وليس وراء ذلك أسلحة يمكن أن تكفل لنا النصر فى معركة الحياة .؟

وعند هذا الحد انتهت المقابلة ، وانتهت إلى غير نتيجة حاسمة ، فقد خرجنا منها كما دخلنا غير متفاهمين ، بل لعلنا خرجنا منها أكثر افتراقا مما دخلناها . وقد كان ذلك يؤسفنى أشد الأسف ، فليس هناك شك في أن الوفد، كان في ذلك الوقت، يمثل الأغلبية الساحقة لأبناء البلاد ، وكان يمثل القوة الشعبية التى ترفع لواء المقاومة فى وجه الانجليز ، وفى وجه الاعتداء على الدستور . ولم أكن أميل إلى الاصطدام بهذه القوة الشعبية ، بل كنت أصبو إلى أن أوفق فى خلق جو يساعدني على التفاهم والتعاون مع الوفد ، حتى أستطيع في ظل هذا التعاون أن أدعو لمبادئى العملية فى أوساط الشعب . ولكنى لم أوفق كما قدمت ، ولقد سبب لى ذلك متاعب كثيرة .

بدأت حملة المجلات والصحف الوفدية تشتد على بعد هذه المقابلة ، وبدأت جهود الشبان الوفديين المضادة لمصر الفتاة يظهر أثرها في الجو . وكان مشروع القرش هو محور هجومهم ، فأشاعوا وأذاعوا أنى اختلست بضعة ألوف من أموال هذا المشروع .

وقد كانت هذه أول فرية ضخمة ألقاها فى حياتى العامة ، ومع ذلك فقد رضت نفسي على الصبر عليها ولم تزدنى هذه الاكذوبة الاثمة إلا ثقة واعتدادا بنفسى ، لأنى أدركت أن خصومى لن يستطيعوا محاربتى إلا عن طريق الخسة والنذالة ، وليس وراء ذلك دليل على قوتى وصدق جهادى .

واشتدت الحملة على مشروع القرش ومصنع الطرابيش، وخشيت على هذا المشروع الوليد أن يتصدع تحت ضغط الهجوم الوفدى والدعاية الوفدية ضده ، وكنت حتى ذلك الوقت لازلت أتقلد منصب السكرتير العام لجمعية القرش.. فرأيت أن الساعة قد حانت لكى استقيل من المشروع ، وأتفرغ لجهادى فى مصر الفتاة ، ولكى أتحرر من هذه المسئولية

الثقيلة ، مسئولية مشروع القرش ، وبعثت باستقالتي إلى سعادة على باشا ابراهيم ، وكتبت فى الصرخة معلقا على هذه الاستقالة بالعبارات الآتية :

« فى سبيلك يارب قدمت استقالتى من جمعية القرش .

وفى سبيلك يارب وفي سبيل إعلاء كلمتك ماسيصادفنى في طريقى من عقبات واضطهاد .

وفي سبيلك يامصر قدمت استقالتى من جمعية القرش .

وفى سبيلك وفى سبيل مجدك ماينتظرنا من تشريد وسجن وعذاب .

وفي سبيلك وعلى مذبحـك أقدم مالى ونفسى وروحى فما أحوجك اليوم الى للتضحية .

لقد تم مشروع القرش ، ولقد تم مصنع الطرابيش فلم يعد لى عمل هناك .

لقد أديت واجبي منذ كنت طالبا ، فساهمت بالطريق والكيفية التى سمحت لى بها الظروف .

أما اليوم فمصر فى حاجة إلى دم بنيها يسفكونه من أجل مجدها .

لقد انتهت ساعات التمهيد ، ولم يبق إلا الكفاح ، الكفاح العلنى المستميت فاما موت وإما حياة . وليحي الملك . »

ولم تكن هذه أول مرة أستقيل فيها من جمعية القرش ، فقد سبق لى أن قدمت استقالتى عدة مرات ، ولكنها لم تكن تقبل . أما هذه المرة فنظرا للصعوبات التى بدأت تحيط بالمشروع من النـاحية الشعبية ، ونظرا لموقف الوفد العدائى للمشروع ، فقد وافق أعضاء مجلس إدارة جمعية القرش على هذه الاستقالة مكرهين . وقد حاولوا بطبيعة الحال أن يثنونى عن طريقى الجديد وأن يغرونى بالاستمرار فى طريق مشروع القرش ، وأن أكرس حياتى في خدمة مصر من الناحية الاقتصادية البحتة ، وكيف أن بقائى على رأس مشروع القرش سيمكنني من تنفيذ برنامجى الذي يتلخص في إنشاء مصنع جديد فى كل عام ، فلا تمضى عشر سنوات حتى أكون قد ملأت مصر بالمصـــانع التى يعمل بها ألوف وألوف من العمال ! . ولكن ذلك كله لم

يكن ليؤثر على عزمى وتصميمى فى وجوب المضى فى الكفاح السياسى حتي النهاية ، متصديا للانجـــليز والأجانب ، متصديا لكل العناصر السيئة والهدامة ، والمعوقة لنهضة البلاد ورقيها .

على أن رجال جمعية القرش لم يلبثوا أن شعروا بعدم إمكانهم الاستغناء عنى، فأرسل إلى سعادة على باشا ابراهيم فى ديسمبر سنة ١٩٣٣ الخطاب التالى:

حضرة المحترم الاستاذ احمد حسين المحامى

تحية وبعد : لما كان المجلس حريصاً على أن لا تحرم الجمعية من جهودكم وخبرتكم فقد قرروا اشراككم فى لجنة تنظيم الاكتتاب هذا العام ، لهذا أبلغ حضرتكم هذا القرار لتبدأ فى العمل المذكور بما عهد فيكم من النشاط والغيرة على المشروع

وتفضلوا بقبول فائق احتراماتى :

رئيس مجلس الادارة

على ابراهيم

ولقد علقت على هـذا الخطاب بكلمة حارة في مصر الفتاة ، أرى أن أثبتها الآن بنصها، لأنها تلخص تاريخ هذه الايام ، وتعطى صورة دقيقة عن العوامل النفسية التى كانت تعتلج في صدري وقتئذ، وهى :

ياصاحب السعادة :

جاءنى من سعادتكم هذا الخطاب، وانى لعاجز عن التعبير عما يخالجنى من الشكر العميق لهذه الثقة التي غمرتمونى بها فى خطابكم الرقيق ، والحق أننى لا أتردد لحظة فى أن أقدم نفسى وجهدى وكل ماأملك ، أنا وزملائى، فى سبيل مشروع القرش وانجاحه ، لأنه ليس الا قطعة من أنفسنا وصرخة من صرخاتنا الأولى فى الحياة المصرية المليئة بالغيوم والمليئة بالآلام .

واذا كنت قد استقلت من مشروع القرش ، فما ذلك الا رغبة منى فى أن أقدم نفسى لفكرة أكثر تطوراً من مشروع القرش وأوسع مدى، فأعمل بحرية من أجل مصر العزيزة غير مقيد بقيد ، وغير حاسب لقوة ما حساباً، الا قوة الله وقدرته .

أجل لقد استقلت من جمعية القرش لأستطيع أن أقول كل ما فى نفس الشباب بحرية

وجلاء ضد الانجليز ، وضد الأجانب ، وضد الضعف الذى يسيطر على المجتمع المصرى ، وضد الخلافات والحروب الداخلية ، وضد الجهل والفاقة. ولكي يعمل الشباب الذي استيقظ عملا ايجابيا من أجل أمته ، حتى تثير الحيوية المصرية من جديد ، وحتي نعيد الثقة الى النفوس من جديد ، وحتى نعيد أخلاق الرجولة والتضحية من جديد . ونحمد الله ياصاحب السعادة أن الشباب بدأ يستجيب لدعوتنا . ان صرختنـا قد دوت فأيقظت الغافلين من رقدتهم . نحمد الله أن الشباب اليوم يريد أن يعمل مخلصاً من أجل الله، وفى سبيل الله ، مضـحيا الي أبعد حدود التضحية ، شجاعا الى أبعد حدود الشجاعة .

جاءنى خطاب سعادتكم يدعوني للعمل فى مشروع القرش، ولكي أعمل فى مشروع القرش يجب أن أبتعد عن الصرخة قليلا ، وأن أكف عن محاربة أعداء مصر قليلا ، حتي ينتهى الاكتتاب بعيداً عن المهاجات والمصادمات السياسية ، وأنا الذى تعرفنى، ياصاحب السعادة لا يؤثر فى تهديد أو اغراء ، فأصغيت لطلبك لأنه من أجل مصر وفي سبيل مصر . فلقد عرفت كيف تثير هذه العاطفة فى نفسى ، ولأنه صادر منك، أنت الشخص الذي علمنى كيف يبنى الانسان من أجل مصر ، وكيف يضحى الأنسان بكل شيء من أجل مصر ، ذلك أنك قدمت ياصاحب السعادة من أجل مشروع القرش كل شيء ، قدمت مركزك ، قدمت اسمك ، قدمت مالك ، قدمت جهدك ، قدمت أعز ما تنطوى عليه النفس البشرية وأعنى به ايمانك . قدمت كل ذلك يا صاحب السعادة فى وقت كان مشروع القرش فيـه فكرة يتناولونها بالسخرية والتحقير ، فى وقت كانوا يهاجمونه من كل ناحية . ولكنك آمنت بما فيه من حق ، آمنت بما فيه من خير لمصر فعملت فيه حتى انجحته ، وأخذت بيده حتي أصبح يافعاً يرفع راية مصر عالية . هذا المثال يا صاحب السعادة هو الذى جعلني أقبل طلبك أن أعود للعمل فى مشروع القرش من أجل مصر ، ولقد نفذت هذا مخلصا فكتبت فى جريدتي أعلن الهدنة حتى يتم الاكتتاب فماذا كان ؟ كان ياصاحب السعادة أن الحكومة منعت اجتماعا بريئا لمتطوعى مشروع القرش فى تياترو رمسيس ليشتروا طرابيشهم ، وكان أن انتهـك الجنود، حرمة جمعية القرش، لأول مرة فى تاريخها، لأنهم خشوا أن أكون من بين المتكلمين. ولقد عشنا في جمعية القرش سنتين لم يتعرض لنا جندى واحد فى الطريق فكيف بجمعية القرش اذن . فرجوعى الى جمعية القرش لن يفيدها، ولـكنه سيؤلب عليها الحكومة، وغير الحكومة ممن أصبحوا لا يطيقون سمـاع اسمى . من أجل هذا يا صاحب السعادة فانى أعتذر عن الرجوع الى جمعية القرش كى تظل فى منجاة من كل هجوم ، وأنقض الهدنة التى لم تستمر الا دقائق قليلة ، ودقائق أشعر الآن بحسرتها فى نفسى ، ولا يعزينى الا أنها كانت من أجل مصر وفى سبيل مصر .

لقد استقلت من جمعية القرش لأتفرغ لخدمة مصر بشكل آخر ، وهذا السبب لا يزال قائما ، واذن فلن أستطيع الرجوع .

واني أعتذر الى سعادتكم راجيا لكم التوفيق والنجاح . وليس لي الاجريدتي ، وقد أصبحت لسان الشباب ، ولسان حال مصر الفتاة ، وهأنا أضعها تحت تصرف الجمعية .

سائلا الله أن يكلل اعمالكم بالنجاح وأن يوفقكم لما فيه خير البلاد

وأما نحن فسنرفع الصوت مدويا . مصر فوق الجميع — الله أكبر (١)

وهكذا انقطعت، بصفة نهائية، كل صلة مادية بيني وبين مشروع القرش، أو مصنع الطرابيش. وإن كانت صلتي الروحية لن تنقطع بيني وبينه أبدا، فما كان مشروع القرش إلا وليد جهودى الأولى فى سبيل مصر ومجدها .

مصر الفتاة والحكومة

ولنصل الآن إلى موقف الحكومة من مصر الفتاة . !

ولعلك لاحظت فى رفض العودة إلى مشروع القرش هذه الاشارة إلى عدوان البوليس على دار جمعية القرش، والحيلولة بين المتطوعين وبين الاجتماع. فنحن الآن في شهر ديسمبر، أى بعد شهرين من إعلان برنامج مصر الفتاة، وفى ذلك الوقت كان اضطهاد الحكومة لأحمد حسين ومصر الفتاة قد بلغ أشده، وكانت الحرب بيننا وبين وزارة الداخلية هى حرب حياة أوموت. ففى هذه الفترة القصيرة زج بى إلى السجن لمدة طويلة، وصودرت جريدة الصرخة ، ولن يمضى إلا يسير وقت حتى يزج بي في السجن من جديد . وكان البوليس قد بدأ يضيق الخناق علينا محاولا خمد أنفاس حركتنا . ولكنى واخوانى وقفنا فى وجه الزوبعة لا نكل ولا نلين .

كانت الوزارة التي تتربع في كراسى الحكم هى وزارة عبد الفتاح يحيي باشا ،وهى وزارة تألفت على أساس دستور اسماعيل صدقى باشا، وكانت تحكم البلاد بقوانينه الاستثنائية، معتمدة على برلمانه ونوابه . ولكنها فى نفس الوقت كانت احدى وزارات القصر، التى تستمد كل نفوذها من القصر. ولذلك

(١) الصرخة العدد ١٢ — ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٣٣

فقد مرت الأيام الأولى على مصر الفتاة دون أن تتعرض لها الحكومة بخير أو شر. فقد كان ماشتهرعنى من استقلال عن الوفد، واعتدال في الرأي، وما أعلنته فى برنامج مصر الفتاة بالذات من دعوة إلى الالتفاف حول العرش ، كان لذلك كله أكبر الأثر فى أن مرت الأسابيع الأولى على إنشاء مصر الفتاة بدون معارضة أو مقاومة من الحكومة . بل لعل الهجوم الذى أسرع الوفد بشنه على مصر الفتاة قد كان من الحوافز التى دفعت الحكومةالىالأغضاء عن نشاط مصرالفتاة . وقد كان هذا الأغضاء بالذات أحد العناصر التى بنى عليها الوفديون اتهامهم لحركة مصر الفتاة، وأنها حركة تتصل بالقصر ، وإلا لما سكتت عنها الحكومة وأغضت عن نشاطهاوحماستها المتطرفة ، فى وقت سيطر فيه الجمود والركود على الرأى العام تحت ضغط الحكومة واضطهادها . ولكن الحكومة لم تتأخر طويلا ، فقد أسرعت ، بكل حولها وطولها ، لتبطش بمصر الفتاة البطشة الكبرى . ذلك أن المسيطر على وزارة الداخليـة ، فى ذلك الوقت ، كان هو الانجليزي المشهور السيركين بويد ، مدير قسم الادارة الأوربية. وكان جنابه هو الحاكم بأمره في وزارة الداخلية، والذى لا يخالفه وزير أو رئيس أمرا من الأمور . ولقد سكت جنابه على مضض فى الأيام الأولى لمصر الفتاة إلى أن جاءته الفرصة بعد شهر واحد من تأليفها ،عندما أصدرنا عددا خاصا من الصرخة بمناسبة ١٣ نوفمبر،وعدنا فيه إلى استئناف الجهاد والنضال من أجل حرية مصر واستقلالها . كان العدد المذكور يتضمن مقالات نارية وصورا رمزية، كان نشرها فى ذلك الوقت يشبه أن يكون قنبلة منفجرة فى سماء الحياة الوطنية . فأما صورة الغلاف فقد سجلت تاريخ « ١٣ نوفمبر » بألسنة من اللهب المتصاعد من نيران مشتعلة رمزا للثورة المصرية في سنة ١٩١٩ ، ومن خلال اللهب برزت ثلاثة رءوس لزعماء مصر الثلاثة الذين كان ذهابهم إلى العميدالبريطانى ،فى ذلك الوقت،

هو بمثابة إشعال نيران الثورة. ونعني بهؤلاء الثلاثة سعد زغلول وشعراوى وعبد العزيز فهمى . وكان في الداخل صورة رمزية أخري « لحامل العلم أو الشهيد المجهول » وهو يجندل برصاص الانجليز فيقع على الأرض هاتفا « فى سبيلك يامصر » .

على أن ذلك كله لم يكن شيئا مذكورا إلى جوار المقال الافتتاحى الذى جعلت عنوانه « ياشباب عام ١٩٣٣ كن كشباب عام ١٩١٩ (١) »

---

(١) يحسن بنا أن نثبت للذكري والتاريخ نص هذا المقال الذى كان فاتحه تطور كبيرفى حياة مصر الفتاة :

ياشباب سنة ١٩٣٣ كن كشباب سنة ١٩١٩

كن كهذا الشباب الذى قدم نفسه وقوداً للجهاد والوطن ، كن كهذا الشباب الذى أشعل الثورة في وقت لم يتوقع الناس فيه الثورة .

ثورة جائحة ضد الانجليز ، والأجانب . لا تعرف هوادة ولا لينا ، لاتعرف تعقلا الا خلاص الوطن من ربقة الاستعباد .

ياشباب عام ١٩٣٣ ، يامن امتلأت بك السينمات وامتلأت بك دوراللهو، وامتلأت بك المواخير والملاهى .

ياشباب عام ١٩٣٣ يامن تهزأ بكل شيء ، وتسخرمن كل شيء ، وتجهل معنى الاستقلال والتضحية .

ياشباب عام ١٩٣٣ يامن لا تعرف من أمور الكفاح الا أن تتناقش وأن تكون سليط اللسان ، تهاجم زيدا أو عمرا من الناس .

ياشباب عام ١٩٣٣ ، يامن تعرف من شئون الممثلات الداخلية أكثر مما تعرف من شئون أمتك ووطنك .

ياشباب عام ١٩٣٣ ، يامن لا تتغنى الا باغانى الهوى والضعف والخمول .

ياشباب عام ١٩٣٣ ، هل استيقظت من سباتك وعرفت أن الساعة ساعة جد وأن الضحك يجب أن لا يعرف السبيل الى القلوب . كيف تضحك !؟ ولماذا تضحك ؟ وهذه جيوش الأنجليز تسد علينا السهل والجبل .

كيف تضحك ولماذا تضحك والموظفون الأنجليز يحكمون البلد .

ويرجع الفضل إلى الاستاذ فتحى رضوان فى كتابتى لهذا المقـال الثوري ، بل ودفعى دفعا إلى طريق الثورة على الانجليز منذ ذلك التـاريخ إلى اليوم ، والفضل الذي أعنيه هو فضل غير مبـاشر أو غير مقصود ، فقد دأب الاستاذ فتحى ، الذى كان فى ذلك الوقت صديقى الوحيد ، على انتقاد جميع تصرفاتى وتجريحها . فلقد عمل إلى جوارى في مشروع القرش ولكن هذا المشروع العظيم لم يسلم من تجريحه ، فقد كان يؤثر فى رأيه

=كيف تضحك ، ولماذا تضحك ، والمحاكم المختلطة تصلينا العذاب .

كيف تضحك، ولماذا تضحك ، والأجانب يسدون علينا الطريق ويحتقروننا في عقر دارنا، ويسلبون منا القوت .

كيف تضحك ، ولماذا تضحك ، وقد تدهورت الاخلاق وتفرقنا شيعا وأحزابا .

كيف تضحك ، ولماذا تضحك ، وقد جهلنا أمورديننا ونسينا اخواننا فى الشرق العربي فلا نمد يدنا اليهم ولا نعرف من أمورهم شيئا .

كيف تضحك ، ولماذا تضحك ، وقد وقف الاصلاح فى كل ميدان وطغت الأزمة وعم الجوع والخراب .

ترى ما الذى يضحكنا الا أن نكون عبيدا ألفوا الذلة والخضوع .

فى عام ١٩١٩ كانت هناك أحكام عرفية ، وكان هناك اعدام ، وكان هناك رصاص مسموم، ولكن صوت الشباب دوى لاجبا فهز الظلم وأخاف الانجليز .

فما بالنا لا نصرخ اليوم ، ولا اعدام ولا رصاص ولا سموم .

ما بالنا لا نصرخ صراخا سلميا،لاثورة فيه ولاعداء حتى نوقظ القوم من غفلتهم، ونلفت نظر القوات التي بدأت تطغى على حياتنا القومية . . ما بالنا لا نصرخ ضد هذه المحاكم التى تريد أن تجردنا من قوتنا لكى ندفع للدائنين ذهبا .

ما بالنا لا نصرخ ضد الامتيازات التى تحتقرنا فى كل صباح ومساء .

ما بالنا لا نصرخ ضد الانجليز الذين يريدون سلب السودان ، ويبنون خزان جبل الأولياء ونحن أحوج ما نكون الى القوت .

ما بالنا لا نصرخ كى ينطلق الاصلاح فى كل ركن وفى كل ميدان .

ما بالنا لا نصرخ لكى نهذب الأخلاق ، ونعيد معانى الشرف والرجولة والاناقة .

ما بالنا لا نصرخ لكى يكون لباسنا مصريا ومأكلنا مصريا ومماشنا مصريا .

يا شباب عام ١٩٣٣، ها نحن نهتف بك، وهاهى صرختنا تدعوك الى كل ذلك فان كنت معنا فتعال نجاهد، وان لم تكن معنا فحسبنا أننا سنفديك كى لا يسجل التاريخ عليك أنك لم تكن تتألم .

أن يكون اشتغالنا بالسياسة صريحا ، وأن نجابه الانجليز علنا . وعندما أصدرنا سويا مجلة الصرخة للمرة الأولى وألفنا جمعية مصر الفتاة ، كانت خطتى ترمى إلى اصطناع الاعتدال ريثما تثبت أقدام جريدتنا وحركتنا ، ولكن ذلك لم يعجب الاستاذ فتحى واعتبره مظهراً من مظاهر الجبن والخوف من الاصطدام بالانجليز على الفور ، ولقد كان بى دائما أبدا نقطة ضعف، وستبقى إلى الأبد ، هى أنى مااتهمت نفسى أواتهمنى انسان بالخوف من شىء من الأشياء إلا وبادرت بدون تفكير أو تدبير بمهاجمة ذلك الشىء لأبرهن لنفسى أننى غير هياب ولاوجل. ذلك أنني لا أعتبر أن هناك نقيصة في الدنيا يمكن أن تشين الرجل أكثر من أن يكون جبانا . لأن الجبن هو آية العبودية ، ومتى جبن الانسان فقد فقد على الفور كرامته وانسانيته وحريته . ولقد كنت أعرف من نفسى دائما أنى أكثرشجاعة من الاستاذ فتحى ، وإننى إذا سكت عن مهاجمة شىء من الأشياء أو شخص من الاشخاص لفترة من الزمن ، فليس ذلك جبنا منى ، ولكن تريثا وتمهلا إلى أن يأتى الوقت المناسب الذى يستطيع الانسان أن يهجم فيه كاملا مستعدا . ومن ذلك موقفى فى الأيام الأولى من تأليف مصر الفتاة واصدار الصرخة ، فلم يكن من الطبيعى أن نشن هجوما عنيفا قبل أن تستقر جريدتنا فنتخذ لنا مكانا ومقرا ونركزجمعيتنا ، ولكن الاستاذ فتحى ، الذي لم يكن له عمل فى كل تاريخ صداقتي إلاانخالفتى في كل رأى أبديه ، انتقد هذا الموقف ! . وفى حديث بينى وبينه أشار إلى كلمة الجبن فأسرعت لأبرهن له على أننى آخر من يوصف بهذا الوصف فى مصر.فكان هذا العدد من الصرخة الذي كانت الناس تذهل وهى تطالعه وتنظر إلى صوره ورسومه ، كان كل مصرى لايصدق عينيه أن يكون فى مصر ، بعد هذا الوقت الطويل من تدهور الوطنية والاخلاق ، وانتشار الخوف والجبن في كل مكان وفى كل نفس ، أن يكون فى مصر مجلة بهذه القوة والحماسة. وأن يكونهناك شبان بكل هذه الجرأة والشجاعة وبدأت

مصر كلها تستيقظ على ضوء هذا المشعل الذى رفع لها . وكانت الحكومة وكان الانجليز ممثلين في شخص كين بويد أول من أسرع لأطفاء هـذه الشعلة التي توشك أن تهدم كل ماسعى الانجليز لبنيــانه في مصر طوال أجيال وأجيال .

وجاء البوليس والنيابة ليقبضوا على من المنزل ويفتشوا الدار ، وكان ذلك أول عهدى بمثل هذا الاجراء . فكان وقعه شديدا على أهلى وعلى . ولكننى أسررت فى نفسى: « إننى اخترت هذا الطريق،ولاسبيل للرجوع عنه وأننى أعلنت عزمى على بلوغ النصر أو القبر ، واذن فلا محل للتردد أو الجزع ، بل المضى دائما إلى الأمام في صبر وثبات ويقين . »

وخرج موكب البوليس والنيــابة وخرجت معهم مقبوضا على إلى دار الاستاذ فتحى رضوان، حيث قبض عليه بدوره ، ثم توجه الركب إلى دار الاستاذ حافظ محمود رئيس التحرير فاعتقل أيضا وساروا بنا إلى قسم الموسكى،حيث كان فى انتظارنا وكيل النيابة المحقق صادق بك الغجيزى ، وبدأ أول تحقيق مع مصر الفتاة، وفى مبادىء مصر الفتاة،وماهية مصر الفتاة .

لم يكن تحقيقا صحفيا بالمعنى المعتاد من التحقيق الصحفى، بمعنى أن يسأل رئيس التحرير عن كاتب المقال وتفسـير عباراته والمقصود منها ، وإنما كان تحقيقا جامعا شاملا أريد به الوصول إلى حقيقة أحوالنا .. فهل نحن جمعية سرية ، وهل اعتزمنــا أن نقتل وأن نغتــال ، وهل لدينا أسـلحة وذخائر ، وهل ثمت بصلة إلى جهة من الجهات في مصر أو خارج مصر ؟

وهل لنا آراء شيوعية ؟ أو لنا خطط ثورية ؟ ومن أين لنا المال . . المال ، المال ودائما المال كان وبقى منذ دلك التاريخ أول مايسأل عنه من يريد إثارة الريبة فى مصر الفتاة . ومن أين لها المال الذى تنفق منه على هذه الدعاية الواسعة النطاق. وسرعان ماتبين للمحقق ضآلة الموارد المالية ، وأنها تتلخص فى هذا الدين الذى استدنته من بنك مصر بضمانة أحد الأصدقاء ، وأن كل مصروفاتنا وإيراداتنا تتلخص فى اعداد المجلة وتوزيعها ، وأثبت

المحقق أننا لا نمت إلى الشيوعية بسبب، وأننا لا نفكر في قلب نظام الحكم في مصر . بل نحن نؤمن بالملكية وندعو إلى تدعيمها ، عن طريق الحكم الدستورى السليم ، كما هو الحال فى انجلترا . وثبت للمحقق أن باطننا كظاهرنا ، نقى طاهر أبيض ناصع البياض ، ولكننا نشتعل حماسة وإيمانا بحق بلادنا فى المجد والعظمة، فضلا عن الحرية والاستقلال ، وأن عزمنا أشد من الحديد صلابة وأقوى من الفولاذ . فقد فوجىء المحقق بموقف لاعهد له به من قبل ، فوجىء بثلاث شبان يتنافس كل منهم في نسبة شرف ما كتب فى مصر الفتاة اليه ، ولا يحاول أن يهرب من المسئولية . فقد فاتنى أن أذكر أن المقالات التى نشرت بالمجلة كانت غير ممهورة بالتوقيع وقد سأل المحقق كلا منا على انفراد عن كاتب هذه المقالات .. ولقد خجل الاستاذ فتحى رضوان أن يتبرأ من هذه المقالات ، وهو الذى كان يلوح لى بالجبن فأسرع إلى نسبة هذه المقالات اليه ، أما الاستاذ حافظ محمود رئيس التحرير فقد أبى أن يكشف عن كاتب المقالات واعتبر نفسه مسئولا عما كتب فى المجلة بحكم منصبه ، أما أنا فقد كنت الكاتب الحقيقى للمقالات ، ولذلك فقد اعترفت بها وتحملت مسئوليتها بمفردى وأقسمت للمحقق أننى كاتبها دون الآخرين .. وقد كان ذلك موقفا عجيبا، لأن المألوف فى ذلك العهد أن يتنصل الكاتب مما كتب، لا أن يتنافس ثلاثة فى احتمال مسئولية ما كتب فى المجلة .

وانتهى التحقيق المبدئي في الساعة الثانية بعد منتصف الليل وأصدر المحقق أمره بحبسنا أربعة أيام على ذمة التحقيق . ولما كان لا يمكن إرسالنا إلى أحد السجون العمومية فى هذه الساعة المتأخرة ، فقد زج بنا فى سجن القسم حيث يسجن المتشردون والقوادون والسكارى وأصحاب الجرائم ، فى سجن مظلم معتم رطب تفوح منه أنتن الروائح وأضرها ، وحيث يتكدس المسجونون على الاسفلت تكدسا ، فى جو من القذارة والحشرات التى تملأ الجدران والسقف والارض ، بل وتملأ الهواء .

ولقد كانت هذه أول محنة حقيقية ألقاها فى حياتى الجديدة ، لم ألق بعدها محنة أبدا . لقد كان انتقالا مفاجئا حادا ، وكانت عقوبة لا عهد لى بها من قبل . فحتى ذلك التاريخ لم أكن ألق إلا الاحترام والتوقير فى كل مكان ... كانت شهرتى كشاب نابغ عامل تسبقنى فى كل مكان أصل فيه ، فلا أري إلا الأعجاب والتقدير ، ومبادرة الكل إلى معاونتى على تحقيق ما أريد ، وخاصة بعد نجاحى فى مشروع القرش وبناء مصنع الطرابيش . وكنت صحفياً ، وكنت محامياً ، وكنت أجلس مع الوزراء ، فلما رأيت نفسى فجأة ملقى على أرض هذا السجن المظلم كادت أنفاسي تختنق ، وأحسست كما لو كان الموت يظللنى وأننى أوشك أن أغادر هذه الحياة الدنيا . وكان يزيد في ضيق نفسى ما كنت عليه من فرط إعياء ، فقد كنت صائما فى ذلك اليوم لم أتذوق طعاما وكان السهر والتحقيق الطويل قد انهكنى . وعندما يكون الانسان جائعاً ومنهكا تتأثر معنويته نتيجة لذلك . على أن الذى كان يؤثر فى أكثر من كل شى آخر هو هول الصدمة التى صدمت بها ، وهذا الخطر المجهول الذى أصبح يحدق بنا ... فقد كان المحقق يبحث معنا فى جرائم الشيوعية وقلب نظام الحكم والتحريض على الثورة ، ومعنى ذلك أن القوم سيبطشون بنا ، وقد يحكم علينا بالأشغال الشاقة لمدة طويلة أموت أثناءها ، وإذن فهذا السجن هو بدء النهاية وأنا الآن في مرحلتي الأخيرة .

لم يكن هناك ما ننام عليه ، بل لم يكن مكان لننام فيه ، فجلسنا نحن الثلاثة وأسندنا ظهورنا إلى ظهور بعض ، وحاولنا أن نغمض أعيننا لنحظى بشىء من الراحة بعد ما بذلناه من عناء ... ولقد نمت ولست أعرف كم من الزمن استغرقت فى نومى ، أمقدار ساعة أم نصفها أم ربعها أم أقل من ذلك كله أم أكثر . ولكن التغير الذى طرأ على بعد يقظتي من جديد كان تغيراً عجيباً جداً ، فقد بدأت أشعر بالراحة وبدأت أشعر بصفاء نفسى وبزوال كل قلق ورغبة فى الاستمتاع بهذا الوضع الجديد الذي نحن فيه ، لقد كان الكثيرون من المسجونين رقودا فهدأ

هذا الضجيج ، وكان ثمة نور، لست أذكر إذا كان نور القمر أو ضوء الصباح ، كان يدخل إلى السجن من هذه الكوة فى عاليه وبدا المكان محتملا على خلاف ما تصورته لأول وهلة ...

وما السجن ؟ كان ذلك أول ما خطر على ذهنى ... إذا كان هذا هو السجن ، وهذا هو أشد ما يلقاه المجاهد ، فسأعرف كيف أتغلب عليه ، وكيف أحتمله ، ووجدت رفيقى قد طرأ عليهما مثل ما طرأ على من الانقلاب ، فقد اعتدنا المكان وبدأنا نألفه وشرعنا نمزح ، ونعلق على ما فيه من المناظر العجيبة ، وبدأت حركات السكارى تضحكنا ، وأحاديث المجرمين تستلفت أنظارنا لما تحويه من معان غريبة وعبارات واصطلاحات مضحكة ...

واستؤنف التحقيق فى الصباح ، ولكنا مع الصباح كنا قد استرددنا كل معنويتنا ، وكل قوانا ، ولذلك فقد بدأت اشتد على المحقق وأهاجمه وأجابهه بأعنف مما فعلت في الأدوار الأولى للتحقيق ... وقد استعطت فى هذه الفترة أن أختلس ورقة وأن أخط بها بعض كلمات فى مجلة الصرخة كانت كأقوى ما كتبت فى أي يوم من الأيام ، وجعلت عنوانها « لن نخاف » (١) ...

من أعماق السجون

لن نخاف

أجل لن نخاف السجن والتعذيب والتشريد ، لن نخاف عجرفة رجال البوليس وشدة رجال النيابة وهول السجن ، في سبيل الله ما نفعل وفى سبيل الله نضحى بكل ما نملك .
وفى سبيلك يا مصر تهون التضحية ويستحب العذاب.
في سبيلك يا أمنا الغالية ، وفي سبيل مجدك ، أرحب بالسجن كخطوة أولى لا نقاذك.
مصر يامن حكمت العالم يوما وتزعمت الأسلام .
مصريا من أضاء نورك على الانسانية فى كل عصورها وحاربت الزمان .
يامصر الخالدة القوية العزيزة ، لن تموتى أبداً ، بل ستبقين قوية لتعيدى سيرتك الأولى.

وأرسلوا بنا إلى سجن الاستئناف لتمضية باقى أيامنا الأربعة ، ولقد بدأت نفوسنا تتهيأ لاحتمال ما نحن مقبلون عليه ، ولذلك فقد خضعنا لكل الاجراءات التي اخضعونا لها فى السجن ، وهى هذه الاجراءات التى تتبع مع المجرمين العاديين ، حيث يجبرون على الاستحمام بالماء البارد ويزيل لهم الحلاق كل شعر فى جسدهم . ولقد زج بي في السجن بعد ذلك أكثر من مرة فلم تستخدم معى هذه الأساليب ، بل لم أرها تستخدم في أى وقت

ولكن قبل ذلك يجب أن يقدم نفر من بنيك أنفسهم فداء عنك وعن أبنائك .
ولكن قبل ذلك يجب أن تمتلىء السجون بالأبرياء ويجب أن نحتمل العذاب صابرين
وها نحن نفعل يا مصر ، ها نحن فى عيد جهادك نقدم أنفسنا قربانا على مذبح عظمتك .
فعيشى يا مصر وحلقى فوق العالمين ، عيشى والسجن شعار مجدك ، عيشي لتعودى كما كنت امبراطورية تتزعم الاسلام وتعلي كلمة الله والدين .
أيها الشباب يا شباب عام ١٩٣٣ ..
نريدك أن تذكر مصر اذا ما خلوت الى نفسك ،
نريدك أن تذكر الآلام التى نعانيها والتي تسد علينا طريق الحياة ،
نريدك أن تؤمن بحق مصر ايمانا وطيدا بحقها فى الحياة والمجد .
لماذا يعيش الانجليز بين ظهرانينا ، ولماذا نسكت على ذلك ؟
ولماذا يستنزف دمنا الأجانب ولماذا نسكت على ذلك ؟
لماذا نقع فريسة التفرق والأهواء ونسكت على ذلك ؟
أيها الشباب،ياشباب عام ١٩٣٣، وداعا والي اللقاء ، قد أعيش ياشباب حتى أخرج ثانية لأكافح فى سبيل مصر من جديد ، ولأعود الى السجن مرة أخرى ،
وقد أموت فى السجن فشكرا لك ياربى أن جعلتنى أقوم بواجبي ،شكرا لك يارب أن منحتنى القوة لأقول للظالم يوما أيها الظالم ولأقول لغاصب بلادى أيها الغاصب الويل لك من سخطى وايمانى . أما أنتم ياأصدقائى فاثبتوا على ايمانكم وسيروا كل يوم الى الأمام،وأنت ياصرختى وداعا والى اللقاء . أترى هل تظلين مدوية حتي أعود لألقاك أم سيخفت صوتك عما قريب ... ولكن لا ،فانت صرخة عقيدة وايمان ولن تموتى أبداً الا اذامات الايمان.
فى سبيلك يارب ،
وفى سبيلك يامصر ،
وفى سبيلك يامليكي ،

أدخل اليـــوم السجن

الصرخة — ١٨ نوفمبر سنة ١٩٣٣

من الأوقات مع أى مسجون نظيف ولكن جلسنا فى ذلك الوقت واستعدادنا لاحتمال كل شىء جعل رجال السجن يطبقون علينا كل هذه الاجراءات .

ولقد كان كل شىء فى السجن بمثابة تجربة ، لنا ومحنة وكانت أنظمة السجن بكل ما فيها من إجراءات مهينة تطبق علينا بحذافيرها ، فلم تكن تعرف ضابطا ولم يكن يعرفنا إنسان (فاستلطخنا السجانة) وعاملونا اسوأ معاملة . ولقد كان أقسى ما عوملنا به في ذلك الوقت اضطرارنا لأزالة الضرورة وسط حشد من المسجونين في غير ستر أو حائل يحول بين مسجون وآخر ، وهو أسلوب لايزال متبعاً فى السجون المصرية ولكنه لم يطبق علي بعد ذلك أبداً .

ولست الآن بسبيل التحدث بالتفصيل عن أيامنا فى السجن وحياتنا به . والمهم أن فى كل يوم جديد كانت حالتنا تتحسن فى السجن، ومعنويتنا تقوى . ولما رفضت المعارضة في أمر حبسنا الأولى وأصدر القاضى أمره باستمرار حبسنا أربعة عشر يوما عدنا إلى السجن فرحين مسرورين . وقد بدأنا نتبيل على المطالعة والمناقشة والمحادثة في شتى شئون البلاد ، وكان الأستاذ حافظ محمود يرتل لنا القرآن ، أو يغنى لنا بصوته الرخيم بعض الأناشيد والألحان ، وكان كل منا يلخص للآخر ما يقرأ من كتب . وسرعان ماتحولت أيامنا فى السجن إلى أيام جميلة، وتحول هذا الشبح المخيف . . . شبح السجن إلى نعيم روحى ، حيث يصلى الانسان ويحسن الصلاة ، وحيث يقترب الانسان من ربه ويزداد اقترابا وحيث يفكر ويتعلم ويجدد قواه . . .

ولما جاء أوان الافراج عنا إذا بى أخرج من السجن بقوة وعزم متجددين ،وإذا بى أكثر استعدادا للنضال والكفاح عن ذى قبل، بعد أن اجتزت هذه التجربة الأولى بنجاح . . . ولقد علمتنى التجارب فيما بعد أن هذا الأثر الذى أحدثه السجن فى نفسى هو ما يحدثه في كل صاحب فكرة وكل مجاهد فى سبيل مثل أعلى ، وهو أن يزيد فى إصراره على المضى فى

كفاحه ، ولا يثنى من عزمه بأى حال من الأحوال . فليس هنـــاك كالاضطهاد لصاحب الفكرة السليمة إكسير لتقوية عزيمته ومضاعفة إيمانه . ولقد كانت حماسة اخواننا فى الخارج بهذا السجن قد تضاعفت بدورها ، واستطاع زميلنا الاستاذ كمال الدين صلاح أن يمضى في إصدار مجلة الصرخة بنجاح عظيم فلما أن خرجت وجدت جوا يخالف الجو الذي كان يســـودنا قبل هذا الاضطهاد ... وجدت روح الاعتزاز والفخار بجهادنا وتضحيتنا ، ووجدت شبانا تلمع عيونهم وتخفق قلوبهم رغبة في الجهاد والتضحية ،ولذلك فقد هرعت إلى العمل على الفور ووضعت هذه المبادىء العشرة ، التى لخصت فيها آرائى وكفاحى فى كلمات قليلة لتكون دستورا لنا ومنهاجا.وسرعان ما أصبحت هذه المبادىء العشرة انجيل الوطنية فى هذه الأيام ، وأقبل الشبان على حفظها عن ظهر قلب وتلاوتها أمام الآخرين فكانت تفتح القلوب على مصاريعها وتحمل الجميع على الايمان بما تنطوى عليه حركتنا من صدق وإخلاص وروح عملية.وإليك نص هذه المبادىء :

١ — لاتتكلم إلا بالعربية ،ولا ترد على من لايخاطبك بها ، ولاتدخل محلا لا يكتب اسمه بالعربية .

٢ — لا تشتر إلا من مصرى ، ولا تلبس إلا ما صنع فى مصر ، ولا تأكل إلا طعاماً مصرياً .

٣ — تطهر .فقاطع الخمور ، ودور اللهو الحرام ، والسينمات الأجنبية.

٤ — تطهر . فصل لربك ، وأم المسجد يوم الجمعة إن كنت مسلماً ، والكنيسة يوم الأحد إن كنت مسيحياً ، ويوم السبت إن كنت يهودياً .

٥ — احفظ نشيد «إسلمى يامصر » ورتله بكل نفسك فى كل حفل ، وليكن انشودتك فى كل مكان .

٦ — حاسب نفسك كل ليلة ماذا قدمت فى يومك من أجل بلادك

وبجدها ،وسر في كل مكان واثقاً بنفسك كمصرى ، وامتلىء إيمانا بمجدك وقوتك .

٧ — احتقر كل ما هو أجنبي بكل نفسك ، وتعصب لقوميتك حتي الجنون .

٨ — بلادك هي مصر والسودان معا لايتجزآن ولا ينفصلان .

٩ — وغايتك أن تصبح مصر فوق الجميع ، دولة شامخة تتألف من السودان ، وتحالف الدول العربية ، وتتزعم الأسلام .

١٠ — وليكن شعارك دائماً : الله ، والوطن ، والملك .

(نشيد اسلمى يامصر)

تأليف مصطفى صادق الرافعي وتلحين صفر على

اسلمى يامصر انني الفدا — ذي يدي ان مدت الدنيا يدا
أبداً لن تستكيني أبدا — انني أرجو مع اليوم غدا
ومعى قلبي وعزمي للجهاد — ولقلبي أنت بعد الدين دين
لك يامصر السلامة — وسلاما يابلادى
ان رمى الدهر سهامه — أتقيها بفؤادى
واسلمى في كل حين

أنا مصرى بناني من بنى — هرم الدهر الذى أعيا الفنا
وقفة الأهرام فيما بيننا — لصروف الدهر وقفتى أنا
فى دفاعى وجهادى للبلاد — لا أميل ، لا أمل ، لا ألين
لك يامصر السلامة — . . . .

* * *

ويك يامن رام تقييد الفلك — أى نجم فى السما يخضع لك
وطن الحر سما لا تمتلك — والفتى الحر بأفقه ملك
لا عدا يا أرض مصر بك عاد — اننا دون حماك أجمعين
لك يامصر السلامة — . . . .

* * *

للعلا أبناء مصر للعلا — ولمصر شرفوا المستقبلا
وفداً لمصرنا الدنيا فلا — تضعوا الأوطان الا أولا
جانبي الأيسر قلبه الفؤاد — وبلادى هى لى قلبي اليمين
لك يامصر السلامه — . . . .

أول خطاب عام

— ٦ —

إلى هنا كانت مصر الفتاة قد أعلنت عن نفسها، وعن مبادئها، عن طريق الصرخة، ومقالات الصرخة، عن طريق اضطهاد الحكومة والوفد لها. وقد حانت الساعة لتخطو مصر الفتاة كجماعة سياسية خطوتها الثانية، وهو أن تتصل بالشعب على اختلاف طبقاته ونزعاته، في اجتماع عام، أبسط فيه مبادىء الحركة، وأدفع عنها ما يوجه لها من اتهامات، وأكشف فيه عن مقدار قوتنا واستجابة الشباب والشعب لنا.

وكان لا بد من التحايل لأقامة هذا الاجتماع، فمن المحال أن تسمح لنا الحكومة بعقد اجتماع سياسى. فلجأت إلى المرحوم عبد الحميد بك سعيد، رئيس جمعية الشبان المسلمين، وطلبت منه أن يتيح لى فرصة القاء محاضرة موضوعها « جهادنا الدينى ». فأجابنى الرجل المجاهد إلى طلبى مرحبا، بل وأعلن استعداده لاقامة سرادق في ساحة الجمعية (١) لكى يتسع للعدد الكبير من الجمهور الذى سيرغب فى الاستماع إلى هذه المحاضرة، ولقد كانت شخصية عبد الحميد بك سعيد، ودار الشبان المسلمين، كفيلة بحماية المحاضرة وعدم تعرض الحكومة لها، ولذلك فقد أقيم السرادق بالفعل ووزعت الدعوات، وفى الليلة المحددة لألقاء المحاضرة، في مساء السبت ١٦ ديسمبر سنة ١٩٣٣، توافد الشباب على دار الشبان المسلمين ليستمع لأحمد حسين متكلما، بعد أن طالعه كاتبا، ولكى يحكم له أو عليه. وجاء الشباب الوفدى ليعكر صفو الاجتماع وليفسده، وجاءت جواسيس الحكومة لينقلوا صورة ما يقال أو يحدث، وغص السرادق بالوافدين، وتكهرب جو

(١) كانت جمعية الشبان المسلمين في ذلك الوقت تقيم فى شارع مجلس النواب فى السراي التي يوجد بها الآن متحف الشمع.

المكان بحماسة الشبان ، وكان كل شيء ينذر بأن هذا الاجتماع لن يمر بهدوء وسكون ، ولا بد من انفجار العاصفة . وفي ذلك الجو بدأت حديثى مفتتحا باسم الله ، ولم أكد أمضى في حديثى حتى بدأ الشبان الوفديون باعتراضاتهم ومقاطعاتهم ، وتجلت نواياهم فى إفساد الاجتماع ، فاحتك بهم شبان مصر الفتاة ، فكانت معركة عنيفة أسلحتها الكراسى التي كانت تتطاير فى سماء المكان ، وتتحطم فوق الرءوس وتتهشم . ولقد وقفت فى خلال المعركة فوق منصة الخطابة لا أتزحزح ولا أتحول ، والكراسى تنهال على وحولى ، ولكن عناية الله شاءت أن تحمينى فى هذه الليلة ماديا وأدبيا . حمتنى ماديا ، فلم تصل إلى ضربة من الضربات الطائشة ، ولم ينلنى أى سوء . وحمتنى أدبيا ، بأن ملأت قلبي شجاعة وقوة ، فلم أحاول أن أبرح مكانى، أو أن أحنى رأسى ، بل ظللت منتصب القامة ، مرفوع الرأس، حتى استطاع الأيمان والحق أن ينتصر على الباطل . وفر المعتدون بعد أن أصيبوا بضربات باطشة. وفى أقل من لمح البصر عاد النظام الى المكان، وامتلأت الكراسى من جديد بجموع الشبان ، الذين زادهم هذا الانتصار إيماناً على إيمان . وخيم السكون على الحاضرين فجلسوا ينصتون كأن على رءوسهم الطير ، حتى إذا فرغت من خطابى انفجرت حماستهم فراحوا يهللون ويكبرون ويشق هتافهم عنان السماء . وخرجوا من دار الشبان المسلمين يتظاهرون هاتفين لمصر الفتاة ومكررين هتافات مصر الفتاة . . . وهكذا تقدمت مصر الفتاة إلى الشباب ليحكم عليها فحكم لها . ومنذ ذلك التاريخ دخلت حركة مصر الفتاة فى طور جديد ، فقد أصبحت حركة عامة، تتصل بالرأى العام أقوى اتصال ، ولا تستطيع أى هيئة من الهيئات أن تتجاهل وجودها ، أو أن تظن أنها قادرة على إطفاء نورها .

وإليك الآن نص هذا الخطاب :

جهادنا الديني

بسم الله الرحمن الرحيم أبدأ جهادنا في سبيل الله ، وباسم الله الرحمن الرحيم أفتتح حديث المساء .
أيها السادة . .

حكمة الله

عجيبة والله حكمة الله .. كان مقدراً لهذه المحاضرة أن تلقى فى يوم الجمعة ١٧ نوفمبر سنة ١٩٣٣ ، وكان الاتفاق عليها قبل هذا الميعاد بخمسة أيام ، وكنت قد أخذت على نفسى عهداً أن لا أقدم عليها قبل أن أتلو كتاب الله مرة ، ونظراً لمشاغلى العديدة فقد أكربنى هذا الأمر ، وعجزت عن تنفيذه .. فكنت لذلك في حزن مقيم .. وشاءت ارادة الله أن أقاد الي السجن ، وفى السجن لم يكن فى عمل الا تلاوة كتاب الله ، فتلوته مرة ومرتين .. وزدت عليه أن طالعت السيرة .. وها أنذا أقف بعد مضى شهر من الميعاد الأول ، لألقى المحاضرة بعد أن قرأت القرآن .. عجيبة والله حكمة الله ..

نبذة عن تاريخ حياتى

وبعد فقد عرفتمونى أيها السادة صاحب فكرة مشروع القرش وسكرتيره ، لقد عرفتمونى مشتغلا بمصنع الطرابيش حتى خرجت اليكم الطرابيش تزينون رءوسكم بها ، وترفعون عن أنفسكم عار الأجنبي وذله .

عرفتمونى شخصا يشتغل بالمسائل الاقتصادية ، ويدعوكم للتعاون فى سبيل تحقيق الاستقلال الاقتصادي .. فما بالكم تروننى اليوم أقف متحدثا باسم الدين ومن أجل الدين. مالكم تروننى بين جدران جمعية الشبان المسلمين ، بعد أن كنت قد انقطعت عنها حقبة من الزمان . الحق أنه لايجب أن تستغربوا ذلك منى ، لأنه تصرف طبيعى ، ومنطق مع مقتضيات الظروف والأحوال .

لقد فتحت عينى أيها السادة فى فجر الثورة المصرية .. كنت طفلا وقتذاك لم أتجاوز الثامنة من عمرى ، ولم أكن الا طالبا بالمدارس الابتدائية فى السنة الأولى منها ، ولكنى أذكر اننى اشتركت ككل طفل فى ذلك الوقت في الجهاد القومي .. فاندرجت فى سلك المظاهرات ، وارتفع صوتى بالهتافات المدوية «مصر والسودان لنا — مصر للمصريين — الاستقلال التام أو الموت الزؤام» . أجل أيها السادة أذكر هذه الصور التى أيقظت روحى بقوة والتى علمتنى كيف أحب أمنا الخالدة مصر .. وكيف يسترخص الانسان الحياة من أجل مصر .

من ذلك الوقت أخذت أطالع تاريخ مصر ، وحيوية مصر .. وفى كل يوم كنت أتعلم درسا جديدا عن المجد المصرى القديم .. وفى كل يوم كنت ألقن صفحة جديدة من صفحات الحيوية المصرية .. وارتقيت الى المدارس الثانوية ، ولم يكن فى مصر أحداث سياسية بحيث تشغل حياة الشاب ، قضيت فيها وقتا طويلا حتى استيقظت . . وكانت يقظتى بين جدران معبد الكرنك وفى وادى الملوك ، كنا فى رحلة كشافية ، وكنا نعيش وسط الخيام على ضفاف النيل ، وفى كل صباح كنا ننطلق لنعيش فى آثار المجد المصرى وانتقلنا من الأقصر الى اسوان فالشلال .. وفى كل هذه الأماكن كنا ننزل بلادا ، أو نشاهد آثارا جليلة ، فتفتحت نفسى أيها السادة وآمنت بمصر وعظمة مصر ..

صفحات من تاريخ مصر

هنا تعلمت كيف كانت فى مصر حضارة منذ أربعة آلاف من السنين تزري بحضارات القرن العشرين ، كيف كان أجدادنا يكونون دولة عظيمة ، في وقت كانت الانسانية تعيش فيه فى الكهوف والأدغال ، أكثرما تكون شبها بالحيوان .

هناك تعلمت أن مصر خالدة ، وأنها عاشت على مر السنين قوية نابضة .. أربعة آلاف من السنين أيها السادة يحاربها الزمان فلايزيدها الا قوة ، ولا يزيدها الا اضطراما واشتمالا .

كم من الدول أغارت عليها ، وكم من الفاتحين مروا عليها ، ولكن الدول دالت ، ولكن الدول الفاتحة ماتت ، وبقيت مصر !! . مصر كما كانت دائمة حية قوية !!

هناك تعلمت هذه القوة السحرية التى استطاعت أن تحول كل شيء الي مصرى ، وأن تصهر العناصر الجديدة وأن تصيرها مصرية .

هناك شعرت بمصريتى ، وهناك أحسست بكرامتي، وهناك هتفت من أعماق قلبي: « مصر فوق الجميع !! . »

ولما عدت الى مصر أخذت أراجع تاريخ بلادى ، فازددت زهوا حتى وصلت الى تاريخ الأسلام . ومصر العربية .. الله أكبر ! فقد طالعت عجبا .. الله أكبر ! لقد رأيت مصر تعلم العالم وتضيئه بجامعة الأزهر . . الله أكبر ! لقد رأيت الجيوش المصرية تحارب الجيوش الأوربية فتقهرها ، وتأسر ملوكها وأعز فرسانها ، فهتفت من أعماق قلبي للمرة الثانية « مصر فوق الجميع !! »

وواصلت قراءة التاريخ حتي العصور الحديثة : لأرى مصر تحت زعامة محمد على باشا امبراطورية عظيمة تخيف أوروبا بأسرها ، لها أساطيل فى البحر وجيوش فى البر ، تدك الحصون وتفتح الاقطار ، وفيها المعاهد والمدارس تعلم الشرق القريب والبعيد . فهتفت من أعماق قلبي المرة الثالثة « مصر فوق الجميع !! ».

مصر بين ماضيها وحاضرها

وقارنت بين هذا المجد ومانعيش فيه من ذل ، قارنت بين هــذا الماضى السعيد وبين حاضرنا الشقى . يا الهي ! ما أعظم الفرق وما أبعــد الشقة ، لقــد بدا لى أن كل شيء حولى مخيف وكريه . لقد بدا لى أننا نعيش فى جحيم ، هذه الامبراطورية العظيمة مابالها قد انكمشت وتقلصت ، ومابالها قد فقدت كل شيء ، حتى الحق الطبيعى فى الحياة ، حتى الاستقلال ! مابال الجيوش الأجنبية تغزوها وتعيش في أرضها ! ما بال أهلهــا هــكذا يعيشون فى جهل مقيم ، مابال قوتها هكذا يسلبها الأجانب جهارا والناس فى غفلة ، مابالنا يحارب بعضنا بعضا ، ومابالنا نتقاتل والعدو يسخر منا . مابال أخلاقنــا قد هوت حتى الدرك الأسفل ، مابالنا نندفع فى اللهو والفجور والخلاعة ، ناسين الفضيلة وكل ماهو جميل فى الحياة . مابالنا مرضى مابالنا ضعفاء .

كنت أسائل نفسي هذه الأسئلة وكان الغم يقتلني .

كنت حائرا ، كنت برما بالحياة .

يارب كيف تتبدل هكذا صروف الحياة من عز الي ذل ، ومن قوة الى ضعف . يارب ماذا فعل آل مصر لتحل عليهم لعنتك هكذا ، ولتسلط عليهم من العذاب ألوانا ، يارب كيف تسمح بأن تنتهك حرمة هذا البلد الأمين هكذا ، وهو يسبح بحمدك ويجلك .

وكان على مكتبي نسخة من القرآن الكريم ففتحته لعــلى مهتد فيه الي مايرد ايمانى واطمئنانى ، فاذا بعينى تقع على هذه الآية :

« ان الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم »

ياسبحان الله وياقدرة الله !! لقد قفزت من مكتبي وأنا أصيح لقد عرفت السر . لقد عرفت السر « ان الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » هكذا .. هكذا لقد تغيرت النفوس فغير حالها الله .

لقد جحدت النفس فجحدها الله . . لقد تنــكرت النفوس فتنــكر لها الله .

وكان لابد من العمل . . لابد من رفع الغشاوة التي تعمي أعين المصريين ، فجاهدنا أنا ونفر من اخوانى الأعزاء ، وأصدرنا جريدة الصرخة منذ أربع سنوات ، ولــكننا كنا طلابا محوطين بالطلبة ، وجاءت القوانين صارمة تمنع الطلبة من كل شيء فتعطل عملنا .

ومع ذلك فقد كان لابد من عمل شيء .. شيء بعيد عن السياسة كي يشتغل به الشباب . فاهتممت بالناحية الاقتصادية .. ذلك أنني رأيت كل شيء فى هذا البلد مملوكا للأجانب .

مشروع القرش

رأيت القوت يسلب من المصريين فى وضح النهار رأيت الفقر والفاقة مع أننا نستطيع أن نجرد الأجانب من كل شيء .. مع أننا نستطيع أن نسلبهم القوت الذى يسلبوننا اياه .. مع أننا نستطيع أن نبدل فقرنا ثراء واحتياجنا غنى .. وذلك بقليل من الارادة ،

وبقليل من التعاون فدعوت الأمة الى جمع قرش من كل مصرى ، لتأسيس مؤسسة قومية وقد كان !! وجمعت القروش ، وشيد مصنع الطرابيش ، وبالأمس نزلت الطرابيش الى السوق ، فكان هذا ايذانا بنصر الشباب الأول أو بشير عودة الروح .. أو هو ناقوس الأمل .

كمل مصنع الطرابيش ، وتأسست جمعية القرش ، وخرجت من المدرسة وتيقظ الشباب ، وعادت اليه الروح روح العمل والتضحية ، وبدأ يحس بالقلق يساوره .. وبدأ يشعر بالآلام التي يعيش فيها .. وبدأ يتطلع الى الخلاص .

كل شيء مستعد ، واذن فالى العمل . دعوت أصدقائي الشبان للتجرد من كل شيء ، وتقديم أنفسنا فداء للوطن ، حتى تصبح مصر فوق الجميع أو نموت . وأقسمنا وأخذنا نفكر في العمل الجدى .. ما السبيل الى الخلاص ، ما السبيل الى المجد ..

أنواصل العمل تحت راية الأحزاب ، وهى على ماهي عليه من تطاحن وقتال .. أنشتغل فى الاقتصاد .. أنشغل فى الاجتماعيات .. ماذا يجب أن نفعل ؟ ماهو السبيل .. وهنا وللمرة الثانية سمعنا كلمات الله فى الراديو :

« ان الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

سر الحياة

من نحن وما نحن .؟ هذا هو السؤال الأزلى الذي يخامر الانسانية منذ آلاف الدهور . نحن خليقة الله وارادته ، نحن مشيئة الله وكلمته ، كن فكان .. وما دام الأمر كذلك ، وما دام أن وجودنا فى الحياة ليس الا ارادة من ارادات الله . فان سؤالا يعترضنا .. ولماذا أوجدنا الله سبحانه ، فاذا الجواب : « وما خلقت الجن والأنس الا ليعبدون »

هكذا . . هكذا ، أيها السادة ، هذا هو سر الحياة ، وهذا هو معناها . أو بمعنى آخر ذلك هو محور الحياة وحجر الزاوية فيها . فنحن قد خلقنا لنعبد الله .

فطوبى لمن عرف هذا السر وقدره .. انه ليبلغ من القوة شأوا عظيما .. ذلك أنه يكون مسلحاً بقوة الأيمان .. هذا الايمان الذي يستطيع أن يدك الجبال ، ويذيب الحديد ، ويحيي الموتى .

ماأضل من جهل هذا السر ، سر الحياة . انه ليعيش طوال حياته فى ضعف وذل .. انه ليعيش فى الوحل والقاذورات ، وما ذلك الا لأنه لا يملك قوة الأيمان .

وبعد أيها السادة ، هل تريدون أن أحدثكم عن الأيمان .

هل تريدون أن أصور لكم الرجل المؤمن كيف يستطيع أن يقابل الموت ، راضيا من أجل ايمانه . اذكروا اذن كيف كان المسيحيون فى ابان دعوتهم يحملون على الصليب

وتدق المسامير فى أيديهم وفى أرجلهم ، دون أن يتأوهوا أو يشكوا. هل تذكرون كيف كانوا يرمونهم الى السباع الجائعة تفتك بهم ، وهم يسبحون الله .. وكان ذلك عندما كان الأيمان يملأ قلوبهم ، فاستطاع أفراد قلائل منهم أن ينشروا المسيحية فى أنحاء العالم .

ايمان المسلمين الأوائل

ونحن . . نحن المسلمين ماذا استطاع أجدادنا أن يفعلوا . . لما كان الايمان يملأ قلوبهم .. لقد فعلوا المستحيل.. لقد خلقوا من شبه جزيرة العرب القاحلة الماحلة من الزاد، ومن الرجال، لقد جعلوا من شبه الجزيرة هذه دولة تحكم العالم ، لقد ألفوا امبراطورية لم يعرف التاريخ مثلها ، لقد أسسوا ملكا لن تدول دولته أبد الآبدين . أتذكرون كيف كان المسلم يحارب العشرة أبطال فيقهرهم ، أتذكرون كيف كان المسلم يستقبل الموت مرتاحا فى سبيل الله ، أتذكرون أبا سفيان عندما فقد احدى عينيه فى احدى الغزوات ، فذهب بها الى النبي يشكو فقدها ، وكانت على كفه ، فقال له عليه الصلاة والسلام لوطلبت من الله أن يردها لك لفعل؟ فهل تحب هذا ، أم تحب عينا خيرا منها فى الجنة ؟ فرمى أبو سفيان عينه وقال بل خيرا منها فى الجنة ! هل تذكرون كيف كان المسلم يضرب على رجله بالسيف فتقطع ، فينزع رجله ويحارب بها ، هل تذكرون كيف صمد النبي فى موقعة أحد، ولم يكن حوله الا رجل أو رجلان يحاربان وسط هذه الجموع ، فلم تنل منهم شيئا .

هل تذكرون كيف كان المسلمون يستشهدون ، وهم سعداء أنهم ملاقو ربهم .

هذا هو الأيمان الذي جعل العرب يحطمون أقوى الامبراطوريات وأعظمها ، وأعنى بها الامبراطورية الرومانية ، ويثلون عرش الأكاسرة ، وذلك بقوة الايمان واليقين .

فعلوا ذلك فى عهد عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) ذلك المؤمن المتقشف الذى كان ينام فى العراء ، وقد يبيت وأولاده على الطوى ومن حولهم ذهب العالم وجواهره ، وما ذلك الا لأنهم يعيشون بالأيمان ، وبالأيمان ينتصرون ، وما أحقر المال وأضأله اذا ماقورن بالايمان .

روي ان عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) عندما جاءوه بأموال كسرى بعد فتح المدائن ، وأخذ المسلمون يقتسمون بساط كسرى العظيم وما فيه من جواهر وذهب ، بكي عمر بن الخطاب . فقالوا له علام تبكي يا أمير المؤمنين والوقت وقت ابتهاج لا بكاء ؟؟ فأجابهم ما بكيت الا لعلمى أن هذا المال الذى تقتسمون هدم دولا ، وثل عروشا، هذا المال الذى تقتسمونه ما كان فى جماعة الا وعجل بأفنائها ، فبكيت خوفا على أمة العرب ، وقد صارت الى هذا الغنى ، وتكدست فيها هذه الأموال .

فالأيمان ، أيها السادة ، هو كل شيء . فلا الجيوش ، ولا الأساطيل ، ولا المال ، ولا أي قوات الأرض ، تعادل الايمان فى قوته ذلك لأنه ليس الا نفحة من نفحات الله.

مصر المقدسة

ومصر ، أيها السادة ، يستطيع أعداؤها أن يجردوها من كل شيء ، الا أن تبقى متدينة بما لا نظير له في بقعة أخرى من أنحاء العالم . . مصر ، أيها السادة ، كانت ، ولا تزال ، وستظل دائماً أبدا ، موئل الأديان وحاميتها .. فاذا ذكرت الأديان ، جاءت مصر تذكر الناس بالأديان .. ومن هنا كانت مصر تقوى اذا ما ازداد تعلقها بدينها وتضعف كلما انحرفت عن دينها . ذلك أنها بلد دين قبل كل شيء ، تعيش على الدين وتعتمد عليه .

انظروا اليها منذ أربعة آلاف من السنين ، وقد كانت الانسانية في خطواتها الأولى لاتكاد تعرف كيف تطهى طعاما أو تحيك ثيابا ، أنظروا الى مصر وقد عرفت من مبادىء الدين ما يكاد يحار له العقل ، لولا أن يؤمن بأن الله أوحى الى أبناء مصر ببعض أسرار الدين .. كثيرون من الأغرار يحسبون أن دين المصريين كان ديناً وثنياً . ديناً تتعدد فيه الآلهة . ديناً يعبد فيه القط والتمساح والثعبان . لا ، أيها السادة ، حاشا وكلا أن تكون هذه عقلية بناة الأهرام ! ! حاشا وكلا أن تكون هذه هى عقلية الناس الذين أخرجوا حضارة تزرى بحضارة القرن العشرين ! ! ولكن هو جهلنا بفهم نصوصهم ، هو قلة ما وصل الينا . ولما كانت لغة هؤلاء الأقوام رموزا بالرسوم ، فقد ضللنا الطريق ، وحسبنا كل هذه الرموز آلهة . ولو فكر السادة العلماء ، لعلموا أن هذه الرموز التى حسبوها آلهة لم تكن ألا أحرفا لكلمات تترجم عن معان أخرى ، أكثر سموا وتعقلا ، بما يتناسب مع ذهنية المصريين القدماء الجبارة . وما أعجب ، أيها السادة ، أن أخط هذه الكلمات ، وأن يقع فى يدى بالأمس كتاب لأحد القضاة الأفاضل ، وهو الأستاذ صالح سالم هيكل ، فاقرأ فيه ما يؤيد هذه النظرية ، وما يقيم الدليل عليها .

ديانة القدماء المصريين

فقد كشفت أخيرا ، أيها السادة ، أنشودة من أناشيد المصريين الدينية ، فاذا بها حديث عن الله سبحانه وتعالى . حديث جاء فيه : الله واحد أحد ، الله خالق نفسه ، وخالق الموجودات . الله سيد الأرض ومن عليها ، لا ابتداء له ولا انتهاء .

وليس الآن مقام البحث فى ديانة المصريين القدماء حتى أزيدكم تفصيلا . ولكنى أقول لكم ان المصريين القدماء آمنوا بالتوحيد ، وعرفوا البعث والنشور . وعرفوا الميزان والحساب . وعرفوا الجنة والنار . وهذه كلها من تعاليم الأديان السماوية . كان المصريون القدماء رجال دين ، أيها السادة . وكانوا يعلمون العالم الحكمة والأيمان . وقد كان هذا سر قوتهم ونبوغهم . من أجل الدين وتعاليم الدين ، أقاموا الأهرامات الخالدة ،

من أجل الدين وتعاليم الدين ، قاموا بمعجزات العلم والفن . هذا التحنيط ، أيها السادة ، الذى هو معجزة من معجزات العلم فى الوقت الحاضر ، لم يعرفه المصريون الا لغاية دينية بحتة . وفى مصر ، أيها السادة ، وبين أحضان فرعون ، تعلم موسى فآتاه الله حكمة المصريين ، كما يقول كتابه المقدس ، وأنزل الله الديانة اليهودية على موسى . واذا كان فرعون قد كفر بها ، فهذا ملك متجبر له شأنه ، ولكن المصريين آمنوا برسالة موسى كما يحدثنا القرآن ، عند ماسجد السحرة . وقالوا « آمنا برب العالمين رب موسى وهارون »

وهذه هى مصر المتدينة المتعبدة . ولما جاءت المسيحية ، أيها السادة ، تفتحت لها مصر ، واحتضنتها . وبينما كانت تطارد فى كل مكان ، وكان أبناؤها يرمون للسباع ، كانت لهم فى مصر دولة وسلطان . وبينما كانت كنائس الشرق والغرب تحطم ، كانت كنيسة الأسكندرية تحمل اللواء . لقد حمت مصر المسيحية ، وأبقت عليها ، وأعلت كلمة الله ضد روما المتغطرسة ، حتى كسرت شوكة روما ، واعتنقت المسيحية بدورها .

مصر الاسلامية

وظلت مصر مسيحية كأقوى ما تكون ، حتى جاء الدين الجديد .. حتى جاء دين آخر الأنبياء كافة وسيد المرسلين ، مبشراً ونذيراً ، ففتحت مصر مصراعيها للدين الجديد .. وقام المصريون يرحبون بالفاتح الجديد الذى يعلى كلمة الله وينادى بالتوحيد .. وقد كان أهل مصر موحدين في المسيحية .

وتمكن الأسلام من نفوس المصريين الطاهرة المؤمنة ، فوجد فيهم موئلا وظهيرا . ووجد فيهم ركنه الحصين ومرتكزه الذي لن ينطو أبدا .. وعند ماسقطت دمشق وبغداد ، وسقطت حصون الأسلام وأعلامه ، وسقطت البيوت المقدسة ، وجاءت أوروبا الصليبية لتقضى على الأسلام ، كانت مصر الأسلامية هي التى أبقت على الأسلام وحمته . كانت مصر ، وجنود مصر ، هى التى دافعت عن الأسلام ضد الصليبيين حتى اكتسحتهم ، ووضعت أنفهم فى الرغام ، وتذكروا أن الصليبيين لم يكونوا الا أوروبا بأسرها ، أوروبا المتحمسة المتدينة ، جاءت لتقضى على الأسلام فامتلأت نفوس المصريين بالأيمان ، وعادوا سيرة الجهاد الأولى ، سيرة الصحابة الأجلاء .

أجل لقد عادت اليهم روح الاستشهاد الأولي ، فاستطاعوا أن يظفروا بأوربا وأن يقهروها ، واستطعنا ، أيها السادة ، أن نعلى كلمة الله ضد الصليبيين ، كما أعليناها بعد ذلك ضد التتار المخربين ، والذين حطموا عواصم الدولة العربية ، وطردوا الخلفاء .

وفى وسط هذه الحروب ، وسط هذا الظلام ، فى وسط الفتنة والجهل الذى خيم على العالم ، كانت جامعة الأزهر ، وأعنى جامعة الاسلام الوحيدة فى أنحاء العالم ، هى التى تبعث بالنور والعلم الى أنحاء العالمين .. هي التى تحفظ المدنية والحضارة ، وهى التى تعلى

كلمة الله .. أيها الأزهر ، يا أعز تراث ، ويا أقدس معهد فى العالم ، أيها الأزهر ، يامن أوجدك الله لتكون اماما ونبراسا ، انني لأنحني أمامك تقديساً وأجلالا ، انني لأحييك والدموع تجول فى عيني عندما أقارن ماضيك بحاضرك .

هذه هى مصر العظيمة بدينها أيها السادة . هذه هي مصر التى تستمد قوتها من تمسكها بدينها ومن هنا بقيت على مر الزمان ، ذات حيوية خالدة لاتنضب . وانهزم كل أعدائها وبقيت هي تسير الى الأمام .

وقد فطن الى هذا السر كل أعداء مصر وفاتحوها . فجاءوها عن هـذا الطريق . . طريق الدين . فأن الخرافات القديمة تحدثنا أن ملك الفرس ، عنـدما أراد فتح مصر ، اتخذ لذلك سبيلا دينياً ، بأن وضع في مقـدمة جيشـه حيوانات مقدسة لدى المصريين فامتنعوا عن القتال وتركوه يدخل بلادهم ، كى لايمسوا هذه الحيوانات المقدسـة ولست أشك فى كذب هذه الخرافة ، ولكنها على كل حال تدل على شدة تعلق المصريين بدينهم

ومن بعدهم الاسكندر ، لكى يستطيع أن يعيش فى مصر ، آمن بديانة المصريين وذهب الى هيكلهم وسمى نفسه ابن آمون .

ومن بعده البطالسة ، ومن بعدهم الرومان ، دخلوا فى المسيحية ، حتى جاء الأسلام ، فتفتحت له قلوب المصريين ، ولم يستطع بعد ذلك أن يحكمها الا مسلم . حتى نابليون ، أيها السادة ، اضطر أن يسلم لكى يعيش فى مصر . نابليون ، أيها السادة ، دخل مصر في يوم وليلة ، دون أن تصادمه مقاومة ، ولكنه دخل الأزهر بخيله يوما ، فثارت عليه الثورة التى لم تنتـه حتى بارح مصر ، ولم يوقفهـا الا بأن أعلن اسـلامه . فسكت عنه المصريون وفرحوا بانتصار دينهم . والانجليز أنفسهم ، أيها السـادة ، عرفوا ذلك منا ففعـلوا فى مصر كل شيء ، وحطموا كل شيء ، وغيروا كل شيء ، واحتقروا كل شيء الا دين المصريين ، لأنهم وثقوا أن هذه هى ناحية الخطر فى كل مايفعلون ، وأن المصريين يرضون بكل شيء الا أن يصابوا فى دينهم ، فـكرموا هذا الدين وعظموه ، ولو ظاهراً ، ألستم ترونهم يدعون علماءنا ليلة القدر احتفالا بهذا العيد العظيم .

ها كم حادثة التبشير الأخـيرة ، هل رأيتم كيف اجتاحت البـلاد عاصفة الغضب ضد التبشير والمبشرين ، وكاد البركان ينفجر لولا أن تصدى للموضوع جـلالة مولانا الملك المعظم ، فعـالجه بحكمته ، وأمر حكومته بملاحقة الأمر ، بفتح الملاجيء والمستشفيات .
أيها السادة ، ادرسوا نفسية الفلاحين ، وهم سواد الشعب . انهم لايعرفون فى الوجود الا الله ، ثم الارض ، الله فى السماء هو الذى خلقهم ، وهو الذى يميتهم ، ويحاسبهم ، والارض يزرعونها ، ويتعيشون من نباتها . فادام الله قد بقى لهم فهم ناعمون آمنون . ومادامت أرضهم تركت لهم يزرعونها ، فهم آمنون ناعمون ؛ حدثهم بعد ذلك عن الاقتصـاد ، حـدثهم عن الفلسفة ، فسيسمعون اليك وكأن الـكلام لايعنيهم .. لأنهم جنـــود الله وزارعو الأرض .

هذه هى نفسية الشعب المصرى ، وهـذا سر قوته . واذا كنا قد وصلنـا اليوم الى ماوصلنا اليه من ضعف ، فما ذلك الا لأننا جهلنا هـذه الحقيقة ، وشغلتنا ألفاظ أخري ومحاولات أخري . اذا كنا قد تدهورنا فما ذلك الا لأننا غيرنا ما بأنفسنا . انى أعلن أن ساسة هذا البلد جميعا ، مسئولون عما وصلنا اليه من انحطاط وتدهور ، ذلك لأنهم جهلوا طريق الدين واعتبروه نافلة من النوافل ، فعملـوا لـكل شيء الا الدين ، أستغفر الله بل لقد عملوا على هدم الدين ، هدموه في وضح النهار ، هدموه تحت سمع العالم وبصره . فهل تعجبون بعد ذلك أن حكمنا الانجليز طويلا ، هل تعجبون بعـد ذلك ان استعبدنا الأجانب ، هل تعجبون أن فقدنا معنويتنـا وثقتنا بأنفسنا ، انى أتهم رجال السياسة المصريين بالأجماع من فوق هذا المنبر ، انى أتهم الزعماء علنا من فوق هذا المنبر ، بأنهم مسئولون عما وصلنا اليه ، ذلك لأن الله لا يغـير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا .

من ذا يقول ان فى بلد الأسلام والدين ، يكون الفجور علنـا ، بالسخط الله ، بل ويكون برخصة من الحـكومة المصرية .. أيها الساسة ، أيها الزعماء ، يارجال الحـكومة ، قبل أن تتحدثوا عن الدستور ، قبل أن تتحدثوا فى الاستقلال ، تحدثوا فى هذا الخزى والعار ، وارفعوه عن أنفسكم ، يصلح الله شأنكم ، أني لأجن أيها السادة عندما أفـكر فى هذا الموضوع ، الله يبغض الزنا ، الله يعتبره من أكبر الجرائم ، الله يأمرنا أن نرجم الزانى ، ثم حكومة مصر ، حكومة الاسلام ، حكومة الدين ، تفتح البيوت للناس وتتقدم بالرخص لأبناء العائلات ، ولتساعد البنت ضد أبيها اذا أرادت احتراف البغاء ، ولتحمى الزانى ضد لعنات ذويه ، استغفرك اللهم وأتوب اليك ، ومصر بأسرها ، مصر التى عرفتها يارب ، مخلصة متفانية لـكلمتك ، مصر التى رفعت لواءك يارب طوال خمسة آلاف سنة أنها تثور على هذا الشر وتستنـكره .

الله يحارب الخمور ويلعنها ، فاذا بمصر الاسلامية تفتح لها صدرها بأكثر مما تفتحه لها انجلترا وفرنسا ، ففي هذه البلاد تقفل المواخير فى ساعة محدودة ، ويمنع الشبان الصغار من ارتيادها ، أما فى مصر ، مصر الاسلامية ، فالخمر يسرى الي أعماق القرية ، والخمر يعلن عنـه ويروج له فى كل صحيفة مصرية ، حتى الحـكومة تروج له أحيـانا ، وتطبع اعلاناته على دفتر التلفون ، وفى محطات السـكك الحديد . وعنـد مايقوم رجل كغلوش ينادى بحرب المسكرات ، هزأ منه الساسات ، وأشفقوا عليه ، واعتبرت عمله منـكرا من المنـكرات ، والله ان المنـكر هو أنتم وحياتكم .

دعوكم من التدهور الخلقى ، دعوكم من الرذائل كلهـا ، التى حرمها الله فأباحهـا القانون ، لن أحدثكم عن القمار ، والخمر ، والربا ، والزنا ، والتهتك ، لن أحدثكم عن هذه المعاول الهدامة فى كيان الأمة ، ولـكنى سأحدثكم عن شيء أهون من هذا وأبسط سأحدثكم عن هذا التفـكك بين المسلمين وعدوانهم ان حكومتنا ، أيها السادة ، لتعرف من أخبار

ألمانيا وفرنسا وانجلترا أكثر مما تعرف من أخبار فلسطين الشقيقة المسلمة ، انهم ليعلمونتا فى المدارس أسماء بلاد الولايات المتحدة بلدا بلدا ، ولكنهم لا يعلمونتا شيئا عن جاوة المسلمة وما فيها من اسلام ، انهم لايحدثونا عن الهند المسلمة ، ولا الصين المسلمة ؛ ولولا شذرات ضمنها فى الجرائد من حين لآخر ، لجهلت أن فى الصين مسلمين وأن فى جاوه مسلمين .

ذلك أن التعليم فى مصر يحارب الدين . التعليم فى مصر ثورة على الدين ، لأنه تعليم يغرس فى نفس الشاب أن الحياة ليست فى الدين ، وأنها فى شىء آخر ، هو هذا العلم الذى يدرس فى هذه البلاد .

ولم يكن ذلك كله الا سياسة الأنجليز الدنيئة . لقد عرف الأنجليز كيف يحكمون البلد عرفوا أن السبيل الى ذلك هو ابعاد النشء الجديد عن الدين ونظرياته ، عرفوا أنهم يستطيعون البقاء فى مصر ، لابجيوشهم ، بقدر مايستطيعون ذلك عن نشر الشرور والآثام ، فأباحوا الخمر والربا والزنا والقمار ، وكل مايفتك فى الجماعات ، بحجة أن هذا مدنية المصريين فلتخسأ المدنية ، ولتذهب الى جهنم ، اذا كانت هذه تعاليمها ! فلتخسأ المدنية وليخسأ أصحابها والمنادون بها ، اذا كان هذا أثرها !

لا والله ماكانت هذه هى المدنية ، ولكن هذه هى معاول المدنيـة . لاوالله ما كان هذا يرق شعبا ، ولكن يخرب شعبا . لا والله ما كان الاستهتار والدعارة والجحود فى الدين والاهمال لأوامر الله ، الا نذير الهلاك والعذاب .

حمداً لك يارب أن رفعت الغشاوة عن أعيننا ، حمداً لك يارب أن أتحت لنا فرصة الاهتداء بنورك وهديك ، فنحن اليوم قد آمنا ، وعرفنا الطريق ، عرفنا السر ، وعرفنا السلاح .

أيها الشبان ، ياشبان مصر ، وياجنود مصر الفتاة ،

ان أردتم نجاحا فى الحياة وفلاحا ، أن أردتم استقلالا ومجدا ، فغيروا ما بأنفسكم آمنوا باللهوأوامر الله ، قدموا أنفسكم فى سبيل الله ، فيغير الله ماحل عليكم من السخط والغضب .

الدين .. الدينأيها الشبان .. الدينالدين أيها الشيوخ ..الدين الدين أيها الحكام .. لا والله أن الانجليز لايملكون فى يدهم خيرنا وسعادتنا ، ولكن نحن أنفسنا نستطيع أن نكون أقوياء ، ونستطيع أن نكون ضعفاء .

فلترفع كلمة الدين عالية فيجتمع لنا فى مشارق الارض ومغاربها مئات الملايين من المسلمين . لقد كانت مصر منذ خلقت للعالم منارة نور للعالمين ، كانت مصر سيدة وزعيمة وقائدة ، كانت مصر زعيمة الاسلام والمسلمين ، فهلموا نسترجع زعامتنا الدينية .. هلموا نرفع اللواء أمام الشرق القريب والبعيد، هلموا نأخذ مركزنا تحت الشمس فوق العالمين. ان لكم دينا أيها الشباب سيحكم العالم بأسره ، ان لكم دينا يهدم الفوارق ويوحد

اجماعات ويجمع الناس فى صعيد واحد . ان لكم دينا ديمقراطيا تعجز تعاليم القرن العشرين عن أن تصل الى مستواه . هل تذكرون كيف كان الأعراب ينادون رسول الله: يا محمد، وكيف كانوا يحاجونه ويناقشونه ، هل تذكرون كيف يقول الكتاب «وأمرهم شورى بينهم » هل تذكرون قولة رسول الله (المسلمون سواسية كأسنان المشط) وليس هذا الا المساواة المطلقة .

هل تذكرون قول عمر متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ، وهذه هي الحرية .

هل تذكرون قولة رسول الله (انما المؤمنون اخوة) .

هذه هي المبادىء الثلاثة : حرية ، واخاء ، ومساواة ، يعلمها الدين الاسلامى منذ ألف سنة . ويمارسها المسلمون ، ولا يعرفها الغرب الا منذ مائة وخمسين سنة عندما اندلعت الثورة الفرنسية .

أن لكم دينا اشتراكيا ، يعجز العالم فى القرن العشرين عن بلوغ مستواه . هذه الزكاة التى فرضت علينا ، أليست اقطاع جزء من مال الأغنياء ليمنح للفقراء ، الأمر الذي يحاول العالم عبثا الوصول اليه فلا يستطيع . الزكاة ركن من أركان ديننا .

أن لكم دينا يقوم على المنطق ، ويساعد على العمران والحضارة . أن لكم دينا ينشر السلام ويؤاخي بين سكان العالم ، ويوجد لكم عصبة أمم تزرى بالعصبة الحاضرة .

أتذكرون الحج أنه عصبة شعوب حقيقية ، ففيه يتقابل المسلمون ، وفيه يتداولون ، وفيه يحلون مشاكلهم .

ان لكم دينا حوى الفضائل كلها ، واعترف بالأديان كلها ، ومجد الأديان كلها ، فهو يعيش مع كل الأديان الصادقة .

ان لكم ديناً يضمن حياة رغدة في الدنيا والآخرة ، فهلموا يا شباب .. هلموا ياجنود مصر الفتاة ، نعلى كلمة الدين .

هلموا ننادى باعادة الزكاة ، وبادخال التعليم الديني فى المدارس . هلموا نؤاخى المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها .

هلموا نقضي على الخمور والبغاء والقمار والتهتك ، فتصبح مصر قوية ناضجة ، وتصبح مصر جديرة بالزعامة والسيادة . لأنها تكون قد غيرت ما بنفسها ، فيغير الله ما بها من ويلات .

أيها السادة .

أما وقد وصلنا الى هذه النقطة ، فلابد من ايضاح انى الآن فى مقام بسط سياسة ، يجب أن تكون صريحة ، لأني أعتقد أن الصراحة رأس مالي . سنقوم بدعوة دينية ، سندعو مصر والحكومة لأحياء الأسلام وشعائره ، سنعمل لكي تتبوأ مركزها ، ولن يرضى ذلك خصوم مصر ، لن يرضى ذلك بعض سفهاء مصر ، واذن فسيحاولون كعادتهم نشر الدسائس والأباطيل . سيقولون ان فى حركتنا الدينية ما يهدد صفو العلاقات بين

أقباط مصر ومسلميها ، سيقولون ان دعوتنا خطرة على الاتحاد المقدس بين الطائفتين . لمثل هذه الدسائس وهذه الأباطيل ، أريد أن أصرح علنا ، ومن فوق هذا المنبر ، أن اخواننا يجب أن يفهموا أننا ، كمسلمين ، وأغلبية في هذا البلد ، لنا الحق في مناصرة ديننا والنداء بعظمته ، وليس في هذا مساس بدينهم .. وليس يولد هذا خلفا بيننا وبينهم ... بل اننا كما ندعو للدين الأسلامى وزعامة مصر له ، ندعو لزعامة مصر المسيحية أيضاً على رجال الكنيسة في الحبشة ، وفي بعض البلاد الأخرى . الأديان كلها لله ، وفي سبيل الله . الدين الاسلامي يؤاخي بين الأديان جميعا ، ويعترف بوجودها وبقدسيتها . .

الدين هو الدين ، وله آثاره في المجتمع ، فقط عندما يكون لله ، ومن أجل الله . وبعد فهذه خطة واضحة ، وميثاق أعلنه من فوق هذا المنبر ، ليكون برنامجا لنا .

أيها الشباب

أيها الشباب .. يا أشبال الأزهر ودار العلوم .. يا أشبال الجامعة والمدارس العليا . ان عليكم رسالة ، وفي عنقكم ديننا . . أيها الأزهريون ياطلاب أقدس جامعة ، ياطلاب جامعة النور الجديد ، أيها الشباب ، ياجنود مصر الفتاة ، أن لخالقكم عليكم حقا ، فأن لم تذكروا هذا الحق ، حق الله ، فلا خير فيكم لأنفسكم ، ولاخير فيكم لأوطانكم . ان الذى لايعرف حق الوطن ، والذى لايجاهد في سبيل الله ، لايجاهد في سبيل الوطن .

آمنوا بأن جهادكم في سبيل الله ، وأن جهادكم الوطنى جزء من الجهاد في سبيل الله ، فنستطيع أن نوجه هذه القوة الكامنة في مصر الى خير العالم ، وخير الأسلام .

أيها الشباب الحاضر الآن ، تعلموا وعلموا الناس أن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

قولوا للناس ان أردتم سعادة الدارين ، فطريقكم هو الدين .. قولوا للناس ان أردتم استقلالا ، فطريقكم هو الدين . . قولوا للناس اذا أردتم مجداً ، فطريقكم هو الدين . .

أعلوا كلمة الدين وارفعوها .. قاطعوا الخمور وحاربوها . . اقضوا على دور الفسق والفجور ، حطموا بيوت القمار .. ادعوا للصلاة في كل مكان ، وتعالوا نجتمع في المسجد كل جمعة لنصلي لله ، نصلي له كي يملأ قلوبنا ايمانا ، ولكي يرفع عنا البلاء الذى أحاط بنا ، وينتقم من الأعداء الذين يحمدون أنفاسنا . تعالوا نتطهر ، وعندها سنصبح أقوياء ، وعندها سنهد الجبال ، وعندها سنفل الحديد ، وعندها ستصبح مصر فوق الجميع .

هذا ما أعنيه بكلمة الله .

وهذا أول سطر في برنامج مصر الفتاة .

قضية الجيش

– ٧ –

مصر الفتاة الآن فى أوج قوتها واندفاعها ، والصرخة تصدر في انتظام كل أسبوع ، وهى تحمل على صفحاتها شواظا من نار ضد صنوف الموبقات ، ومظاهر الانحلال والضعف ، وضد الاحتلال البريطانى والانجليز، في عنف لم يسبق له مثيل ، ولقد بدأت أبعث برسائلى إلى كبار الشخصيات المصرية والانجليزية أستعرض فيها الحياة المصرية ، وأناقش ما أرغب مناقشته من القضايا ، فثمة خطاب إلى رئيس وزراء انجلترا (١) أهاجم فيه سياسة الاحتلال التى فرقت الأمة ، وفرقت صفوفها ، وتدهورت أخلاقها ، وأعلنه فيه بأن مصر الفتاة ستحمل لواء الجهاد ضد انجلترا ، وسياسة انجلترا فى مصر ، إلى أن يجلو آخر جندي بريطانى عن مصر . وإنه لا السجون ، بل ولا المشانق ، ترهبنا أو تقعدنا عن المضى فى جهادنا ، فأما النصر وإما القبر . وثمة خطاب آخر إلى شيخ الأسلام الأحمدى الظواهرى (٢) أهيب بفضيلته أن ينهض لمقاومة المنكرات المتفشية فى أنحاء المجتمع المصرى ، وأندد بسكوته وسكوت جماعة العلماء وموقفهم السلبي لما يجرى تحت أسماعهم وأبصارهم من المنكرات التى كلفوا شرعا بالانكار عليها .

وكانت حياتى فى هذه الفترة جهادا مستمرا متواصلا بالليل والنهار ، بكل ما في وسعى وطاقتى . فما كنت أرى إلا كاتبا للصرخة ، أو خاطبا في حفل ، أو متحدثا في جماعة ، ولقد كانت الساعات الطوال تمر على وأنا فى حديث مع الشباب ، الذين كانوا يفدون إلى دور مصر الفتاة الصغيرة المتواضعة فى (حارة الفوالة) ، وكان يفجأ هؤلاء الشبان أول ما يفاجئهم

---

(١) راجع نص الخطاب فى مجلة الصرخة العدد ١٣ بتاريخ ٣٠ ديسمبر سنة ١٩٣٣ .
(٢) المصدر السابق العدد ١٦

هذا المظهر الذى يدل على الفقر الشديد المدقع ، فى الوقت الذى تشيع فيه الشائعات عن مصر الفتاة ، وأن هذه الجهة أو تلك تمدها بالمال ، أو أن ذمة أحمد حسين ليست طاهرة نقية كالثلج والبرد . وكان يذهلهم أن تكون هاتان الحجرتان الضيقتان هما كل ما لجمعية مصر الفتاة وجريدة الصرخة من إدارة وميدان للعمل والنشاط . ولكنهم لا يكادون يستمعون لحديثى الذى كنت أواصله بغير انقطاع من أعماق قلبى ، حتى يدركوا على الفور هذا المعين العميق الذى نستمد منه قوتنا وثروتنا ونشاطنا ، وأنه معين الأيمان العميق بالله والوطن . . وكان أهم ما يشغلنى فى هذه الأيام هو كيفية إعداد جيل من الشباب ، أكثر قدرة على الكفاح والجهاد والتحرر من موجة الانحلال والتخنث ، التى كانت تسيطر على صفوف الشبان فى ذلك الوقت . .

وكنت أرى أن الجندية هى العلاج الوحيد لكل ما تشكو منه مصر من أدواء وعلل ، ولقد عملت من ناحيتى على نشر الروح العسكرية بين صفوف أبناء مصر الفتاة ، فشكلنا فرقة الأقمصة الخضراء ، التي سيكون لها شأن أى شأن في تاريخ مصر بعد فترة من الزمن ، ولكنها في ذلك الوقت كانت لا تزال في بدايتها ، ولم نكن نستخدم إلا القميص الأخضر نلبسه على (البنطلون) الطويل العادى ، أما بعد ذلك فقد تطور لباس مصر الفتاة إلى زى عسكرى كامل ، يخلب الألباب بجماله وأناقته وقوته فى نفس الوقت . على أننى لم أرد أن أقصر كفاحى لنشر الروح العسكرية على مجهودنا المحدود ، بل فكرت فى توسيع دائرة الدعاية للجندية ، ونشرها بين صفوف الشبان عامة ، فتوجهت صوب الجيش المصرى وإلى وزاره الحربية المصرية أستمد منها العون . فكتبت فى ٢٧ يناير سنة ١٩٣٤ خطابا (١) إلى وزير الدفاع في ذلك الوقت صليب بك سامى أحمل فيه على نظام الجيش المصرى وسيطرة الأنجليز على قيادته ، وسياسة الأنجليز فى عزل

---

(١) راجع نص الخطاب فى جريدة الصرخة رقم ١٧ الصادر بتاريخ ٢٧ يناير سنة ٩٣٤

هذا الجيش عن الأمة وعن شبابها المتعلمين ، وعن وقفه ضعيفاً عاجزاً مجرداً من كل سلاح حقيقي . وحملت في هذا الخطاب على قانون التجنيد الأجباري الذي يجعل مدة التجنيد خمس سنوات كافية لخراب بيوت المجندين ، وحملت بالأكثر على سياسة الأعفاء والبدل النقدى ، لأن الجندية هى ضريبة الدم التى ينبغى على كل مواطن أن يدفعها ، ولا حياة ولا كرامة ولا حرية ولا استقلال لأمة ما لم تكن أمة عسكرية مدججة بالسلاح ، ولا أمل لمصر فى الحصول على حقوقها المغتصبة إلا بعد أن تتحول مصر إلى شعب عسكرى . وأرفقت بخطابى إلى وزير الحربية عريضة موقعا عليها من خمسين شابا من شبان مصر الفتاة المتعلمين المثقفين يعلنون فيها رغبتهم فى التطوع فى الجيش المصرى ، إذا أنقصت مدة الخدمة العسكرية إلى سنة واحدة ، وهو ما تدعو له مصر الفتاة وتبشر . ولقد كان لهذا الخطاب وهذه العريضة ، المنشورين في الصرخة ، بعد إرسالها إلى وزير الحربية وقع الصاعقة فى الدوائر الانجليزية والمصرية ، الخاضعة للسيادة الانجليزية . فاذا بهم يقومون ويقعدون ، ويثورون ويحتجون ، ويعتبرون أن ما فعلناه جرم شنيع ينبغى أن ننال عليه أشد الجزاء ! . ولقد كان آية ماوصل إليه المجتمع المصرى في ذلك الوقت من التدهور والانحلال ، أن تعتبر دعوة الخير دعوة شريرة ، وأن يقابل تطوع شبان للانضمام إلى الجيش هذه المقابلة السيئة ، ولقد جاء وقت فتحت فيه وزارة الدفاع المصرية باب التطوع في الجيش المصرى على مصراعيه ، وجاء وقت نددت فيه الحكومات المختلفة بقانون التجنيد وأعلنت رغبتها فى تعديله بما يتفق ومبادىء مصر الفتاة ، بل جاء وقت أصبح التدريب العسكرى فيه قانونا ونظاما للجامعة والمدارس المختلفة ، وجاء الوقت الذى أصبح طلاب الأزهر أنفسهم يتلقون تدريبا عسكريا يؤهلهم لأن يصبحوا ضباطا احتياطيين للجيش ، ولقد عشت حتى رأيت شبان مصر الفتاة ، الذين اضطهدوا لرغبتهم فى التطوع للجيش ، قد صاروا بعد ذلك ضباطا من صميم

الجيش . . ومع ذلك فقد حوكمت في يناير سنة ١٩٣٤ لأنني دعوت إلى نشر الروح العسكرية في مصر ، ولأني دعوت إلى إصلاح قانون التجنيد، وسيبقى ذلك هو شأن مصر الفتاة دائماً أبدا ، طوال الأثنتي عشرة سنة التالية ، وهو أن تحاكم على مبادىء واقتراحات لا تلبث أن تصبح بعد قليل هي دعوة المجتمع المصري بأكمله .

ولقد ساقونا إلى السجن للمرة الثانية ، وكان رفيقي في السجن هذه المرة هو الاستاذ أحمد الشيمي رئيس تحرير الصرخة . وطلبت النيابة من محكمة الجنايات معاقبتنا بالمواد ١٥٩ ، ١٤٨ ، ١٦٦ ، ١٦٧ من قانون العقوبات القديم .

وفي ٦ مايو سنة ١٩٣٤ مثلت أمام محكمة الجنايات التي كان يرأسها نجيب بك سالم وتوليت الدفاع عن نفسي بمرافعة لا أجد ما أعتز به من مرافعاتي التالية قدر اعتزازي بها . . لقد مرت على السنون الطويلة في محاكمات ومرافعات ، استغرق بعضها ثلاثة أيام أو أربعة ، وبلغت فيها من العنف والشدة إلى حد ما كان لا يتصور الكثيرون إمكان أن يقال في مرافعة أمام محكمة ، ومع ذلك كله فستبقى مرافعتي في قضية الجيش موضع اعتزازي ورضائي ، لأنها كانت أولى مرافعاتي ، ولأنني كشفت فيها الستار عن ضعف الجيش المصري ، وحذرت وأنذرت من إيطاليا وعدوان إيطاليا على مصر ، قبل أن يقع هذا العدوان بتسع سنوات على الأقل . وسيري القارىء كيف تنبأت في هذه المرافعة بالحرب الضروس التي وقعت ، وكيف كنت أول الناعبين في البوق للاهابة بمصر والمصريين إلى التهيؤ والاستعداد للحرب ، ولكن صرختي ذهبت في واد ، في ذلك الوقت ، بل ودفعت ثمنها من حريتي ومالي ، ولقد جاء اليوم الذي رأيت فيه بعيني رأسي الانجليز وفرائصهم ترتعد ، لخطر المحور الذي يوشك أن يدهمهم في مصر ، وهم يندبون جريمتهم الشنعاء في إبقاء الجيش المصري ضعيفا ، ولنسمع الآن إلى هذه المرافعة التاريخية . . وستعطيك صورة كاملة عن أحوال مصر وإيطاليا والعالم في سنة ١٩٣٤ .

مرافعة

يا حضرات المستشارين :

أقف أمامكم يا حضرات المستشارين ، وفى هذا القفص ، بصفتى رئيساً لجمعية مصر الفتاة ، فيجب أن تسمحوا بكلمة تقال عنها كتعريف لها . . أهى جمعية ثورية . . أهى جمعية غير مشروعة ، فان هذا التعريف للجمعية ومبادئها وكيف تكونت، له أعظم الأثر فى تكوين اعتقادكم فى صحة الكلام الذى ستسمعونه منى بعد ذلك ، وله أكبر الأثر فى حكمكم الذى ستصدرونه فى النهاية . أما ما هى ، وكيف تكونت ، فقد آمنت مذ كنت صغيراً ، بمصر ومجد مصر . لقد طالعت تاريخها القديم والحديث ، وقلبت صفحات مجدها الغابر . فعرفت مصر الفرعونية وأحببتها ، وعرفت كيف علمت مصر العالم وأضاءت له منذ أربعة آلاف من السنين ، حين كانت الشعوب تقف من مصر موقف التلميذ من أستاذه ، حين جاء الأغريق والرومان الى ضفاف النيل ينهلون الحكمة والعلوم . لقد عرفت كيف حكمت مصر العالم ، وكيف سيرت الجيوش ، وفتحت المدائن . ولقد عرفت كيف هزت مصر الأسلامية العالم الغربى ، وصمدت فى الحروب الصليبية ضد أوربا بأسرها فهزمت ملوكها واقتادتهم سجناء الى المنصورة . لقد عرفت كيف صدت موجة التتار وأنقذت الانسانية من شرهم وأبقت على الاسلام . لقد عرفت كيف كانت جامعة الأزهر تضىء على العالم فى العصور الوسطى . ولقد عرفت كيف استطاعت مصر ، فى عهد محمد على ، أن تلعب دوراً خطيراً فى الحياة السياسية ، وكيف طفرت من أمة ضعيفة الي دولة مخيفة ، ترهبها الدول وتلتمس صداقتها . عرفت كيف سارت جيوش مصر تهزج أهازيج النصر ، حتى قرعت أبواب أوروبا . وكيف كادت تحطم الامبراطورية العثمانية ، وكيف جابت أساطيلها البحار فأرهبت الأساطيل . عرفت كل ذلك ، وعرفت أن مصر خلقها الله لتكون سيدة وزعيمة . وأن مصر لم توجدها الطبيعة فى مركز العالم ، فى ملتقى الطريق بين الشرق والغرب عبثاً ، أو لمحض الصدفة ، ولكن لتقود العالم ولتضىء له . عرفت كل ذلك وجلت بنظرى فيما حولى فما رأيت الا مظاهر الضعف والتقهقر والخنوع .. لا استقلال ، لا ثروة ، لا كرامة ، لا غيرة . فالانجليز تحتلنا ، وتملأ جيوشها السهل والجبل ، وتحول بيننا وبين العمل المنتج الصالح . والأجانب يستولون على كل شىء ، ويجثمون على صدر الحياة المصرية فيخمدون منها الأنفاس . كل شىء فى أيديهم ، المال والتجارة والديون والأرض ، وهم بعد ذلك يتمتعون بالامتيازات ، التى لا تعترف بالبرلمان ولا بالقضاء ولا بالحكومة . والأخلاق لا وجود لها، فالمصريون فى انقسام واضطراب وتطاحن ، والدين لا أثر له . والمعنويات مفقودة ، والأحساس بالضعف والتشاؤم في كل مكان . هذا يقول أننا بغير الانجليز لا نساوي بصلة ، وآخر يردد أننا

لن نستطيع أن نتخلص من احتلال الانجليز ولو بعد ألف سنة ، وثالث يرى وطنه أحط الصفات وأقبحها وأنه قد فرضت عليه الذلة والمسكنة ، وأن من العبث البحث عن الخلاص!. وهكذا امتلأت النفوس بالجبن ، وضاعت الشجاعة وضاعت الجرأة ، وأصبحنا نعيش في خوف دائم عبيداً للانجليز والأجانب ، عبيداً للفقر والضعف . . أما أنا فلم تمتلىء نفسي يأساً ولا تشاؤماً . أما أنا فقد استطعت أن أدرك أن ذلك كله ليس الا ظواهر عارضة، جاءت نتيجة الاحتلال ، ونتيجة الجهل ، ونتيجة الاستسلام ، وأن الحيوية المصرية اذا وجدت من يبعثها ويستثمرها ، هذه الحيوية التي طالما قامت بالمعجزات في التاريخ القديم والحديث ، لم تذهب هباء ، ولم تفن ، ولكنها موجودة وكامنة ، في نفس كل مصري ، وان غطتها هذه العوارض الطارئة. فآليت على نفسي أن أكون جندياً ، يعمل من أجل مصر وبعث مجدها القديم . . آليت على نفسي أن أقف مالي وجهدي وروحي في سبيل مصر المفداة ، وفي سبيل اعادة الروح الى أبنائها . . روح التفاؤل والأمل ، روح الأيمان بالمستقبل والعظمة . . . آليت على نفسي بهذا العهد وبدأت أعمل مذ كنت طالباً فناديت بمشروع القرش كدعوة للاستقلال الاقتصادي ، ودعوة للتضامن والتعاون ، في سبيل غاية مشتركة وفكرة نبيلة . وقد كان، ولبت الأمة النداء ، وعادت الروح الى الشباب ، فبدأ يفكر ، وبدأ يعمل ، وبدأ يشعر بآلام مصر ، وبدأ يتطلع للخلاص ويشرئب للمجد . . ولما انتهت دراستي وخرجت الى الحياة ، رأيت أن الساعة قد حانت لدعوة الشباب للعمل . . للعمل من أجل حرية مصر ومجدها . . للعمل في سبيل الأصلاح وفي كل نواحي الحياة ، متحررين من كل قيد ، نافضين عن أنفسنا غبار الخمول والكسل غبار الخوف والجبن ، غبار التردد والضعف ، فألفت ونفر من زملائي المحامين جمعية مصر الفتاة . ألفناها لا لتخدم حزبا من الأحزاب، ولا لتخدم غاية من الغايات ، ولكن لتكون غايتها مصر فوق الجميع . فمصر هي الغاية ، ومصر هي المحور ، ومصر ومجد مصر هو كل شيء في جمعية مصر الفتاة . ولم يكن في جمعيتنا فوضويون أومجانين ، ولكننا رجال عمل وإيمان. فهؤلاء الذين بنوا مشروع القرش بالامس ، لا يمكن الاأن يكونوا بنائين . وهؤلاء الذين. بنوا مصنع الطرابيش ، لا يمكن الا أن يكون برنامجهم الأنشاء والتعمير . فوضعنا لجمعيتنا برنامجاً سياسياً اقتصادياً اجتماعيا دينيا ، دون أن تتقيد بسياسة خاصة ، أو بشخص من الأشخاص ، متخذين شعاراً لنا : « الله والوطن والملك » .واني أتشرف بتقديم نسخة من برنامج الجمعية ، لتروا فيه أي برنامج انشائي قد اتخذته الجمعية نبراساً لها . .

على أن الذي يهم المحكمة من هذا البرنامج كله هو البند الخاص بالجيش ، وهو البند ٢٧ والذي جاء فيه « ويجب أن يصبح التجنيد اجباريا للجيش ، وأن تنقص مدة الخدمة فيه ، وأن يمتلىء الشباب بالروح العسكرية » .

فاذا تكلمنا عن الجيش فليس ذلك الا تنفيذاً لمبدأ من مبادئنا ، وليس ذلك الا للتحدث عن الأصلاح ، في ناحية من نواحي الحياة المصرية ، التي ينبغي لها الإصلاح جميعاً . ولكن.

النيابة ، سامحها الله ، وهي أعرف الناس بمقصدنا هذا ، لأنها أثناء التحقيق استطاعت أن تكتشف روحنا .. استطاعت أن تعرف من نحن وما نحن ، هذه النيابة رأت أن تعتبرنا مجرمين لا مصلحين . هذه النيابة تجيء بنا اليوم ، نتوقفنا في هذا القفص ، على اعتبار أننا مجرمون نستحق العقاب ، تماما كهذا الذي سرق ، وهذا الذي هتك العرض ، وهذا الذي زور . . ونحن لسنا نشكو ذلك ، بل على العكس نرحب به ، لأنه سيتيح لنا الفرصة لشرح مبادئنا ، وتحمل العذاب في سبيلها .

السبب المباشر لكتابة الخطاب والعريضة

الى هنا قدمنا أنفسنا بما يثبت للمحكمة أننا لسنا الا أشخاصا مجاهدين، يبغون الأصلاح والمجد والرفعة لأمتهم . الى هنا بينا كيف أن ما قمنا به وما نقوم به من كفاح وجهاد ليس الا لمصر ، ومن أجل مصر ، وفي سبيل الله . وبقى أن نعرف الدافع المباشر لكتابة هذه المقالة .

قدمت أن برنامج الجمعية يحوي مضاعفة الجيش ، وضرورة جعل الخدمة اجبارية ، وانقاصها الى مدة سنة . واذن فأن التحدث في هذا الموضوع طبعي . وهو ليس الا تفصيل ما أجمله البرنامج .. على أن هناك سبباً مباشراً لكتابة هذا المقال ، هناك عود ثقاب أشعل نفسي وجعلني أمسك بالقلم ثائراً متمرداً قاسياً في نقدي ، وأقسم لكم أنكم ستمتلئون غيظاً بدوركم عند ما تسمعون القصة . هذا الذي سأحدثكم عنه ليس بالجديد ولا بالأمر المستور، ولكنكم سترتاعون عندما ترونه مبسوطا أمامكم ، عندما تشاهدون تسلسل القرائن واجتماعها لتؤدي بنا الى نتيجة واحدة ، وهي أن مصر في خطر عظيم ، وهي لاهية تلعب ، وهي لاهية مشغولة بتوافه الأمور ، ووزير حربيتنا يهتم بأن يقذف بي في السجن ، أكثر من أن يهتم بمواجهة العدو الذي يتربص بنا الدوائر .

كنا جلوسا في أحد الأيام ، فحمل الينا أحد اخواننا مصورين جغرافيين يطلق عليهما اسم « فيلبس » وهما ليسا الا نسختين من مصور واحد . الأول تاريخه سنة ١٩١٦ ، والثاني تاريخه سنة ١٩٣٢ . ولقد لفت نظرنا بشكل مخيف في هذين المصورين تغير حدود مصر ، وحصار الحدود الأيطالية اياها من كل جانب تقريباً . وان نظرة واحدة الى المصورين تريكم كيف فقدت مصر كثيرا من حدودها الغربية ، وكيف اقتربت ايطاليا من داخلية مصر ، فاذا أضفنا الى هذا أن ايطاليا في الجنوب تحاصرنا في الأرتريا والصومال وحاولت أخيراً أن تقترب من حدود السودان وتستولي على احدى الواحات ، فبادرت انجلترا الى احتلالها، الأمر الذي أعاد الى الأذهان واقعة فشودا ، هذا الى استيلائهم في البحر الابيض على سلسلة من الجزائر الصغيرة التي تقع في شمال مصر ، أقول لكم ياحضرات المستشارين ان هذا كله لفت أنظارنا الي الخطر المحدق بمصر من ناحية ايطاليا . ولم يمض على اجتماعنا هذا يومان ، حتى اجتمع في ايطاليا مؤتمر للطلبة الشرقيين

وكان انعقاده فى روما ، ووقف السنيور موسولينى خطيباً ، فقال ان مهمة روما هي الجمع بين الشرق والغرب ، واننا سنعيد الأمبراطورية الرومانية الى سابق مجدها ، وهذا لصالح العالم .

أتسمعون ، ياحضرات المستشارين ، ان السنيور موسولينى يريد اعادة تكوين الأمبراطورية الرومانية . وماهى ألمع جوهرة فى الأمبراطورية . . انها مصر ! ومن هنا كان موسولينى يهتم بمصر اهتماماً خاصا ، ويوجه اليها عناية عظيمة ! امتلأت نفوسنا بهذه الفكرة وأحسسنا بوقعها أليما فى نفوسنا . أحسسنا بالألم يملؤنا ويحز في نفوسنا ، كيف أننا كالشاة يتبادلها الجزارون ، وكل لايريد الا جلدها ولحمها . وبينما كنا نسير فى يوم من الأيام ، اذا بفرقة من الشباب الفاشستي الايطالى تسير على نغمات الموسيقى فى شوارع القاهرة ، ومن هم الفاشست ؟ . انهم جنود ايطاليا الجديدة ، انهم الشباب يربون تربية عسكرية ، واذن فى داخل مصر ، وفى قلب القاهرة ، تعد الجنود الايطالية . الجنود التى ترغب فى اعادة الأمبراطورية الرومانية . الجنود التي تحيط بمصر من كل جانب لتلتهمها فى الساعة المناسبة .. واذن فقد ثبت لدينا ياحضرات المستشارين ، أن ايطاليا تريد مصر ، أن ايطاليا تتحين الفرص للانقضاض على مصر ، أن أطماع موسولينى لاتقتنع الا بمصر . ولقد يبدو لكم هذا محض استنتاج أو خيال ، ولقد تشكون في قيمة هذا الحكم قليلا أو كثيراً ، ولكن الله الذى يعلم أننا فى سبيله نجاهد ، أراد بعد أن قدمنا المحاكمة ، أراد منذ أيام قليلة أن يعطينى دليلا جديداً ، فاذا بموسولينى يخطب خطبة جديدة فيها حديث أوفى وأكمل ، واذا بناظر مدرسة الاستعمار يرد عليه ، واذا الذى قلته لكم ، ياحضرات المستشارين ، على أنه استنتاج يصبح حقيقة واقعة رخيصة ، يعرفها كل مخلوق يطلع على هذا الكلام .

قال موسولينى : « للأهداف التاريخية التى تتوخاها ايطاليا . . غرضان آسيا وأفريقيا ، فالجنوب والشرق هما المركزان الأساسيان اللذان يجب أن يثيرا اهتمام الأيطاليين وصدق ارادتهم ، لأنهم لايجدون أمامهم الا القليل ، أو بالأحرى لايجدون شيئا فى الشمال . ومثل هذا القول ، يقال أيضا فيما يتعلق بالغرب وبأوربا أيضا ، ولهذين الهدفين اللذين نرى اليهما مايبررهما من الوجهتين الجغرافية والتاريخيه ، فان ايطاليا هى ، بين الدول العظمى الثلاث فى أوروبا ، الأقرب الى أفريقيا وآسيا ، بساعات قليلة فى البحر ، وساعات أقل تكفي لأيصال ايطاليا بأفريقيا وآسيا .

وليس فى العالم من يستطيع أن يجادل فى هذا الواجب التاريخى الملقى على عاتق أبناء هذا الجيل ، وأبناء الأجيال المقبلة فى ايطاليا .. فالمسألة ليست مسألة فتح ، وهذا مايجب أن يعرفه كل الناس ، سواء كانوا من جيراننا أو البعيدين عنا . بل هى مسألة توسع طبيعى ، يجب أن يؤدي الى تعاون ايطاليا وسكان أفريقيا ، والى تعاونها مع

الشرق القريب والشرق المتوسط ، وهى أيضا مسـألة عمل جدى لاستثمار الموارد التى لم تستثمر فى القارتين ، ولاسيما القارة الأفريقية ، ومساعدتها على التوغل الي مدى أبعد في دائرة الحضارة العالمية .

ان ايطاليا تستطيع أن تفعل ذلك ، فركزها فى البحر الأبيض المتوسط ، الذى أخذ يستأنف مهمته التاريخية ، كصلة بين الشرق والغرب ، يخولها هذا الحق ويفرض عليهـا هذا الواجب . ونحن لا نقصد المطالبة بأي نوع من أنواع الاحتكار أو الامتياز ، بل نطلب من الذين وصلوا ورضوا من المحافظين ، أن لايحاولوا حصر توسع ايطاليا الفاشستية والشعب الفاشستى ، أدبيا وسياسيا واقتصاديا من جميع الجهات « مستند ٢ »

هذه هي خطبة السنيور موسولينى ، فهل رأيتم فيها تحدثه عن الأهداف التاريخية .. هل رأيتم فيها كيف يقول أنه ليس فى العالم من يستطيع أن يجادل فى هذا الواجب التاريخى الملقى على عاتق أبناء الأجيال المقبلة فى ايطاليا .. أو لم تحسوا معي ياحضرات المستشارين أن كلمة أفريقيا التى يكررها ليست الا مترادفة لـكلمة مصر .. فاذا كان كل هذا لم يقنعكم فى أن موسولينى يطمع فى مصر ، وفى أنه يبيت لها ، فأليـكم اذن الـكلمة الأخيرة الصريحة الجلية .. اليـكم ماسيجعلـكم مبهوتين حائرين ، كيف جاز أن يلفظ مثل هذا الـكلام ، أو يردد هكذا علنا وفى وضح النهار .

بعد أن خطب السنيور موسولينى هـذه الخطبة ، أرسل المعهـد الشرقي فى نابولى تلغرافا الى السنيور موسولينى هنأه فيه بالخطبة التى ألقاها يوم الأحـد ، وقال انه يعمل وفقا لسياسـة السنيور موسولينى في سبيل التوسع الايطالى فى آسيا وأفريقيا ، ونوه بانشاء مدرسة « تحسين وسائل الاستعمار » وبقرب زيارة فريق من طلبتها لمصر ، وبرحلة بعض أساتذتها لاستكشافات علمية فى فزان .

مصر .. مصر ياحضرات المستشارين ، هاهو ذكرها يأتى علنا . هاهي تردد فى قحة وجرأة .. انتبهوا الى العبـارة .. « ونوه بانشاء مدرسـة تحسين وسائل الاستعمار وبقرب زيارة فريق من طلبتها لمصر » . الله أكبر ! لقد برح الخفاء !! . الله أكبر ! لقد فضح الله الأعداء !! . وهاهى النوايا التي حـدثتكم عنها تظهر . وهاهي سياسـة موسولينى فى ابتلاع مصر تتردد .. حتى انه ليرسل طلاب الاستعمار لدراستها !!.

هذا كلام قيل ياحضرات المستشارين .. لو أنه قيل عن بلد آخر يعرف كرامتـه ، لقامت الدنيا وقعدت .. لو أنه قيل عن مقاطعة (للزنوج) ، لصـاح هؤلاء الزنوج ووقفوا القائل عند حده . . أمة تهدد فى استقلالها ، يتحدث عن استعمارها ، ولا يتحرك شخص واحد حركة تشعر بالحيـاة ، أو الوجود !.. أما نحن ، نحن الفقراء ، والضعفاء ، نحن المخلصين الأبرياء ، فعند مانقول كلمة نبغى بها الأصلاح ، فهنا تثور الدنيـا ، وهنا تقوم القيامة على هؤلاء المجرمين الأنذال !..

الحق ياحضرات المستشارين ، أننا أصبحنا فى عصر مخيف .. الحق أننـا أصبحنا في عصر قد وصل الى درجة من الانحطاط الخلقي والسياسى الي حـد عظيم . . وأن السجن للأحرار في هذه الساعة هو خير مأوى .. وأحسن مكان ! .

رغبتنا فى الاندماج فى الجيش

قال موسو لينى هذا الكلام . . وأحسنا الخطة التى يرسمها .. ولقد سمع الكلام وزير الحربية فما أعاره قيمة .. ولقد لاحظ وزير الحربية الخطبة فما اهتم لها .. وكيف يهتم ؟! وهناك مسألة أخرى أكثر أهميـة وأعظم خطورة .. وتلك أن يزج بأحمد حسين ، والشيمى ، فى السجن . ومن هنا كان لدينا الوقت الكافى لكي نفكر قليلا فى الاحتياط للمستقبل .. ومن هنا أتيحت لنا الفرصة لكى ننظم وسائل الدفاع ، بقدر مانستطيع . لسنا حكاما فنضاعف الجيش .. ولكنا شباب ، كل الذى يملك هو نفسه وروحه ، فأردنا أن نقدمها رخيصة من أجل الوطن .. أردنا أن نتـدرج فى سلك الجيش ، وأن ندعو غيرنا من الشباب للاندماج فى سلك الجيش .. وهكذا نستطيع أن نلبي النداء غداً عنـد مايدوي النفير يؤذن بأن ايطاليا تريد الاستيلاء على مصر .

وكان حولى خمسون شابا ، فدعوتهم أول مادعوتهم ، الي التطوع فى الجيش لمدة عام واحد ، فاذا بالجميع يهللون ويكبرون . . واذا بالحماسة تملؤهم ويبادرون بالتوقيع على عريضة الى وزير الحربية ، ويطالبون باعداد عرائض أخرى ليوقع عليهـا ألوف من الشبان . وهكذا نستطيع أن نملأ الشباب بروح الكفاح والعسكرية . . وهكذا تستيقظ مصر الغافلة .. وهكذا يعرف العالم بأسره ، أن فى مصر شبابا يفهم معني الوطنية ، والموت في سبيل الوطن .. فيتردد هذا الذى ظنها لقمة سائغة باردة .

أخذت العريضة ، موقعا عليها من خمسين شابا ، وقد امتلأت نفسى سعادة أنني استطعت أن الفت نظر الشباب الى الخطر المحدق بهم وأننى رأيت منهم استعدادا عظيما . . طوبى بهم للجيش الذي ظل بعيداً عن الشباب المثقف حتى الآن . . طوبى بهم للجيش الذى ظل ضعيفا حتى الآن .. طوبى بهم للجيش الذى ظل أداة غير صالحة لما أعدت له حتى الآن . . فهام الشبان يهرعون اليه ، هاهى الأمة تستيقظ لتدعيم جيشها ، لتدعيم مجدها . فالأمة بدون جيش ليست الا عبدا ذليلا .. واذا قلنا الجيش فأنما نعني الجيش الحقيقى . . لا الصورة التي يراد ايهام الأمة بها أنها جيش ..

أجل ياحضرات المستشارين ، امتلأت نفسي فرحا أن استطاعت مصر الفتاة أن تقدم لمصر وللجيش هذه الخدمة ، ولكني تذكرت فجأة اننا مخدوعون . . . تذكرت أننى قد نسيت بعض الحقائق .. تذكرت أن فى مصر احتلالا يفعل كل الذى يريد ويمنع مايريد..

تذكرت أن جيشنا واقع تحت سيطرة الانجليز ، وأن الانجليز لايريدون له أي اصلاح ..
تذكرت أننا لا نملك حتى هذا الجيش البسيط،وأننا لانستطيع أن نجرى فيه اصلاحا ..
تذكرت أن وزير الحربية الذى بعثتاليه بعريضة التطوع قد يكون أكثر احساساً مني
بما يحتاجه الجيش من اصلاح .. قد يكون أكثر عرفانا بالخطر الذى يتهدد مصر ، دون
أن يستطيع رده .. فأمسكت بالقلم وكتبت . لا لهذا الوزير ، فى الواقع ، ولكن لهؤلاء
الذين يسيطرون على كل شيء .. لهؤلاء الذين يخدعون الأمة المصرية ، ويخدعون أنفسهم
عندما يحسبون أننا قد جاز علينا هــذا الخداع .. كتبت للانجليز أعداء مصر ، كتبت
للأصبع التى تلعب فى كل مكان .. كتبت أعلمها أننا نعرف كل شيء..أننا ندرك مواضع
الضعف في جيشنا .. أننا لا نرى فى هذا الجيش رمز أمانينا وعدة الدفاع عنا .

حتي لقد قلت فى خطابى بالحرف الواحد « أنا أعرف أنك لن تهتم بهــذه فأن ملف
المحفوظات ينتظرها . أنا أعرف أن أنقاص الخدمة العسكرية الى سنة أمر مستحيل ،
واذن فسيظل الشباب بعيــداً عن حقه الطبيعى .. أنا أعرف كل ذلك ، ولــكن ثق ،
ياصاحب المعالى ، أن هذه العريضة سوف تقع موقع الصاعقة لدىانجلترا .. ثق أن هذه
العريضة ستفزع بعض الأشخاص ، فلا يناموں الليل . لقد كانوا آمنين مطمئنينالى أن
الشباب المصرى آخر ما يفكر فيه هو الانخراط في الجيش . ولــكن ساء فألهم فها هو
الشباب بعد شهر واحد من جهاد مصر الفتاة ، ها هو الشباب بمجرد أن وصل صوتمصر
الفتاة ، يهرع ويريد أن ينضم الى الجيش .

هذه هى الأسباب المباشرة التى حركتنى لــكتابة الخطاب ، واعداد العريضة ،
ونستطيع أن نلخصها فيما يأتى : —

١ — الأحساس بما يملأ مصر من خطر دام من جيوش ايطاليا الفاشستية .
٢ — الرغبة فى ايقاظ الأمة ، والاهتمام بجيشها ، ودعوة الشباب للتطوع فيه .
٣ — وجود قوات مسيطرة على الجيش تعوق كل اصلاح فيه ، يجب أن تعرف أننا
بدأنا نعرف أعمالها .
٤ — دعوة صارخة الى انقاص الخدمة العسكرية الى سنة واحدة .

هل هناك جريمة فى الخطاب المرسل الى وزير الحربية

الى هنا بينا الأسباب والدوافع التى حدت بنا الى هذه الصرخة فى الحياة العسكرية ،
وأترك الآن التحدث عن شرفها ونزاهتها ، أترك التحدث عن أنها دفاع شرعى عن كيان
المجموع المصرى الى حين نصل الى القصد الجنائى وحسن النية وسوئها .

أما الآن فنبدأ بالتساؤل ، أهناك فيما كتبناه جريمة . أذكر ياحضرات المستشارين ،
أن الأستاذ صادق العجيزى عندما دعاني أول مرة للتحقيق معى، ابتدرنى بقوله « ايده

ياأحمد، ايه الـكلام اللى أنت كاتبه ده » . فقلت له وهل فيه ماليس حقا . فأجابني وهل كل حق يقال . فقلت له أجل كل حق يجب أن يقال ، هكذا يعلمنا الله ، وتلك هي مهمتنا الجديدة ، أن نجهر بالحق في كل مكان لا يثنينا عن ذلك خوف أو جبن ، ما دام الذى نقوله حقا ، ولعل هذا هو الجديد في رسالة مصر الفتاة .

هذه الـكلمة التى قلتها لصادق بك العجيزى عندما سألنى أول مرة وأعنى بها « وهل فى كلامي ما ليس حقا » ، ورده على «وهل كل حق يقال» . هاتان الـكلمتان ، أو العبارتان بمعنى أصح ، هما جملة الموضوع وتفصيله . فالقضية المعروضة أمامـكم اليوم ، تتلخص فى الفصل فى هـذه النقطة . أما أنا فأقول ان الحق يجب أن يقال دائما ، وأن قولة الحق لا يجب أن تنتج جريمة . وأما النيابة فترى أن ذكر الحق،فى بعض الأحيان ، قد يكون جريمة. على أن هذه القضية مفصول فيها منذ الآن باحضرات المستشارين، فأنتم فياصل الحق ، وأنتم حماة الحق . وأنتم تعاقبون الشاهد الذى لا يقول الحق . وأنتم تبلغون درجة القداسة ، لأنـكم حماة الحق الباحثون عنه دائما أبدا .

والبرىء يقف أمامـكم مطمئنا ، لأنه يعرف أنـكم لابد مظهرو الحق . تتمسك النيابة بظاهر الـكلام ، وتقول انه اهانة للجيش ، وسب لوزير الحربيـة ،وقائها أن كل كلمة جاءت فى الـكلام هي حقيقة ثابتة جلية ، يعرفها كل مصرى .

ما هو السب وما هي الاهانة ؟

ما هو السب ياحضرات المستشارين ؟ ومن أين تجىء الأهانة ؟.. السب هو اسناد عيب معين الى شخص أو جماعة ، هى خلو من هذا العيب ، على أن يكون فى الاسناد خدش ناموسها ، أو اعتبارها ، على حد تعبير القانون . اذن لا بد هناك من اسناد عيب معين لا أساس له ،فمن يقول عن آخر أنه لص ، أو مزور ، أو نصاب ، أو سكير ،أوفاسق، أو ماجن، فأنه يسنداليه عيبا معينا من شأنه ، لمجردالتصاقه بالشخص المسنداليه، أن يحقره بين الناس ، وأن ينقص من شرفه واعتباره .

أليس هذا هو تعريف السب ياحضرات المستشارين ، فى القانون والعرف . فلنقابله الآن بما لا يمـكن أن يعتبر سبا ، فهنا الذى يقول لانجليزى : يا انجليزى ، لايمكن أن يكون قد سبه ، بينما تعتبر هذه الـكلمة بالنسبة لى سبا أقاضى صاحبه من أجله . ومن قال لمريض : أنت مريض خائر على أبواب القبر ، يمـكن اعتبار مثل هذا الـكلام قسوة وغلظة وقلة كياسة . يمكن اعتباره كل ذلك ،ولـكن لايمكن مطلقا أن يكون سبا لأنه تقرير لواقع كائن .

فهما قيل عن السب ياحضرات المستشارين ، ومهما قيل عن منشأ الأهانة ، فيجب أن تكون الألفاظ التي استعملت فيه بحيث تسند عيوبا لاأساس لها اطلاقا، وأن لها أساسا، ولكن هذا الأساس لا يصل الى الحد الذي قررته ألفاظ السب . أما اذا كانت ألفاظ السب ليست سبا ، ولكنها تقرير تام للواقع ، ولكنها ذكر لحقيقة مجردة ، فلا يمكن أن تكون هذه الالفاظ سبا مهما كان فيها من غضاضة ، ومهما كانت مرة مؤلمة .

فلنبحث الآن في الخطاب الذي نحاكم من أجله ، فلنبحث ياحضرات المستشارين عن كلمة واحدة ليست وصفا لحقيقة قائمة ، فلنبحث عن كلمة أكون قد غاليت فيها بحيث أنها تخدش اعتبار شخص من الأشخاص . فقبل أن نبدأ في تحليل هذه الكلمات نقسمها الى قسمين أساسيين :

القسم الأول منهما خاص بأهانة القوات البرية ، أي المساس بكرامة الجيش كمجموعة .

القسم الثاني الخاص بأهانة بعض الموظفين ، مثل اسفنكس باشا ووزير الحربية .



القسم الأول

بسب واهانة القوات العسكرية

ماهى العبارات التي تراها النيابة هنا سباً واهانة للجيش ؟ .

انها مايأتى : —

(ومع ذلك فما أقل السلاح المصرى ، وما أضعف روح الأمة المصرية ، وما أبعد وزارة الدفاع عن الدفاع عن مصر ، وما أقربها من الدفاع عن انجلترا)

(أى جيش هذا ياسيدى الوزير الذي تتحكم فيه ، أنه جيش من المرضى ، جيش من الضعفاء ، جيش من الجهلاء ، جيش لامعنوية فيه ولاحياة ، أنه جيش مفلول ، أنه جيش يخضع لرياسة (اسفنكس باشا) . الي أن قلت : (خمس سنوات ، وما أدراك ماهي خمس سنوات لاوسط حرب وانتصار ، لاوسط معارك وهجوم ودفاع ، ولكن خمس سنوات فى خدمة بيوت الضباط وأولادم ، وشراء الخضارلمنازلهم ، وضماع الأهانات منزوجاتهم، خمس سنوات يزدادون فيها جهلا على جهل ، وتموت فيها شخصياتهم ، لا فنـاء فى الوطن ولكن خنوعا للأشخاص ، ورهبة من الضباط ..)

هذه هى العبارات التى تكون القسم الأول وهو ماتراه النيابة سبا واهانة لقوات الجيش ..

الحق ياحضرات المستشارين أنها كلمات قاسية لاذعة ، الحق أنها كلمات تنتفض لها النفس هلعا واشفاقا ، ولكن صدقونى اذا قلت لكم أن هذا الهلع ، وذاك الانتفاض ليسا الا نتيجة لما فى الألفاظ من تصويرللواقع ، الواقع المخيف الذى يرتعد لذكره كل مصرى .. ووزير الحربية ليس الا مصريا ، واذن فقد ارتعد كما يرتعد أي شخص آخر عندما رأي الحقيقة مسطرة واضحة .. عندما رآها على صفحات الجرائد ، وبهذه الحرارة وبهذا الاخلاص .

انها صرخة الشباب المدوية ، ياحضرات المستشارين ، انها صرخة صادرة من القلب لتنحدر الى القلوب .. فأما الشعب ، أما الشباب ، فقد فزع عندما قرأ هذا المقال ، وهرع الى جمعية مصر الفتاة ، يوقع عرائض غير التى قدمت ، ليتطوع فى الجيش .. هرع ليقدم العلاج الحقيقى ، أما وزير الحربية فقد اعتبر هذا الكلام سبا واهانة .

والآن فلنمض فى تحليل الكلمات الواردة فى الخطاب ، لنرى الى أى حد تخرج عن وصف الواقع الدقيق .

ما أفل السلاح المصرى

أولى هذه العبارات التى جاءت فى الخطاب ، والتى تتمسك بها النيابة ، اننى قلت ان الجيش فى الأمة هو سلاحها ، ومع ذلك فما أفل السلاح المصري . وومامعنى السلاح المفلول ياحضرات المستشارين .. سواء أردتم المعنى اللغوى الدقيق .. أو المعنى الشائع .. أوالمعني الذى يقر فى ذهن القارىء .. فلايوجد الا معنى واحد ، وهو أن السلاح « متلم » أى أنه غير حاد ، ويفل السيف،ياحضرات المستشارين، لكثرة مكثه فى القراب ، ويفل السيف لكثرة ما استعمل وأطيحت به رءوس .. فاذا ماشحذ عاد الى سابق قوته . . وعاد بتارا ذربا .. والشاعر العربى يقول قولا مأثوراً :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم   بهن فلول من قراع الكتائب

أفلو قلنا عن الجيش المصرى ، ولنفرض الآن أسوأ ما يمكن أن يستنتج من الكلمة، أفلو قلنا انه في حاجة الى أن يشحذ لأنه الآن مفلول . أيكون هذا معناه سب الجيش ؟. أهو مقدر علينا اذا تحدثنا عن الجيش في أى وقت من الأوقات ، وفى أية مناسبة من المناسبات أن نمسك قيثارة المدح ، وأن تتغنى بعظمته وشجاعته ؟ .

اللهم لا . لأننا رجال صحافة لأننا نجاهد من أجل الأصلاح ، ولن نستطيع أن نصلح الا اذا عرفنا مكان الضعف والخطأ .

واذن فكلمة « مفلول » ياحضرات المستشارين ، التى نمت بها الجيش المصرى لايمكن الا أن تكون وصفا للواقع . بل لعلنا لا نستطيع أن نصف الجيش المصرى فى حاضره الا بهذه العبارة ، فهو لم يشترك فى حرب منذ عشرات السنين ، وهو غير معد للاشتراك فى حرب قادمة . اسمعوا ماذا يقول محمد بك صالح حرب وكيل مصلحة السجون حالا عندما كان عضواً بمجلس النواب فى أواخر سنة ١٩٢٦ ، ومن هو صالح بك حرب ؟ انه أحد رجال العسكرية الأمجاد الذين اشتركوا فى حروب عدة . يقول الأستاذ نقلا عن مضبطة الجلسة التاسعة والأربعين : « لا يستطيع العسكرى البيادة فى الجيش المصرى أن يؤدى واجبه ما دام سلاحه قاصرا على البندقية والسنكة ، مع أنه أكثر الجنود عذابا وتعبا ، وقد جعله نقص السلاح عاجزاً عن التقدم فى ساحة القتال تحت وابل من الرصاص والقنابل . فيجب تلافيا لهذا النقص المعيب أن يجهز العساكر البيادة بجميع الأسلحة الحديثة اللازمة ، كمدافع الماكينات وغيرها ، حتى يستطيعوا أن يتغلبوا على الصعوبات التى تصادفهم فى ميدان القتال ، وانه لمن العار أن لا يوجد مدفع ماكينة واحد مع قوة البيادة — أي الجيش ياحضرات المستشارين — وعددها ١١ أورطة ، مع أن أفقر دولة تجهز الأورطة البيادة بأربعة مدافع ماكينة ، وليس ذلك فقط ، بل وصلت الحال ببعض الدول، الى تجهيز الأورطة البيادة بستة عشر مدفعا » (تراجع مضبطة مجلس النواب المتقدمة).

أتسمعون ياحضرات المستشارين : وصل الحال ببعض الدول أن تجهز أورطة البيادة بستة عشر مدفع ماكينة . الأورطة الواحدة لها هذا العدد الضخم من المدافع ، فهل لدينا فى الجيش المصرى بأسره مدفع ماكينة واحد . اللهم لا ! .

ولعل المدفع ياحضرات المستشارين ، أصبح الآن أحقر من أن يذكر فى الحرب القادمة ، ولا يتخيل أحد ماسيكون فيها من أهوال وأسلحة ؟. أنها ستكون حرب غازات ياحضرات المستشارين . انها ستكون حرب دبابات . انها ستكون حرب كيمياء . انها ستكون حرب قنابل ، تنشر الخراب ، وتنشر الطاعون ، وتنشر الحمى . لقد مضى الوقت الذى كان فيه الجندى يحارب وجها لوجه . مضى الوقت الذى كانت الجيوش تعتمد فيه على القوة الجسدية ، وأصبحت الحرب حربا ميكانيكية . فماذا يملك جيشنا منها ؟ . لا شىء ، انه لايملك الا البندقية . ولعل البندقية أصبحت بالنسبة للاختراعات الجديدة كالسيف بالنسبة للرصاص . وجيشنا ياحضرات المستشارين لا يملك سوى هذه السيوف التى أصبحت خرافة الخرافات . لا توجد كمامة غاز واحدة . لا توجد سيارة تانكس واحدة . لا توجد سيارة مصفحة واحدة ! . ألا ترون أنه غير معد للحرب ياحضرات المستشارين ، لأنه ان كان معداً ، بالرغم من هذا النقص ، للدخول فى حرب فأن معنى هذا أنه معد للذبح . لأن هذا الجيش بهذه الأسلحة ، لايمكن الا أن يذبح فى أول موقعة يقف فيها أمام الأسلحة الجديدة .

واذن ، ياحضرات المتشارين ، فأن القول بأن السلاح المصرى سلاح مفلول . سلاح يحتاج الى أن يشحذ ، هو قول يقصر عن وصف الحقيقة .

هذا من حيث أسلحة الجيش ، أما من حيث عدده فهو مهزلة المهازل . عدد الجيش المصرى ياحضرات المستشارين يجعله أشبه بفريق من قوات البوليس التى ترابط فى الأقسام لانتظار الحوادث . أما كجيش يدافع عن بلد ، عدد سكانه ١٤ مليونا ، وله من الحدود ما تبلغ ألوف الأميال ، ما بين بحرية وبرية . أما عن عدد الجيش فأنى أترك الكلام للأستاذ الكبير مصطفى محمود الشوربجى المستشار بمحكمة النقض فى الوقت الحاضر والعضو بمجلس النواب سابقاً . انى أنقل لكم كلامه فيما يختص بعدد الجيش فقد قال فى الجلسة التاسعة والأربعين:

« لقد انتهى جميع حضرات الخطباء الى نتيجة واحدة ، هى أن حالة الجيش الآن محتاجة الى اصلاح . وحقا ان مهمة الجيش هى الدفاع عن البلاد ، وعن المعاهدات الدولية التى نحن مرتبطون بها ، فاذا راجعنا تقرير اللجنة نجد أن عدد الجيش من جند وضباط لا يتجاوز ١٠٫٠٠٠ . فاذا ذكرنا أن مهمة الجيش هى الدفاع عن البلاد من خط الاستواء الى البحر الأبيض المتوسط ، ومن الصحراء الشرقية الى الصحراء الغربية ، وأن مهمته أن يقوم بالتعهدات التى أوجبها علينا وجود قناة السويس ، نجد أن الجيش بعدده الحالي غير كاف . . وقد حملنى هذا على مراجعة تعداد الجيش فى أربع مدد سالفة من عهد محمد على باشا حتى اليوم ، وقد اعتمدت فى استصدار هذه المعلومات على كتاب سرهنك وكلوت بك . ففى عهد محمد على باشا كان

عدد الجيش ٢٧٦ر٦٤٣ وفى عهد سعيد ٦٤٠٠٠ر وفى عهد اسماعيل ٨٩٠٨٨ر وذلك خلاف ١٥ أورطة غير نظامية ، وأورط أخرى بالسودان وجهات مختلفة . وقد رجعت الى تعداد الجيش بعد أن قيدنا بمعاهدة تحديد عدد جيشنا بـ ١٨ الفا ، فوجدت فى تقرير اللورد كرومر عن سنة ١٨٩٣ أن عدد الجيش كان ١٥ر٨٦٣ وكان به ١٨ مدفع ميدان ، و١٣٢ مدفعا مركزيا ، وأربعة مدافع مكسيم ، خلاف المهمات الأخرى ، ويلاحظ أنه فى ذلك الوقت الذى كنا فيه مقيدين بالمعاهدة المبرمة بيننا وبين تركيا . كان جيشنا معتبرا جزءا من الجيش التركى ، وكان المفروض أن تركيا مكلفة بالدفاع عنا ، لهذه الاعتبارات كانت ملحوظة في تقدير عدد جيشنا بذلك المقدار ، أضف الى ذلك أن تعداد السكان فى مصر فى عهد محمد على وسعيد كان يتراوح بين ٣ و٦ ملايين. ولكنه ارتقي بعد ذلك الى ١٢ مليونا ، وكذلك ارتقت ميزانية الدولة من مبلغ ضئيل الى مبلغ عظيم » (راجع المضبطة السابقة الذكر) .

انصفوا مصر ياحضرات المستشارين ، وسجلوا فى حكمكم هذه الأرقام وهذه الحقائق . الام نظل غافلين ؟ الام تظل الغشاوة على أعيننا والام نظل نغط فى نومنا ؟ .. ثلثمائة ألف جندي هم جيش مصر أيام محمد على ، وحوالى المائة الف في عهد اسماعيل ، وحتى فى وقت وصاية انجلترا الرسمى كان ١٦ ألفا .. أما الآن فى عهد الاستقلال فهو عشرة آلاف جندى لايزيدون جنديا واحدا .. أليس ذلك مخيفا ورهيبا ؟ .. وبعد ذلك يراد منا أن نقول ان الجيش المصرى كاف للدفاع عن مصر .. وأن الجيش المصرى سوف يهزم ايطاليا فى طرفة عين .. وأن الجيش المصرى أقوى جيوش الأرض طرا .. أما اذا وصفنا بالواقع فى تواضع ، فقلنا انه مفلول — أي يحتاج الى شحذ كى يأخذ بهاءه — اعتبرت هذه العبارة سبا ، فلاحول ولاقوة الا بالله العلى العظيم .. ألا أنه خير للجيش أن يقال عنه مفلول ، وأن يتقدم الشباب ليغذيه بدمائه ، من أن يتغنى بعظمته وقدرته ، فاذا هبت عليه العاصفة ذهب أدراج الرياح .

ما أبعد وزارة الحربية عن الدفاع عن مصر ، وما أقربها من الدفاع عن انجلترا !!! .

والآن فلننتقل الى العبارة التالية لنري كيف تتداعى المعانى ، وكيف تتسلسل وترتبط كلها مندفعة نحو غاية واحدة ، وهى اصلاح الجيش بحيث يصبح صالحا للدفاع عن مصر أمام العدو الخارجى !.. اذن ثبت لدينا ياحضرات المستشارين أن الجيش بحالته الراهنة لايستطيع أن يدافع عن مصر ، اذا ماحاولت ايطاليا أن تنفذ خطتها ، واذاماحاولت أن تعيد بناء امبراطوريتها ، واذاماصارت جنودها على الحدود ، وفي قلب مصر ، ساعية الي امتلاك

مصر . واذا مادعت طياراتها لغزو مصر ، وهي مسألة ساعات قليلة كما يصرح موسوليني في خطبته ، أقول اذا ثبت أن جيشنا عاجز تمام العجز عن الدفاع وصد غارة واحدة من هذه الغارات ، فماذا بقي للدفاع عن مصر . بقيت هذه الجيوش الانجليزية التي تحتل مصر. جيش الاحتلال ياحضرات المستشارين هو أمل وزارة الحربيـة في الدفاع عن مصر ، ولست أستطيع أن أغادر هذه النقطة قبل أن ألفت نظر حضرات المستشارين الى أن الأنجليز بالذات قد تنبهوا الى الخطر الايطالى ، فشاهدت مصر مناورات لا عهد لنا بها من قبل تجوس خلال الوجه البحري ، ولم يعرف النـاس لها معنى ، بل وكانت القاهرة نفسها محل هذه المناورات ، أما الصحراء الغربية فقـد حارب الأنجليز فيها ملك سيوة الذى جاء حتي اغتصب القـاهرة . أجل حارب الأنجليز ملك سـيوة ، ومن هو ملك سيوة ؟ انه شخص وهمي بل هو رمز للعدو المهاجم من الغرب . بل هو ايطاليا التي ترغب في اعادة الامبراطورية الرومانية وارسال طلبة مدرسة الاستعمار الى مصر للقيام برحلة .

تنبهت انجلترا ومصر غافلة ، أو طلب منها أن تـكون غافلة ، أو هي لا تستطيع الا أن تـكون غافلة . فاذا قام الأنجليز يدافعون عن مصر . وكان الجيش المصرى فرقة فى هذا الجيش الأنجليزى المدافع . وكان الجيش المصرى وحدة من هذه الوحدات التي تقاتل الايطاليين . ألا يكون ذلك فى الحق أقرب للدفاع عن مصـالح انجلترا منه للدفاع عن مصالح مصر . لماذا يحارب الأنجليز عندئذ . ألسواد عيون المصريين . اللهم لا . أحرصا على الاستقلال المصرى . اللهم لا . ولكن حرصا على مصلحتهم . حرصا على مركزهم فى مصر . فوقوفنا بجانبهم معناه الدفاع عن هذه المصالح. وياللهول الحقيقة المرة ، ياحضرات المستشارين ، عندما يقول لنا الانجليز غدا ، لقد دافعنا عن هذه الأرض بدمائنا ، فهي أرضنا ولنا هنا حقوق مقدسة.

الى هنا ياحضرات المستشارين بينت لـكم كيف أن الجيش المصرى ، بحالته الراهنة غير صالح للدفاع ، فهو مفلول فكيف أنه سيكون وحدة من وحدات الجيش الانجـليزى للدفاع عن مصر وكيف يكون مدافعا عن مصلحة انجلترا فى مصر. . الى هنا بينت أن العبارات السابقة ليست الا تقريرا للواقع ووصفا للحالة الموجودة .

جيش من المرضى والضعفاء . . جيش من الجهلاء . . الخ

فلننتقل الآن الي العبارات التى تتالت وراء بعضها واصفة الجيش بأن فيه مرضي وفيه ضعفاء وفيه جهلاء .. وقد خيل للنيابة ومن قبلها لوزير الحربية ، أن هذا الـكلام قد جرى به القلم من غير حساب ، دون أن يعلم أنه ليس الا تكرارا لما قيـل فى مجلس النواب فى جلسته الثامنة والأربعين ، وهى التى سبق أن اقتبست من كلام بعض خطبائها ولعل كلمتي الضعف والجهل يمكن تخيلهما ياحضرات المستشارين .. يمكن تصورهما سواء من الناحيـة المادية أو المعنوية ، ولـكن الذى لاتتوقعونه أن يكون فى الجيش مرضى ،

والآن اسمعوا ماذا يقول الاستاذ عبدالحميد بك سعيد « وانى أستطيع أن أصف لحضراتكم عساكرنا وصفا يقرب حالتهم الى أذهانكم ، اذا ماسمعوا صوت البورى أتوا من كل مكان وجلسوا في فناء المعسكر جماعات حول الأروانة . . انني لا أبالغ اذا قلت انها قد تكون قذرة ، فضلا عن مجاورتهم للاسطبلات ، وتعرضهم لمضار الشمس والتراب ، اذ ليست لهم محال خاصة لتناول الغذاء ، وأظن ان هذا لا يليق بجيشنا المصرى ، ولا يفوتني أن أذكر لحضراتكم أنهم ليس لديهم ملابس شتوية تقيهم برودة فصل الشتاء حتى تفشى فيهم مرض الدسنطاريا والأمراض الأخرى وفتكت فيهم فتكا ذريعا . . . انني أجهر أمام هيئة المجلس، معلنا انني لا أكون مبالغا ، اذا قلت ان عناية وزارة الحربية بالخيل والبغال أكثر من عنايتها بالعسكر » .

هذا كلام قيل بإحضرات المستشارين ، وسمعه وزير الحربية فلم ير فيه حرفا دل على غير الواقع ، فلم يرد أو يحتج عليه .. هذا كلام قيل عن الجيش، وكيف أن العساكر لا توجد لديها ملابس للشتاء، حتى تفشى فيهم مرض الدوسنطاريا ، وفتكت بهم الامراض فتكا ذريعا (١) .

ومن هـــذه الأمراض التي تفتك بهم فتكا ذريعا مرضا البلهارسيا والانكلستوما المنتشران بين الجنود انتشارا مروعا. هذا الكلام قيل وقيل فى آخره ان عناية وزارة الحربية بالخيل والبغال أكثر من عنايتها بالعساكر .. هذا كلام قيل ، وتحت قبة البرلمان، فاذا استعرنا بعضــه للقيام بنفس الغرض المقصود من قوله فى البرلمان ، فلا نكون قد سببنا الجيش بأكثر مما سبه به أعضاء البرلمان الرسميون الذين يمثلون سلطات الدولة ، على أن المهم فى هذا بإحضرات المستشارين أن وزير الحربية لم يعترض على هذه المسألة بالذات .

وهكذا ترون أننا يوم قلنا ان جنود الجيش من المرضى كنا نعنى تقرير الواقع كما جاء فى مضابط مجلس النواب . . أما نعت العساكر بالجهل فأى خروج فى هذا عن الواقع الدقيق، أو ليس الجيش يجمع من الفلاحين والفلاحين فقط . أولا يخرج كل من يدفع البدل . . كل من كان على شيء من التعليم . انهم يخرجون من يحفظ القرآن بإحضرات المستشارين اكراما للقرآن ، والواقع أنه اكرام للانجليز الذين وضعوا قانون التجنيد . وذلك أن حافظ القرآن مهما كان ما وعاه من القرآن بذاكرته فقط ، فأن فيه ألفاظا وعبارات تملؤه معنوية وحياة ، ذلك أن حافظ القرآن يعرف أن الله يطالب المؤمنين بالجهاد والكفاح والموت فى سبيل الله . . . قال الله تعالى فى كتابه العزيز « قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لايهدى القوم الفاسقين » . هذا هو القرآن وهــذا هو حظ حافظ القرآن . اذا مادخل

(١) هنا قدم الأستاذ الى المحكمة احصائية بعدد الجنود المرضى بديدان الانكلستوما والبلهارسيا تدل على أن نسبة المرض المتفشي فى الجنود هى فى الجملة ٧٦ فى المائة

الجيش يتوعده الله اذا أضلته الأموال والأزواج والأبناء عن الجهاد فى سبيل الله ..
حرموا من الجيش بإحضرات المستشارين كل من آحسوا فيه شبهة التعليم . . . حرموا
الجيش رائحة الثقافة . . . اسألوا النيابة اذا حدث ودخل الجيش من كان فى مدرسة
ابتدائية ماذا يفعلون به ، انهم يبعدونه عن الجيش العام ويستخدمونه بلوك أمين ، أو
يمني آخرفى الأعمال الكتابية . . لا يوجد في الجيش الا فلاحون جهلة ، ولاتحاول وزارة
الحربية فى السنوات الخمس التى يمضيها الجندى أن ترفع عنه شيئا من جهله . . لاتحاول
أن تعلمه القراءة والكتابة لاتحاول أن تنيرعقله قليلا . . فان جئنا نقرر الواقع فنقول
ان عساكر الجيش جهلاء . . أنكون بهذا قد سببنا الجيش وأهناه . . أرأيتم الى أى
حد بلغ الجيش من الضعف . . أرأيتم الى أى حد اعتبر ذكر بعض الحقائق عن هذا
الجيش سبا وطعنا بينما هى حقائق واقعة . واذا ثبت لدينا أن فى الجيش أمراضاً
مادية ، وأمراضاً معنوية ، نتيجة الجهل ، فهل يمكن الا أن ينعت بالضعف . هذا هو
مدلول الألفاظ واحدا فواحدا ياحضرات المستشارين هذا هو تفسيرالكلمات كلمة كلمة
لو أنكم أردتم أن تفسروها على أسوأ التفاسير ، فما بالكم اذا نظرتم اليها فى مجموعها ..
ما بالكم اذا نظرتم الى أنها ليست الا عبارات يراد بها تصوير حالة الجيش وحاجته الى
الأصلاح لنخلص منها الى وصف الأصلاح بالذات . . وما بالكم وهذه الكلمات ليست
مقصودة بالذات . ولكنها تمهيد لمعنى أجل وأعظم ، وهو اننا نعرض أنفسنا للتطوع فى
الجيش .. مابالكم وهذه الكلمة لاتحوى سوى حدة فى الأسلوب عرف بها كاتبها .. لقد
صدر من الصرخة قبل هذا العدد ١٧ عدداً . . . سلوا النيابة هل رأت فى أى عدد من
هذه الأعداد أسلوبا غير هذا الأسلوب وهل رأت فى كل سطر الا هذه القوة فى التعبير ،
التى يدفعنا اليها ايماننا ورغبتنا فى الأصلاح . . سلوا صادق بك عندما كان ينصحنا أن
نخفف من لهجتنا ماذا كنا نقول له . . . كنا نقول له اننا دعاة اصلاح . . اننا لا
أغراض ولا غاية لنا الا اعادة الروح فى كل مكان ، ولكى نعيد الروح يجب أن نكتب
بهذا الأسلوب . . يجب أن نجهر بكل الحق وبكل مافى أنفسنا . حقا لقد وصلنا الى عصر
أصبح فيه ذكر الحقائق جريمة ، ولكن مع ذلك يجب أن يتقدم نفر من الأمة بذكر
الحقائق ، وأن يدفع ثمن ذلك ، والا فسوف تنقلب الأوضاع ، وينسى الناس الحق
ويلتبس عليهم بالباطل . . قال أمير الشعراء الراحل :

ان الذي خلق الحقيقة علقما لم يخل من أهل الحقيقة جيلا

بقي أن يقال ان الألفاظ كان يمكن أن تكون أخف من هذه اللهجة ، وتنتج نفس
الأثر . . أجل قد تعترض النيابة ، وتقول ان رغبتنا فى الأصلاح لا يجب أن تكون
بحيث نقذع فى الكلام ، فاذا قالت النيابة ذلك فأسهل الرد عليها محديث دار فى مجلس النواب
بصدد الجيش في هذا المعنى . . ذلك ان الأستاذ عبدالرحمن عزام وقف يخطب عن الجيش
فقال . . هل وزارة الحربية وهى تتقدم الينا بهذا الرقم الصميم (الميزانية) أدركت

الأخطار المعرضة لها هذه البلاد ، التى قد تضطر الي الدخول فى الحرب رغم أنفها ؟ وهل هي فكرت فى مصير البلاد اذا مادم العالم دام ، بسبب الأفكار التى لاتزال متأصلة فى النفوس ؟ .. ان الذى أخشاه أن تكون هذه الميزانية لاتمثل الا أرقاما جوفاء ، ولا تمثل سياسة مطلقاً ، ولا فكرة ، وهى تكملة لعادات اعتادتها البلاد فى دفع مبلغ باهظ ، ليقال ان لها جيشاً ، لا ليقال ان هذا الجيش قائم على سياسة معينة ، ليقوم بأمر ماتقتضيه الضرورة فى ساعة ما . . أعتقد أن هذه الميزانية مبنية على غير أساس ، وتؤيدنى فى هذه العقيدة حالة جيشنا الحاضر ، التي هى حالة يؤسف لها أشد الأسف . . . انى كرجل مارس هذا الشأن ، وكنت مسؤولا بين آخرين عن الدفاع عن أمة ضعيفة ضد أمة قوية ، أؤكد لحضراتكم أنه جيش مجرد من مزايا الجيوش الهمجية فضلا عن المتمدينة ، فاذا يمكن أن يكون هذا الجيش » فرأى بعض أعضاء المجلس أن يقاطعوه فسجلت المضبطة كلمتي « ضجة ومقاطعة » واستمر النائب يقول : « لكم أن تعتقدوا ما تشاءون ، ولكنى أقول ان الجيش يحتاج الي اصلاح فى كل ناحية من نواحيه، واذا لم يكن هذا الأصلاح ممكناً فليس أفضل من توفير هذا المبلغ الباهظ لمصلحة البلاد ».
أتسمعون ياحضرات المستشارين : انه يريد الغاء الجيش وتوفير ميزانيته لأنه يراه لايساوى قلامة ظفر ، فلا عجب أن سجلت المضبطة هنا كلمة (تذمر) فقال النائب (أنا لا أبدى لحضراتكم ما تعتقدونه انما أبدى ما أرى وأعتقد ، أرى أن الجيش بتدريبه غير كفء للقيام بالمهمة المطلوبة منه) وهنا عادت الضجة من جديد .. ترون ياحضرات المستشارين : كيف أقذع فى انتقاد الجيش ..وكيف حرمه من مزايا الهمج والمتمدينين .. وكيف أشار بحله ، على أن الجيل فى كل هذا أن المجلس عندما ظن أن فى هذا الكلام ما قد يكون مساساً بالجيش وقف وزير الحربية وقال بالحرف الواحد ما يأتى :

«أيها السادة أني أول من يقدر تقديراً حسناً أن نية حضرة العضو المحترم زميلى وصديقى عبد الرحمن عزام أفندى لم تكن منصرفة قط الى أهانة جيشنا ولا ضباطه . أعرف فيه هذا الاحساس لأنى خالطته ، وتكلمنا كثيراً فى حالة جيشنا ، فرأيت منه أنه أول من يحترم هذا الجيش الباسل ، وكل ماقصده انما هو ادخال ضروب من الاصلاح كلنا يشعر بها . ولا أذيع سرا اذا قلت لحضراتكم بأنى أشعر أيضاً بهذا الاحساس لأنى مصرى مثلكم تشرفت بزمالتكم . »

الله أكبر ياحضرات المستشارين ، ماذا تريدون أكثر من هذا . . لكى تروا تعسف وزير الحربية الحالى ، يوم أن اعتبرنا مجرمين ، لأننا قلنا عن الجيش انه غير صالح للدفاع عن مصر .. هذا هو وزير الحربية يقول بأعلى صوته ان الجيش فى حاجة الى اصلاح من كل ناحية ، وينصب نفسه في موقف الدفاع عن النائب الذى انتقد الجيش بأحرج الألفاظ، واقترح حله وتوفير مايصرف عليه!. ماذا تريدون أكثر من هذا الدفاع أسوقه لكم اليوم

لأدلل لكم على أن الأنسان فى مقام الأصلاح يجب أن يذكر العيوب كلها، وأن يشخص المرض لكى يستطيع وصف الدواء . أنظروا ماذا قال وزير الحربية فى ختام خطبته المذكورة .

« أيها السادة : تلك هى بعض مشاغلنا ولم نشتغل بها الا لأدخال الأصلاح الذى تريدونه ، وانى واثق كل الثقة أنه بنفضل معونتكم وحكمتكم سنصل بغير جلبة أو ضوضاء الى جيش لائق بكرامتنا ، جدير بعزتنا وبتاريخنا المجيد » هذا كلام الوزير . هذا كلام قيل فى سنة ١٩٢٦ ، ونحن اليوم بعد ثمانى سنوات . هل وصل الجيش الى المركز اللائق بكرامتنا . انى أتحدي الوزير الحالي اذا كان يقول ان الجيش خطا خطوة واحدة مدي هذه الثمانى السنوات ، ان لم يكن قد تأخر . . واذن فجيشنا لم يبلغ بعد المركز اللائق بكرامتنا ، والجدير بعزتنا وبتاريخنا ، وما دام الأمر كذلك أفليس من حقنا أن نطالب، أليس من حقنا أن ننادى بالأصلاح . ؟ وكيف نخطو نحو الأصلاح ان لم نعرف أن ما نحن فيه خطأ ، وكيف نعرف هذا الخطأ ان لم نذكر هذا الخطأ . لقد كان وزير الحربية فى عام ١٩٢٦ وزيراً يعرف واجبه ، ووزير حربية سنة ١٩٣٣ يعرف واجبه أيضاً ، ولكن ما أعظم الفرق بين الواجبين . الأول يدافع عن النائب الذى أراد اصلاح الجيش فى مجلس النواب لأن المجلس أراد أن يحتج على النائب الذي يقترح حل الجيش . .

ووزير الحربية الثانى يرمي أحمد حسين فى السجن لأن واجبه يدعوه الى ذلك . . فاللهم رحمة وحنانا . فاذا أعددت لهذا البلد من ويلات . ؟

خمس سنوات فى خدمة الضباط وسماع الاهانات :

والآن فلننتقل الى واقعة أخري هولت لها وزارة الحربية ، وهولت لها النيابة ، وهى حديثنا عن هؤلاء العساكر الذين يشتغلون فى المراسلات ، فيلحقون ببيوت الضباط ليكونوا خدما لهم . . صورت هذه الواقعة بالكلمات الآتية : « خمس سنوات فى خدمة بيوت الضباط وأولادهم وشراء الخضار لمنازلهم وسماع الأهانات من زوجاتهم » فهل فى كلمة من هذه الكلمات ما ليس حقا . . الواقع ياحضرات المستشارين أنه من أعقد الأمور محاولة اثبات البديهيات ، والمتعارف عليه ، وهذا الذى قلته فى هذه العبارات ليس غريباً وليس جديدا . ولكنه فى بيت كل ضابط ، ولكنه فى كل مكان ، حيث يوجد رجل الجيش ! . ماذا أقول لكم ؟ . هل أقول لكم سلوا أنفسكم عن هذه الواقعة ! . هل أقول لكم سلوا أي واحد من الحضور . . هل أقول لكم اطلبوا من النيابة أن تنفى هذه الواقعة . . ولكنى أقدم لكم حديثاً عن هذا الموضوع في مجلة أخري ، هي مجلة « المصور » ، ومع ذلك لم تحتج النيابة ولم تر فيه سباً أو اهانة . . جاء فى مجلة المصور فى عددها الصادر يوم الجمعة ٢٣ فبراير ١٩٣٤ ، ما يأتى : تحت عنوان (الى متى نجامل)

قالت (عجبا أنظر هذا الجاويش العريض المنكبين ، المفتول الذراعين، المبروم الشاربين الناري العينين ، الغليظ القدمين ، الطويل القـامة ، المظيم الهامة الضخم اسمه الجاويش بمبة.. أي والله اسمه بمبة . يقول لي أصدقائي رواد الجارسونيرات ان الجاويش بمبة هذا، أو هذه ، كان يحمل الرسالات وينظف البلاط ، ويفرش السرير، ويطبخ ، ويعجن، ويخبز، ويغسل عملا بأوامر رئيسه ، سواء كان ذلك في البيت الحلال أو في البيت الحرام..

(بل هناك جاويش آخر كان أعرض من بمبة منكبين ، وأفتـل ذراعين ، وأبرم شاربين ، وأحد عينين ، وأغلظ قدمين ، ولـكن كان اسمه (داده حليمه) ، لأنه رحمه الله ان كان قدمات ، ورحمه الله ان كان لا يزال في الخدمة، كان أحن من الأمهات قلبا على أولاد رئيسه ، وأرق عاطفة من فطومة وستوتة وأم حسين خادمات البيت الـكريم ، فكان يحمل الأولاد على كتفه ، وقصرية الأولاد على كتفه ، يحمل غيارات الأولاد على كتفه ، يهننهم ويهشكهم ، ويدلعهم ويحميهم ، ويغطيهم ، ويسهر الليل حولهم ، يحكي حكايات ست الحسن والجمال والشاطر محمد وأولاد الحرام والحلال.. وأمثال الجاويش بمبة والداده حليمة كثيرون في العاصمة وفي الأسكندرية ، وفي الأقاليم ، ولو أنهم كانوا يؤدون واجباتهم المنزلية ، من كنس وطبخ وتربية أولاد ، وشراء لحمة وخضـار ، وانتظار على أبواب السينما وغيره ، وغيره ، بملابسهم الملكيـة لا بملابسهم الرسمية ، لهان الأمر نوعا ما ، ولبلعنا هذه المرارة التعسة والذليلة نوعا ما ، ولـكن الذي يؤلمنا أن الملابس الرسمية هي التي تطبخ وتغسل وتـكوى وتشتري اللحمة والخضار وتنتظر على أبواب السينمات ، وتحمل الأولاد وتكون صلة الهوى بين ارباب الغرام . .الي آخر المقالة). وقد شفعت المقالة بصورة جميلة للجاويش داده حليمة وهو يحمل القصرية والطفل ويسـير بملابسه الرسمية . .

لم يكن بدعا اذاً ما قلناه من أن عساكر الجيش يشتغلون خدما ، ويشترون الخضار ويسمعون اهانات زوجات الضباط .. وما دام العسكري يشتغل خادما فانه لا بد يخطيء ولا بد أن يسمع هذه الاهانات . .

قد يقال انني في عبارتي قد تحدثت بصفة عامة ،ولم أخصص بعض العساكر، وردي على هذا أن العسكري الواحد يمثل الجيش بأسره ، البدلة الرسمية رمز المجد للدولة كلها . . والعساكر الذين يلحقون بخدمة الضباط ليسوا من صنف معين ، أو أنهم قاصرون على أشخاص دون أشخاص ، بل هم يتناولون كل عساكر الجيش على الاطلاق . . ويبدل الضابط هؤلاء العساكر المكلفين بخدمته كل مدة معينة بغيرهم ... واذن فهذا العمل معرض له كل عسكري في الجيش .. بل ولعـل الأكثر تعرضاً له هم خيرة الجنود وأحسنهم ، ليكونوا أكثر قدرة على الخدمة في المنازل . وحتى اذا كانت العبارة عامة ، فهـذا نوع من البيان لا أكثر ولا أقل ، وأعني به التعبير عن البعض بصيغة الكل ..

فنحن في هذه الواقعة لم نذكر خلاف الواقع . . ونحن لم نغال فيها أية مغالاة ، حتى ان ما كتبناه لا يعدل عشر معشار ما كتب في مجلة المصور،وما يتردد على كل لسان وفي

كل مكان . واذا كان فى ذكر هذه الواقعة فيه اهانة للجيش ، تهدمه من أساسه ، فما ذنبنا متى كانت هذه الوقائع حقيقة ثابتة . . ولو هدمت الجيش من أساسه أذن . . فليبادر وزير الحربية بأصلاح هذه الحالة بدلا من أن يهتم بالقذف بنا الى السجون .

الى هنا ياحضرات المستشارين ، انتهينا من القسم الأول من الألفاظ التى يشم منها رائحة الأهانة والسب، وبينا لكم وكيف أن هذه الألفاظ بحسب مدلولها المجرد، ليست الا وصفاً دقيقاً لكائن موجود .. كيف أن الكاتب الذي يريد أن يصور حالة الجيش لا يستطيع أن يعبر بعبارات غير هذه التى كتبتها ، وأظن أن مهمة الصحافى الأولى أن يتعرض للمؤسسات العامة ، وأن يصفها ويلقي الضوء على ما فيها من عيوب ، ويشير الى ما تحتاجه من أصلاح .

الى هنا ثبت لحضراتكم أننا ما جئنا بجديد ، وأننا رددنا بعض كلام قيل فى مجلس النواب ، وأيده وزير الحربية .

بقى علينا أن ننتقل الي القسم الثانى من الألفاظ الواردة فى المقالة الخاصة باسفنكس باشا ، ووزير الحربية .



القسم الثانى

الالفاظ الخاصة ببعض الموظفين

كفتنا النيابة في الواقع مؤونة الاسهاب فى هـذه الناحية ، اقتناعا منها بما جاء فى التحقيق ، فان المواد التي تطلب تطبيقها أصليا هى المادة ١٥٩ ، والخاصة بأهانة القوات البرية والبحرية لا الموظفين . . ولو راجعتم سعادتـكم محاضر التحقيق لوجـدتم أنه كان يدور حول هذه الناحية ، ناحية أهانة الموظفين المـذكورين وأعني بهما اسفنـكس باشا ووزير الحربية ، ويظهر أن النيابة اقتنعت بالتفسير الذي قلته ، فلم تذكر فى قرارتها شيئا عن هذه الناحية ، غير أن تـكرارهذه الالفاظ أمام المحكمة يجعل من المناسب تفسيرها .

اسفنكس باشا

القول عن اسفنـكس باشا انه ضربة ساحقة ماحقة على الجيش المصرى ، والضربة هنا تلتهم رأس المـال . أقول ان هذا الـكلام بالذات ، لايمكن الا أن يكون مدحا لاسفنكس باشا ، فهو كرجل انجليزى يخدم المصالح الانجليزية ، يهمه قبل كل شيء أن يعمل من أجل دولته ، وأن يمكن لنفوذها وسيطرتها ، فاذا ذكرنا ذلك ، فان هذا الذكر قد يكون أى شيء سوى اعتباره اهانة لاسفنكس باشا ؟ . قد يكون قلة كياسة نحو الرجل أو كثيرا من الصراحة المؤلمة . . ولـكن ذلك لايمكن أن يكون سـبا أو اهانة ، فاسفنكس باشا لايخدش ناموسه اذا اعتـبرناه انجليزيا ، واسفنكس باشا لا يجرح عزته أو كرامته أنه كل شيء فى الجيش ، فاسفنكس باشا فى كل هذا يقوم بواجبه الوطنى الذى سيكون محل فخره يوما من الأيام .وجريا على الخطة التي اختطتها لنفسي ، وهى أن لاأقوله الا صـدقا وماهو واقع ، وما هو تقرير لـكلام رسمى ، أنقل اليكم ماقيل فى احـدى جلسات مجلس النواب عن سعادة اسفنكس باشا وهى الجلسة الثلاثون، المنعقدة في ١٦ فبراير سنة ١٩٢٧ ، قال الاستاذ فـكري أباظة مقدم الاستجواب ما يأتى :

(فى وزارة الحربية موظف أجنبي غير مريح ، معتز بسلطته المشاغبة ، وهو اللواء اسفنكس باشا ، هذا الموظف يشغل وظيفـة مفتش القوات ، ويقوم في الواقع بعمل السردار ، وانا نود أن نعرف الي أى مدى تبلغ حدود سلطته ، وهل تمس تلك السلطة المسؤلية الوزارية فتمس اختصاص مجلس النواب مثلا ؟ .. قرأتم حضراتـكم فى الصحف أن هناك خلافا قائما بين معالى وزير الحربية المسؤول أمام المجلس ، وبين اللواء اسفنكس باشا عن الغازيتة العسكرية ، فمعالى الوزير يرى أن توقع باسمه أو بأمره ، واللواء اسفنكس

باشا على ما تقول الصحف يريد أن يوقعها بنفسه مستقلا ، ولقد أشارت هذه الصحف الى أن الاتفاق قد تم بين الرئيس والمرءوس على أن لا يوقع كلاهما وأن توقع الغازيتة بلفظتي (ليحيا الملك) ، ولو كان هــذا الخبر غير صحيح — وأود من كل قلبى أن يكون كذلك — لوجب على معالى وزير الحربية أن يكذبه فى الحـال ، واذا صح ياحضرات النواب ماذكرته الصحف ولم تـكذبه وزارة الحربية ، من أن هذا الموظف المعتز بسلطة المشاغبة ، قد جددت خدمته مرة أخري ، كان هذا من العجاب ، اننا نريد أن نعرف العلل والأسباب فى كل ذلك ، واذا كان معالى وزير الحربية يتحمل أى عناء فمن واجب المجلس أن يشاطره هذا العناء)

والغريب ياحضرات المستشارين أن وزير الحربية تحدث فى كل شيء الا هذه الواقعـة فمرت بسلام ، فعرف الجميع أن لها أصلا من الواقع . كان هذا فى سنة ١٩٢٧ ، فما هو الحال في سنة ١٩٣٤ . أسوأ مما تتصورون ياحضرات المستشارين ، ففي السنة المذكورة كان هناك وزير ينازع اسفنكس باشا . كان هناك برلمان شعبى يقفه عند حـده . أما اليوم فقد أصبح النفوذ الانجليزى فى الجيش هو كل شيء . ولقد وصفت مجـلة المصور نسبة تغلغل الأصبع الانجليزية فى المرافق المختلفة للدولة ، وعندما جاءت الى وزارة الحربية كانت النسبة ١٠٠ فى المائة ، أليست هذه هي الضربية الساحقة المـاحقة التي تلتهم رأس المال ؟ . الحق أنها لـكذلك ، والحق أنه لالزوم للافاضة فى هـذه النقطة ، فالنيابة أول مقتنع بها فلم توجه الي تهمة أهانة بعض الموظفين :

وزير الحربية

هناك عبارة خاصة بوزارة الحربية ، هالت معاليه وهالت النيابة لأول وهلة ، وماذلك الا لأنهم لم يقرأوا المقالة بأمعان وترو ، بل ملـكهم الغيظ من سرد الحقـائق ، فجعلهم لايميزون الـكلام ولا يعرفون مناحيه وهـذه العبارة الخاصة ، هي أن « وزير الحربية المصرى موظف فى وزارة الحربية الانجليزية » . هذه هى العبارة ، وهى بمفردها هكذا تخيف سامعها لما فيها من اهانة . . ولـكن هذه العبارة منفصلة عما يسبقها ويتلوها من الـكلام اشبه بالآية الـكريمة « ويل للمصلين » ! ذلك أن هذه العبارة ليست الا حكما على أفعال مستقبلة تحصل بعد عدة سنوات — ان قـدر لها أن تحصل — . . . فأنا أقول لوزير الحربية : نريدك أن تدخلنا الجيش ، فان لم تفعل فـنسافر الي العراق وننضم الى الجندية هناك ونمضى مدة الجندية في القطر الشقيق ، ثم نعود اليكم جنودا ظافرين . . وعندها . . أى بعد أن نسافر للعراق وتقبلنا العراق فى جنديتها ، مـــع أن القانون العراقي يحرم ذلك ، ونمضى مدة التمرين ونعود الى مصر . . عنـدها تعرف الناس أن وزارة الحربية ليست لنا ، وأن وزير الحربية موظف فى وزارة الحربيــة الأنجليزية . وما ذلك الا لأن العراق قبلت أبناء مصر ، ووزير حربية مصر بالذات لم يقبل اندماجهم

فى الجيش!. ولا بد أن يكون فى هذا منفذا لسياسة خاصة غير سياسته فى الدفاع عن مصر .. لابد أن يكون فى هذا متأثراً بأمر من الأوامر الأنجليزية . وما دام الأمر كذلك فهو بمثابة موظف فى الوزارة الانجليزية ، واذن فهذه العبارة التي حاولت النيابة الصاقها بوزير الحربية أمر معلق على شرطين : شرط زمنى وشرط مكانى . . . فالشرط المكانى أن نسافر من مصر الى العراق ، وأن يقبلنا العراق فى جيشه ، وأن يعدل قانون الاقتراع العراق لكى يتمكن من قبولنا هذا هو الشرط المكانى . . وشرط زمانى وهو انقضاء الزمن اللازم لأتمام هذه التنقلات وانقضاء مدة التمرين ثم العودة الى مصر ، فلي أن يتحقق هذا الشرطان فلا يمكن أن تعلق كلمة بوزير الحربية . . هذا هو وضع المسألة المادي . ولكن حتى لو فرضنا أن هذه العبارة تمس وزير الحربية منذ الآن فأن العبارة التالية لها مباشرة تمحوها وتجعلها لا أثر لها ، بل وتدافع عن وزير الحربية وتذود عن كرامته حيث قالت : (ولست أريد أن نصل الى هذا الحد) فلازلت أعتقد أن وزراءنا المصريين يفهمون معنى الكرامة والقومية ، لازلت أعتقد أن كل مصرى يفهم واجبه نحو وطنه . . الى آخر العبارة .

وهكذا ترون ياحضرات المستشارين أننا نعرف ماذا نكتب وكيف نكتب بأخلاص ، هكذا ترون أننا لا نريد أن نسيء الى شخص واحد ، وان كنا نريد أن نذكر كل الحقيقة بمرارتها ، أجل : عندما نكتب ونرى أنفسنا ، وقد كدنا لا ننصف أحد المصريين في سياق حديثنا عن الاصلاح ورغبتنا فيه ، نعود فننصف هذا المصرى ونظاهره ونقف بجانبه لأننا لا نعادى مصرياً واحداً ، لأننا لانحمل موجدة لشخص من الأشخاص حتى أعدائنا ياحضرات المستشارين ، اننا نحبهم ونسامحهم ، لأن مصر اليوم في حاجة الى أن الحب والتسامح يسودان بين أبنائها .

القصد الجنائى

والآن ياحضرات المستشارين فلنترك كل هذا الدفاع الماضي ، ولنسلم جدلا أن الألفاظ المذكورة فى المقالة يشم منها رائحة السب والاهانة ... ولنسلم أن وصف الجيش بأنه ضعيف ، وبأن فيه مرضى ، وبأنه مفلول ولنفرض أن كل من يسمع هذه الألفاظ يرى فيها سباً ، فهل هذا يكفى لتكوين الجريمة ، جريمة السب ، ؟ الجواب لا . فقد بقي أن يكون الكاتب مدفوعا فى هذا بسوء نية ، أو بالأحرى يجب أن يتوفر لديه القصد الجنائى — والقصد الجنائى هنا ركن كأى ركن فى كل جريمة أخرى ، ولكنه هنا يمتاز بأنه كل شيء فى هذه الجريمة . لقد تستطيعون ياحضرات المستشارين أن تفرضوا القصد الجنائى فى بعض الأحوال ، وأن تلصقوه بالمتهم لأن الوقائع المادية صارخة بأن مثل هذا الشخص لابد أن يكون سيء القصد ، على هذا الأساس خلق القصد الاحتمالى ، وعلى هذا الأساس قد يلحق الخطأ الجسيم بالقصد . ففي كل جريمة أخري قد تكيف

الأعمال المادية قصد المتهم ، وقد تقطع به ، وقد تحدده . ويستطيع القاضى أن يصدر حكمه مطمئنا لتوفر القصد . أما هنا ، هنا فى جريمة السب ، فالقصد الجنائى هو كل شىء ، هو الجريمة بأسرها ، والفعل المادى بالذات لايمكن بذاته الا أن يكون محل اختلاف ومحل تقدير . الفعل المادى قد يصادف هوى فى نفوس المجموع . . الفعل المادي قد يلقى استحسان الرأى العام . . والجريمة فى النهاية تقاس بمقدار مافيها من اعتداء على المجتمع .. فالفعل المادى فى جريمة السب والأهانة ، ليس الا قرينة نلجأ اليها لتقرير سوء القصد ، فليس يكفي اليوم أن تقف النيابة وتقول ان احمد حسين قد أهان الجيش بكلمات كذا وكذا . . لا . ليس يكفي هذا مطلقاً ، بل يجب أن تثبت أن احمد حسين ، لضغائن فى نفسه ، أراد أن يتشفى على صفحات الجرائد . . ان أحمد حسين يحمل عداء للجيش فهو يريد أهانته . . أجل : يجب أن تقيم النيابة الدليل على توفر القصد الجنائي بمعناه الخاص والعام ، ذلك أن هناك جرائم يجب أن يتوفر فيها نوعان من القصد : قصد جنائى عام وقصد جنائى خاص .

أما القصد الجنائى العام فهو الذي يتوفر فى كل جريمة ، وأما القصد الجنائى الخاص فهو ماتتميز به جريمة عن أخرى . . والآن فلنبحث عن هذين النوعين من القصد فيما كتبناه .

القصد الجنائى العام

ما هو القصد الجنائى العام ؟ . . القصد الجنائى العام هو أن يأتي الانسان الأعمال المادية للجريمة عالما أنه بذلك يرتكب الجريمة ، فالذى يأخذ مال غيره خلسة يعلم انه يرتكب جريمة السرقة ، والذى يطعن آخر بسكين فيقتله يعرف أن عمله هذا يؤدى حتما وبالذات الي النتيجة التي حصلت . فالقصد الجنائي هو اتيان الشخص الاعمال المادية مع علمه أن القانون يعاقب عليها . فهل هذا النوع من القصد متوفر هنا ؟ هل عندما كتبت كلمات الضعف ، والمرض ، والجهل . . وأن الجيش غير صالح للدفاع عن مصر ، هل كنت أعرف أن كتابة هذه الألفاظ بالذات تكون جريمة ومع ذلك مضيت فيها ؟ الجواب : لا ، فما هو البرهان على ذلك ؟ . البرهان على ذلك هو أن هذه الكلمات ليست مقصودة بالذات ، فهذه الكلمات يمكن ان ترفع من الخطاب دون ان يمس ذلك جوهره ، حتى ولا عرضه . . تستطيعون أن ترفعوا هذه الكلمات دون ان تنقصه قليلا أو كثيراً ، الأمر الذى يدل على ان الكاتب لهذه الالفاظ لا يحتاج اليها في مقاله ، وليست غرضا من اغراضه ، اذاً لماذا كتبت ؟ كتبت لانى ساعة كتابتها كنت متحمسا جدا . . كتبتها لانني كنت اتخيل مصر وقد احيط بها ، ووقف جيشنا عاجزاً عن الدفاع عن مصر . كتبتهـا لانى أسمعها تتردد عن جيشنا فى كل مكان . كتبتها لعلمى أننى فى كتابتها أسجل ما استفاض على الالسن وما قرفى في جميع الاذهان ، وهذا وحده يكفي لمحو جريمة السب ، وهاكم ما يقوله الاستاذ أحمد بك

امين مؤيداً لذلك ، جاء فى الصفحة ٥٦٠ تحت عنوان القصد الجنائي ما يأتى بالحرف :

(فاذا كانت الألفاظ تفيد بحسب ظواهرها السب ، وقد استعملت بغير قصد السب باعتبار نية المتهم ، أو لانها جارية على ألسنة ذلك الوسط الذى وقعت فيه بغير ان يقصد بها سب ، فلا محل للعقاب لعدم توفر القصد الجنائى)

وجاء فى (لا بو تفان) الجزء الثانى فقرة ٧٦٣ ، ما يؤيد ذلك ويطابقه . والواقع ان هذا طبيعي يا حضرات المستشارين وعادى جدا ، فهذا الذى يقول للآخر : (يا ابن الكلب) أو (يالص) ، أو (يامزور) ، أو (ياسافل) . فان هذه الالفاظ تحمل بذاتها معني السب والاهانة ، أما أن يكون متواترا عن شخص من الاشخاص أنه ضعيف مريض ، فيذكر أحد الكتاب هذا الوصف، لا ليهين صاحبه أو يسبه ، ولكن ليدلل على حاجته لتبديل الهواء مثلا ، أو حاجته الى العناية ، أقول لايمكن أن يكون هذا سباً ..

وهذا الذى كان فى قضيتنا ، فلقد كتبت هذه الكلمات وهى لا تحمل فى ذاتها ألفاظاً بذيئة أو مقذعة .. كتبت هذه الألفاظ وهى ليست مما اعتاد الناس أن يهين بعضهم بعضاً بذكرها ولكنها أقرب ما تكون الي النعوت العادية ، كتبت هذه الألفاظ لأخلص منها الي ذكر الأصلاح غير عالم مطلقاً أننى باثبات هذه الألفاظ أكون قد أهنت الجيش ، وما ذلك الا لأنى أقرر وقائع استفاضت على ألسنة الناس واشتهرت عن الجيش .

هذا هو القصد الجنائي العام ، غير متوفر ياحضرات المستشارين ، القصد الجنائى الذى يريد أن يأتى المتهم بالأعمال المادية ، وهو عالم أنه يرتكب جريمة معينة ، هذا القصد غير موجود هنا للبراهين التى قدمتها . والآن فلننتقل الى القصد الجنائي الخاص وهو الأكثر أهمية ، وهو كل شيء فى جريمة السب .

القصد الجنائى الخاص

جريمة السب لها قصد جنائى خاص، فليس يكفي أن نذكر الألفاظ التى يشتم منها رائحة السب والأهانة ، فقد تكون الألفاظ بذاتها مقذعة مهينة ، ومع ذلك فلاتتكون جريمة السب ، وقد يكون كاتبها ملاحظا ما فيها من اقذاع وأهانة ومع ذلك فلا تتكون جريمة السب ، لأنه يبقى بعد ذلك القصد الجنائى الخاص ، وهو — هل يريد هذا الكاتب من كتابته أن يهين المتحدث عنه فعلا ، وهل يريد أن يشفى ثأراً له ، أو هو بطبيعته قليل الأدب والحياء ، فلا يتردد عن السب والقذف ارضاء لطبيعته ؟ . هذا القصد الخاص وهو : هل أردت فعلا أهانة شخص من الأشخاص بمقالى هذا ؟ أو هل أردت أهانة جماعة من الجماعات ، هل هو متوفر هنا ؟ الجواب لا وألف مرة لا .. ولعمرى أن قصد الأهانة غير معقول ، لماذا أهين هذه القوات ؟ أهي عدوتى ؟ أهى خصمى حتى من الناحية الأصلاحية ؟ هل هي المسؤولة عما هي عليه من ضعف وتأخير ؟ هل هى التي امتنعت عن شراء

الأسلحة اللازمة للجيش حتى جعلته متأخراً؟ أللهم لا. فهل أنا عدو للوزارة أريد احراجها والتشفى منها ، بأن أعيب هذه الناحية من قوتها ؟ أللهم لا ، لأننا فى صدد خطاب ليس فيه تنديد الا بالانجليز . وكيف أهين الجيش وأنا الذى أتغنى بمدحه فى كل مكان ؟ كيف أهين الجيش وأنا الذى أحرص على كرامته وأعرف مفاخره أكثر من وزير الحربية نفسه ؟ كيف أهين الجيش وأنا أرغب فى الانضمام اليه؟ ولعله دليل جديد على انقلاب الأوضاع فى هذا الزمن ، ياحضرات المستشارين ، أن أقف فى قفص الاتهام لأحاكم بتهمة اهانة الجيش ، وأنا الذى عرف عنى تمجيد الجيش واظهار مفاخره ! تريد وزارة الحربية اليوم أن تحاسبنى على بعض كلمات وصفت بها الجيش ، فلأحاسبها أنا عن المقالات التي دبجتها فى مدح الجيش وفى عظمته اذن ، وسترون بعد قليل ، ياحضرات المستشارين ، أن كفتى هي الراجحة ، وأن وزارة الحربيـــة مدينة لى بخطاب شكر ، ردا على هذه المقالات، وانى اقتطف لكم جزءا من هذه المقالة التى كتبتها قبل مقالتي الاخيرة لتروا ماهي عواطفى نحو الجيش بجلاء ووضوح .

كتبت فى العدد ١٩ — ١١ تحت عنوان « أين متحف الجيش المصري» وهو أكثر مجداً من الجيش الفرنسى» مقالة قلت فى ختامها: (هذا هو متحف الجيش فى فرنسا ،ومثل هذا المتحف يوجد فى كل بلاد العالم المتمدين ، لأنه لاتوجد أمة واحدة تخلو من ذكريات الحرب والجهاد . أما فى مصر فواحسرتاه على البلد المنكوب .. لا ذكرى .. لا أشارة تتحدث عن ماضى الجيش المصرى الظافر .. كأن ليس لهذا الجيش مجد تضيق به الدنيا بأسرها .. كأن هذا الجيش لم يقهر أوربا فى الحروب الصليبية ، ويأسر ملوكها،ويسجن ملك فرنسا فى الحرب التى تتحدث عنها فى المنصورة ، كأن هذا الجيش لم يدافع عن المدنية والأسلام ضد هجمات التتار كأن هذا الجيش لم يلق بالأنجليز فى البحر. كأن هذا الجيش لم يفتح عكا وقد عجز عن فتحها نابليون ، كأن هذا الجيش لم يخف أوربا بأسرها عندما حطم المورة ، وقرع باب الآستانة .. كأن هـــذا الجيش لم تستعن به فرنسا لفتح المكسيك .. كأن هـــذا الجيش لم تؤلف به امبراطورية خالدة لم تهدمها الادسائس الاستعمار . . يارجال الجيش المصرى . . نريد متحفاً لهذه الانتصارات وهذه الفتوح ، نريد متحفاً يشعرنا الكرامة والعزة ، نريد متحفاً يجرى الدم فى عروقنا ناراً ، نريد متحفاً يحفزنا لطلب المجد والعلاء ، نريد متحفاً يجعلنا نسترخص الموت في ساحة القتال).

فهل قيل عن الجيش مثل هذا الذي قلته ياحضرات المستشارين .. هل تعرف وزارة الحربية نفسها هذا التاريخ .. وهل مجدت نفسها وجيشها هذا التمجيد ..اللهم لا..لعل النيابة تقول لنا هذا كلام قديم قيل قبل الآن ، فلعل الرأى تغير، ولعل الاحتقار حل محل الاحترام. فاذا اعترضت هذا الاعتراض فما أسهل أن نجابهها بنفس خطابنا الأخير ... ما أسهل أن أتلو عليكم فقرات من خطابى لوزير الحربية .. ترون منها ترديدا للكلمات السابقة، اسمعوا ماذا فى العريضة المقدمة الى وزير الحربية ياحضرات المستشارين :

(بكل احترام يا صاحب المعالى يتقدم اليكم نفر من شبان مصر الناهضة ، يريدون أن يتطوعوا في الجيش المصرى، ليخدموا مصرم العزيزة عن طريق الجندية .. لقد طال ماقالوا عنا ياصاحب المعالي اننا نفزع من العسكرية ، واننا نندب حظنا اذا دعينا للجندية ،وهانحن أولاء نتقدم لنفتدى مصر بروحنا ، وها نحن أولاء نرجوكم أن تضمونا الي صفوف جيشنا الباسل، ذى التاريخ المجيد الذي أخاف أوربا يوما من الأيام) . هل تريدون برهانا بعد ذلك ياحضرات المستشارين على أننى أمجد الجيش المصرى .. لو أنى أهين الجيش وأحقره .. فكيف أتقدم للتطوع فيه .. كيف يتقدم الانسان ليتطوع فى جماعة الا اذا كان يحبها ويحترمها ، كيف أنتسب الى صفوف الجيش ان لم أكن أومن أنى بهذا الانتساب أزيد شرفا على شرف وفخارا على فخار . . كيف تقول النيابة انني أهين الجيش وأنا الذي أقول فى العريضة . (نرجوكم أن تضمونا الى صفوف جيشنا الباسل ذي التاريخ المجيد ،الذى أخاف أوربا يوما من الأيام) أليست هذه ألفاظ التكريم التى ذكرتها عن الجيش المصري فى مقالتى؟ اسمعوا أيضاً ماذا قلت ياحضرات المستشارين فى نفس خطابى للوزير : « ليس ذلك ضعفاً لا والله فأن المصريين الذين رموا بالجنود الأنجليزية الى البحر . . المصريين الذين ساروا يهزجون أهازيج النصر خلف ابراهيم باشا حتى قرعوا أبواب أوروبا فأفزعوها . المصريين الذين حاربوا فى أوروبا وأمريكا .. الذين سيرهبون العالم يوم يحملون السلاح، ما كان هؤلاء المصريون جبناء ضعفاء » . أليس هذا حديثا عن الجيش .أليس هذا دفاعا عن الجيش، أليس هذا اشادة بمجد الجيش .

لست أنا اذن ياحضرات المستشارين من يحقر الجيش ويرغب في اهانته . لست أنا من لايمجد الجيش وينحنى أمام اسمه وأعلامه .. ولست أسوق هذا دفاعا عن نفسى ولكنها كلماتى فى كل مكان .. ولكنها عقيدتى التى ترونها واضحة فى هذا الخطاب الذى أحاكم من أجله . لا، لا ياحضرات المستشارين، انما أنا من يريد العز والنصر للجيش ،انما أنا من أرغب فى تقديم دمى وروحى لهذا الجيش، ودعوت غيري من الشبان ليقتدوا بى . فلست أنا الذى أهين الجيش أو أرغب فى اهانته . بل انني استمد من ذات الألفاظ التى أغضبت القوم برهانا على غيرتى على كرامة الجيش وحبي لأصلاحه .أما أنا فأعرف ماضى الجيش ومجده ..أما أنا فأعرف للجيش قدره وخطره .. أما أنا فأعرف ان الجيش رمز عز الدولة ومجدها .. ورأيت أن القائمين بأمره قد أغفلوا أمره متعمدين فثارت نفسى وهاجت هؤلاء الذين يؤخرون الجيش ومافعلت ذلك الا غيرة على الجيش.. رأيت العساكر تشترى الخضار ، وتحمل الأطفال ، وتسمع بأذنها الأهانات فثارت نفسى لكرامة الجيش فكتبت أندد بذلك .

صدقونى ياحضرات المستشارين : أننى أنا الذى أعظم الجيش ، وهم الذين يسيئون اليه وهم الذين يهينونه بأظهاره ممسوخا حقيراً لا يساوى شروى نقير .

أما وزير الحربية فليس بينى وبينه ترة .. لست من حزب سياسي يعادى وزير الحربية

ويرى فيه مغتصبا لحق من حقوقه فيحقد عليه .. لا ياحضرات المستشارين ، فالجميع يعرفون أن مصر الفتاة جمعية قومية تعمل من أجل مصر .. وتفنى من أجل مصر .. دون أن تعادى مصريا واحدا ، ودون أن تكره مصريا واحدا .. اننى أدعو أخوانى أن يحب بعضهم بعضا ، أدعوهم أن يحبوا أعداءهم ، وأن يسامحوا من يسيئون اليهم ، ووزير الحربية مصري ، مصرى محترم ، وفوق ذلك كان أستاذا لى فى كلية الحقوق ولا أحفظ عنه الا كل ما هو حسن . فمن ناحية المبدأ لا أحمل له الا كل حب ، ومن ناحيتي الشخصية لا أحمل له الا كل احترام .. وليس هذا تملقا أو فزعا . لا ياحضرات المستشارين . ستعرفون في نهاية دفاعى من أنا ، وهل أعرف الفزع أو الخوف أو الملق ؟ ولكنى أقوله لأنه الحق .

ما من قصد جنائى اذن ياحضرات المستشارين . ما كنت أعرف أننى بهذه الألفاظ أهين الجيش لأنه لم تكن فى نيتى اهانة الجيش مطلقا ، وانما كانت رغبتى فى الأصلاح ، والأصلاح المطلق .. دعونى أجهر من هذا المكان المقدس بأن الجيش فى حاجة الى الأصلاح ، وأن وزارة الحربية ان لم تبادر بهذه الأصلاح فهى جد مقصرة .. دعونى اجهر من فوق هذا المنبر اننا بغير جيش لا نساوى مليما واحداً ولا نستطيع رفع رءوسنا . فى مصر احتلال يكبلنا . فى مصر اعداء يرغبون التهامنا . فى مصر جوهرة لامعة . مصر مركز العالم ونقطة الارتكاز فيه . مصر مطمع الغاصبين والفاتحين . فيجب على الأقل أن نعرف كيف ندافع عن انفسنا ، ونريد جيشا يستطيع هذا الدفاع ، وجيشنا الحاضر غير صالح لهذه المهمة مطلقا !! .

لقد ضعفت اخلاق المصريين ياحضرات المستشارين ، امتلأوا جبنا ويأسا . لقد ضاعت من نفوسهم كل معانى الشرف والرجولة والكفاح ، لقد نسوا واجبهم نحو وطنهم ، واندفعوا كلهم نحو المغانم الشخصية ، ونحوا نهاب الملذات ، وليس غير العسكرية والروح العسكرية من يستطع انقاذ هذا الشعب المجيد ، وما العسكرية الا الجيش ، فاذا ماألقينا نظرة على هذا الجيش راعنا ما فيه من ضعف وتأخر ، فما الذى يفعله المخلص الذى يريد الأصلاح ؟ أيرى الضعف ويغض النظر عنه ؟ أيرى الثغرات فى البناء القومى ولا يتحدث عنها بل يطلب منه ان يكون بوقا للتمويه والتعمية ؟ ايطلب من صاحب الفكرة المجاهد اذا راى باباً للأصلاح ألا يدخله ؟ ان فى ذلك اهانة للجيش ، احكموا فى هذه القضية ياحضرات المستشارين لأن قضية اليوم ليست الا حول هذا المبدأ .

ما أردت ان أهين احدا ، ولكنى رغبت فى ان اتحدث عن الأصلاح ، ما احتقرت مخلوقا ولكنى مجدت الجميع ، فهل يكفى هذا لتكوين جريمة ؟ هذا هو السؤال .

والآن فلنلخص كل دفاعنا المتقدم قبل أن أنتقل الى التطبيق القانونى وهذا التلخيص ينحصر فى ثلاث نقط .

الأولى — ان الألفاظ المستعملة ليست سبا ، ولكنها كلمات وصفية لوقائع أقمنا الدليل عليها .

الثانية — اننا ساعة كتبنا هذه الألفاظ لم نكن نرى فيها اهانة ، ولذلك مضينا فى كتابتها .

الثالثة — اننا لم نقصد من كتابتنا هذه اهانة مطلقاً ، ولكن قصدنا اصلاحا للجيش وانخراطنا في سلكه .

التطبيق القانونى

ملاحظاتى على التطبيق القانوني هى مايأتى : —

ان النيابة تطلب بمقتضى المادة ١٦٦ مكررة اعتبار رئيس التحرير مسئولا كمسئوليتى عن نشر هذا الخطاب ، والواقع أن أحمد افندى الشيمى غير مسئول مطلقاً . قد ترى المحكمة أن لا أتعرض لهذه النقطة وأن أتركها للدفاع عن أحمد أفندى الشيمى ، ولكنى فى صدد الدفاع عن نفسى ليس فقط أمامكم ولكن أمام الله ، والدفاع عن نفسى يشمل تبرئة أحمد افندى الشيمى ، ذلك أن المادة المطلوب تطبيقها تنص على مايأتي : —

« ومع ذلك يعفي من المسئولية الجنائية رئيس التحرير .

١ — اذا ثبت أن النشر حصل بدون علمه وقدم من منذ بدىء فى التحقيق كل مالديه من المعلومات والأوراق المساعدة على معرفة المسئول عما نشر .

٢ — اذا أرشد فى أثناء التحقيق عن مرتكب الجريمة وقدم كل مالديه من المعلومات والأوراق لاثبات مسئوليته وأثبت فوق ذلك أنه لو لم يقم بالنشر لعرض نفسه لخسارة وظيفته فى الجريدة أو لضرر جسيم »

وهذان النصان يجعلان أحمد الشيمى بريئا كل البراءة ، ويجعلان من واجبي أن أذكر لحضراتكم بعض الحقائق ، فجلة (الصرخة) هي لسان حال جمعية (مصر الفتاة) ، تسود فيها الروح العسكرية ، وروح النظام والطاعة ، وأحمد الشيمي ليس الا عضوا من أعضاء هذه الجمعية ، وقد طلب منه أن يكون رئيسا للتحرير فكان لأنه لا يستطيع الا أن ينفذ . وفى النهاية أنا المسئول عن كل شيء فى المجلة ، وأنا الذى أعد المواد وانتخبها ، ورئيس التحرير لا يمكن أن يعارض لأنى رئيسه ولأنه يجب أن لا يعترض.

فمن ناحية ، الخطاب معنون باسمى ولم يخف رئيس التحرير عن النيابة شيئا ، فهى قد اعتقلتنى أولا وعرفت منى انى كاتب الخطاب وأنا مرسله الى وزير الحربية ، فعلى حسب البند الأول من المادة ترون أحمد الشيمى قد انتفت عنه المسئولية لأن المسئول عن

النشر قد اعترف بذلك وتقدم ، ويحسب البند الثاني يعفى من المسئولية أيضا لانه لو لم يقم بالنشر لعرض نفسه لخسارة وظيفته فى الجريدة ، فبصفتى رئيس الجمعية ما كنت أسمح له أن يبدل حرفا مما أكتب ، أو أن يمتنع عن نشره ، ومع ذلك فهو لا يطلع على المواد قبل نشرها ، وأنا وحدى المسئول عن كل ما نشر بالجريدة .

وفى المادتين ١٦٧ ، ١٨٤ تطلب منكم النيابة ان تأمروا بالغاء الجريدة أو تعطيلها لمدة سنة ، واني أترك للمحكمة تقدير ما اذا كانت هذه الصحيفة التى لا تحوى كلمة واحدة ماجنة ، ولا تحوى كلمة واحده غير خالصة لله والوطن ، أترك المحكمة تقدير ما اذا كان المجتمع المصري في حاجة الى هذه الجريدة التى تعبر عن جماعة مخلصة متفانية فى خدمة مصر أم لا ؟ أجل لست أريد أن أطيل فى هذه النقطة ، وليسامح الله النيابة لطلبها هذا الطلب

وقبل أن نختتم هذا الدفاع يا حضرات المستشارين ، يسعدنى أن اقول لكم ان هذه المقالة لم تكن عبثا ، او لم تكن صرخة في واد ، بل انها انتجت النتائج المطلوبة منها الى حد كبير ، وما ذلك الا لأنها صرخة حق . فمن جهة تحركت وزارة الحربية أخيرا ، وأعلنت انها ستقدم للبرلمان قانون القرعة الجديد الذى ينقص الخدمة العسكرية الى ثلاث سنوات ، ولا شك انه اذا ما قدم هذا القانون ووافق عليه البرلمان فان ذلك يكون خطوة نحو الأصلاح تشكر عليها وزارة الحربيـة :

على أن أكبر أثر للمقالة ان بدأت الصحف تهتم بالجيش وبانتقاد الجيش وبحث القائمين بأمره على الأصلاح ، وترديد اقتراحات الصرخة ، فالبلاغ وعددها الصادر فى ٣١ مارس سنة ١٩٣٤ نشرت افتتاحية تحت عنوان « الخدمة العسكرية ، ووجوب الغاء البدل وتقصير الخدمة » وقد اقترحت في المقال انقاص الخدمة الى مدة سنة كما اقترحنا ، ونددت بالجيش وحاجته الى الأصلاح فقالت : يجب أن تخفض مدة الخدمة العسكرية الى مدة سنة ولهذا التقصير فائدته ومزيته ، الي أن قالت : ومع انتشار الخدمة العسكرية وشمولها جميع الطبقات يرتفع مستوى الجيش المعنوى ، ولا يبقى محصورا في طبقته الحالية ، وينتفى الاستنكاف من الدخول فيه ، ويتغير نظر الطبقات المستنيرة الى حياته ومنزلة المرء فيه وتثبت له الكرامة ، ويتوفر للجندى الاحترام الاجتماعي الذى ينقصه الآن مع الأسف ، ولا يعود دخول الجيش والانتظام فيه مدعاة للحزن والألم ، وموجبا للندب والعويل ، وباعثا على الاحساس بوقوع المصاب ، وحصول نكبة . وغير البلاغ كتبت جرائد اخرى فى الموضوع ، كمجلة المصور ، وغدا عندما تعرض ميزانية وزارة الحربية على البرلمان ستتردد رغبات الاصلاح وسـوف ترون ما سيوجه الى الجيش من انتقاد مر لاذع ، ودعوة صارخة الى الأصلاح

واذن فان غايتنا من كتابة المقالة قد تمت وهى الفات النظر الى الجيش وحاجته للاصلاح بل هذه القضية بالذات وحكمكم فيها ليس الا دعوة صارخة للحكومة والأمة الي الالتفات للجيش واصلاحه رغم انف الجميع .

كلمة ختامية

وبعد ، ياحضرات المستشارين ، فلقد قدمت لكم كل الدفاع الماضى لا لأنى أريد أن أدافع عن نفسى، ولكن لكى أريح ضمائركم ، ولكى يكون هناك دفاع قيل، فتستطيعون ان تصدروا حكمكم أياكان وأنتم مطمئنون ، مرتاحو الضمير . ولقد تعودتم أن يقف أمامكم المتهم طالبا الرحمة ، وطالبا البراءة حرصاً على نفسه وضنا بها وبحريته أن تهدر في السجن ، أما أنا فاني أطلب البراءة فعلاً فى مقدمة طلباتي ، لاضنا بنفسى ، ولا رغبة فى الحرية ، ولكن حبا للعدالة وتقديسا لها . انى أعرف أنى لم أرتكب وزرا من الأوزار . انى أعرف نفسى مخلصا الى أبعد حدود الاخلاص قمت بواجبي نحو مصر . أعرف أنى أعمل كل يوم لتقريب هذه الساعة التى يستيقظ فيها الشباب وتعود الروح الى المصريين ، وأعرف انى لا أستحق مطلقا أن يقال عنى أنى مجرم !. أجل ياحضرات المستشارين ، العدالة المطلقة تجعلنى حريصاً على طلب البراءة ، لا لنفسي ولكن من أجلها ، أما بعد ذلك فلكم أن تحكموا على بالحبس وانتم هادئون ، انكم ستقدمون لى خدمة عظيمة !. لكم ان تطمئنوا انكم تستطيعون أن ترسلوا بي الى السجن، وانا أباركـكم وأحبكم لأنكم بهذا تحققون رغبة من رغباتى . انى اجاهد كجندى من جنود الله لتخليص مصر ، انى أجاهد وكل رغبتي أن أموت مجاهدا ، وليس السجن الاخطوة من خطوات الجهاد ، فأذا ما أنحتموه لى فأنتم جديرون بشكري . انى أدعو الناس للتضحية ، فان لم أكن فى مقدمة المضحين فلا فائدة في كلامى ، وما رأيكم انى لا أرى حتى فى السجن تضحية !. وما بقى الأنسان حيا فهو بعد لم يضح بشىء .

احكموا بالبراءة اذن ، أو ارسلوني الى الحبس وأنتم مطمئنون ، ولكن لاتحكموا بالغرامة لأنى فقير ، ولست أملكها ، أولست أريد أن يدفعها لى شخص من الأشخاص، واذا حكمتم بالحبس فلا تحكموا به مع ايقاف التنفيذ ، لأن هذا سيسبب لى ألما كبيراً . لاتحكموا على بالغرامة ، ولا بالحبس مع وقف التنفيذ ، ولكن احكموا اما بالبراءة أو بالحبس ..

ياحضرات المستشارين ، أختم كلامي وأنا مطمئن الي أن الله سينزل حكمه الذى يريده على ألسنتكم ، وأنا مطمئن الى أن حكمكم سيكون له أعظم الأثر فى تطور الفكرة التي أدعو اليها . وسواء كان بالبراءة أو الأدانة ، فسيخطو بفكرة مصرالفتاة الىالأمام أصدروا حكمكم اذن ، والله يرعاكم . أصدروا حكمكم ، وأنا منذ الآن سعيد به أياكان بل لعل سعادتى ستكون مضاعفة اذا كان حبساً . .

اصدروا حكمكم ، ودعونى أهتف من أعماق قلبي :

الله أكبر والمجد لمصر

١٧ — ٤ — ١٩٣٤

الحكم

وقد نطقت المحكمة المشكلة برئاسة نجيب بك سالم عقب هذه المرافعة بحكمها وهو يقضى بتغريم كل من الأستاذين احمد حسين واحمد الشيمى ٢٥ جنيها غرامة لكل منهما — وقد رفض الاستاذ احمد حسين أن يدفع الغرامة وعلى ذلك فقد قبض عليه وأودع السجن ثم رأى بعد ذلك أن مصلحة الجمعية فى أن يغادر السجن فدفعت الغرامة وغادر السجن بعد حبس دام أسبوعين .



الكفاح

— ٨ —

لانستطيع أن نصف الأحداث التي توالت بعد ذلك على جهاد مصر الفتاة طوال عام ١٩٣٤ ، إلا أنها كفاح شاق متواصل ، متسم بالأيمان والصدق ، فالحركة في اضطهاد دائم ، دارها مراقبة ومحاصرة ، وجريدتها مصادرة من حين لآخر ، وكتابها يحقق معهم بالليل والنهار ، وليس هناك ما يصور للقارىء حقيقة ما كانت تعانيه مصر الفتاة فى هذه الأيام أكثر من أن تثبت هذه اللوحة التى نشرتها جريدة الصرخة في العدد الصادر بتاريخ ٢ يونيو سنة ١٩٣٤ عن كفاحها فى ستة أشهر .

فى يوم ١٣ نوفمبر — ألقت النيابة القبض على الأساتذة أحمد حسين ، وفتحى رضوان . وحافظ محمود . وفتشت منازلهم وأودعتهم السجن فمكثوا به ثلاثة وعشرين يوما .

فى يوم ٢٩ يناير — ألقت النيابة القبض على الأستاذين أحمد حسين ، وأحمد الشيمى ، وأودعتهما سجن الأستئناف لمدة خمسة وعشرين يوما .

فى يوم ١٢ فبراير — ألقت النيابة القبض على الأستاذين حافظ محمود ، ومحمود حجاج ، وأودعتهما سجن الأستئناف على ذمة الحبس الاحتياطى فمكثوا به ١٤ يوما .

فى يوم ٢ مايو — صادر البوليس ملحقا لجريدة الصرخة خاصا بالامتيازات

فى يوم ٥ مايو — صادر البوليس عددى الصرخة رقم ٢٩ ، ٣٠

في يوم ٦ مايو — صدر الحكم بالغرامة على الأستاذين أحمد حسين ، وأحمد الشيمى ، بخمسة وعشرين جنيها لكل منهما ، ونظرا لعدم توفر هذا المبلغ فقد أودعا السجن لينفذ عليهما .

فى يوم ١٠ مايو — صادر البوليس الصرخة وهى لا تزال تحت الطبع واستدعى الأستاذ أحمد الشيمى للتحقيق معه .

وهناك قضية منظورة أمام محكمة الجنايات وستعرض فى الأيام المقبلة.

هذا إلى محاضر تحقيق لا تزال مفتوحة ، يزيد عددها على الأربعة ، ولا تزال الصرخة تصدر بانتظام .

ذلك أن القائمين بها يؤمنون بالله .

وما كان الله ليتخلى عن قوم يجاهدون فى سبيله ، وفى سبيل الحق .

***

هذه صورة مما كانت تعانيه مصر الفتاة ، ومع ذلك فقد كانت تنطلق فى كل ميدان ، وتعمل في كل ميدان ، وتكافح فى كل ميدان ، باذرة هذه البذور الجديدة من الوطنية العاملة ، محاربة من ران على قلوبهم من المصريين ، باعثة الثقة والأمل في النفوس بامكان تحرير الوطن وإعادة مجده القديم . ولقد قمت ورؤساء الحزب الآخرين بجولات فى البلاد ، وبدأت فروع مصر الفتاة فى أنحاء القطر تتألف وتتكون . . . وكانت طنطا ، والاسكندرية ، والزقازيق ، والمنصورة ، هى أسرع المناطق استجابة لمصر الفتاة ، وجرت لنا مع البوليس ملاحم فى كل هذه المدن ، وكانت بمثابة وقود لأشعال الحركة التي أخذت كل خطورتها وأهميتها ، وكانت أهم هذه الملاحم على الاطلاق ، ماوقع لى فى الأسكندرية فى العشرين من شهر يونيو ، حيث كان مقرراً أن ألقى محاضرة بدار مصر الفتاة فيها ، فلما هممت بالدخول إلى الدار فى موعد المحاضرة انهال البوليس علينا ضرباً بالعصى . فتفرق الحاضرون ، ولكنى بقيت ثابتاً في مكانى وإلى جواري المجاهد حسنى ناجى الشماشرجى ، الذي كان مرافقى فى هذه الرحلة ، فكنا محل عدوان شنيع أثبته الطبيب الشرعى فى تقريره .. حيث كان فى جسدي اثنتا عشرة إصابة ، بعضها على جانب من الخطورة ، وكذلك كان الحال بالنسبة لزميلى ، ومع ذلك . . فقد وجهت لنا تهمة التظاهر ، والتجمهر ، والاعتداء على البوليس ، وقدمنا إلى المحاكمة . . فألقيت في المحكمة الكلمة التالية :

يا حضرة القاضى :

لقد اعتدى علينا ، لقد نكل بنا ، لقد منعنا من الدخول الي دارنا ، وها نحن نقف أمامكم كمتدين ، وكمتظاهرين ، وان كنا نأسف على شيء فهو أسفنا على هذه المأساة الخلقية التي تدهورنا اليها ، والتى تجعل المصرى يقف هكذا خصما للمصرى ، والتي تجعل المصري ينكل هكذا بأخيه المصرى ، مع أنه يعلم ان هذا المصري انما يكافح من أجل حريتهما ، وحرية وطنهما المشترك ، ومن أجل استقلالهما المنشود ، ان هذا المصرى يكافح ليموت كى يكون في موته حياة لغيره ، ويشقي كى يسعد غيره ، ان هـذا المصرى يناضل في سبيل الله .

هذه هي نقطة الأسى فى هذه التضحية ، ولـكنها مع ذلك لا توهن من عزمنا ، لاتدخل الشك الى ايماننا ، ايماننا الثابت . بأن المصريين عما قريب سيقفون صفاً واحداً ، وكتلة واحدة متحابين ، متآخين ، متكاتفين ، ضد العدو المشترك ، ضد المستعمر الغاصب . هذه الحادثة وأمثالها تزيدنا يقيناً واصراراً انه لابد من الأصلاح ، لابد من اعادة الروح ، وبعث الهمم ، وبعث النفوس التى ركدت .

وأما كلمتي الختامية ياحضرة القاضى : فهى أن لاترهق نفسك بكل المرافعة الماضيه ، ولنصل الى النهاية .. انني وحسنى ناجي ، وباقى الزملاء . قد ألفنا مظاهرة ، واعتدينا على البوليس (بالرغم من أننا نحن المعتدى علينا) . ولكن ، لسنا نشكو مطلقا ، ولسنا نتبرم من شيء ، وتستطيع أن ترسل بنا الى السجن ، وأنت مطمئن ، الى أننا لن نشكو أيضاً ، ولن نحمل لك بعدها الا الاحترام والتقدير ، بل والحب أيضاً .

لقد وقفت مرة أمام محكمة الجنايات وترافعت أمامها ، وفى آخر مرافعتى وجهت كلاما سأوجهه دائما الى قضاتى الذين يحاكموننى والذين يحكمون على . . الا وهى أننا نجاهد فى وقت قد تحكمت فيه الشهوات ، وعزت التضحية ونحن ندعو المصريين والشباب المصرى على الخصوص ، للتضحية فيجب أن نكون فى مقدمة المضحين ، واذن فتستطيعون أن ترسلوا بي الي السجن هادئين مطمئنين انكم تحققون رغبة من رغباتى لأننى أعتقد أن المكان الطبيعى لشاب حر فى أمة مضطهدة هو السجن ..

في السجن أجد الحرية المنشودة ، وفى السجن وبين جدرانه الأربعة أطالع النور ، نور الله فى كتابه ، وفى السجن أستطيع أن أكون هادئا مطمئنا اذ أكون قد أديت واجبي نحو مصر .

أرسل حكمك اذن ياحضرة القاضى والله يوفقك لما فيه الخير والسداد ، والله يوفقنا لما فيه خير مصر ، ولـكننى لاأستطيع أن أنهى الحديث قبل أن أرجوك من كل قلبي اذا رأيت الأدانة ثابتة ، أن تعتبرني أنا المسئول الوحيد وأن تنزل على أنا وحدى أقصى ماتستطيع أن تنزله من عقاب وأن تخفف عن الباقين ، والمجد لمصر .

الحكم

وقد صدر الحكم ، وهو يقضى بادانتى بتهمة التظاهر وتبرئتى من تهمة الأعتداء والحكم على بغرامة مقدارها عشرة جنيهات وادانة زميلى حسنى ناجى بتهمة التظاهر والاعتداء والحكم عليه بغرامة قدرها ١٢ جنيها . على أن هذا الحكم لم يلبث أن عدل فى الاستئناف حيث قضت المحكمة بالبراءة من جميع التهم .

محاربة الامتيازات الاجنبية

كان الشغل الشاغل لنشاط مصر الفتاة وأعضائها فى العام الأول من تأليفها . هو محاربة الامتيازات الأجنبية التى كانت تنوء تحتها البلاد ، ولم تجد الامتيازات الأجنبية من حاربها فى مصر كما حاربتها مصر الفتاة ، وستحظى مصر الفتاة دائماً إذا مافتح سفر الجهاد القومى بالنصيب الأكبر ، ان لم يكن النصيب الأوحد فى محاربة الامتيازات فى غير هوادة أولين .

فالزعيم مصطفى كامل باعث الوطنية فى مصر ، كان لا يتعرض للامتيازات الاجنبية ، بل كان ينتفع بها في محاربة الانجليز ، وكانت خطته أن يجامل الاجانب فى مصر ، ليشدوا أزر الوطنية المصرية ، حتى لقد أثرت عنه الكلمة المشهورة (أحرار فى بلادنا كرماء لضيوفنا) وقد ظلت هذه الروح مسيطرة على الوطنية المصرية ، فلم تلق الامتيازات الأجنبية فى مصر كيدا حقيقيا . حتى ثورة سنة ١٩١٩ نفسها ، لم تستطع أن تنال من الامتيازات الأجنبية ، وان كانت المفاوضات بين مصر وانجلترا بدأت تشير إلى وجوب وضع حد لهذه الامتيازات الأجنبية .

وقد جرت لى مناقشات حادة مع مصطفى باشا النحاس حول موضوع الامتيازات ، وقد كان ذلك سبباً من أهم أسباب اختلافنا فى الرأى ، فقد كان يتمسك بوجوب الأبقاء على الامتيازات الاجنبية ، إلى أن تحل القضية المصرية مع الانجليز ، وكنت اعارضه فى ذلك أشد المعارضة . ولكنه لم

يوافقنى على وجهة نظري ، ومع ذلك فقد جاء الوقت الذي ترأس فيه النحاس باشا المؤتمر الذى عقد فى سنة ١٩٣٧ لألغاء الامتيازات الأجنبية ، وتحديد أجل لانتهاء المحاكم المختلطة!.. فاذا ذكرت الامتيازات الأجنبية ، وذكر تاريخها في مصر ، فان كفاح مصر الفتاة ضدها يجب أن يسجل بأحرف من نور ، وهاهى أعداد الصرخة فى سنواتها الأولى ، وليس لها قضية تحاربها بأعنف مما حاربت به هذه القضية .

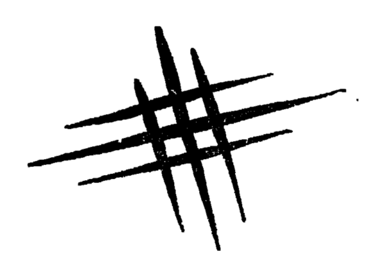
وقد أخذ هذا الكفاح مظهره الرائع فى ٢ مايو سنة ١٩٣٤ ، حيث دعت مصر الفتاة الأمة المصرية ، الى تنظيم مظاهرة فى ذلك اليوم لأعلان سخطها على الامتيازات ، ولكن الحكومة حالت دون قيام المظاهرة ، بما اتخذته من اجراءات عنيفة ، وصادرت عددا ممتازا أصدرته مصر الفتاة فى ذلك اليوم خاصا بالامتيازات . وسيبقى هذا العدد إلى الأبد درة فى جبين مصر الفتاة ، وهو يضم أقوال كل عظماء مصر الذين حصلت منهم مصر الفتاة على تصريحاتهم ضد الامتيازات ، بل إن فيه تصريحاً من وزير اليونان المفوض أعطاه لمندوب الصرخة يعلن فيه استعداد حكومته للتنازل عن الامتيازات متى وافقت الدول الأخري على ذلك .

وقد استخدمت مصر الفتاة سلاح المقاطعة ضد الأجانب للضغط عليهم ، وحملهم على التنازل عن الامتيازات الأجنبية إذا رغبوا في صداقة المصريين ، وحدث أن وفد على مصر فى ذلك الوقت سيرك ألمانى للألعاب البهلوانية ، يسمى « سيرك هاجنبك » وهو سيرك عالمى ، تطلع جميع المصريين لمشاهدة ألعابه ، فدعت مصر الفتاة إلى وجوب مقاطعته كبضاعة أجنبية ، وتطوع الشبان للوقوف أمام السيرك والحيلولة بين المصريين وبين الدخول ، وعبثاً كان البوليس يقبض عليهم ، ويزج بهم فى السجن ، فقد كان متطوعون آخرون يقومون بنفس العمل ، فكان لذلك رجة كبيرة فى أنحاء البلاد ..

ومن عجب ، أن النحاس باشا فى ذلك الوقت ، كان يتحدي مصر الفتاة في هذه الناحية ، فاذا دعت إلى مقاطعة السينمات الأجنبية وعلى رأسها سينما

رويال ، بادر بزيارتها ، وإذا دعت لمقاطعة هذا السيرك ، بادر بزيارته ، وذلك تمشيا مع فكرته في عدم مضايقة الأجانب . ومع ذلك ، فقد نجحت حركة المقاطعة نجاحا منقطع النظير ، وبدأ كل أجنبي يحس وطأة المقاطعة المصرية ، والكراهية المصرية ، عقاباً لهم على التمسك بهذه الامتيازات اللعينة .

وكانت دعوة مصر الفتاة تقوم على وجوب إلغاء هذه الامتيازات بجرة قلم ، وبأعلان من جانب الحكومة المصرية يبلغ للدول . ولكن الامتيازات لم تلغ إلا فى مؤتمر دولى كما قدمنا ، ولا تزال بعض ذيولها قائمة فى مصر فى شكل هذه المحاكم المختلطة التى حدد لألغائها سنة ١٩٤٩ ، ولن يهدأ لمصر الفتاة بال ، حتى تمحو كل أثر لهذه الوصمة الشنيعة فى تاريخ مصر



أربعة أيام في ايطاليا

— ٩ —

وفي ذلك الوقت ، كان طلعت باشا حرب زعيم النهضة الأقتصادية فى مصر ، قد أسس شركة مصر للملاحة ، لأنشاء خط ملاحى بين مصر وأوربا ومختلف أنحاء العالم ، وكانت النيل ، هى أولى سفن هذه الشركة فدعيت كصحفى للقيام برحلة على ظهرها ذهابا وإيابا ، من الاسكندرية إلى مارسيليا ، فكانت فرصة ذهبية سعيدة ، رأيت أن أنتهزها لزيارة إيطاليا زيارة سريعة ، فقد كانت النيل ترسو على ميناء نابولى الأيطالى ، ثم تستأنف سيرها بعد ذلك إلى مرسيليا ، وتمر من جديد على ميناء نابولى في عودتها إلى الاسـكندرية ، وكانت تستغرق أربعة أيام بين وصولها إلى نابولى وعودتها اليها ، وهذه الأربعة الأيام هى التي انتهزتها لألقاء نظرة سريعة على إيطاليا الفاشستية ، إيطاليا موسولينى الحالم يبعث الامبراطورية الرومانية!. فلم تكد النيل ترسو على ميناء نابولى ، حتي أسرعت بالهبوط من السفينة ، وجلت جولة سريعة فى المدينة ، ثم أخذت القطار إلى روما فوصلتها وعشت فيها بعض الوقت ، فرأيت من أمر إيطاليا ما أثبتته الحوادث والتجارب بعد عشر سـنوات من هذا التاريخ ، على الرغم من إقامتى القصيرة جدا ، وبينما كان العالم يتحدث عن عظمة إيطاليا ، رحت أتحدث بعد عودتي إلى مصر عن ضآلتها. وبينما كان العالم يرتجف رعبا من سخط إيطاليا الموسولينية تحديتها ووقفت فى وجهها بعد عودتى إلى القاهرة . فكتبت سـلسلة من المقالات تحت عنوان « أربعة أيام فى نابولى وروما — أو لقد خيبت إيطاليا حسن ظنى بها » وقد صورت فى هذه المقالات ما رأيت من طبيعة الشعب الايطالى ، وحللت مشاهداتى والحوادث التي وقعت لى ، وخرجت من التحليل بالنتيجة الآتية التى نشرتها جريدة الصرخة . . لقد لمست روح الشعب الايطالى ، وتبين لى أن كل ما يقال عن إيطاليا اليوم ، ليس إلا

ضجيجا من قبيل الدعاية الواسعة النطاق ، وأن الشعب الايطالى متخلف وقدرته محدودة ، وأن النظام الفاشستي بأسره يتلخص فى موسولينى ، فاذا مامات موسولينى مات معه هذا النظام ، وعادت إيطاليا إلى مركزها قبل الحرب ، أمة هزيلة ضعيفة (١) وأحسب أن ليس هنـاك ما يمكن أن أعتز به الآن ، وقد انهارت إيطاليا بانهيار موسولينى ، أكثر من أسجل الآن فقرة من مقالى الأول عن رحلتي إلى إيطاليا ، وكيف صدقت الأيام والحوادث كل ما قلته عنها بالحرف الواحد .

أربعة أيام فى نابولى وفى روما

أو

لقد خيبت ايطاليا حسن ظنى

وهل فى العالم اليوم من لم يسمع باسم ايطاليا الجديدة . ايطاليا الفاشستية . ايطاليا موسولينى . ايطاليا ذات الأساطيل فى الهواء والماء والجيوش فى البر ، هل فى العـالم شخص لم يتطلع الى هذه الدولة التى نهضت من العدم لتلعب دوراً خطيراً فى تاريخ أوربا الحديثة ، ونحن هنا في مصر ، أو لم نحس بخطر هذه الدولة الجديدة ، أو لا نسمع أنات اخواننا فى طرابلس ، وماينصب عليهم كل يوم من الويلات والآثام ، أولا توزع تركتنا ولا نزال أحياء ، فبالأمس قدمنا جغبوب ، واليوم قدمنا مايبلغ مســاحته ربع مساحة مصر ، فى السودان . وغدا من يدري ماالذى ندفعه أيضـاً اذا بقينا تحت هذا النير الانجليزي ، واذا بقى هؤلاء السادة الأمجاد من الوزراء والحـكام بهذا الضعف ، وهذا الخنوع ، وهذا الرق ، المنصب وعجل الذهب ، هذه الدولة ايطاليا التي عبأت جيوشها منذ أيام وأرسلتها الى الحدود النمساوية لمحاربة ألمانيا اذا لزم الأمر ، هذه الدولة التى خيل للناس أن هتلر يحتذيها وينســـج على منوالها ، وأخيرا هذه الدولة التى فتحت مصراعيها للوافدين الأجانب ، تنقلهم على سفنها مجانا ، وتستضيفهم مجانا ، ليروا بأعينهم عظمة الفاشست ، وعظمة ايطاليا صاحبة المجد الرومانى :

هذه هى ايطاليا التى نكرهها لما تنتويه لنا من شر ، هذه هى ايطاليا التى كنت فى شغف لرؤيتها لألمس كل هذه العظمة ، ولأرى هذا الشعب العجيب ، الذى طفر هذه الطفرة ،

---

(١) الصرخة العدد الصادر فى ٢٥ أغسطس سنة ١٩٣٤ مقال « نذير مصر الفتاة فى روما »

والذى يتحكم بمستعمراته هذا التحكم ، والذي يهدد استقلالنا هذا التهـديد ، فانتهزت الفرصة وطرت اليها فوق متن النيل السعيد ، ولولا هذا لما ذهبت ، فيا نعمى هذا النيل الذى أجراه لنا بنك مصر فى البحر ، ويانعمى هذا المجد الجديد الذى يشرق فيضيء لنا هذه الظلمات .

ذهبت الي ايطاليا ، وعدت منها ، وقضيت فيها أربعة أيام ، ماجاء اليوم الرابع منها حتى كنت قد سئمت كل ماحولى ، حتى كنت قد فرغت منها وعرفت أولها وآخرها ، حتى عرفت أن فى المسألة طبلا كثيراً ، وأن ايطاليا قد خيبت حسن ظنى . وأن ايطاليا قد ملأتني ثقة على ثقة ، وايمانا على ايمان أننا فى مصر نستطيع أن نفعل العجائب ، نستطيع أن نسخر من كل هذه الشعوب يوم أن تتوفر لنا الأرادة ، ويلى الحكم لدينا حكومات رشيدة ، يوم أن يتسيطر الايمان والعزم على أعمالنا ، يوم أن يتولى الشباب مقاليد الحكم والأدارة ، أجل فى هذه الساعة نسـتطيع أن نعمل كثيراً ، نستطيع أن نقفز الى الأمام ، نستطيع أن نسابق هذه الدولة الصغيرة (ايطاليا) نسـتطيع أن نتبوأ مركزنا القديم معلمين للأنسانية وزعماء للشرق .. الي آخر ماجاء فى المقالة (١)

وكانت هذه هى مقدمة المقالات التى توالت بعد ذلك عن ايطاليا . وقد قامت الدنيا وقعدت لهذه المقالات ، وأعني بالدنيا ، دنيا الفاشست الطليان ، الذين طلبوا من الحكومة المصرية ، أن تحقق معى وتوقفنى عند حدى ، وبادرت الحكومة المصرية الى تلبية رغبة موسولينى ، فشرعت النيابة تحقق معي ، وهي نهاية التحقيق ، وجهت الى تهمة التحريض على كراهية ايطاليا ، وتحقيرها والأزدراء بها ، ولعل تاريخ القضاء المصرى ، لم يظفر بقضية من هذا النوع ، من حيث موضوعها ، وما انتهت اليه ، وتقلبات القدر التي تمت بين رفع الدعوى والفصل فيها ، فقد رفعت هذه الدعوي على فى سنة ١٩٣٤ ، ولم يفصل فيها الا منذ أيام قلائل فى ١١ مارس سنة ١٩٤٦ ، أي بعد اثنتي عشرة سنة كاملة من تاريخ رفعها . ولقد سقطت ايطاليا فى خلال هذه المدة ، ولقيت من سخرية الدنيا كلها ، مالم تلقه أمة من الأمم فى أى عصر من عصور التـاريخ ، وقتل موسولينى أشنع قتلة يمكن أن يقتلها رجل عظيم ، وجاء الوقت الذى كان قضـاة محكمة الجنايات يخجلون من نظر هذه القضية ، فيؤجلونها من عام الى آخر ، حتى اذا كانت هذه الجلسة الأخيرة قضت المحكمة ببراءتى من هذه التهمة اسـتناداً على سقوط الدعوى بمضي المدة ، ولم يفتنى أن أسجل فى المحكمة وهى تقضى لى بالبراءة ، كيف أن ماأحاكم عليه فى يوم من الأيام لا يلبث أن يصبح فضيلة لدى كل الناس ، وأن مجاهدا في مصر لم يضطهد كما اضطهدت ظلماً وعدوانا ، حيث لاذنب لي الاحبي لمصر ، وذودى عن حريتها ، وتكريس حياتى لبعث مجدها ونهضتها .

---

(١) راجع هذه السلسلة من المقالات فى الصرخة شهر أغسطس سنة ١٩٣٤

حكومة نسيم باشا

— ١٠ —

كان نشاط مصر الفتاة كما رأينا حتى الآن يعني كل العناية بالمسائل القومية ، فلم يحاول أن يشترك في المعارك الحزبية والمنازعات حول الحكم ، ولم يحاول أن يهاجم الوزارة القائمة في الحكم وقتئذ، وهي حكومة عبد الفتاح باشا يحيي ، باعتبارها حكومة تمثل حزبا من الأحزاب ، أو اتجاها من الاتجاهات ، على الرغم من اضطهاد الحكومة المتواصل لمصر الفتاة ، وذلك كله إيمانا منا أن ليس هناك ما يطرب له الغاصب الأجنبي أكثر من أن يرى بأسنا بيننا شديداً ، فحرصنا على أن يكون كفاحنا كله لله والوطن ، ولكن الحوادث تطورت في مصر تطوراً حاداً ، جعلتنا لا نستطيع بحال من الأحوال أن نقف بمنأى عن هذه الحوادث ، كما أن الاضطهاد الذي كان يلاحق مصر الفتاة ، تحول إلى اضطهاد مميت خانق ، كأن يصادر البوليس جميع أعداد الصرخة على التوالى ، أو أن يصادرها وهي في المطبعة ، ولم يكن باستطاعتنا أن نحتمل هذه الخسارة المالية الفادحة ، فبدأنا نفكر في التوقف بعد أن كنا اقتصرنا على اصدار الصرخة في ثمانية صفحات بدلا من ست عشر ، ثم اصدارها في أربع صفحات بدلا من ثمانية .. ورحنا نكتب فيها من باب السخرية والتهكم على هذه الحالة ، مقالات عن البصل وفوائد النوم عقب الغذاء ، ونعقد مقارنات بين شهيرات الممثلات في العالم ، ومع ذلك فلم تكن الصرخة تسلم من المصادرة في داخل المطبعة بالرغم من ذلك كله ، بحيث كدنا نكف نهائياً عن إصدار الصرخة حتى يقضى الله أمراً كان مقضياً .

ومن ناحية أخرى ، كانت مصر كلها تعانى من تخبط الوزارة مثل الذى تعانيه مصر الفتاة ، بل إن جلالة الملك احمد فؤاد بدأ يشعر بعجز

الوزارة عن حماية مظاهر استقلال مصر ، حيث راح الأنجليز يتدخلون في كل شيء ، ويدسون أنفهم فى كل شيء ، وأوفدوا الى مصر انجليزى وقح يدعى « بترسون » راح يستعرض قوات البوليس المصرى ، ويفتش عنها ، ويزور بعض المديريات ، ويحل ضيفا على بعض الأعيان ، كما كان يفعل المعتمد البريطانى فى قديم الزمان ، ولم يقف أمر « بترسون » عند هذا الحد ، بل شرع يتدخل في شئون القصر الملكى الداخلية ، فيعترض على وجود هذا الموظف أو ذاك ، ويشير على جلالة الملك بأشخاص الأطباء الذين يجب أن يتولوا معالجته . ولم يكن بقدرة الانجليز أن يجترئوا هذا الاجتراء ، لولا هذا الخلاف المشتجر بين القصر وبين الوفد الذى كان يمثل الأغلبية فى البلاد ، وكان قد انقضى أكثر من أربع سنوات على التجربة التي قام بها الملك فؤاد لمحاولة الأضعاف من نفوذ الوفد فى البلاد بمعاونة صدقى باشا الذى اصطنع دستوراً جديداً ، وقد سقط صدقى باشا بعد أن اضطهد البلاد وأسرف في اضطهادها ، وأقر الهدوء والسكينة والنظام فيها ، ولكن بثمن باهظ جداً من القضاء على كل حرية وعلى كل خلق وكل فضيلة . ومع ذلك فقد جاء الوقت الذى رأى فيه جلالة الملك أن استمرار صدقى باشا أصبح يضر أكثر مما ينفع ، فأسقطه ، وجاء بوزارة عبد الفتاح باشا يحيي التى كان يطلق عليها وزارة القصر . ولكن عبد الفتاح باشا يحيي لم يستطع فى الوقت المناسب أن يدفع عدوان الأنجليز على القصر ، لأن الشعب كان قد امتلأ مقتاً وحقداً على الحكومة ، وعلى برلمانها ، ودستورها الذى اشتهر باسم دستور سنة ١٩٣٠

وهنا لم يسع مصر الفتاة إلا أن تتقدم لجلالة الملك برسالة طالبت فيها بوجوب إسقاط وزارة عبد الفتاح باشا يحيي والغاء الدستور الجديد ، والعودة بالبلاد الى الحياة الدستورية الصحيحة ، فذلك هو الطريق الوحيد لحماية العرش والبلاد من تدخل الانجليز وعدوانهم . ولم تنقض أيام على رفع هذه الرسالة الى جلالة الملك ، حتى كانت الوزارة الفتاحية قد قدمت

استقالتها بالفعل ، فدل ذلك على أن أول رسالة سياسية رفعتها مصر الفتاة لجلالة الملك ، قد جاءت في وقتها وأصابت الهدف، وترجمت عن حقيقة الحال.

واستدعى جلالة الملك توفيق نسيم باشا لتولى رئاسة الحكومة ، وقد كان نسيم باشا محل رضاء من الوفد ، وتقوم سياسته على وجوب التعاون مع الوفد ، فدل ذلك على أن جلالة الملك فؤاد قد قرر أخيراً أن يضع حداً لانقلاب صدقى باشا ، وأن يعود بالبلاد إلى الوضع الطبيعى . وقد بادر نسيم باشا بمجرد توليه الحكم باطلاق الحريات العامة ، ورفع القيود والسدود التى كادت تخمد أنفاس الرأى العام ، فجاء ذلك فى الوقت المناسب لمصر الفتاة ، التي كادت جريدتها في ذلك الوقت تتعطل تحت تأثير المصادرة ، والتي جمدت عن كل نشاط أو حركة ، تحت ضغط البوليس ومطارداته التي بلغت حداً لا يتصور .

وفي ذلك الوقت كان قد أتيح لمصر الفتاة أن تعثر على شقة كبيرة فى ميدان العتبة الخضراء ، اتخذتها داراً لمصر الفتاة ، وكان يتبع هذه الشقة شرفة كبيرة جداً تتسع لبضع مئات من الجمهور ، فاستطعنا فى ظل الحرية الجديدة أن نفتتح هذه الدار بأقامة حفل عام ألقيت فيه خطابا سياسيا عاما سيبقى بالرغم من مئات الخطب التي ألقيت بعده فى عشر سنوات بمثابة حجر الزاوية من هذه الخطب كلها .

خطاب الاستاذ احمد حسين

فى حفلة افتتاح دار مصر الفتاة

(بسم الله الرحمن الرحيم)

أحمد الله أيها السادة ، ان عدنا نتقابل من جديد ، ونتحدث من جديد . أحمد الله الذى قوانا على احتمال المكاره ، ومنحنا الصبر والثبات ، حتى زالت الغمة ، وانقشع الليل ، وأشرق الفجر من جديد ، فجر الحرية والسلام .

حاجة الأمم الى الشدة

وصدقونى أن الأمم فى جهادها أكثر ماتكون حاجة الى الشدة والشدائد ، لأن الشدة هي التى تصهر الضعف وتطهر النفس ، الشدة هى التى تقوى الأيمان وتزكيه وتبعث فى النفس فضائلها ، الشدة أيها السادة هي حجر الاختبار الذى يختبر به معدن من المعادن للتمييز بين الغث والنفيس .

ولقد كانت شدة

ولقد كانت شدة ، ولقد كانت محنة ، كانت محنة أصيبت بها الأمـة فى عهد الوزارة السابقة . حطم فيها الدستور ، وانتهكت القوانين ، واختل الأمن والنظام . . أى ركن من الأركان بقى بعيدا عن الظلم والتخريب . . أى بيت لم ينله شر وويل كثير . . بل أى انسان لم يصب بجرح من هذا النظام عميق . . حتى منشىء النظام وصاحبه . . حتى صدقى باشا انتهى به الأمر أن كان ضحية من ضحايا هذا النظام وتلك مشيئة الله وحكمته..

وفى ظل هذا النظام ، تعطلت مصالح مصر ومرافقها ، لأن الوزارة كانت مشغولة فى المحافظة على كيانها واضطهاد الأمة . . . كان الفلاح بائسا ، ولا منقذ له . . كانت مصر مكسورة الجناح ، لضياع كرامتها وحقوقها . وكانت فزعة من النهاية المخيفة التى سينتهى اليها هذا النظام الممقوت .

خنق الحرية هو الجريمة الكبرى

على أن ذلك كله كان يهون أيها السادة أمام جريمة أعظم من هـــذه الجرائم كلها ، وأعني بها خنق الحرية ومطاردة الأحرار ، خنق الحرية هي الجريمة العظمى التى يمكن أن يرتـكبها انسان ضـد أمته . . ذلك أن كل شيء يهون اذا بقيت حرية الجماعة مطلقة ، ولعمرى فان قيام الحرية معناه الضمان القوى ضد مظاهر الظلم والاستبداد . انني أصرح علنا ، وبأعلى صوتى ، أن الوزير أو الحـكومة التى تحاول خنق الحرية لهى حكومة مجرمة ، لأنها تقضى على الأمـة وتحطم معنويتها . . انني أفهم أن تخالف حكومة ارادة الأمة ، وان تصانع الاجنبي اذا لزم الامر ، وأن تسلم للانجليز ببعض المطالب ، أفهم ذلك وأفهم تعليله ، ولـكن شيئا واحدا لا أسـتطيع أن أفهمه من مصرى مهما كان منطقه ، ومهما كان بيانه ، ذلك الشيء هو تقييد الحرية وخنقها . . فان عثرة الحـكومة تقـــال اذا ماكانت هناك حرية . . وكل أخطاء السياسة يمـكن تداركها اذا كانت هناك حرية . . وفى ظل الحرية نستطيع أن نراجـع قضايانا . فى ظل الحرية نستطيع أن نناقش وأن ننتقد وأن نهاجم وأن نجهر بما يجب أن يكون . . فى ظل الحرية أيها السادة نستطيع أن نقوم اعوجاجنا وأن نقوى ضعفنا وأن نوحـد صفوفنا . . في ظل الحرية نستطيع أن نفعل كل شيء ، وأن نعيد مجدنا القديم ، ونحقق رسالتنا الخالدة : مصر فوق الجميع .

الوزارة الحاضرة والحرية

فالوزارة السـابقة من هذه الناحية قد ارتـكبت ما أسميه جريمة عظمى . . . الوزارة السـابقة قد أساءت الى هذه الامة فوقفت نموها طوال أربع سنوات . .. لا بل سارت بها الى الوراء عشر سنوات ، بل عشرات عندما كانت مصر هزيلة ضعيفة ... أما وزارة اليوم فقد وعدت أن تنطلق الحريات ... وما اجتماعنا الليلة الا ثمرة من ثمار هذا الوعد .. واذن فانى أعلن فوق هذا المنبر ، وباسم مصر الفتاة ، ان الحـكومة الحاضرة تستطيع أن تحصل على تأييدنا اذا حافظت على وعدها ، وتركت الحريات . . . حرية الاجتماع ، وحرية الـكلام ، وحرية الصحافة . . الحـكومة الحاضرة اذا استطاعت أن تحافظ على استقلالها . . وأن لاتفقد ارادتها ، فلا تسمح للانجليز أن يملوا عليها من الاوامر ماتهدم به الحريات ، نستطيع أن نطمئن الى أن كل مصري سيقدر لها هذا الصنيع .. وسيسجل لها التاريخ عهد الحرية والسلام .

ذلك أننا أكثر مانـكون حاجة للحرية لنفـكر كما ينبغى أن نفـكر . . ولنجاهد كما ينبغى لنا أن نجاهد . . ولنعمل مايجب أن نعمله . تلك هى الـكلمة الاولى التى أردت أن أعلنها هذه الليـلة ، وهذا أول اجتماع سياسي لمصر الفتاة .. حتى يبلغ أسماع الحـكومة

الحاضرة ، فيرسم لها خطتها التى يجب أن تحفظها لتحصل على رضا هــذه الامة عموما ، وجمعية مصر الفتاة بصفة خاصة .

برنامج مصر الفتاة وسياستها

أما كلمتي الثانية فهى فى برنامج مصر الفتاة ومبادئها . . يتساءلون ماهى مصر الفتاة ؟ وماهو برنامجها وما هي سياستها ؟ وماذا تستطيع أن تفعل . ؟ أما ماذا تكون فقــد حدثكم فى هذا طويلا أخى فتحى . وأما ماهي سياستنا فانها تتلخص فى عبارات قليلة :

« اننا نريد أن نحصل على حريتنا كاملة ، وأن نحصل على استقلالنا . نريد أن لانرى عسكرياً انجليزيا واحــدا على الأرض المصرية . ونريد أن نمحق الامتيازات وندك المحاكم المختلطة وأن نساوى الأجانب بالوطنيين . . نريد أن نكون أسياداً لبلادنا متصرفين فى شئونها . وأخيراً أيها السادة نريد أن نبعث كل مجدنا الماضى، وأن نعيــد تأليف الدولة المصرية من مصر والسودان، حليفة للدول العربية وزعيمة للاسلام » هذا هو الذى نريده أيها السادة ، أو بالأحرى هذا مايريده كل مصرى شرب من مياه النيل . بقي أن نتساءل وماهو الطريق الذي يوصلنا الى ذلك . . ؟

طريقنا الى تحقيق برنامجنا

أما طريقنا الى تحقيق برنامجنا فهل هو أن نسخر من الدين وأن نلقيه خلف ظهورنا ونعتبره خرافة من الخرافات لاتتناسب مع المدنية والعصر الحديث. أم هو أن نحطم الاخلاق ونتجاهل الرجولة والشرف والنبل والشجاعة والوفاء . أطريقنا الى الاستقلال والمجد أن يتخنث شبابنا ويندفع الى السينمات الأجنبية ودور اللهو والقمار والزنى . أم طريقنا أن نخطب وأن نثرثر وأن نلهو وأن نقيم الحفلات . وأخيراً أيها السادة هل طريقنا الى الاستقلال والمجد أن نكون متسولين نستجدى كرم الانجليز وعطف الأجانب ونتوسل اليهم أن يردوا الينا حقوقنا . ونبكى حتى ترق قلوبهم لنا . وفى كلمة ، هل طريقنا الى الاستقلال أن نكون ضعفاء متخاذلين ، متشائمين يائسين . نفاوض الانجليز والأجانب ونحن أكثر ما نكون احساسا بعجزنا وتضورنا . هل هذا هو طريقنا الى الاستقلال والمجد أيها السادة . ؟ اللهم لا ، فليس بمجد ولالائق بماضينا المجيد طريق من هذه الطرق .

فليس للاستقلال والحرية الا طريق واحد .. طريق واحد رسمته الطبيعة يوم أن كان شعارها البقاء للأصلح . هذه النظرية التى سجلها القرآن الكريم بقوله « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض » طريقنا أن نسير مع الدين ونعمل بأوامره وهذا هو ما يفرق بيننا وبين غيرنا من الجماعات والهيئات .

تنازع البقاء

فالطبيعة تعلمنا أن البقاء للأصلح ، وأن الحياة للقوى ، والفناء للضعيف . وهذا ما يسمونه « تنازع البقاء .. » الطبيعة تعلمنا أن لا تفاهم بين السيد والمسود ، ولا بين القوى والضعيف ، لا تفاهم الا بالصراع والقتـــال . . فالغالب هو الصالح الذى يبقى والمغلوب هو الضعيف الذى يفنى .. الحياة لاتعرف هوادة ولا لينا ، فاما أن تكونوا أقوياء فتعيشوا ، واما أن تكونوا ضعفاء فتموتوا . . عبثا تفاهم الشعب الضعيف والشعب القوى ، فانه يكون تفاهما كتفاهم الذئب والحمل ، والذى ينتهى دائما بأن يأكل الذئب الحمل . وهذه هى الحياة ان أردتم حريتكم ، أو فكرتم فيها ، ان أردتم مجدكم القديم وسلطانكم ، فليس أمامكم الا طريق واحد أن تكونوا أقوياء . وأن تكونوا أقوياء أولا وأخيراً ، وليست هذه كلمتى أو هـــذا رأيى ولكنه كلام الله أيها السادة الذى يقول لكم « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » أعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، أى كونوا أقوياء ، والا حطمكم الأقوياء ، هذا ما يقوله الله لكم .

أمثلة التاريخ

فان أردتم أن تطالعوا صفحات التاريخ فطالعوها ، وأرونى شعباً واحداً استطاع أن يحصل على حريته واستقلاله بغير القوة . بل أرونى أية فكرة وأي دين انتصر الا عن طريق القوة ، والقوة المادية . فالأسلام لم ينتصر الا عند ما شرع الرمح وجرد السيف ، ودافع عن نفسه بالقوة المادية ، فكان ذلك خير ممهد لانتشار مبادئه السامية العظيمة . وقبل ذلك لم تنتشر المسيحية الا عند ما فرضها قيصر الرومان على رعيته ، وأعلنها ديناً رسمياً للدولة ، يضطهد من يخالفها ، ويعترض طريقها . أما العصور الحديثة فقد بدأت بالثورة الفرنسية التي ليست الا مظهراً من مظاهر القوة ، فانتصرت الحرية والأخاء والمساواة . وكانت المانيا تحلم بالوحدة ، وظل هذا الحلم أمنية بعيدة التحقيق ، حتي كان بسمارك فأعلن لمواطنيه أن الوحدة الألمانية لن تتحقق الا بالحديد والنار .. وقد كان وتحققت الوحدة الألمانية ، وسط قعقعة السيوف ، ودخان المدافع . وايطاليا حققت استقلالها ووحدتها بالحديد والنار ، واليونان ودول البلقان وأوربا الوسطى وتركيا الحديثة لم تحافظ على استقلالها الا بالقوة .

بولندا

وكانت آخر دولة سلكت هذا الطريق بولندا ، التى يحلو لى دائما أن أقص قصتها .. بولندا التى تقاضتها دول ثلاث هى أعظم دول أوروبا ، وهى الروسيا والنمسا وبروسيا ،

وكان ذلك منذ أكثر من مائة سنة ، وجاهدت كل دولة من هذه الدول فى افناء ما وقع تحت يدها من الغنيمة .. فلم يكن هناك صنف من صنوف الأعنات لم يقع على البولنديين .. لم يكن هناك لون من ألوان الاضطهاد لم يجربه البولنديون ..

ومع ذلك كانت تقوم ثورات دامية في بولندة الروسية تقمعها بأقظع ما تتخيلون ، كانت تنصب المدافع فى الشوارع ، كما فعلت فرنسا بعد ذلك بمائة سنة فى عصر الحرية والنور فى دمشق ، كانت روسيا تخرب الشوارع وتهدم الدور وتزج بالألوف فى السجون وترفع ألوفا فوق أعواد المشانق ، وتنفي الى سيبريا عشرات الألوف . فكانت الثورة تهدأ حينا . ثم لا تلبث أن تشتعل أكثر ما تكون قوة وعنفوانا .. فتعود ألوان القمع من جديد وتنفى الألوف الى سيبريا من جديد .. وهكذا مرت مائة سنة كاملة لم تكن تنتهي ثورة حتى تبدأ ثورة جديدة . . أو تجف دماء حتي تسيل دماء جديدة . . وكانت روسيا تحاول أن تمحو اللغة البولندية فتصبغ المدارس بالصبغة الروسية ، فكان البولنديون يغزلونها ، وكانت كل أم وكل أب يلقن ابنه لغة بولندا !.. أما في بولندا البروسية فقد كانت الحرب مع الوطنية البولاندية لا تقل شدة عنها فى روسيا .. ومع ذلك فقد قاومها البولنديون أيضا . . وكذلك كان الحال فى النمسا . . وكانت الجمعيات تعقد لتؤلف بين الأجزاء الثلاثة ، كانت الجمعيات العلمية تعمل سرا ، لتحقيق الاستقلال والوحدة .. كانت المدارس اذا ما نالت قبسا من الحرية لقنت الأطفال أناشيد الحرية والاستقلال . . كان البولنديون يهاجرون من وجه التعسف الى أمريكا ليدافعوا عن قضيتهم ، انشأوا البنوك والمصانع والشركات التجارية حتى انتصروا فى نهاية الحرب العظمى ، وظفروا باستقلالهم العتيد . . وكانت مادتهم الأولى فى الدستور شكراً لله وتحية للشهداء من أسلافهم ، أسلافهم الذين جاهدوا في سبيل الحرية .. ولست أستطيع أن أترك قصة بولندا قبل أن أذكر عبارة خالدة قالها نابليون عن هذه الأمة الحية . . فقد سألوه أين ترسم حدود بولندا ؟ فأجابهم سترسم حدود بولندا حيث يسيل الدم البولوني ..

مصر وكيف حصلت على استقلالها . . . ؟

ولماذا نذهب بعيداً أيها السادة لنتحدث عن بولندا وايطاليا وألمانيا . . لماذا نذهب بعيداً ، وها نحن فى مصر ، عندما أردنا الحصول على الاستقلال ، لم يكن أمامنا طريق الا القوة ، فحصلنا عليه بالقوة فعلا .. فمنذ مائة سنة عندما أرادت مصر بزعامة محمد على ان تستقل لم ترمناصا من حرب تركيا . . فسارت الجيوش المصرية غازية منتصرة ، حتى هزت تركيا هزا ، وعقدت مصر معاهدة كوتاهية التى أعلنت استقلال مصر ، وضم سوريا وفلسطين وشبه جزيرة العرب اليها . . وكانت تمتد فى الجنوب حتى أقصى السودان . .

وهكذا حصلت مصر على استقلالها في ظلال جيوشها الظافرة ، هذه الجيوش التى أخافت

أوربا بأسرها ، والتي جعلت روسيا تبسط حمايتها على تركيا لكي تنقذ نفسها من الخطر المصري ، فاضطرت الدول أن تتداخل لتحول بين روسيا وبين أطماعها بحجة حمايتها . وذلك لا يكون الا بأن تكره مصر على التراجع وسحب جيوشها ، فتحالفت انجلترا وبروسيا والنمسا والروسيا أيضا للقضاء على الجيوش المصرية والأسطول المصري ، وتم لها الذي أرادت . ولولا ذلك لكانت مصر اليوم هي العلم الخفاق في العالم ، لكانت مصر هي زعيمة الاسلام والشرق ، لكانت مصر بحيث تبدو بجوارها انجلترا واليابان قزما حقيرا . حصلنا على استقلالنا بالقوة ، قوة الحديد والنار ، وحطم استقلالنا الحديد والنار ، مع أن الحق كان في جانبنا . فاذا أردنا أن ننتصر من جديد فلا مناص من التذرع بالحديد والنار .

واذا كنا اليوم ننادي بالدستور ، ونستظل بظل الدستور ، اذا كان في مصر نسيم من الحرية ، فذلك يرجع الي قومة مصر ضد انجلترا سنة ١٩١٩ ، هذه القومة التي لم تكن الا صرخة من صرخات الشعوب القوية التي تزلزل أقدام الظلم والاستعمار . . القوة هي كل شيء ، هي قانون الحياة ، في كل عصر ، وفي كل زمان . أمامكم ألمانيا ، كانت منذ سنتين تسير في مؤخرة الدول الاوربية ، كانت تحتلها الجيوش الفرنسية ، وتنهكها معاهدة فرساي ، كانت تئن من ملايين العاطلين ، كانت تتوسل الى اوربا أن تسمح لها بتنظيم شئونها ، أن تسمح لها بزيادة جيشها ، كانت تتوسل الى أوربا أن تعدل معاهدات الصلح ، فلم تلق الا آذانا صماء ، لم تلق الا الاستهزاء والوعيد . كانت المانيا تسير خلف زعمائها الذين كانوا يفهمونها أنها ضعيفة ، وأنها غير قادرة على شيء . . أما اليوم فقد تبدل الحال غير الحال ، فأصبحت المانيا هي التي تتوعد وهي التي تخيف . المانيا ، هي التي ركلت عصبة الأمم بقدمها ، ومزقت معاهدة فرساي . المانيا هي التي تتدجج اليوم تحت سمع العالم وبصره دون أن يجرأ مجترىء على الاعتراض . وما ذلك الا لأن ألمانيا قد اقتنعت أن لا طريق لها الا القوة ، ولن تحل مشاكلها الا بالقوة ، والتلويح بالقوة ، فظفرت على طول الخط . وهي اليوم تخطو خطوات عظيمة لأعادة مركزها القديم .

حاجتنا الى القوة المعنوية

فبرنامجنا أيها السادة هو أن نحصل على حريتنا واستقلالنا ، وأن ندعم دولتنا الخالدة بالقوة ، والقوة المادية . فهل نحن في حالة تسمح لنا باستعمال هذه القوة واجادة الاستعمال ؟ الجواب بالنفي . ولماذا ؟ لأنه لاستعمال القوة المادية ، لا بد من قوى معنوية ، فقبل أن يضرب الانسان يجب أن يريد الضرب ، وان يشعر من نفسه بالقدرة على الضرب . والا فانه لن يضرب ولن يقوى على الضرب .

فنحن في مصر عاجزون عن الحصول على حقنا بالقوة المادية ، لأن قوانا المعنوية

عظمة . أو بالأحرى لأنه لاقوة معنوية لنا اطلاقا . فنحن لا نكاد نثق بأنفسنا ، نحن لانكاد تتخيل فى أنفسنا القدرة على عمل شىء ، نحن لا نؤمن الا بشيء واحد، وهو أننا ضعفاء عاجزون . وأننا لا نفلح فى أي شىء .

أي مصرى لايقول لك ان هذا بلد قد ضربت عليه الذلة طوال أربعة آلاف سنة ، أى مصرى لايسب المصريين ولا ينعتهم بأحط النعوت ، أى مصرى لايقول لك اننا بغير الانجليز لا يساوى بصلة ، أى مصر لا يشعر فى أعماق نفسه بأنه مخلوق أصغر شأنا من الأجنبي على العموم ، والأنجليزى على الخصوص .

فنحن لا نثق بأنفسنا أيها السادة ، نحن لا نؤمن بأنفسنا وهذا هو سر ضعفنا . ذلك أن الفارق بين الضعف والقوة، ليس الا كالفارق بين الأحساس بالضعف والأحساس بالقوة . فيجب أن نشعر بقوتنا ، يجب أن نمتلىء ثقة بأنفسنا ، لأنها جديرة بهذه الثقة فعلا . فلايوجد فى العالم شعب واحد صارع الويلات والمحن كما صارعناها ، لا يوجد فى العالم بلد من البلاد عاش طوال أربعة آلاف سنة حياً نابضاً فتيا الا مصر . لقد تغيرت خريطة العالم وتبدلت ، فقد قامت دول ودالت دول، لقد بعثت امبراطوريات، وحطمت امبراطوريات أخرى ، لقد تحول وجه العالم من الشرق الي الغرب ومن الغرب، الى الشرق . ولكن بلداً واحداً وشعباً واحداً هو الذى ظل طوال الأربعة آلاف سنة هو هو . لم يتغير ولم يتبدل لأنه الكوكب المشرق المضيء أرجاء العالمين ، ولأنه المعلم للانسانية وزعيمها وقائدها ، ذلك الشعب هو الشعب المصرى ، وذلك البلد مصر ، ففي عروقنا وفى أعماق نفوسنا تستقر رواسب أربعة آلاف سنة من المجد والعظمة .

في أرواحنا طموح وقوة واقتدار ، فيجب أن نمتلىء ثقة بأنفسنا كى تقوي معنويتنا ، وهذا هو الثانى من جهاد مصر الفتاة أما جهادنا الأول فهو :

جهادنا الاول

أن نتق الله ونؤمن به . . فالأيمان بالله شرط أساسى لخلق المعنوية والحياة ، الأيمان بالله هو سر الحياة وقوتها ، الايمان بالله هو الذى يجعل الجبان شجاعا، والضعيف قويا .. الايمان بالله هو الذى يجعلنا نأتي بالمستحيل . . ذلك أن أجدادنا الذين سبقونا فى هذا الأيمان دكوا الامبراطوريات ، وحطموا الجيوش ، وأذابوا الحديد ، لأنهم كانوا يؤمنون بالله . . وكانوا يعرفون أن الله أكبر . وفوق كل كبير . وكانوا يعرفون أن غاية الحياة ارضاء الله والاستشهاد فى سبيله . . فحكموا الدنيا وسادوا العالم . . . نحن أيضا يجب أن نؤمن بالله وبرسالته السماوية . يجب أن نعبد الله كل صباح ومساء ، لأن الذى لاخير فيه لربه لايمكن أن يكون فيه خير لوطنه أو لنفسه . .

فاذا آمنا بالله وامتلأنا ثقة بأنفسنا ، فقد بقي علينا أن نطهر أرواحنا من الأرجاس ،

فلا نقامر ولا نزني ولا نسكر ولا نكذب .. بقي علينا أن نتحلى بالأخلاق، وأن نعرف الرجولة والشهامة والشجاعة والصدق والوفاء . فاذا ماحصلنا على ذلك كله ، فقد كملت معنويتنا وأصبحنا ولنا ارادة تفعل كل شيء . . اذا ما آمنا بالله ، ووثقنا بانفسنا ، وتحلينا بالاخلاق ، فقد قطعنا أكبر شوط للحصول على الاستقلال والحرية والمجد . . ولا يبقي علينا بعد ذلك الا أن نخطو خطوتنا الأخيرة ، لكى نحقق كل الذى نريده فى يوم وليلة . .

لا تشتر الا من مصرى

وهناك جهاد ثالث يتفرع من الجهاد السابق ويسير واياه جنبا لجنب . وهو جهاد مادى معنوي ، للحصول على القوة المادية أيضا . . وذلك هو السعي لأغناء مصر وتكديس الثروة بها عن طريق الاستقلال الاقتصادى . فمصر التى بلغت معنويتها الى الأوج ، يجب أن يكون فى حوزتها مال كثير تستعين به على تحقيق استقلالها وحريتها فى الخطوة الأخيرة . يجب أن يكون لديها مال لتعيد لها بناء كيانها ، لتستطيع فى زمن قصير أن تقفز الى الأمام وتحتل مركزها الطبيعي زعيمة للاسلام وسيدة للشرق . . ولا سبيل لنا الى توفير هذا المال الا عن طريق واحد ، وذلك باتباع مبدأ مصر الفتاة الثاني الا وهو « لاتشتر الا من مصري ولاتلبس الا ماصنع فى مصر ولا تأكل الا طعاما مصريا » .

وهذا المبدأ يحقق لنا استقلالنا الاقتصادى ، هذا المبدأ يلغي الامتيازات لأنها تصبح ولا قيمة لها ، هذا المبدأ يوفر لنا فى عشر سنوات كل المال الذى نريده لانشاء دولتنا العظيمة . .

لاتشتر الا من مصري . . أتعرفون مامعنى هذا . . معناه أن الوفا من المصريين الذين يعانون الفقر الآن يحصلون على الثروة . وأن الوفا من العاطلين يجدون مرتزقا ، وأن الوفا من الأجانب يرحلون عن هذه البلاد . فلا تلبس الا ماصنع فى مصر ، ولا تأكل الا طعاما مصريا . . أتعرفون مامعني هذا معناه اننا نقتصد من الاربعين مليونا التى تتسرب الى الخارج فى كل عام نصفها ، ليبقى داخل بلادنا . ففي عشر سنوات تكتنز مصر مائتى مليون من الجنيهات . . وهذا المبلغ يجدد بناء مصر ويملؤها مصانع ، ويجعلها سيدة فى الجو ، وفى البحر ، وفى كل مكان . ومائتا مليون تنظم مصر تنظيما جديدا ، وتعيدها الي مجدها القديم . . ولست أسوق القول جزافا ، فهاهى ذى احصائية تنبئكم بمقدار ثروة مصر التى تحتفظ بها لو أنها نفذت هذا المبدأ ، فمنذ سنة ١٩٢١ حتى سنة ٩٣٢ قد استوردت مصر من الخارج بضائع أجنبية بمبلغ ٥٦٨ مليون جنيه ،

وهو مبلغ مخيف ، لاسيما اذا عرفتم أن الصادرات كانت أقل من هذا المبلغ بخمسة عشر مليونا ، أى ٥٣٣ مليونا . أتعرفون لماذا كان الميزان التجارى هكذا فى صالح أوربا . أتعرفون لماذا نبتاع بهذه الملايين ، ذلك لأننا شعب لايكاد يعرف كيف يعيش . شعب لايعرف لنفسه حقها ، ذلك لأننا كنا نستورد من الخارج ، وما زلنا ، جبنـــا وزبدا وسمنا !. أتسمعون أيها السادة ؟ مصر البلد الزراعى ، الذي لايعيش الا على الزراعة ، يستورد من الخارج جبنا وسمنا ، فهل هناك مهانة بعد هـــذه المهانة ، وانحطاط كهذا الانحطاط . نحن الذين كان يجب ان نورد للعالم بأسره نستورد من الخارج . أفتعرفون لماذا ؟. لأن السيد المصرى لايحلو له الا أن يتمشدق بالجبنه الروى والفلمنك والشستر .

بل ان مصر تستورد قمحا ، مصر التى كانت تمد العـالم فى يوم من الأيام بالقمح ، والتى كانت الشعوب تجيء اليها لتشترى القمح ، انعكست الآية وأصبحت مصر تستورد قمحا . لابل ان الهوس قد وصل الي ماهو أفظع من ذلك . وصل بنا الهوس أيها السادة الى درجة أن نستورد من الخارج صلصة ، نحن الذين توجـــد الطماطم فى بلادنا عشرات الأرطال بمليمات معـــدودات . وما ذلك كله الا لتهاوننا في حياتنا . فى كرامتنا ، وفى ثروتنا أيضا ، بل ما ذلك الا لعبوديتنا لأوربا وكل ماهو أجنبي . أبطلوا ذلك كله ، لاتأكلوا الا طعاما مصريا ، ولا تلبسوا الا لباسا مصريا ، فتحصلوا على استقلالكم وكرامتكم . أتسمعون؟ ان الأجانب أسياد لهذا البلد لأنهم يملكون رءوس الأموال ، الأجانب أصحاب الامتيازات والمحاكم المختلطة لأن المال فى يدهم ، فجردوهم من هـــذا المال وهذه القوة ، بأن يكون لباسكم مصريا ، ومطعمكم مصريا ، ولاتشتروا الا من مصرى فبهذا تحتفظون بثروتكم التي سنحتاجها غداً ، عندما نذهب الى ميدان القتال لندافع عن حريتنا واستقلالنا .

هذا هو ما ندعوكم اليه أيها الســادة ، أن تؤمنوا بالله ، وأن تثقوا بأنفسـكم ، وأن تطهروها من الأرجاس ، وأن لاتشتروا الا من مصرى ، ولاتلبسوا الا ماصنع فى مصر .

وهذ هو ما ندعوكم الى القيـام بعمله كمصريين هذا هو الطريق الذى نرسمه لـكم تسيروا فى الطريق اذن على بركة الله مع مصر الفتاة أو ضدها . . هذا لايهمنا ولـكن الذى يهمنا أن تسيروا في الطريق . فان كان فى صفوفكم من يريد أن يقدم نفسه لينضم تحت لواء هذه الجماعة التى أخذت على عاتقها تنفيذ هذا البرنامج ، فنحن نرحب به كائناً من كان ، لـكننا ننذره منذ الآن أن طريقنا ليس مليئا بالورد والريحان ، بل ان مافيه من شوك وعوسج ليطغى على كل شيء . ان آلاما كثيرة تنتظرنا ، ان صـنوفا من العذاب هى نصيبنا ، فلن يرضى الأنجليز عن وجودنا ، وأذن فستضطهدنا الحـكومات ارضاء للانجليز والأجانب من ناحية ، وسيحاربنا الجهلاء بجهلهم نوايانا من ناحية أخرى .

فطريقنا كله جهاد وكفاح !. ذلك أننا لن نصل فى يوم واحد الى ما نريد ، ولن نصل فى هدوء ، ولـكنا وطدنا أنفسنا على تحمل كل شيء . وطدنا أنفســنا على أن نـكافح حتي نموت ، فاذا انتصرنا فهذا الذى نريد ، واذا متنا قلنا لمن يجيئون بعدنا كونوا أسـعد حظا منا . .

نحن والوفد

ولست أريد أن أغادر هذا المنبر قبل أن أحدد علاقة جماعتنا بالوفد ذلك أن البعض منـكم يريد أن يسأل هذا السؤال ، أو أن يعرض به . . فأقول لـكم اننا لا نعادى مصريا واحداً ، بل نحن نحب الجميع ، لأننا أول من يدعو الي الاتحاد والتـكاتف . ونحن علي استعداد أن نعمل تحت راية الوفد فى حدود هذه المبادىء ، وبهذه الوسائل. وهـكذا ترون أيها الســادة أن كل ما يدعو من أننا نخالف الوفد ، أوأننا أعداء له ، فنحن منه براء . وأننا مستعدون للسـير تحت لوائه ، وكل ما يهمنا هو تنفيذ هذه المبادىء واتباع هذا الطريق . . فنحن نريد وطنية عاملة تعتمد على التضـحية أولا وأخيرا . . نحن لا نؤمن بأن الاستقلال يمكن أن يستجدى ·· ذلك أن الاستقلال كما قال المرحوم الملك فيصل يؤخذ ولا يعطى ·· ومادام الأمر كذلك ، فنحن نعمل للحصول على القوة اللازمة لأدراك الاسـتقلال ، وهذا هو برنامجنا . فسننظم الشـباب الذى ينضم الينا ، ونملؤه رجولة وخشونة ووطنية ، ونؤلف منه جيوشـاً منتظمة ليس لها الا هتاف واحد ·· وهو ، الله أكبر والمجد لمصر .

كونوا اذن خارج حظيرة مصر الفتاة ان أردتم ، وأعملوا بمبادئها ·· أو ادخلوا الي حظيرتها أن كنتم على استعداد للتضحية والجهاد ، هذا آخرما أقوله لـكم ·· فاذا كنت قد ظفرت في نهاية هذا الاجتماع بأن أقنعت واحداً منـكم أن يجاهد من أجل مصر ، وأن يفنى فى سـبيلها ، فانى أعد نفسى قد قمت برسالتى ، وأستطيع أن آوي الي فراشي في هذه الليلة ، وأنا مطمئن الى أننى قد أديت واجبي نحو مصر ·· وذلك هو مبدؤنا السادس .

عام ١٩٣٥

— ١١ —

استهل عام ١٩٣٥ ، هذا العام الذى سيبقى خالداً فى تاريخ مصر ، إذ بعثت فيه مصر بعثاً ، وسرت مبادىء مصر الفتاة وسادت وسيطرت واندلع لهيب الثورة التي أشعل نيرانها الشباب . لم يكد العام يبدأ حتي بدأت حكومة نسم باشا تتنكر لمصر الفتاة وبدأت تضيق الخناق عليها ، وتحول بين ذوى الأقمصة الخضراء وبين حرية الانتقال أو الاجتماع أو إقامة المعسكرات في الخلوات . ولقد أوشك الاصطدام أن يقع بيننا وبين رجال البوليس بالقرب من سفح الأهرام ، بمناسبة احتفالنا بعيد الفطر ، إذ تعرضوا لنا ليحولوا بيننا وبين الصعود إلى الأهرام . وقد آثرنا أن ننسحب يومها لعدم جدوى الاصطدام والمقاومة ؛ وعدنا أدراجنا إلى القاهرة سيراً على الأقدام في موكب أخضر ، كان يهز قلوب المصريين هزاً ، ويثير فيهم أقوى المشاعر وأجملها ، وكان يشترك فى هذا الموكب على صغره وفود من جميع أنحاء القطر ، فكان ذلك آية لما وصلت إليه مصر الفتاة من نجاح وتطور .

فى الأراضى المقدسة

عن لى أن أستمد من الأراضى المقدسة مدداً روحياً أستعين به على مواصلة الكفاح ، ولم يكن لدي المال اللازم لأداء فريضة الحج ، ومع ذلك فقد قررت أن أحج وأن أهرع إلى الله عند بيته المحرم ، أطلب منه أن يهدينى وينير لى الطريق ، وأن يأخذ بناصرى ويشد أزري . ولقد قمت بالرحلة ، ولست أحسب أننى صادفت فى حياتى كلها فى أى رحلة من الرحلات ، التي قمت بها من قبل أو من بعد ، مثل هذا النجاح الذى صادفته

فى سفرتى هذه . فقد كشفت لى عن مقدار الدوى الذي أحدثته مبادىء مصر الفتاة في جميع أنحاء العالم العربي والإسلامى . وكان يذهلنى أن أجد الحجاج من سائر بقاع الأرض يعرفون الكثير عن مصر الفتاة ، وكفاح مصر الفتاة ، عن طريق « الصرخة » مشعلها الوضاء . وفى كل مكان حللت به وعرفت شخصيتى أحطت بالكرامة والحفاوة . حتى اذا جاءت المناسبة التى أتيح لى أن ألقى فيها جلالة الملك ابن السعود للمرة الأولى ، ألقيت بين يديه كلمة أستعدت فيها ذكريات الأسلام الأولى وأمجاده ، وقارنت بين ماضى الأسلام وحاضره ، فذرفت عينا الرجل العظيم دموعا غالية ، فكانت هذه الدموع بمثابة رباط ربطنى بجلالة الملك ابن السعود إلى الأبد . وقد أظلنى الرجل برعايته ودعانى إلى زيارة المدينة المنورة فى ضيافته ، ومنحنى قبل مغادرتى الأراضى المقدسة ما اعتاد أن ينفح به الوافدين عليه من هداياه وقد زاد عليها مبلغا من المال كاشتراك فى جريدة « مصر الفتاة » . وهكذا سافرت إلى الحجاز ، وليس فى جعبتي إلا القليل من المال الذي يدهش سامعيه ، أن يجرأ إنسان على السفر إلى هناك بمثله ، وعدت من هناك متخما بالمال ، منتعش الروح ، متوهج الأيمان وقد اطمأنت نفسى إلى أنى أسير فى طريق الحق والصواب .

ولقد عدت بعد ذلك إلى البلاد المقدسة أكثر من مرة ، وفي كل مرة كنت ألقى من ضروب النجاح والتوفيق مايجل عن الوصف . وازدادت صلتى بجلالة الملك ابن السعود توثقا ، وألقيت بين يديه ، وفى حضرة الوفود من أنحاء الدنيا خطبا سياسية مدوية ، كان لها دائما أثرها العميق في نفوس سامعيها وخاصة جلالة الملك . ومع ذلك فستبقى حجتى الأولى هى الباقية على مر الزمن فى نفسى لأنها كانت بمثابة فتح مبين . وكانت البذرة الأولى والنواة لكل ما جاء بعدها من نجاح . وان أنس فلن أنسى فى زيارتى الأولى كيف راح إمام الحرم المكى يتحدث أمامى عن هذه الحركة الجديدة التى نشأت في مصر ، وهذه المجلة الرائعة التى تعبر عن هذه الحركة ، فلما

سألته عن اسم هذه الحركة والمجلة أجابني: بأنها مصر الفتاة ومجلة الصرخة، ولم يكن الرجل يعرف أنه يحدث صاحب الصرخة ورئيس مصر الفتاة. وان أنس فلن أنسى وقوفنا على جبل عرفات ندعو الله ونبتهل إليه ؛ يقودنا هذا الشيخ الجليل، فاذا به يطلب من الله أن ينصر أحمد حسين وأن يعز مصر الفتاة، وطفرت الدموع من عيني ولم أستطع مغالبة نفسي؛ فقد كان ذلك آية ما غمرني به الله سبحانه وتعالى من كرامة ورعاية.

اصدار جريدة وادى النيل بالاسكندرية

لم يكن عجيباً أن أعود من رحلتي إلى البلاد المقدسة بعزم من حديد، وثقة مضاعفة، في وجوب المضى في الكفاح بقوة واقتدار، بعد أن أكرمني الله كل هذه الكرامة. وقد كانت مدينة الأسكندرية تروعنى دائما بحماستها وروحها الوطنية العظيمة. وكان شباب مصر الفتاة بها يفيض بالقوة والفتوة، حتى لقد فكرت فى أن أتخذها دار هجرة لمصر الفتاة بحيث تصبح القاعدة الأساسية لحركة مصر الفتاة. ولقد عرض على صاحب جريدة وادى النيل المرحوم محمد الكلزة أن أتولى اصدار الجريدة، نظرا لشيخوخته التى أصبحت لا تمكنه من الاستمرار في العمل. وكنت فى أشد اللهفة لأصدار جريدة يومية: فقبلت العرض الذى عرضه على وسافرت إلى الأسكندرية لأقيم بها نهائيا وأشرف على اصدار وادي النيل. ولن تذكر جريدة وادي النيل إلا ويذكر معها ذلك المجهود المضنى الذي قمت به لأخراجها، لقد مرت على قبل هذه الفترة وبعدها فترات بذلت فيها من الجهد الشاق الشيء الكثير جدا، ومع ذلك فستبقى هذه الفترة من حياتى إبان اصدار جريدة وادي النيل فريدة فذة، ولست أستطيع أن أذكرها الآن دون أن تسرى في جسدى قشعريرة من الخوف. وكانت المشكلة الكبرى، بطبيعة الحال، هى عدم وجود المال اللازم للانفاق على الجريدة وايجاد العمال والموظفين اللازمين لأدارتها في يسر وسهولة. فقد

واصلت العمل شهرا ونصف شهر ليلا ونهارا ، كاتبا فى الجريدة ومصححا وجامعا للحروف (وموضبا) وخادما وفراشا وموزعا وفى النهاية محاسبا للعمال والمتعهد وباعة الجرائد .. فأنا الرجل الذى عليه أن يكتب في كل يوم عدة مقالات مستفيضة أن يشرف على الادارة والتحرير اللازم لجريدة يومية كبيرة . كم من الليالى مرت على لم أخلع فيها حذائى ولم يغمض لى جفن ، ولم أتذوق طعاما ، كم من الليالى كاد يجن جنونى ، لأن العمل يوشك أن يتعطل ، لأننا لا نجد النقود اللازمة لشراء الغاز الذي يدير الماكنات ، وكم من المرات أضرب العمال وتوقفوا عن العمل لأنهم لم يقبضوا أجورهم . وكنت أثور عليهم وأندد بهم إذ يرونني بينهم آكل مما يأكلون ، وأعيش كما يعيشون ، ويلمسون بأيديهم كيف كانت الجريدة تخسر فى كل يوم عشرة أضعاف ما تباع به ، وكانوا يتولون بأيديهم في كل يوم استلام أعداد الجريدة المطبوعة مرتجعة من لدن متعهد التوزيع لا تكاد تنقص إلا بضع مئات من النسخ وهو أمر كان يعد فى ذاته نجاحا كبيرا ولكنه لم يكن يسد شيئا من مصاريف الجريدة ، ومع ذلك فقد كان العمال يضربون لأنهم في حاجة إلى قروشهم القليلة ، ومهما كان حبهم لى ومهما كان عطفهم على كبيرا ، ومهما كان تقديرهم لجهادي ، فقد كانوا أرباب أسر ولهم أولاد ينتظرون عودتهم من العمل يحملون الخبز الذى يقيهم شر الجوع !.. ومنذ هذه التجربة وأنا أعتبر حق العامل فى أجره حقا مقدسا ولا ينبغى لنا أن نطالب العامل لأى سبب من الأسباب أن ينزل عن بعض أجره لأنه لا يملك غير هذا الأجر ، ولأن كل مطالبه فى الدنيا ترتكز على هذه القروش القليلة ، ولقد عانيت كثيراً من جهلى بهذه الحقيقة في ذلك الوقت . وكنت أستعين على هذه المصاعب بالصوم والصلاة فكان ذلك يزيد فى إنهاك جسدى ، بل ويؤثر على حالتى المعنوية ومن هنا أدركت كيف أمر الرسول المسلمين أمراً أن يفطروا أثناء السفر فى الجهاد والكفاح لأن الجوع من شأنه أن يقلل من قوة الجسد على احتمال المشاق التى يتطلبها العمل والجهاد .

منع اجتماع

وفي وسط ذلك كله كانت عاصفة الاضطهاد الحكومي قد بدأت تلفحنا، وبدأت إدارة الأمن تضغط علينا وتصادر حرياتنا وتحول بيننا وبين الاجتماع . فلما أردت أن أعقد أول اجتماع في الاسكندرية في ٢٣ مايو احتفالا باصدار جريدة وادي النيـــل ، لم تصرح الحكومة بعقده فنشرت خطابي على صفحات وادى النيل ، أو بالأحرى خطبت من فوق منبر وادي النيل . ولست أجد ما يصور لك الروح التي كانت تغمرني في ذلك الوقت ، وما يشرح لك سياسة مصر، ويصور لك الحوادث السابقة على انفجار ثورة الشباب في سـنة ١٩٣٥ سوى هذا الخطاب ، الذى كان أول قذيفة أطلقت في وجه نسيم باشـــا ، وفضحت سياسته وادعاءاته المتكررة من أنه سيعيد الدستور ويحقق الاستقلال .

وهكذا سـبقنا الأمة كعادتنا ببعضة شهور ، فنحن الآن في مايو حيث لا يزال نسيم باشـا يتمتع بتأييد الوفد والأغلبية ، ولم ينفجر سخط الأمة على نسيم باشا إلا بعد ذلك التاريخ بأربعة أشهر عندما أكره الوفد إكراها على سحب ثقته من نسيم باشا .

وذلك هو دأب مصر الفتاة دائماً وستبقى إلى ماشاء الله مرهفة الحس ، تسبق المصريين جميعاً في التنبؤ بالحوادث ، وفي الآراء والأفكار ، واعلان الجهاد ضد مختلف صنوف المظالم والمفاسد . وسـيرى المطالع لهذا الخطاب توقعاً للحرب العالمية الثانية قبل وقوعها بأربع سنوات ، ويري فيه دعوة مبكرة لمصر والمصريين للتهيؤ والاستعداد للاسـتفادة من هذه الحرب وهذا ما لم يستطع المصريون من سوء الحظ أن يحققوه .

خطاب

الاضطهاد والايمان — كفاح الرسل — كفاح المصلحين — كفاح الامم المستعبدة — ايرلندة — بولندة — فرنسا — كفاح مصر الفتاة — هل نسي نسيم باشا مكافحته للثورة ؟ — نسيم باشا والدستور — نسيم باشا والاستقلال — نسيم باشا والحكمة المختلطة — الوفد وتأييده للوزارة — الانجليز لا تريد الدستور — نداء للوفد — وادي النيل — خطتنا وبرنامجنا الحرب القادمة — كلمة أخيرة .

أيها السادة . .

محال أن يقهر الحق أو يغلب ، محال أن تطفأ الشمس أو تحجب ، كذلك الأيمان نار مشتعلة يزيدها الاضطهاد اضطراما ، وتزيدها المقاومة شدة ، سنة من سنن الله (ولن تجد لسنة الله تبديلا) . قلبوا صفحات التاريخ وحدثوني ماذا أجدى الظلم وماذا أجدى الاضطهاد في مقاومة مبدأ من المبادىء الخالدة ، مبادىء الحرية والنور والعلم . أي مصلح قاومه معاصروه ولم ينتصر في نهاية الأمر . أي رسول لم ينكل به قومه وحاربوه فماذا أجدت عليهم الحرب . وماذا كانت النتيجة ، نتيجة هذا التنكيل . ماذا كانت نتيجة فرعون عندما اندفع خلف موسي بجيشه وسحرته ليطفيء نور الله الواحد القهار ، لقد هزم وابتلعه اليم ، وشهد أن لا اله الا الله . ماذا أفاد اليهود من مطاردتهم للمسيح حتى هموا بصلبه ، لولا أن رفعه الله من بين ظهرانيهم وبدله لهم بشخص آخر ، وماذا أفاد الرومان عندما كانوا يقذفون بالمسيحيين الى السباع الجائعة ، والحيوانات المفترسة تفتك بأجسادهم ، هل اوقفوا سير المسيحية أو أعاقوا نموها وانتشارها ، لمن كان النصر في معركة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مع قريش ، ألمحمد اليتيم الفقير الوحيد أم لقريش ذات العدد والعدة وذات العصبيات والحمية ، هل أخاف ابوجهل محمداً صلى الله عليه وسلم ، وهل أفزعه اضطهاد أبي لهب .. عندما نثرت عليه القاذورات ، وعندما تآمرت قريش على قتله وتعاهدت فيما بينها على الفتك به ، واجتمعوا أمام داره لاغتياله ، لمن كان النصر في نهاية الأمر ، وماذا كان أثر هذا الظلم وهذا الاضطهاد .. لاشيء .. لاشيء .. استغفر الله بل كان له أثر وأي أثر ، كان له أثر هو أعظم الأثر ، كان أن زاد المؤمنين ايمانا ، وزاد المسلمين تثبتاً بدينهم واستماتة في الدفاع عنه ، حتى انتصر الحق وزهق الباطل « ان الباطل كان زهوقا » .

كفاح أصحاب المبادىء والعقيدة

وهؤلاء الذين فى مرتبة أدنى من مراتب الرسل ، هؤلاء القادة والزعماء . أصحاب المبادىء والعقائد ، أو لم يحاربوا ، أو لم يضطهدوا ؟ فلمن كان النصر فى النهاية ، لقد كان دائما فى جانب الحق والمبدأ والعقيدة ، هذه الدول التى كانت مستعبدة لدول أشد منها قوة وذخيرة ، عندما قامت تطالب باستقلالها وحريتها ، أو لم تحصل على هذا الاستقلال وتلك الحرية فى نهاية الأمر ، رغم الألوف الذين أزهقت أرواحهم ، ورغم الملايين الذين زج بهم فى السجن ، لقد استقلت ، لقد تحررت دائما هذه الدول التى تطلب الاستقلال بيقين وعزم .

ايرلنده وبولنده

ماذا كان فى ايرلندة ، ماذا كان فى بولندة ، أى لون من ألوان الشدة لم تصطنعه انجلترا ضد ايرلندة ، أو لم تضع لها المدافع فى الشوارع ؟ أو لم تكتسح عاصمة ايرلندة مرة ومرتين وأسالت الدماء مدراراً فى شوارع دبلن فماذا كانت النتيجة ؟ كانت النتيجة استقلال ايرلنده !.

وبولندة . بولندة التي حاربتها ثلاث دول عظام ، بولندة التى مزقتها روسيا والنمسا وبروسيا ، التى تحالفت عليها الاعداء والمصائب والنوائب عندما طالبت بحريتها ، عندما كافحت طوال مائة سنة بأسرها ، عندما كانت تندلع فيها نيران الثورة فترسل روسيا بجيوشها تحصد الأرواح حصداً وتقود الملايين الى مجاهل سيبريا ، ماذا أفاد ذلك كله ، لقد انتصرت بولندا وانتصر ايمان بولندا .

وهاهى اليوم احدى دول اوربا العظمى ، التى يخشى الروس بأسها .

وفى فرنسا هل استطاعت الملكية أن تحمى نفسها من الثورة ، هل استطاع الأشراف أن يقفوا الروح الجديدة التى كانت تنذرهم بالفناء ؟ لقد كان الباستيل يبتلع كل من تحدثه نفسه بالحرية ، وكان الرصاص يذاب فى الأفواه والآذان ، والنار تكوى الجباه والصدور . وكانت الطواحين تهشم العظام ، فماذا فعلوا ، ماذا أنتجوا ، لمن كان النصر ، للروح الجديدة وللمبدأ الجديد .

فالحق : الحق لا يغلب . الحق لا يغلب فهو اسم من أسماء الله ، وهو مشتق من ذات الله ، فكيف يغلب ويقهر ، حاشا وكلا ، ومعاذ الله .

كفاح مصر الفتاة

هؤلاء الأغرار الذين يقاومون مصر الفتاة ، أم الى هذا الحد جهلاء ، أفلم يطالعوا كتابا واحدا من كتب التاريخ . أم الى هذا الحد عمى فلم ينظروا الى مايحيط بهم فى مختلف الأمم . أم الى هذا الحد صم فلا يسمعون هذه الدروس وهذه العظات . أم الى هذا الحد فى غفلة لا يلتفتون لدوران الأفلاك وحوادث الدهور .

أى والله انهم لـكذلك !. والا لما قاوموا مصر الفتاة ، ولما اضطهدوها ولما حاولوا أن يبدأوا التجربة التى أثبتت الأيام فشلها واندحارها .

عندما نفى الانجليز سعد زغلول ، أو لم يخلقوا الثورة المصرية . وعندما كان الرصاص المسموم يجندل المئات أمام الأزهر ، وفى ميدان محمد على فى الاسكندرية ، أو لم يضاعف هذا فى لهيب الثورة .

هل نسى نسيم باشا مقاومته للثورة

وما لنا نذهب بعيدا.. . ورئيس الوزارة الحالى بنفسه قد جرب هـذا الأسلوب ، وقد أحس بأنه عقيم . . عنـدما كان رئيسا للوزارة ابان الثورة وكان يطلق أعوانه من أمثال حيدر وشاهين يفتـكون بالابرياء ، ماذا كانت النتيجة ولمن كان النصر ؟ !

ترى هل نسى دولة نسيم باشـا ذلك كله ، ولا يزال فى حاجة الى درس جـديد ، مرحبا اذن . . وسيأخذ نسيم باشا الدرس الجديد .

نسيم باشا والدستور

يدعى نسيم باشا انه سيد الدستور لمصر ، هل يتفق هذا أيها السادة مع هذه الحالة التى نعانيها الآن ، ها أنا أخطبكم من فوق منبر رادى النيل ، بينا كان يجب ان أخطبكم وجها لوجه ، ويمينا لو أن نسيم باشا سمح لنا ان نجتمع اذن لـكان بدء خطابى هو الشكر والتقدير. اذن لـكان بدء خطابى . تحية أبعثها لنسيم باشا . أما اليوم . فان بدء خطابى هو شواظ من نار (اذا جاز ان أستعير هذا التعبير من الجندى المجهول) هو شـواظ من نار أرسلها لتحيط بالوزارة ورئيسها .

يقول نسـيم باشا انه سـيد الدستور ، انه الامين على الحريات . دعوني أسخر من من هـذه الدعوي ، دعوني أضحك وأغرق في الضحك . لأن الأمين على الحرية هو الذي أرسل خلفى وقبلي الى المحلة الـكبرى سـيارتين من اللورى مكتظتين بالجنود تحمل العصى والسياط ، لا لشيء الا لانى فـكرت أن أزور المحلة الـكبرى لافتش اعن مكتب الجريدة هناك .

يدعى نسيم باشـا انه سيد الدستور ، وأنه الامين على الحريات ، دعونى أسخر من هذه الدعوي وأضحك وأغرق فى الضحك ، لأن نسيم باشا هـــذا هو الذى حرم علينا الاجتماع لنحتفل باصدار جريدة يعرفها جيدا ، ويعرف صوتها المدوى فى خدمة مصر ، والقضية المصرية منذ ربع قرن ونيف . جريدة وادى النيل يعرفها نسيم باشا ويعرف جهادها ، ومع ذلك فهو الذي يرفض اليوم أن يسمح لنا . بالاجتماع اجتماعا عائليا صغيرا لنحتفل بها أهذا هو الذي سيد الدستور ، أهذا هو الأمين على الحريات ، دعونى أضحك دعوني أضحك وأسرف فى الضحك .

نسيم باشا والاستقلال

يدعى نسيم باشا أنه الحريص على استقلال مصر ، وأنه الأمين على سيادة مصر ، فليحاسبنا ماذا فعل بهذا الاستقلال منذ ولي الحكم ، وماذا تم فى سيادة الدولة على يده . فليحاسبنا حفظه الله وأبقاه ومتعنا بنزاهته وعفته واخلاصه ، فليحاسبنا ونحن مستعدون أن نحنى الرأس اجلالا لعظمته وجهاده ، استلم الوزارة من وزير لم ننل على يده الا كل اضطهاد وتعذيب . حبسنا في عهده وصودرت حريتنا ، واعتدى علينا ، ومع ذلك فلا نستطيع اليوم الا أن نعترف أنه تمسك باستقلال الوزارة المصرية ، ولم يسمح لانجلترا أن تلقي اليه رغبات أو أوامر ، هذا هو عبدالفتاح يحيي باشا ، ومن قبله صدقي باشا ، الذى مهما قيل فيه فانه قد أرسل فى يوم ما بلاغا الى الانجليز يقول لهم فيه : أن ليس لهم الحق فى التدخل فى شئون مصر الداخلية ، لأنها مستقلة فلا تسمح لهم بهذا التدخل . ومهما قيل فى هذا البلاغ من أنه كان موضوعا بالاتفاق مع دار المندوب الانجليزى ، وأنه ليس الا كلاما أجوف .

أجل أيها السادة مهما قيل فيه ، فانه مظهر حسن من مظاهر الاستقلال ، لست أحاول أن أدافع عن صدقي باشا وعن شخصيته ، وأرجو أن تفهموا بدقة وجهة نظرى ، فالوزارتان اللتان لم تكونا من صميم الأمة ، بل كانتا حربا على الأمة ، حافظتا على مظاهر الاستقلال على أقل تقدير . أفما كان بالأحري واجب نسيم باشا ، وهو الذى ارتفع على أكتاف الشعب ، أن يكون موقفه من الانجليز قويا ، وأن يصول ويجول دفاعا عن الاستقلال ومظهرية الاستقلال ؟

نسيم باشا والمحكمة المختلطة

وتولى نسيم باشا الحكم ، وفى الدولة مشاكل ، على رأسها مشكلة المحاكم المختلطة ، فماذا فعل فيها ؟ ماذا فعلت فيها الوزارة لترد لمصر كرامتها . ؟ لاشيء . . لاشيء . . رغم أن الدول كلها . . قالت لها مالك لاتنقذين كرامتك ، وتقررين العربية كلغة رسمية حيث أن اللائحة تنص على ذلك . . لا ، فان هذه مسألة تتعلق بالكرامة المصرية والسيادة المصرية . . والكرامة المصرية والسيادة المصرية يمكن أن تنتظرا ، حتى تحل المطالب العليا ، مطالب الانجليز . . أسيادنا الانجليز !.

أشهد أني أكاد أجن . . وأجن بالأكثر من هؤلاء الذين مازالوا يؤيدون الوزارة ويولونها ثقتهم وتشجيعهم .

الوفد وتأييده للوزارة

اللهم انى لا أستطيع أن أفهم تأييدهم ، رغم كل هذا الذى تأتيه الوزارة النسيمية ، الا على أنه حرص على الحكم وكراسى الحكم بأى ثمن من الأثمان !. نسيم باشا هو القنطرة التي سيعبر عليها الوفد الى الحكم ، وبدون نسيم باشا لايمكن أن يمهد الطريق لوصول

الوفد الى الحكم . . اذن ليعمل نسيم باشا الى هذه الغاية ، وليدفع ثمنا لذلك كل ما يطلب منه ، حتى ولو كان هذا الثمن تفريطا فى استقلال مصر ، حتى ولو كان الثمن تأجيل الدستور الى أجل غير مسمى ، واذا أجل الدستور فما الذى بقى للوفد اذن . . وما الذي ينتظره اذن . . أفهم أن يكون الوفد مهادنا للوزارة ، أفهم أن يكون للوفد ثقة فى شخصية نسيم باشا ، وأن تكون هناك صداقة بين نسيم باشا ورئيس الوفد ، أفهم ذلك ولكن الذى لا أفهمه بل أستنكره هو هذا المبدأ الخطر ، وهو أنه مادام نسيم سيرد الدستور فيجب أن تترك له الحرية ليفعل كل شيء فى هذا السبيل ، وليدفع أى ثمن يريده الانجليز، حتى ولو كان باهظا ، تتقاضاه انجلترا من كرامة مصر ومالية مصر . أولا يحس الوفد معى بخطورة هذا الثمن ، كلنا نحب الدستور ، ونحن من المطالبين بعودة دستور سنة ١٩٢٣ ، ولكنا نريد الدستور دون أن نخسر فى سبيله كل شيء ، دون أن نفقد استقلالنا وكرامتنا .

مبدأ خطر أيها السادة ، بل هو مقامرة خطرة أن نعطي الانجليز كل شيء لكي نأخذ الدستور . اذ ماذا تكون النتيجة اذا نسى الانجليز وعودهم وتنكروا للدستور بعد أن يكونوا قد حصلوا على كل شيء . .

الانجليز لا تريد الدستور

ومالى أتحدث بصيغة الفرض ، وهذا هو الواقع فعلا ، وهذه هى الكارثة التي حلت على مصر فعلا ، فالانجليز اليوم لا يريدون دستورا ، لا يريدون دستورا بل يريدون حكما مباشرا وطاعة عمياء ، وتركيز السلطة والسيادة والتشريع وكل مظاهر الحكم فى يد المندوب البريطانى حتى يصبح حاكما بأمره ، كحكام الهند أو خط الاستواء .

وكيف يقع الساسة المصريون فى الشرك وينتظرون من انجلترا دستورا ، كيف يخيل اليهم أن انجلترا حريصة على حريتهم وارضائهم ، فتعيد لهم الدستور ، وتعيد الوفد الى الحكم.

أجل أسائل نفسى ، كيف ينخدع بعض الساسة المصريين ، حتى اليوم ، بهذه الترهات والآمال الفارغة . سيقولون أو لم تعط انجلترا الدستور لمصر فى تصريح ٢٨ فبراير ، فلم لا تعطيه مرة ثانية ؟ ولكن أيها البسطاء السذج ، لقد أعطتكم انجلترا الدستور فى تصريح ٢٨ فبراير لأنكم كنتم تطالبون بكل شيء ، كنتم تطالبون بالاستقلال التام لمصر والسودان أو الموت الزؤام ، فرمت لكم الدستور لتشغلكم به ولتحطم وحدتكم عليه ، فكان الدستور وكان لانجلترا ما أرادت ، فتحللت معنويتكم وذهبت ريح جهادكم ، وامتلأتم بالزهو والشغف بالحكم والمناصب .

أما اليوم بعد أن تمزقت أوصالكم ، بعد أن تضعضعت قوانا وامتلأت قلوبنا بالشك والتشاؤم والجبن والضعف ، لم لا يسترد الانجليز الدستور ، لم لا يستردونه ويستردون كل مظهر من مظاهر الاستقلال ؟ لم لا يعودون للحكم من جديد ، ما داموا يجدون

وزراء يقبلون منهم هذا التحكم ، ويرون الوفد يؤيدهم بثمن بخس ، وهو الأمل بعودة الدستور ؟ أو ليس من المضحك أيها السادة أن يكون جهاد نسيم باشا فى هذه الأيام ، لايدور حول اعادة الدستور ؟ لا ، فان هذا الرجل متواضع ولا يرتفع الى هذا الطلب . كل الذى يطلبه ، أن يسمح له المندوب البريطانى باصدار بلاغ يعـــد فيه الأمة بقرب عودة الدستور ، ومع ذلك فان المندوب يرفض !.

يالسخريه الأقدار ، اذاً لم يعد الدستور هوالبضاعة التى يساوم عليها الانجليز ، لا بل أصبح الوعد بالدستور هو البضاعة التى يبيعها الانجليز ويشتريها المصريون . سامح الله الانجليز ، وماذا عليهم لو سمحوا لنسيم باشا باصدار البيان ، فيملأ البلد أملا ووهما لمدة سنة ، أو سبعة أشهر يعود بعدها الدستور ، حتى اذا جاء ميعاد الدستور ، أسقطوا وزارة نسيم باشا وجاءوا بوزارة أخرى لاتعرف شيئا من الدستور !. ثم تعد الأمة من جديد بدستور منتظر ، بعد أن تسلخ فى الحكم عاما أو عامين .

ماذا يضير الانجليز سامحهم الله ، لو استغلوا أحلام هذه الأمة فساقوا لها الوعد خلف الوعد حتى تكل وتمل وتلين ، ترى أيخشى الانجليز أن ينكثوا بالعهد ، متى حافظوا على عهودهم ، ومتى كانوا يعرفون معنى لتنفيذ التعهدات ، وقد أقسموا بالشرف نيفا وستين مرة أن يغادروا مصر ، وكلما طولبوا بتنفيذ الوعد ساقوا وعدا جديدا !.

واليوم وقد كسبوا الاحتلال نهائيا ، ولم يعد فى مصر بأسرها من يطالبهم بالجلاء ، اللهم الا جمعية مصر الفتاة ، وهى جماعة كما يرى الانجليز هين شأنها فى الوقت الحاضر !.

اليوم وقد حقرت المطالب الوطنية وانكمشت ، ماذا على الانجليز لو نقلوا ميدان الوعود الى الدستور ، يؤجلونه من عام الى عام . لا ، ولكن انجلترا الجبارة لم تعد ترى فى الشعب المصرى ما يستحق حتى أن تضحك عليه ، وأن تضيع وقتا فى العبث به ، بارك الله فى نسيم باشا ، وبارك الله فى النحاس باشا ، وماوصلت اليه مصر على أيديهما .

نداء للوفد

انني أبعث بنداء حار من أعماق قلبي ، الي الوفد وزعيمه قائلا : لقد عشتم طوال عشر سنوات علماً على الكفاح ، فلاتهنوا ولا تلينوا وان كان ولامناص من مصانعة الانجليز والانخداع بوعودهم فاتركوا ذلك للوزارة ، اتركوا ذلك للوزارة ، أما أنتم فالى الصفوف من جديد ، مؤمنين بأنه لادستور مع احتلال ، فليكن كفاحكم هذه المرة لا للدستور والاستقلال والسودان بل أثيروها على الانجليز حرباً شعواء لاتبقي ولاتذر ، حرباً معنوية ، فى خطبكم وصحفكم ، تعالوا ننظم مقاطعتهم ، تعالوا نكافح ، تعالوا نكافح .

ووالله لو فعلتم ذلك لعادت القلوب تمجدكم من جديد ، والتفت الأمة حولكم من جديد ، أما ان واصلتم هذه السياسة التى تسيرون عليها ، سياسة المداورة والملاينة والانخداع للانجليز ، فأنى أنذركم أن الأمة ستنصرف عنكم ، الأمة التى هتفت باسمائكم بالأمس ، ستهتف باسماء أخرى ، لأن الأمة لاتنخدع والأمة لاتعرف السياسة ، والشعب يريد الكفاح.

وادى النيل

وبعد أيها السادة : صفينا حسابنا مع الوزارة والوفد ، صفينا حســـابنا مع الظلم والاستبداد فلنعد الى موضوع احتفالنا ، ولنحدثكم عن مصر الفتاة وخطتها وآمالها :

لعلكم اقتنعتم من هذا العرض البسيط الذى عرضناه الآن موقف رجال السياسة في مصر ، انهم أفلسوا وعما قريب يعلنون افلاسهم . ونحن لسنا فى حاجة الي انتظار هذه الساعة التى يعلنون فيها افلاسهم، لأننا نحس هذا الأفلاس من الآن ونلمسه ، لابل لسنا هذا الأفلاس منذ عامين عندما نادينا بمصر الفتاة . كنا نناصر الأحزاب المختلفة ، وفجأة اكتشفنا أنه لا يوجد حزب في مصر له من مبادئه ، أو من رجاله مايمكن أن يحقق لمصر استقلالها وحريتها المنشودة ، فقد تراموا جميعا على الحكم وأصبحوا عبيده ومحاسيبه ، ومردوا على النفاق والخيانة والاستهانة بارادة الأمة، واعتز فريق منهم بنفسه فركب رأسه وراح يضع نفسه فى موضع الألوهية ، فلايناقش ولايحاسب ولايراجع ، والا فالويل والثبور وعظائم الأمور!. ووسط ذلك كله كان كل شيء يتدهور فى مصر : كرامتها ، شخصيتها ، أخلاق بنيها ، روحهم المعنوية ، حتى وصلنا الى درجة الانحطاط في كل ميدان. وعدنا الى الوراء عشرات الأعوام ، فكان لامناص من حركة جديدة تخرج من أعماق الشباب ، مخلصة بريئة طاهرة ، لم تتلوث بعد بالسياسة الانجليزية ، وليس لها مطمع فى الحكم ، أومغنم تصبو اليه فيتلف عليها جهادها ، كيما تكافح من جديد وبأسلوب الكفاح الحق ، لكي تندفع الى الأمام غير هيابة ولا وجلة ، تطالب فى غير ما هوادة أو لين أو مواربة ، باستقلال مصر ومجد مصر ، لايفزعها سجن أو موت ، وترحب بكل اضطهاد وعذاب ، تشريد .

هذه هى جماعة مصر الفتاة . . خرجنا الى الحيـاة منذ عامين فتوالت علينا الاحن والويلات ، ولكنها مرت بنا دون أن تترك بنا أثرا ، أو تفل من عزائمنا .

ولقد حاربنا الانجليز عن طريق كوبن بويد واضرابه ، وحاربتنا الوزارة التى آذاها أن ترى شبابا متطرفا ينقدها فى غير رحمة ، ولقد كان أمر الانجليز والحكومة هينا ، وسيبقى هينا دائما أبداً ، ذلك أنه لا يتطلب منا الا أن نحتمل الاضطهاد والعذاب ، ونحن قد وطدنا العزم على ذلك .

على أن مصر الفتاة قد قوبلت باضطهاد أقوي وأعظم ، وذلك هو اضطهاد الأغلبية وقذفها بالتهم الباطلة واحدة خلف أخري ، قالوا عنا تارة اننا صنائع الانجليز ، ثم صنائع الحزب الوطنى ، ثم صنائع الابراشى باشا ، ولقد مضينا فى طريقنا لا نلوي على هـــذه السخافات ، التى كانت تتلاشى واحدة بعد الأخرى ، حتى كان سقوط الابراشى باشا ، فسقطت آخر هذه الدعاوى الى غير عودة . وها نحن أولاء وقد أثمر جهادنا ، ننزل الى الميدان بجريدة هي مفخرة الجرائد المصرية الصميمة ، فلقد أسسها صاحبها منذ سبع وعشرين سنة ،

بمشورة مصطفى كامل باشا، وظل يعمل على رأسها طوال هذا العمر الطويل في جد ونشاط، حتى جاءت أيام كانت وادي النيل هي الجريدة التي كان يقرؤها كل مصري، وفي الوقت الذي كانت الجرائد تصدر في صفحتين اثنتين، كانت هي تصدر في ثماني صفحات وكانت تصدر مرتين في اليوم الواحد!. أقص عليكم ذلك لتعرفوا أن جريدة وادي النيل علم من أعلام الصحافة في مصر، واذا كانت قد ركدت ريحها في المدة الأخيرة فما ذلك الا لأن الأستاذ الكلزة، شفاه الله وعافاه، أصابته بعض الأمراض، التي جعلته، وقد بلغ السن التي وصل اليها غير قادر على مواصلة الكفاح، في قوة ونشاط فإذا تقدمت مصر الفتاة لتتخذ من وادي النيل لسان حال لها، اذا نزلت مصر الفتاة الي ميدان الجهاد وفي قلبها ايمانها، وفي يمينها وادي النيل كتب لها النجاح، فإن هذا عصر جديد من عصور مصر الحديثة، بل هو فجر يشرق على الظلمات التي كست مصر سربالا مخيفاً. فحق علينا أن نبتهج وأن نحتفل وأن نتخذ من أول مايو عيدا عظيما نحتفل به في كل عام مرة، لأنه من أيام مصر البيضاء.

خطتنا وبرنامجنا

بقي أن تتساءلوا: وماهي الخطة وماهو البرنامج، أما خطتنا فطالما كررتها في خطبي ومقالاتي، وهي اعادة الروح. نريد أن نعيد الروح الى الشباب المصري، فيمتلىء ايمانا وعزما، ويقدس الرجولة والأخلاق ويعد من نفسه فارسا مقداما. نريد أن ننشيء الجيل الجديد، واثقا بنفسه معتزا ببلاده فخورا بتاريخه، نريد أن نملأ النفوس جرأة وشجاعة وتضحية.

الحرب العالمية القادمة

ونريد أن نهيء أنفسنا للحرب العالمية القادمة، لأنها هي المخلص، وهي المنقذ. لاأمل لنا في الأستقلال أو التخلص من يد الانجليز الا في الحرب القادمة، فيجب أن نتهيأ لها منذ الآن، وأن نستعد كي لا نؤخذ على غرة، ولكي نقوم بواجبنا في الساعة المناسبة. لطالما قلت لكم ما أقوله اليوم، وهو أننا لن نحصل على استقلالنا بمنحة من الانجليز أو بدهاء نسيم باشا، أو مصانعة النحاس باشا فهم، لن نحصل على شيء بهذا الأسلوب، ومن السفه بل من الجنون التعويل على هذه الخطة!. سنحصل على استقلالنا عندما نصبح قادرين على أخذه عنوة، وسنحصل على حريتنا عندما نستطيع أن ندفع ثمنها.

واذا كان لامناص من انتزاع الاستقلال بالقوة، كما يعلمنا الله في كتابه العزيز بقوله: « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل »، فالفرصة ستتاح لنا في الحرب القادمة والتي ستقع من غير شك!. أجل ستندلع نيران الحرب مافي ذلك شك أيها السادة، وان كان هناك ما يمكن أن يكون محلا للخلاف فهو موعد حصولها، أهو بعد ثلاثة أعوام

أم خمسة أم عشرة . أجل قد يختلف المختلفون فى تحديد التاريخ أما فى أنها ستقع فلا ! فقد أصبح ذلك حتماً لا شك فيه . ان أوربا قد اندفعت نحو التسلح بدون قيد أو شرط ، قد اندفعت نحو التسلح وابتكار المدمرات والمخربات ، وغدا عندما ترى كل دولة نفسها وقد تدججت بالسلاح ، وأنها من القوة والمناعة بحيث تحطم جاراتها ، غدا عندما يمتلىء كل شعب بالزهو والخيلاء ، ويرغب فى الفتح والاستعمار والثأر ، غدا ستقع الواقعة ، فتشتعل النار التى ستلتهم أوربا بأسرها ، وذلك من رحمة الله ومن نعمته ، لكى يتحرر الشرق ولكى ينهض ، ولكى تحطم هذه المدنية القذرة الدنسة ، مدنية الذهب والحديد والمادة ، مدنية الفسق والدعارة والالحاد ، وحتى تحق كلمة الله سبحانه وتعالى : « حتى اذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون » . أجل فسد الأوربيون وبغوا وحسبوا أنفسهم أنصاف آلهة ، وعبدوا عقولهم ، وعبدوا شهواتهم ، وأعمتهم مخترعاتهم ، فظنوا أنهم قادرون على الأرض والسماء ، وغدا سيجيئهم أمر الله فى هذه الحرب . فعلى الشرق بصفة عامة ، وعلى مصر بصفة خاصة ، أن تتربص وقت هذه الحرب وأن تعد نفسها لها ، فاما أن تترك انجلترا لمصر حريتها كاملة واستقلالها غير منقوص ، وتسحب جيوشها وتجلو عن مصر ، وعندها نقف الى جانبها موقف الحليف من الحليف ، واما أن نناضل عن حريتنا باعلان الحرب على انجلترا ، ونكافح كفاح المستميت ، فاما موت وفناء فى ظل الشرف والكرامة واما انتصار يعيد الى البلاد حريتها ومجدها .

كلمة أخيرة

فهمتنا أن نعد جيلا جديدا ، وأن نهيىء النفوس والشعب للحرب القادمة ، فاذا انتصرنا فان برنامجا واسع النطاق ينفذ فى عشر سنوات ، ومن شأنه أن يبعث كل مجد مصر الماضى وأن يخلق منها دولة شامخة تتألف من مصر والسودان وتحالف الدول العربية وتتزعم الأسلام . برنامج يقضى على الأمية ، ويقضى على الاستعباد الاقتصادى ، ويبعث روح النبوغ والعبقرية فى العلوم والفنون والآداب ، ويملأ مصر نورا من جديد لتضيء على العالمين ، ولتحمل لواء السلام والايمان .

هذه خطتنا وهذا برامجنا وتلك آمالنا نتحدث بها اليكم مجددين العزم والميثاق من جديد ، أن نكافح من أجل تحقيقها ، وأن نموت فى سبيلها غير راجين جزاء أو شكورا من مخلوق ، ولكن رضا وحبا من الله ، وعلى بركة الله نسير ، وباسم الله نبتدىء الكفاح ، وبعون الله نجابه الشدائد والصعاب ، والله يوفقنا ، والله يهدينا سواء السبيل ، والمجد لمصر .

١٣ نوفمبر

سنة ١٩٣٥

انتصار مصر الفتـــاة

اندلاع الثورة

انتصار روح مصر الفتاة

في ١٣ نوفمبر سنة ١٩٣٥

انفجار

كان آخر عهدنا بجريدة وادى النيل والكفاح في الأسكندرية هو شهر يونيو سنة ١٩٣٥ وقد تراكمت الصعوبات المـادية فحالت بينى وبين مواصلة إصدار الجريدة فعدت إلى القاهرة قلب الحركة الخفاق وكان السخط على وزارة نسيم باشا قد بدأ يشيع فى جميع الأوساط .

وفى ١٣ نوفمبر سنة ١٩٣٥ انفجرت عناصر السخط فى أوساط الشبان ، فقابلها نسيم باشا بالرصاص والأرهاب ، فلم يزد ذلك النار إلا اضطراما وتحول السخط إلى ثورة ... بدأت فى صفوف الشبان ، وبدأت تنتقل منهم إلى بقية عناصر الأمة رويداً رويداً ... وفى أيام قليلة تحول سكون مصر إلى حركة عنيفة ، وتضرجت شوارع القاهرة بدماء عشرات من الطلاب وشباب الجامعة ، وغصت المعتقلات بمئات وألوف من المقبوض عليهم . وفي عشية وضحاها ، سرت فى مصر هزة قوية ، أوقل روح عنيفة ، تأبى الذل وتتمرد على خنق الحرية ، وتطالب بالدستور ولا ترضى بأقل من الاستقلال .

فوجئت الحكومة بهذه الحالة وفزع الانجليز من نتائجها ولم يستطيعوا تحليلا لعناصرها ، وعجزوا عن تفسير ماخيل لهم أنه جاء مفاجأة غير منتظرة ، وقد شاطر الحكومة والأنجليز كثيرون من المصريين أنفسهم فى اعتبار أن ماحدث كان مفاجأة غير متوقعة ، وأنه مقطوع الأسباب عن مقدماته .. فهل كان هذا الحكم صحيحاً ؟! وهل لم يسبق هذه الحركة القوية مقدمات تؤدى اليها ؟ هذا هو ماسأحاول تحليله هنا فى هذه السطور ، للذكرى والتاريخ ، والدرس والعبرة .

ولست أحسب أن هناك قارئاً واحداً قد طالع كتابي هذا حتى هذه السطور إلا مبادرا بالقول بأن مصر الفتاة هى خالقة هذه الحركة ، وأنها قد مهدت لها بهذا الجهاد الطويل فى بحر ثلاثة أعوام ، تعرضت فيها لشتى صنوف الاضطهاد والتعذيب ، ولم تفتأ تردد في أثنائها مبادىء الوطنيـــة الصحيحة ، وتحض على الجهاد في غير ماخوف أوجزع . والواقع أن هذا الحكم من القارىء هو الحكم الصحيح الصادق فى غير مغالاة أو إسراف. ذلك أن الأيمان الذي كان يملأ صدورنا ، والذى مازال يملأ صدورنا، بل والذي ازداد أضعافا مضاعفة . هذا الأيمان الذي يحركنا ، والذى يغذينا ، والذى يدفعنا دائماً إلى الأمام ، هذا الأيمان الذي يهون لنا الشدائد ، لا يمكن إلا أن يكون قوة مؤثرة تأثيراً مادياً فى البيئـة المحيطة بنا . وإنى لأكاد أتخيل للايمان قوة خفية كقوة المغناطيس أو الكهرباء ، هذه القوة التى تملأ الجو من غير أن يكون لها مظهر مادى ومع ذلك فانها موجودة وهى تؤثر وهى تنتج : بمعنى أن الشخص المؤمن يستطيع أن يؤثر بايمانه ولو كان فى حجرة مغلقة الأبواب ، موصـدة النوافذ ، وهذا يدل عليه سجن المجاهدين فهو يزيد فى قوة عقيدتهم ، وبالتـالى في عقيدة زملائهم وأتباعهم ، إذ بالقوة الغشوم سرعان ماتهزم أمام المجاهد السـجين ، فاذا بالأبواب تفتح ،والسلاسل تحطم ، ويستأنف المجاهد جهاده ، والناس من حوله أشد إيمانا وإصراراً على الكفاح ! . هذا هو أثر الأيمان الكامن في نفسى ، ونفوس أصدقائي .. فقد كان قوة مؤثرة فى البيئة التى تحيط بنا سواء اتصلنا بها أو لم نتصل ، فما بالك ونحن لم نترك دقيقة واحدة في هذه الثلاث السنوات لم نتصل فيها بجموع الشباب والطلاب بصفة خاصة .. فليست هذه السنوات الثلاث إلا عملا متصلا فى قوة وعنف ضد مظاهر الضعف والتخنث والجبن الذى ران على القلوب . ولقد طالعتم فى الصفحات السابقة ، كيف كنا نقابل السجن بالابتهاج ، ونحتمل الشـدة في سرور ، رأيتم فى الصفحات السابقة كيف كانت حياتنا سلسلة متصلة بين السجن والاعتداء

والأيذاء ، ورأيتم كيف أرسلنا الصوت مدوياً من أعماق السجون ، ومن أقفاص الاتهام ، ندعو الشباب إلى التضحية والكفاح ، فى غير ماوجل أو تردد ... وفى هذه السنوات الثلاث، لم يمض يوم واحد ، لم نكن فيه نتحدث ونخطب ونعطى القدوة للشباب ، في هذه السنوات الثلاث ذرعنا القطر شمالا وجنوباً ، وغرباً وشرقاً ، ناشرين إيماننا وعقيدتنا ،ومقدمين المثال بهذه الجرأة التى تسخر من الظلم وتهزأ بالاستبداد . ولم يكن ذلك كله بغير أثر ، بل على العكس فقد ترك أثراً عميقاً فى نفوس الشباب الذين أحاطوا بنا ، أثر ذلك فى نفوس زهرة الشباب ، وأعنى بهم طلاب الجامعة ، وليس فى قادتهم إلا من هو صديق شخصى لى أو عضو فى مصر الفتاة . وإذن فقد تهيأت أذهانهم لروح الكفاح والتضحية ، روح العمل من أجل مصر أولا وأخيراً ، مهملين الأشخاص ، ومقدسين العمل الصالح ، ولقد كنت هذه البذور في قرارة نفوس الطلاب ، وأخذت تنمو وتزدهر يوماً بعد يوم ، حتي كانت الحرب الأيطالية الحبشية ، وقامت الحبشة تدافع عن استقلالها وعزتها ، ووقف العالم بأسره إلى جانبها ، يتحدث عن سيادتها وقداسة حريتها ، وشرعت جرائد الدنيا تتحدث عن وطنية الأحباش وبسالة الأحباش ، وتستعرض صوراً من كفاح أبطالها ، ورجالها ونسائها ، بل وأطفالها ... وأخذت رائحة البارود تملأ معاطس المصريين ، والدم المهراق يوقظ حواسهم ، ورؤية الكفاح تثير غريزة الكفاح، فلا عجب أن امتلأت نفوس الشباب المصري بالرغبة فى الكفاح ، وكل عاطفة قوية إن لم تجد من ينظمها فى بداية أمرها ، انحرفت عن طريقها الطبيعي وتبددت أدراج الرياح ، ولربما تحولت إلى قوة مخربة كالنار إن لم تنظم أصبحت أداة خراب ودمار ، وقد كاد ذلك يكون النتيجة المحققة لعواطف الشباب المصرى فى تلك الأيام . فقد اندفع بعض الشباب وفى مقدمته الصحافة ، تدعو للتطوع للدفاع عن استقلال الحبشة ، وحرية الحبشة ، وسرعان ماتألفت اللجان وانهالت ألوف الطلبات، وتقدم

مئات الشبان ، وقد امتلأت صدورهم بحماسة عجيبة ، فكنت تراهم والدم الحار يملأ شرايينهم ، واللهب المقدس يشع من أعينهم ، فأما السذج والبسطاء فقد خيل لهم أن المصريين يريدون الدفاع عن الحبشة ، ويتحمسون للحبشة فراحت الصحافة تطبل وتزمر ، وتهاجم الأيطاليين وتناصر الحبشة ، وتستحث الشباب لنصرة الحبشة . حتى امتلأت البلد بروح غريبة ، روح الدفاع عن الحبشة واستقلال الحبشة ، أما أنا فلم أر في كل ذلك إلا رغبة الأمة في الدفاع عن نفسها ، وأن هذه الروح القوية ، التي تريد متنفساً لها ، وجدت في الحبشة فرصة لأظهار هذه الروح . ومنذ الدقيقة الأولى فهمت إحساس الشباب الحقيقي ، ومنذ الدقيقة الأولى عرفت ماذا يجب على أن أفعل ، وماذا يجب على كل الشباب أن يفعل ، فاذا كان للحبشة استقلال قد حطم ، وإذا كانت للحبشة كرامة ينبغي أن تصان ، فان لمصر كرامة يجب أن تسترد ، وإذا كان في عروق الشباب المصري دم يجب أن يراق ، فان مصر به أولى ، وإذا كان هناك ما يجب أن يقوم به المصريون ، فهو انتهاز هذه الفرصة ، للمطالبة بحقهم واخراج الأنجليز ، واسماع العالم صوت مصر ، والكفاح في سبيل الاستقلال .
وإذن فقد عملت جاهدا على إعادة العواطف التي تملأ صدور الشباب إلى طريقها الطبيعي ، فناديت قومي وناديت الشباب ، وانبث جنود مصر الفتاة ، يدعون في كل مكان ، أن على هؤلاء الذين يريدون الدفاع عن الحبشة ، أن يدافعوا عن مصر ، وهؤلاء الشجعان أن يبرزوا شجاعتهم في مصر ، والراغبون في التضحية ، أمامهم الميدان متسعا في مصر . ولقد بدت هذه الدعوة ، في وقت اندفعت فيه العواطف إلى مناصرة الحبشة وتأييدها ، بدت دعوة غريبة شاذة ، فأخذ الرأى العام يهجس بأنها دعوة مدسوسة ، وأن للايطاليين فيها دخلا . حتى لقد أشارت إلى ذلك ، مجلة « اللطائف المصورة » أشارة صريحة ، على الرغم من خصومتي للطليان خصومة عنيفة ، ولعل القارىء قد لمحها في كل سطر ، من سطور مرافعاتي وخطبي وأحاديثي ، ذلك أن

الأمبراطورية الرومانية ، التي يريد أن يبعثها موسوليني، إنما ترتكز في مصر، والبحر الأبيض الذي يريد أن يجعله بحيرة رومانية، ولا يمكن أن يتم ذلك إلا إذا كانت مصر رومانية كذلك. وإذن فإيطاليا الجديدة ذات البرامج الاستعمارية ، هي خطر على مصر أي خطر ، يجب أن تتهيأ له مصر ، وأن تستعد ، وأن تكون منه على حذر ، على أن هذا لا يعني مطلقا أن تنسى مصر أنها واقعة حالا في براثن مستعمر آخر، وأن عليها أن تعمل لفك أغلالها الحالية ، قبل أن تخشى أغلالا مستقبلة ، قد تقيد بها ، بالغة ما بلغت هذه السلاسل المقبلة من حيث الخطر والأهمية ، وما هي الوسيلة لانتزاع استقلال مصر إلا بانتهاز الفرص ، واستغلال الخلافات الدولية بين انجلترا وغيرها من الدول ، فمصر في سنة ١٩٣٥ ، ما كانت تكسب قليلا أو كثيرا من معاداتها لايطاليا ، وإظهار خصومتها العنيفة ، في وقت كان الاستقلال فيه أثراً بعد عين والأنجليز يتحكمون في كل شيء ، ويضغطون على العرش ، ويرفضون الدستور .

ولقد أدركت الأمة كل هذه الحقائق بعد حين ، فبدأت الأحزاب السياسية تنشط بعد تخاذل الوفد، وتأييده لسياسة نسيم باشا المدمرة ، وخرج الأستاذ العقاد على سياسة الوفد والحكومة ، وواصل كتابة هذه المقالات الصادقة ، والتي ليست إلا تكرارا لما سبقته اليه مصر الفتاة ، أو بمعنى آخر ، ليست إلا وليدة روح مصر الفتاة ، روح الكفاح والمقاومة والاستبسال والأيمان ، وفي وسط هذا الجو عاودت مصر الفتاة نشاطها المادي والروحي ، فعاودت الصرخة صدورها بقوة ، وتقابلت مع الأستاذ العقاد في منتصف الطريق وأفسح لي صدر جريدة روز اليوسف أسجل على صفحاتها روح مصر الفتاة ونشاطها . وإذن فقد بدأ تيار الحماسة نحو الحبشة يعود إلى مصبه الطبيعي ، وأعني به القضية المصرية ، والدفاع عن استقلال مصر ، وهذه القلوب الفتية بدأت تتطلع باحثة عما تفعله من أجل مصر ، وأينعت تلك البذور التي غرسناها في النفوس ، لا ، بل بدأت تثمر

وتنضج ، حتى إذا بدأ شهر نوفمبر ، بدأت الحوادث تتوالى بسرعة ، فقد كانت حملة العقاد على سياسة الضعف في أوجها ، وعاد دولة محمد باشا محمود رئيس حزب الأحرار الدستوريين إلى سياسة التعاون بين الأحزاب والأئتلاف وتوحيد الصفوف ، وأقام اجتماعا في ٧ نوفمبر شهده كل رجال الأحزاب ماعدا الوفد ، ولأول مرة عقد اجتماع سياسى في يوم وليلة وزاد حاضروه على بضعة عشر ألفا ، جلهم من الشباب ، وشوهد رجال الأحزاب المختلفة يجلسون جنبا إلى جنب ، يكرمهم الشباب ، ويهتف بأسمائهم فكان ذلك إيذانا بغليان الأفكار وارادتها فى توحيد الصفوف ، استعدادا للكفاح . حتى إذا ما اقترب يوم الأربعاء ١٣ نوفمبر ، أعلنت مصر الفتاة عن اجتماع ضخم ، أخطب فيه باسم الجيل الجديد ، ويخطب معى سعادة محمد على باشا علوبة ، والأستاذ العقاد ، والأستاذ عبدالرحمن عزام ، ولقد كان معينا لمكان الاجتماع مسرح برنتانيا ، فطبعنا من التذاكر ضعف مايسع من الحضور ، فاذا بها تنفد في دقائق ، وإذا بنا مضطرون أن نطبع من التذاكر ألوفا تلو ألوف ، وإذا بجموع الشباب تضغط على دار الجمعية ضغطا عظيما ، تطالب بشهود الاجتماع ، فاذا بنا ننقل الاجتماع إلى سراى آل لطف الله بالجزيرة ، كيما تتسع لهذه الألوف ، على الرغم من أن الوفد ، كان قد دعا إلى اجتماعه السنوى المعتاد ، وقد اضطر تمهيدا لانجاحه أن يعلن تخليه رسميا ، أى فى الظاهر ، عن تأييد وزارة نسيم باشا ، فكان ذلك أول ثمرة لضغط الرأي العام ، وهكذا بلغ الغليان الفكرى أشده . على أن الشبان كانوا هم كل شىء فى هذه الحركة ، فهم الذين نشروا السخط ضد وزارة نسيم وسياسة الاستخذاء ، وهم الذين دعوا لتوحيد الصفوف . واعلان سياسة الكفاح ، فلما كانت صبيحة يوم الأربعاء ١٣ نوفمبر ، كانت القاهرة فى جو مكهرب ملبد بقوى غير منظورة ، وفى آخر دقيقة منعت الحكومة اجتماع مصر الفتاة ، بعد أن اتخذنا له كل المعدات ، على الرغم من سماحها بعقد اجتماع الوفد ، فسرت فى كل من وصل اليه الخبر ، روح سخط جديدة واستنكار شديد ، وخرجت

جموع الطلاب من الجامعة تزحف نحو القاهرة ، هاتفة متظاهرة ، فاشتبك معها البوليس ، وكانت معارك في قصر النيل ، وفي ساحة عابدين ، أطلقت فيها النار ، وأصيب عشرات من الجرحى ، وأحاطت الحكومـــة مكان اجتماعنا بصفوف متراصة من البوليس ، تحول بين الجموع وبين عقد الاجتماع. وما أن هممت بالاقتراب من مكان الاجتماع وأخذت أتحادث مع بعض الضباط ، حتى صدر أمر البوليس بالاعتـداء علينا ، فانهالت على عصى البوليس ولكماته ، وأخذت الى مركز البوليس ، وهكذا لم ينقض هـذا اليوم العصيب في حياة مصر دون أن آخذ منه بنصيب ، حقا إنه لنصيب تافه بضع كدمات وضربات عصى ، ولكنه نصيب على كل حال يعزيني اليوم ، وغدا ، وإلى الأبد ، انني لم أكن في هذا اليوم العاصف قعيد بيتي ، أو ممتطيا سيارة والجرحى تتساقط من حولي ، بل كنت فيه المجاهد الصغير ، الذى أخذ نصيبه من المعركة . ولم أتردد في قبول اعتذار البوليس ، ساعة أن قدمه لي ، ولقد كان بودى أن يجرى تحقيق على يد النيابة ، وأن يعلم الرأى العام ما وقع ، ولكن الحوادث الدامية التي كانت تحـدث من دقيقة الى أخرى ، جعلتني أنسى هذا الحـادث ، أو أتناسـاه ، لأشتغل بما هو أهم وأروع ، وفي نفس اليوم حدث اصطدام بين البوليس والجموع المحتشدة لدى بيت الأمة ، وقد أصيب فيه عشرات من الجرحى ، واقتيد الى السجن مئات الشباب ، وهـكذا انفجرت روح الشباب ، وسرت هزة الكفاح في أنحاء الوادى .

وكان اليوم التالي ١٤ نوفمبر ، هو بدء اعلان الثورة بمعناه الرسمى ، فقد انحدرت جموع الطلاب من الجامعة ، قاصدة القاهرة ، كما فعلت بالأمس فتصدى لها عند كوبري عباس بعض أفراد من رجال البوليس الانجليزى ، وفي دقائق قليلة أردوا بعض القتلى والمصابين من طلاب الجامعة ، وسقط عبدالمجيد مرسى ، والجراحى ، وابراهيم شكرى ، مات الأول سريعا وعاش الثاني أياما . . بعث فيها الحياة في اخوانه وملأهم ايمانا وعزما ، أما الثالث

فقد برأ من جراحه ، وظل حيا يعمل كما عمل دائما تحت لواء مصر الفتاة ، ليكون مثلا حيا على أثر مصر الفتاة فى هذه الحركة العتيدة . .

كان فى نفوس الشباب سخط . . . وفى نفوس الشباب ارادة ، وفى نفوس الشباب أمل . . . وبحث شباب الجامعة عن شعار يلخص حركته ويعمل بروحه . . . بحث شباب الجامعة عن لواء يلتفون حوله ، ويسيرون في ظله ، بحث شباب الجامعة عن المبدأ الذى يكافحون من أجله ، ويسقطون فى سبيله ويسجلونه بدمائهم ، فأسعفهم قادتهم من شباب مصر الفتاة بهذا المبدأ وذاك اللواء . أسعفهم شباب مصر الفتاة بالمبدأ السامى الذى يلخص لهم كل شىء ، سخطهم وعقيدتهم وإيمانهم وآمالهم .. أسعفهم شباب مصر الفتاة فهتفوا لهم «مصر فوق الجميع!!» . فاذا بالجموع تردد من أعماق أرواحها . . . مصر فوق الجميع الله أكبر ، هذه هى مصر الفتاة تنتصر ، هذا هو ايمانها ، وهذه روحها ، هذا هو كفاح مصر الفتاة ، مصر فوق الجميع ، ذكرت فرجعت ، وفى دقيقة كانت شعار الحركة فى مصر كلها ، من الاسكندرية حتى أسوان ، فأخفتت كل صوت ، وقضت على كل روح سواها ، حاولت أن ترفع رأسها ..

وقاد الحركة في عنفوانها طراف (١) ومحي الدين وحماده ومكى وشكرى وشافعى وسعد وغيرهم من زهرة مصر الفتاة وقوادها الذين تغذوا بلبانها وامتزجت بدمائهم .. هؤلاء الذين قادوا هذه الحركة ، هم جنود مصر الفتاة ، وعندما مات الجراحى ، كانت آخر كلماته مصر فوق الجميع ، فسطر بدمه رسالة مصر الفتاة . وعندما حاول نسيم باشا أن يفزع الحركة برصاصه وسجونه ، أجابوه بكلمات مصر الفتاة ، وما السجن ، وما الموت ، وما الحياة فى ظل الذل . .

---

(١) نور الدين طراف الطب ـــ محي الدين عبد الحليم دار العلوم ـــ حماده الناحل الحقوق ـــ محمود مكي الزراعة ـــ ابراهيم شكرى الزراعة ـــ محمود شافعى معهد التربية ـــ كمال سعد الزراعة

وهؤلاء جميعاً أعضاء فى مجلس جهاد جمعية مصر الفتاة قبل هذه الحركة

فتعـاليم مصر الفتاة هى التي انتصرت ، وروح مصر الفتاة هى التي سادت ، وشباب مصر الفتاة هو الذى تزعم . ، وجمعية مصر الفتاة هى التي لبت ارادة الشباب والأمة ، بعد ذلك فنفذت مارغبت الأمة فى تنفيذه ، وسافرت الى أوربا أناوزميلى فتحى رضوان للدعاية لقضية مصر فى انجلترا وأوربا ، لأسماع صوت الضحايا ، وصوت الشباب للدنيا باسرها ، وفى أيام قلائل كنت أحزم أمتعتى ، وفي أيام قلائل كنت مسافرا الى أوربا ، وفى نفسى إيمان بالله ، وفى جيوبى مائتان من الجنيهات ، لاتكاد تكفى نفقات لسفر واحد من أغنيائنا يرغب في النزهة ، ولقد جمعت هذه الجنيهات من اكتتاب عام فتح على صفحات الجرائد ، وأقبل عليه الناس رويدا رويدا ، وهكذا سيطرت روح مصر الفتاة على الموقف ابتـــداء من المقدمة وتدرجا مع الحوادث ، فما كان انفجار ١٣ نوفمبر سـنة ١٩٣٥ بحادث مقطوع الصلة بجهود مصر الفتاة ، ففى مثل هذا اليوم من عامين سابقين على هذا التاريخ ، أى فى ١٣ نوفمبر سنة ١٩٣٣ ، قبض على لأول مرة وزج بى الى السجن عقابا على صرختى الأولى ، والتى كان عنوانها : « ياشباب عام ١٩٣٣ ، كن كشباب سنة ١٩١٩ ، كن كهذا الشباب الذى أشـعل الثورة في وقت لم يتوقع الناس فيه الثورة » فاذا كان الشباب قد لبى هذه الدعوة بعد عامين ، واتخذ شعارا لها ما أردت أن يكون له شعارا فماذا أستطيع أن أقول وأن أسجل ، الا أن مصر الفتاة هى التى انتصرت فى ١٣ نوفمبر سنة ١٩٣٥ .

سفر وفد جمعية مصر الفتاة

الى لندن وباريس وجنيف

— ١٢ —

تطورت الحوادث ، كما رأينا ، وشعرت الأمة بضرورة إرسال وفد للدعاية إلى أوربا كما فعل مصطفى كامل وفريد من قبل ، وكما أوفدت مصر وفدها الكبير فى سنة ١٩١٩ إلى مؤتمر الصلح لكى يدافع عن القضية المصرية أمام الرأى العام العالمى عامة ، والانجليزى بصفة خاصة ، لأطلاعه على الحقائق ومدي الظلم والاستبداد الذى تنزله انجلترا بشعب أعزل من كل سلاح ، وكيف تحول بينه وبين الحرية فى الوقت الذى تتشدق فيه بأنها نصيرة الحرية ورائدتها فى الدنيا كلها .

أحست الأمة بالحاجة إلى قيام هذا الوفد ، وراحت الأحزاب القديمة ، وعلى رأسها الوفد ، تتناقش في كيفية تحقيق هذا الواجب وأظهرت كثيرا من التردد والأحجام عن تنفيذ المشروع ، بحجة أنه يحتاج إلى مال كثير قد يربي على بضع مئات من ألوف الجنيهات . فكانت هذه هى فرصة مصر الفتاة لتسطر صفحة جديدة من صفحات الجهاد بالاضطلاع بهذا الواجب الوطنى .

فقمت وزميلى الأستاذ فتحى رضوان بأكبر مغامرة قمت بها في حياتي حتى اليوم ، لم يكن سلاحى فيها إلا الايمان ، والايمان أولا وأخيراً . فهذا المشروع الذى كان يحتاج إلى بضع مئات من الألوف ، فى نظر أحزاب مصر ، نفذناه نحن بما لا يتجاوز بضع عشرات من الجنيهات ..

وعندما غادرنا محطة العاصمة في طريقنا إلى لندن لم يكن فى جعبتنا أكثر من مائة وعشرين جنيها ، أوفوق ذلك بقليل جداً ، وقد كان هذا يبدو لوناً من ألوان الجنون أو العبث ، أن يسافر شابان إلى عاصمة بلاد

الانجليز لم يسبق لها أن زاراها من قبل ، وأن يكون سفرهما إليها فى صميم فصل الشتاء ، وأن تكون مهمتهما هى القيام بدعاية ضخمة عن القضية المصرية وتمثيل الشباب المصرى ، أو بالأحرى الشعب المصري بأكمله ، وأن لايكون لديهما من المال للقيام بهذه المهمة إلا مبلغ تافه ، وصغيرجداً لايكاد يكفى نفقات الطريق .

وسوف تمتلىء دهشة إذا علمت فوق ذلك كله أن معرفتى باللغة الانجليزية لاتتجاوز ما يعرفه أحد طلاب المدارس الثانوية ، بل إن عدم المران على استعمال اللغة الانجليزية كاد أن ينسيني هذا القسم الضئيل الذي تعلمته منها . ومع ذلك ، وبالرغم من كل هذه الظروف مجتمعة ، فقد جاءت الساعة التى احتشد فيها الشباب لوداعنا على محطة العاصمة . وقد خف رجلان من أكرم الرجال ليكونا في وداعنا على المحطة ، وهما سعادة محمد على علوبة باشا والمرحوم محمد عبد القادر حمزه باشا صاحب البلاغ . وقد كان وداعاً حافلا ورائعاً ألقيت فيه الخطب والكلمات ، وارتفعت نداءات أبناء مصر الفتاة فى حماسة ارتجت لها أروقة المحطة وأرصفتها . وكان آخر هتاف رددته هذه الجموع هو صرختى عند تحرك القطار :

« نريد الحياة — من حقنا الحياة — وسوف ننتصر » .

وانطلق القطار بعد ذلك نحو عاصمة الانجليز وأبناء مصر الفتاة يهزجون نشيدهم المحبوب « إسلمى يا مصر » .

وبينما كان القطار يشق طريقه نحو الاسكندرية كان الشعب المصري يطالع النداء الذى أذعته بمناسبة سفرى والذى أري أن أثبته بنصه للذكري والتاريخ .

من أحمد حسين الى الشعب المصرى

عهد وميثاق

أيها الشعب المجيد ...

فى الساعة التى نحزم فيها أمتعتنا للسفر الى عواصم أوروبا ، كيما ندافع عن القضية المصرية أمام محكمة الرأى العام الدولي ، وفى الساعة التى تخفق فيها قلوبنا لذكرى مغادرة الوطن العزيز الجريح ، أري لزاماً على أن أعاهد الأمة على برنامجى ، وأن أطلع الرأى العام على آمالى وغايتى .

لسنا ندعى أننا سنحصل على استقلال مصر ، وأننا سنحل القضية المصرية بمجرد ذهابنا ألى أوروبا ، ولسنا نجرأ على القول بأننا سنعود الى مصر وفى جعبتنا معاهدة تحقق المطالب المصرية والأمانى القومية .

لا .. لسنا ندعى شيئاً من ذلك فان القضية المصرية ستحل هنا في القاهرة وليس في أوروبا ، ستحل القضية المصرية بأيدينا نحن المصريين وليس بأيدى الانجليز ، ولا بأيدى أى نوع آخر من المخلوقات ، سوف تحل القضية المصرية عندما يؤمن المصريون بأنفسهم وقدرتهم على الكفاح والاستبسال فى سبيل النصر — سوف تحل القضية المصرية عندما يمتلىء المصريون بالعزم والجرأة والشجاعة ، عند مايسترخصون الحياة،ويحتقرون المناصب ويطئون أعراض الحياة ، سوف تحل القضية المصرية عندما لايهاب الشباب المصري أعماق السجون ولا طلقات الرصاص ، ولا صنوف الحرمان ، سوف تحل القضية المصرية عندما نقف صفاً واحداً كالبنيان المرصوص أمام العدو المشترك ، عندما نفهم دسائسه وأساليب استعماره ، وعندما نحتقر مؤامراته وصنوف اغرائه ، سوف تحل القضية المصرية عندما نعرف كيف نطهر أنفسنا ، ونصونها من العبث والاسراف فى الشهوات والملذات ، عندما نتخلق بالأخلاق الحسنة ونعتنق الثبات ونتعلم الصبر ونصمد للشدائد ، سوف تحل القضية المصرية عندما نعرف كيف نقاطع كل دخيل ، وكل ما هو أجنبي ، وكيف لا نأكل الا من طعام بلادنا ، وكيف لا نلبس الا من صنع بلادنا ، ولانحترم الا ما كان مصريا صميما من أعماق المصريين ، سوف تحل القضية المصرية عندما نرفع الرؤوس افتخاراً واعتزازاً بقوميتنا ، وثقة واعتداداً بأنفسنا ، عندما يحب بعضنا بعضاً ونترك الحسد والبغضاء والحقد ونتعلم التسامح والوفاء والاخلاص ، وأخيراً سوف تحل قضيتنا عند مانعرف كيف ننظم صفوفنا ، وكيف نعد أنفسنا بحيث نكون أقوياء ، ونكون أقوياء أولا وأخيراً ، فالحياة صراع وجلاد ينتصر فيها القوي الصالح ويندحر فيها الضعيف الطالح ، لاتفاهم فى الحياة بين السيد

والمسود ، لاتفاهم بين القوي والضعيف، سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا ، فقضيتنا ستحل بأيدينا نحن ، والاستقلال يؤخذ ولا يعطى، والحرية تحيا بالدم ويقتلها الجبن والكسل والتفرق .

لا أيها الشباب المجيد ، لا ياسلالة الفراعنة والعرب ، انما أهيب بك أنت أن تحقق استقلالك وحريتك ، أهيب بك أنت أن ترغم الانجليز على احترامك وصداقتك ، واذا كنا نسافر اليوم كيما نرفع الصوت عالياً فى أنحاء العالمين بما يقع علينا من ظلم واعتداء، فليس ذلك الا سلاحا من أسلحة الكفاح ، وليس هو كل سلاح .. اذا كنا نسافر فما ذلك الا لنصرخ فى وجه الانجليز ان مصر لم تغفل عن حقوقها . ولنطالب العالم المتمدين أن يكون منطقيا مع نفسه ومع موقفه فى الحرب الحبشية الايطالية فيعير مصر وقضيتها مايستحقان من رعاية وعطف ، فاذا كانت الحبشة تستحق الحرية فان مصر تستحق المجد، اذا كانت دويلات العالم الصغيرة تتمتع بسيادتها الكاملة واستقلالها العتيد ، فان مصر معلمة الانسانية بأسرها !

مصر التي قادت الدنيا طوال مئات القرون .. مصر التى أخرجت الأديان جميعا وحمت الأديان جميعا .. ومجدتها جميع الكتب السماوية..مصر التى حاربها الزمان فارتد وانهزم.. وحاربتها الويلات والأحن فخرجت مصر من المعركة ظافرة أشد مضاء وأكثر لمعانا ومجدا ..مصر التى قامت منذ نيف ومائة عام فهزت الدنيا هزاً وشيدت امبراطورية تزرى بالامبراطوريات!وأخيرا مصر التى تتزعم الدول العربية اليوم وكعبة الأسلام، من حقها أن تعيش سيدة نفسها . . من حقها أن ترفع الرأس عالية وأن تتبوأ مقعدها تحت الشمس فتكون كما كانت دائما منارة وهدي للعالمين .

لاسلام للعالم الا اذا أعطيت الشعوب الضعيفة حريتها .. لاتوازن بين الأمم الا اذا استقل كل شعب والويل ثم الويل لأوربا ان لم ترحم الأمم الضعيفة وتتركها تعيش فى سلام .

تلك هى الرسالة التي نحملها معنا لنبسطها أمام العالم باسم مصر . . وسيستمع العالم لنا وسيشد أزرنا الكثيرون ،وهذا هو كل الذى نطمع فيه .

ونحن اذ نسافر من مصر لاندرى ما الذى تخبؤه لنا الأقدار ، ولكن الذى نؤمن به أننا سنجاهد من أجل مصر حتى النفس الأخير ، سنجاهد من أجل مصر حتى ولو لم نجد القوت الذى نتبلغ به ، سنجاهد من أجل مصر وهذا عهد وهذا قسم أن نفنى من أجل مصر ومجدها ، وأن نكرس لها شبابنا وحياتنا وأرواحنا ، انه عهد ، وانه لقسم ، أن نكون للمصريين جميعا وليس لحزب من الأحزاب،لا وليس لأشخاصنا ، انه عهد، وانه لقسم ، أن نحب المصريين جميعا ، وأن نخلص للمصريين جميعا ، وأن نمجد المصريين جميعا .

أيها الشعب المصري الخالد ...

ان أكن شابا ، وان أكن صغيراً ، الا أن ايمانى واخلاصى يحتمان على أن أتوجه اليكم بهذا النداء فى هذه الساعات العصيبة ، وهو أنه لن ينجينا الا الائتلاف والاتحاد . كونوا صفاً واحداً ، وليحب بعضكم بعضاً ، أنسوا الخلافات والأحقاد ، تصالحوا وتعانقوا ، واسدلوا ستاراً على الماضى ، وانظروا الى النسر المحلق فى الفضاء ، والذى يرفرف بأجنحته فدوى فى أنحاء العالمين .. انها مصر .. مصر العزيزة الغالية .. انها تناديكم أيها الأبناء انها تصرخ بكم أن تتصالحوا أيها الاخوان ، فماذا أنتم قائلون .. كأني بكم وليس لكم الا شعار واحد يهز الأرضين:

المجد لمصر ، ومصر فوق الجميع ! ! (انتهى)

***

ما كانت هذه الصرخة الصادقة لتذهب مع الريح ، فلم يكد يمضى على سفرنا بضعة أيام ، حتى تألفت الجبهة المنشودة ، واتحدت الأحزاب ، وعاد الدستور بالتالى فوراً ، وكان ذلك بدءا موفقاً لهذه الرحلة الفذة فى تاريخ الكفاح المصرى .

وبارحت النيل ميناء الأسكندرية فى يوم الخميس ٥ من ديسمبر ، وكنا فى ابتداء شهر الصوم ، وقد آليت على نفسى أن لا أفطر فى المركب أو في لندن ، إلا مضطرا ومكرها ، وبعد أن يحاط بى ويصبح لا مناص لى من الأفطار ، وأنا أعلم كل العلم أن الأسلام لا يطالب أتباعه بشيء من ذلك ، فقد أباح لهم الافطار لمجرد السفر القريب فضلا عن السفر البعيد الشاق ، ولقد أفطر الرسول صلوات الله عليه في سفره ليكون ذلك سنة وقدوة للناس من بعده ، ومع ذلك فقد شعرت بحاجتي إلى الصوم ، ورأيت فى ذلك أسلوبا من أساليب الاستعداد الروحى والنفسى . فقد كان إيمانى هو رأسمالى في هذه الرحلة ، وكنت شديد الحرص على كل ما من شأنه تقوية إيمانى ، وليس هناك ما يقوى الايمان أكثر من أن يشعر الانسان أنه يتقرب إلى ربه بالتقشف والاحتمال والصبر .

وسارت الباخرة تشق مياه البحر الأبيض ، ولم يمض يوم على بدء رحلتنا حتى اكفهر الجو ، وأظلمت الدنيا وهاج البحر وماج ، وفتحت

السماء أبواب أنهارها وبحارها ومحيطاتها ، وسارت النيل في هذه المياه المتلاطمة من تحت ومن فوق ومن اليمين والشمال ، واعترانى الدوار فاستلقيت على أحد الكراسى على ظهر المركب ، بالرغم من البرد القارس ، لأن ذلك كان هو السبيل الوحيد لكى أشعر بشيء من الراحة .

ووصلنا إلى مرسيليا أخيرا ومنها إلى باريس ، ولم نكد نصل إلى باريس ، ونحاول أن نستقر بها ، وأن نرسم خطة للعمل ، حتي جاءت الأنباء من مصر تعلن ائتلاف الأحزاب المصرية وتأليف الجبهة الوطنية ، وأن حكومة نسيم باشا ومن خلفها انجلترا لم يسعها إزاء ذلك إلا أن تخضع لمشيئة الأمة وأن تعلن عودة الدستور ، بعد أن سحب الانجليز اعتراضهم على إرجاعه ، فملأتنا هذه الأنباء بالقوة والحماسة وشجعتنا على المضى فى مغامرتنا وجهادنا ، أشد قوة وعزما من ذي قبل ، فقررنا أن نسافر إلى لندن على الفور لنكافح من أجل الاستقلال بعد أن عاد الدستور .



فى عاصمة الانجليز

— ١٣ —

وصلنا إلى عاصمة الانجليز . فاستقبلتنا بضبابها الكثيف وبردها القارس وثلجها الدائم ، ووجدنا أنفسنا ننزل من القطار إلى محطة فيكتوريا الشهيرة .

ثم لم نلبث أن استقر بنا المقام فى أحد فنادق لندن ، كأننا ذرة من الذرات بين رمال الصحراء أو قطرة من الماء وسط مياه المحيط . ولكن العلم الحديث قد أثبت أن هذه الذرة الصغيرة تنطوى على قوة كامنة جبارة تستطيع أن تدك الجبال وتذيب الحديد ، وقد كان ذلك شأننا !! فبالرغم من ضآلة أجسادنا ، وتفاهة ما فى جيوبنا من مال ، وبالرغم من وحدتنا فى هذا الخضم البشري العظيم كانت قلوبنا عامرة بالأيمان ، أو بالأحرى بهذه القوة الفتاكة الرهيبة التى تسيطر على الكون وتديره وتحركه .

وكان أول همنا أن نتصل بالدكتور مصطفى الوكيل الذي كان قد سبقنا إلى لندن مبعوثا من لدن وزارة المعارف للحصول على الدكتوراه فى الرياضة البحتة من جامعة لندن ، وقد كان الدكتور مصطفى صديقاً حميا لنا وعضوا من أعضاء مصر الفتاة المخلصين . وأقول صديقا حميا وعضوا من أعضاء مصر الفتاة لأنى أتحدث عن التاريخ وأذكر الحوادث بترتيبها ، لأن مصطفى الوكيل لم يلبث بعد ذلك أن أصبح كل شىء في مصر الفتاة ، وكل شىء بالنسبة لى : لم يلبث مصطفى الوكيل أن صار أملى فى الكفاح والجهاد والحياة ، لا بالنسبة لمصر الفتاة كحزب أو جماعة ، ولكن بالنسبة لمصر كلها والعروبة ، بل والشرق الاسلامى بأكمله .

قابلنا الدكتور مصطفى الوكيل ، وانضم إلينا ، وأصبحنا ثلاثة ، وسرعان ما أثبت لنا الدكتور مصطفى أنه لم يكن فرداً ، بل كان جمعاً ،

بل كان أمة بأسرها . وبدأ عمله كدليل لنا فنقلنا إلى فندق رخيص اختاره لنا قبل وصولنا ، ولم يكن الفندق يكلف الواحد منا أ كثر من أربعة جنيهات في الأسبوع تقريباً ، فأطمأن خاطرنا من هذه الناحية . وكان علينا قبل أن نبدأ حديثنا مع الانجليز ، أن نتحدث إلى المصريين فى بلاد الأنجليز ، ليكونوا عونا لنا فيما نحن بسبيله ولكى نتخذ منهم ردءاً لنا في جهادنا وكفاحنا هناك فلم يكن بقدرتنا أن نخطو خطوة واحدة ، إلا بعد أن نطمئن اليهم ويطمئنوا الينا .

وفى ٢٠ ديسمبر، أى بعد خمسة عشر يوما من مغادرتنا للاسكندرية، استطعنا أن نعقد أول اجتماع لنا فى عاصمة الأنجليز ، لنتحدث فيه إلى الطلاب المصريين . وقد أقيم الاجتماع فى مطعم فلورنس،ورأسه ذلك المصرى الذى اتخذ من عاصمة الأنجليز وطناً ثانياً وهو الأستاذ قرياقص ميخائيل ، وحضر الاجتماع عدد كبير من أعضاء البعثات المصرية فى مختلف الجامعات الانجليزية ، بحيث أعتبر الاجتماع من أنجح الاجتماعات المصرية التي شهدتها عاصمة الأنجليز .

وإليك نص خطابي الذي ألقيته فى هذا الاجتماع ، والذى يصور لك حالة مصر فى هذه الأيام ، وروح الكفاح التي كانت تغمرها ، والايمان الذي كان يعمر قلوبنا .

اخوانى الاعزاء

فى كفاحى الطويل الذى بدأته منذ خمس سنوات ، عندما ناديت بمشروع القرش وكنت طالبا فى كلية الحقوق . . منذ ذلك الوقت الطويل أيها الأخوان ، لم يمض أسبوع دون أن ألقى خطابا . . بل قد لايمضى يوم واحد لا أكون فيه وسط جماعة من الجماعات أشرح مبادىء مصر الفتاة ، وأدعو لها ، وأتكلم عن الوطنية وبرنامجها . ولكن صدقونى أن اجتماعا من هذه الاجتماعات : لم يشعرنى بخطورته ، ولم يملأنى هيبة له الا هذا الاجتماع ، فما هو السر فى ذلك ، وماهو تعليله ؟ لاشيء سوى أننا بعيدون عن الوطن العزيز ، وأن بيننا وبينه ألوفا من الأميال ، مابين بر وبحر ، وسهول وجبال . ولأننا

نعيش فى جو مكفهر بالعواصف ، والثلوج ، والأمطار ، والضباب . . أم لأنا نقيم في عاصمة الامبراطورية الانجليزية الضخمة التى جئنا نطالبها بالحرية والاستقلال ، فلا عجب اذا أحسسنا ونحن فى قلبها بشعور جديد يخالف هذا الذى اعتدناه .

الحق أيها الأخوان ، أن لكل هذه العناصر أثرا الى حد ما ، فى جعل هذا الاجتماع يمتاز عن مئات الاجتماعات التى نعقدها .. على أن العنصر المهم الذى يكسب هذا الاجتماع خطورة ، هو الأفراد الذين يتكونون منهم ، فقد اعتدنا فى مصر أن نخطب بعض أفراد الشعب ، وقد نضطر أنفسنا اضطرارا للهبوط الى مستواهم فى التفكير . . وقد نخطب شيوخا مفكرين من رجال السياسة ، فتبرد عواطفنا ، ونصطنع الحكمة والتدين اصطناعا ، وأخيرا قد نخطب وسط شبان ثائرين ، فتجرفنا حماستهم وتلقينا فى لجة من الثورة . أما اجتماع الليلة ، فقد جمع بين حماسة الشباب وتعقل الشيوخ وايمان العامة . فكل قوى مصر المختلفة ، تتركز فيكم أنتم أيها المجاهدون الذين جئتم الى هنا لتقاسوا الحرمان ، والأهوال من أجل تحقيق مثل أعلى لأنفسكم ، ولأوطانكم أولا وأخيرا . ليس فيكم الا من كان نابغة فى فنه ، فبعثت به الحكومة الى هنا ، أو مغامرا مقداما متطلعا للمعالى ، فجاء من تلقاء نفسه . وأنتم تعيشون فى بيئة خلقت المجد خلقا . . تعيشون وسط شعب لا يتمالك الانسان من أن يبدى اعجابه بمزاياه العظيمة ، بالرغم من كل ما بيننا من خصومة ونضال . فجمعتم بذلك بين نبوغ المصريين وعبقريتهم . ومزايا الانجليز وصفاتهم العالية . ولهذا ستعودون الينا لتكونوا قادة ، ولتكونوا زعماء . ولتنفعوا فى مصر بمستوى الادارة والحكم ، والسياسة والاقتصاد والأخلاق . وسوف تكونون نواة مصر الفتاة الحقة التى تريد لمصر مجدا تضيق به الدنيا بأسرها . .

ماذا تريدون أن تسمعوا

وبعد أيها الأخوان ماذا تريدون أن تسمعوا منا ، أتريدون أن أحدثكم عن بلادكم العزيزة ، قائلا آن النيل يجرى عذبا رقراقا تجرى فوق صفحاته الزوارق كالأعلام ، وفى طياته الذهب والثروة . . ويحمل لمصر فى كل عام الخصب والنماء والسعادة ، أى والله انه لكذلك .. وهل تشكون فى النيل وفى وفائه .. وهل تشكون فى النيل وفى عطفه ، ونحن الذين نعيش فى فيض كرمه وظل ثراه ، منذ عشرات الألوف من السنين .. أم تريدوننى أن أحدثكم عن السماء الصافية ، والشمس المشرقة . . أم أحدثكم عن نسيم الأصيل الذى طالما أنعش أرواحكم ونفوسكم المتضجرة من حرارة النهار .. أم أحدثكم عن الأهرام الخالدة رمز المجد والعظمة ، وناقوس اليقظة فى كل عصر وأوان ؟ . أم أن أحدثكم عن بلادكم بلدا بلدا ، وقرية قرية ؟. أم تريدون أن تتذاكروا تاريخ مصطفى وفريد وسعد العظيم وثروت . ؟ ! لا . . انكم لا تريدون أن تسمعوا منى حديثا فى هذه

الناحية ، لازهدا فى الحديث، ولكن لأنه حديث الأرواح ، والأرواح تتناجى بغير الكلام ، فان مجرد وقوفى بينكم ، وأنا القادم حديثا من مصر ، يعيد الي ذاكرتكم كل هذه المناظر الحبيبة الى نفوسكم ، فيختار كل منكم مايحلو له من ذكريات .. ويستلهم الخيال هذه الصورة التي يعشقها أكثر من غيرها ، ويحن اليها حنين الطفل الى أمه .

مصر العاصفة

أفتريدون اذن أن أحدثكم عن مصر العاصفة ، التي تقرأون عنها فى الجرائد . مصر التى قامت شبابا وشيبا تدافع عن كرامتها المهدرة ، واستقلالها المجروح . مصر التى التأمت ساعة الخطر ، فأدهشت الدنيا بأسرها ، وجعلت الانكليز يعملون لمصر حسابا وأي حساب . مصر التي قام شبابها الغض يقابل الرصاص من جديد ، ويهتف فى أنفاسه الأخيرة « مصر فوق الجميع » شباب مصر الذي اندفع يوحد الصفوف وينظمها ، ويعد أساليب الكفاح ، ولكنكم تطالعون الجرائد فى كل يوم ، وهى تحمل دائما عن مصر كل جديد وتطالعون الجرائد المصرية وهى تمدكم بكل تفصيل . . وماذا حدث فى مصر غير ما يتوقعه أى واحد منكم ؟ ! يقول البعض أن ماحدث فى مصر لم يكن متوقعاً وأنه جاء مفاجئاً . . ولكن هؤلاء الذين يعتقدون ذلك أحرى بهم ألا يكونوا مصريين ، أو أن يكونوا جاهلين بتاريخ مصر . وهل كانت ثورة ١٩١٩ ثورة متوقعة ؟ ! هذه الثورة التى هزت انجلترا هزا والتى أيقظت الشرق بأسره هل كانت متوقعة من قبل ؟ أو لم يخيل للانجليز أنهم فرغوا من القضية المصرية ، وأن الحماية التى كانت علاقة مؤقتة يجب أن تنظم بحيث تصبح علاقة دائمة ، تمهيداً لضم مصر للتاج البريطانى .. ؟ ثورة سنة ١٩١٩ وما أدراكم ما هى أيها الأخوان . أو لم تتألف المظاهرات من الوزراء والمستشارين ؟ ! هل كانت انجلترا تتوقع ذلك ؟ ! هل كان العالم بأسره يتوقع ذلك ؟ ! لا .. ولكنها مصر الخالدة ذات الحيوية الكامنة .. (١)

هذه الحيوية الكامنة هي التى ثارت فى الأيام الأخيرة عندما خيل للانجليز أن مصر لم تعد فى عالم الحياة، وأنهم يستطيعون أن يتصرفوا بمصيرها كما يشاء لهم الهوى ، وأنهم يستطيعون أن يستردوا ما لمصر من حقوق كانوا هم أول من اعترفوا بها فيحولون بينها وبين الدستور ، ويحولوا بينها وبين أن تدافع عن نفسها .

---

(١) كان الخطيب يستعرض فى هذا الموضع صوراً من الحيوية المصرية مأخوذة من تاريخ مصر وقد سبق سردها في أكثر من خطبة ماضية ولذلك فقد استغني عن اثباتها هنا .

عدوان الانجليز على مصر

خيل للانجليز أن الشبان قد امتلئوا جبناً وفزعاً ، وأنهم قد فرغوا الي شهواتهم ، فاذا بهم يزأرون ويزمجرون ، واذا بهم يستقبلون الرصاص ويكللون الأرض بدمائهم ، ليسجلوا على الانجليز العدوان والاستبداد .

وخيل للانجليز أن الموظفين قد استناموا وحرصوا على مناصبهم ، وعلى طعامهم، فاذا القضاة وأساتذة الجامعة فى طليعة الثائرين الناقمين .

وأخيراً خيل للانجليز أن الهوة قد اتسعت بين المصريين فلن يتقابلوا أبداً وأنهم قد نجحوا فى تمزيق الوحدة الوطنية : فاذا بالمصريين فى عشية وضحاها يتقابلون بنعمة الله اخوانا واذا بالنحاس وصدقى ومحمد محمود وحافظ رمضان وعلى الشمسى وعبد الفتاح يحيي يعلنون الملأ بأسره أن مصر تريد ، واذا أرادت مصر فان ارادتها من ارادة الله، لأنها كانت دائماً الأرض المقدسة التى تحمل نعمة الاله .

هاجت مصر وماجت ، ولم يكن هياجها كما خيـل للانجليز ، أو لبعض المصريين ، من أجل دستور يرد أو من أجل وزارة تسقط ووزارة تجيء ، ولـكن مصرهاجت لأنها تريد استقلالا كاملا، وحرية مطلقة، تريد أن تتمتع بحقوقها فى الحياة فى الوقت الذى يعلنون فيه حمايتهم للأمم الضعيفة واحترامهم للعهود والمواثيق ، وفى الوقت الذى يدافعون فيه عن سلامة الحبشة واستقلال الحبشة ، يطالبوننا بأن ننسي استقلالنا ويستخدمون أرضنا وهواءنا وأموالنا ، من أجل الدفاع عن هذا الاستقلال .. ونحن ، نحن أيها الموطنون ، أو ليس لنا استقلال نحن أيضاً ؟!. أوليست لنا كرامة نحن أيضا؟!. فأية مهانة أكثر من أن يطلب منا أن ندوس كرامتنا كيما ندافع عن كرامة الآخرين! أى مهزلة هى، أن يطلب منا أن نترك أرضنا للاستعمار والاحتلال من أجل الدفاع عن استقلال الآخرين .

من ذلك الغر الذى يخيل له أن مصر ما كان يمكن أن تثور على هذه الأوضاع المقلوبة وتحنق ؟ ! من ذلك الجاهل المفتون الذى يعتقد أن مصر لا تفهم مايجرى حولها !! لم يكن عجيبا أيها الاخوان أن تثور مصر ، بل كان العجيب غير ذلك . لم يكن عجيبا أن يتمرد المصريون بل كان العجيب أن لا يفعلوا ذلك. وهل يعوزكم الدليل على قوة المصريين وعلى شجاعتهم التي لا نظير لها فى الدنيا بأسرها . . هل تريدون الدليل الذى يجعلـكم ترفعون رءوسكم افتخاراً واعتزازاً بمصريتـكم . . هذا هو الذى حدث فى مصر انه أعظم برهان وخير دليل .. فقد وقعت الثورة فى مصر فى وقت تقود فيه انجلترا العالم ، جاءت فى وقت يرابط فيه الأسطول الانجليزى بأسره فى ميناء الاسكندرية ، بينما كان يخيل للانجليز أنهم يخيفون مصر بارسال بارجة أو بارجتين ، فلما امتلأت مصر بالجنود البريطانية، ولما وفدت الأساطيل الانجليزية كلها الى مصر ، قامت مصر تدافع عن كرامتها ، ولا سلاح لها الا أن تموت من أجل حقها ، ولا سلاح لها الا دم يجري فى عروق أبنائها نارا ، وهم على استعداد لاراقته من أجل بلادهم .

انتصار مصر

ولقد هزت مصر انجلترا هزا ، ولقد أحرجت مصر مركز انجلترا احراجا ، ولقد اضطرت انجلترا أن تتراجع واضطرت انجلترا أن تسحب اعتراضاتها ! واذا كان المصريون هم أول من صاح «يسقطهور» فانه لم تمض بضعة أيام على هذه الصيحة حتى سقط هور صريعا ، ألم أقل لكم ان ارادة مصر من ارادة الله .

ائتلفت الأحزاب فى مصر اذن ، وعاد الدستور بالتالى ، ووقفت مصر جبهة واحدة تطالب بالاستقلال الكامل والغاء الامتيازات وتعزيز الدفاع الوطنى والدخول الى عصبة الأمم ، وسوف تدرك مصر كل هذه المطالب بالايمان والعزيمة ، وسوف تدركها حتما ان اليوم أو غداً .. سواء رضيت انجلترا أو لم ترض .

دور الشباب فى الحوادث المصرية

بقي أن نعرف من هو مؤسس هذه الحركة الأخيرة ، ومن هو مشعلها . بقى أن نعرف من هم الذين ظفروا لمصر بكل هذا الانتصار ، وكل هذا الربح . أهم رجال السياسة والحكمة واللباقة ، أم رجال الايمان والتضحية والتهور .. انهم الأخيرون أيها السادة ، انهم الشباب الذين قادوا الموقعة ، وانتصروا ، انهم الشباب الذين أملوا ارادتهم فى مصر وانجلترا ، فحق لنا الانتصار ، انهم الشباب الذين ماتوا وهم يصرخون «مصر فوق الجميع» فهتافا للشباب واكبارا !

هذه حقيقة يجب أن تسجل كيما نرسم برنامجنا على ضوئها ، هذه حقيقة يجب أن تستقر فى كل نفس كيما نبنى المستقبل على أساسها ، فالشباب اليوم هو كل شىء ، ولا نجاة لمصر الا أن تسلم مقاليدها للشباب . والشباب هو وحده الذى لم تلوثه المطامع والشهوات ، وهو وحده الذي يرغب في الجهاد من أجل الجهاد ، وهو وحده الذى يموت سعيداً مادامت آخر كلماته المجد لمصر . ومصر فى حاجة الى كفاح طويل ، وتضحية ، وقوة ، والشباب هو وحده القادر على الكفاح ، لأن قناته لم تزل صلبة ، وهو وحده القادر على التضحية ، لأنه لايملك شيئا يخاف عليه أو يحرص على اقتنائه ، لا أولاد ولامناصب ولارتب ولاجاه ، والشباب هو وحده الذى يقدر على القوة لأنه قوى بايمانه ، وقوى باعصابه ، وعضلاته ، وهو القادر لأنه فى كل يوم يزداد قوة بعكس الشيوخ الذين ينحدرون الى هوة الفناء والضعف .

مصر الفتاة والكفاح الجديد

وتلك هي مصر الفتاة أيها الاخوان .. أنها الشباب ، وانها الكفاح والتضحية والقوة وهذه هي القواعد الثلاث التي ترتكز عليها حركتنا الجديدة فقد انقضي الوقت الذى كان يخيل للمصريين أن كل مايرونه هو استقلال محدود فى حدود الأمبراطورية البريطانية ، انقضى الوقت

الذي كان يخيل فيه المصريين أن قدرتهم على مجابهة الأمبراطورية الانجليزية قدرة محدودة . وأننا ان شئنا الاستقلال أو الحرية فلا سبيل لنا الا الاستجداء والاستخذاء والتمسح باعتاب الانجليز .. لا ، أيها الأخوان ، لقد انقضى ذلك الوقت ، وقت الجهل والخمول ، فان الاستجداء لا يليق الا بالشحاذين لا بشعب عريق يريد الحياة ، فالتمسح بالأعتاب والاستخذاء لا يليق الا بالعبيد، لا بشعب حر سوف يقود العالمين . ومتى كان الاستخذاء والضعف سبيلا للحصول على الاستقلال ؟! متى كانت هذه هي أسلحة الجهاد والكفاح ؟! لا .. أيها السادة انما ينال الحرية من يشتري الحرية ، والحرية تشترى بالدماء، وينال الاستقلال من يحقق الاستقلال، والاستقلال يحقق بجلائل الأعمال . أي دولة من دول أوربا قد اشترت حريتها واستقلالها بغير الحديد والنار، وبغير الدم والتضحية.

أما بولاندة ، والتي تقاسمتها ثلاث دول عظام ، فقديما قال عنها نابليون ان حدودها سترسم حيث يسيل الدم البولونى .

أما ألمانيا ، فقد قال عنها بسمارك أن وحدتها ستحقق بالحديد والنار، لا بمناقشات فى البرلمان.

وأما ايطاليا ، فقد كافحت وحاربت حتي انتصرت .

وأما تركيا ، فقد ظفرت عندما عرفت كيف تطرد الغاصب من بلادها .

فنحن أيضا لا سبيل لنا الى الحرية والاستقلال ، الا بان نكافح ، وان نقوى ، وأن تجاهد ، وأن نضحى ، وأن نعمل ، وهذا هو كفاح مصر الفتاة . نريد أن نحصل على حريتنا ، وأن لا نبخل بأى ثمن فى سبيل هذه الحرية . نريد أن نحصل على استقلالنا بأن نعمل في كل يوم من أجل هذا الاستقلال . وذلك بأن نبنى فى كل مكان ونعمل فى كل مكان .

برنامجنا الانشائى

وفى الميدان الاقتصادي ، نريد أن نحصل على استقلالنا الاقتصادى ، فلا نلبس الا ما صنع فى مصر ، ولا نأكل الا طعاما مصريا ، ولكي يتحقق ذلك نريد أن نشجع المصانع المصرية ، والصانع المصرى ونريد أن نؤسس الشركات والبنوك الصناعية لخلق المصانع . وفى الاجتماع ، نريد أن نقضى على الأمية ، وأن نعلم الفلاحين ، وأن تدخل النور والسعادة الي القرية المصرية ، وأن نعيد بناءها .ونريد أن نصلح مناهج التعليم ، كيما نخرج رجالا وجنودا عاملين ، وليس كما نفعل الآن نخرج متعطلين . ونريد أن نتطور بالزراعة ، وأن نضاعف كميات الأراضي المنزرعة ، وأن نستغل كنوز الثروة المصرية ، وأن نخرج من مصر الحديد ، وأن نولد الكهرباء . ونريد أن نشجع التأليف والاختراع والأبحاث ، وأن نجند الشعب فى الميادين الرياضية . ونريد أن ننظم المدن المصرية من جديد ، وأن نعود الشعب النظافة ، ونريد أن نعيد السلام الى الأسرة ، وأن نقوى دعائمها وأن نشجع على الزواج .

وفى كلمة أيها الأخوان ، نريد أن نبني استقلال مصر بأيدينا ، وعزائمنا، ولكن دون تنفيذ هذا البرنامج وغيره عقبات وعقبات ، هى قيود الاستعمار والامتيازات ، وكل من الاستعمار والامتيازات يجب أن يحطم سريعا ، فلسنا نطيق بعد اليوم ، أن تكون انجلترا محتلة لمصر ، وأن نري فى القاهرة والأسكندرية جنودا انجليزية ، تخترق الشوارع المصرية. ولسنا نطيق بعد اليوم ، أن نرى أجنبياً يرفع الرأس شامخاً بأجنبيته ، ويحتمي بالامتيازات والمحاكم المختلطة ، فلا أقل من ان يتساوي الأجنبي والمصرى في بلاد المصرى ، ويكون الأجنبي بذلك ممتازاً عنه فى أى مكان آخر فى الدنيا بأسرها حيث لا يتمتع الأجانب بحقوق الوطنيين. فالامتيازات يجب أن تلغى حالا ، والمحاكم المختلطة يجب أن تدك من أساسها ، والاحتلال البريطانى ، وكل تدخل بريطانى فى الشؤون المصرية الداخلية ، يجب أن ينتهى حالا وأن يحل محل ذلك كله تعاون ودي صادق بين البلدين ، فى شبه معاهدة دفاعية هجومية ، وبهذا يكسب الانجليز صداقة المصريين ، وصداقة المصريين ليست بالشيء الذى يستهان به ، بل انها ألزم للامبراطورية الانجليزية من كل قواتها فى طريقها الى الهند . لأن مصر اذا انضمت الى أعداء انجلترا ، فى أى حرب قادمة ، فان هذا معناه أكبر خطر يهدد انجلترا . . واذن فنحن نريد السلام بيننا وبين الانجليز ، نريد التعاون والصداقة ، ولا تعاون ولا صداقة الا اذا أعطينا حريتنا كاملة ، وأطلقت أيدينا فى استقلالنا ، وفى زيادة جيشنا ، بحيث يتناسب مع مطالب مصر والدفاع عنها .

وسائلنا

هذه هى مصر الفتاة أيها السادة ، وهذا هو برنامجنا ، فاذا سألتمونى وما هو الطريق الذي نسلكه للوصول الى كل هذه الغايات ، فانى أجيبكم أن الطريق هو الايمان ثم العمل.

أما الايمان فهو أن نؤمن بالله ، وأن نخلص له ، وأن نعتقد بقدرته ورعايته المؤمنين فنستمد منه العون والتأييد فطوبى لهذا الذى يكون الله فى عونه ، وويل لهذا الذى تتخطاه العناية الألهية . . فالايمان بالله هو رأس مال الكفاح ، لأن الذى لا خير فيه لخالقه لا يمكن أن يكون فيه خير لوطنه .

ومن ايماننا بالله نستمد ايماننا بأنفسنا ، واحقيتنا فى الحياة ، وماضينا الذهبي وحاضرنا الفتى ، ومستقبلنا المشرق .

طريقنا هو الايمان ، فكل هؤلاء الذين حققوا استقلال بلادهم ، ومن قبلهم كل أولئك الرسل ، الذين حملوا للانسانية مشعل النور ، لم يكن لهم من رأس مال الا الايمان . فالايمان يفعل المستحيل ، انه يدك الجبال ويذيب الحديد . فاذا ما آمنا فسيتبع الايمان العمل. والعمل والايمان متلازمان دائما « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات ...الآية » . والعمل الذى نعنيه هو أن ننظم جموع الشباب فى جماعات شبه عسكرية ، تخضع لتعاليم ونظم عسكرية ، تفهم معنى الجهاد وتتدرب عليه ، وتنفذ كل ما يلقى اليها من تعاليم .

هذه الجماعات المنظمة ، وما نسميها فى جميتنا كتائب المجاهدين ، هى التى سوف تحقق استقلال مصر . لا بل وسوف تعيد بناء الامبراطورية المصرية وترفع مصر فوق العالمين.
سوف تعيد بناء الامبراطورية المصرية التى تألفت على مر الدهور ، والتي تتألف من مصر والسودان وتحالف الدول العربية وتتزعم الاسلام .

أسئلة . . .

لاتسألونى وكم عدد الأعضاء الذين انضموا الى الجمعية ؟ وكم عدد الذين يلبسون الأقمصة الخضراء ، والى أى مدى نجحتم فى مصر ؟ لاتسألونى عن ذلك كله ، ولكن اسألوا انفسكم هل أنتم مستعدون أن تشاطرونا هذا الجهاد وان تشاطرونا ايماننا أم لا ؟ ! هل تعملون وايانا على بناء الاستقلال أم لا ؟!

مهمتنا فى لندن وفى أوروبا

بقى أن تسألوا سؤالا واحدا وهو ما الذى نبغيه من حضورنا الى هنا وما الذى فعلناه حتى الآن — وليس فيكم من لم يقتنع من كل هذا الذى قدمته، اننا أكثر الناس اقتناعا بان قضيتنا ستحل بايدينا ، وستحل بجهودنا ، لا باستجداء الانجليز والتمسح باعتابهم — ولذلك فنحن لم نأت الى هنا كيما نشحذ الأستقلال ، أو تتمسح بأعتاب أحد ، ولكننا جئنا ، بكل اخلاص ، لنعرض قضية مصر على الانجليز . جئنا لنقول لهم ، اننا ونحن أكثر الناس تطرفا فى وجهة نظرهم ، ونحن أكثر الناس كفاحا من أجل الاستقلال ، نستطيع أن نضع أيدينا فى أيديهم باخلاص ، اذا ما احترموا استقلالنا وحريتنا — أما اذا لم يفعلوا ذلك ، فيجب أن يضعوا فى حسابهم أن مصر بشبابها تعمل فى كل يوم ، وتجاهد من أجل غايتها ، وهى سوف تحصل على هذه الغاية رغم أنف الجميع ، وعندئذ تشعر انجلترا انها قد أخطأت ، وأنها قد أساءت التصرف ، يوم لم تصغ لصوت التعاون والصداقة والحرية .
وأحمد الله أن كنت أنا وأخى فتحي أمينين على هذه الرسالة ، فى أحاديثنا مع بعض النواب الانجليز ، مثل ما فى الكراسة التى نعدها للطبع ، مثل ما فى خطاباتنا التى سوف نلقيها على مسامع النواب المسؤلين ، تحدثنا ، وسوف نتحدث ، بهذه الصراحة التى حدثتكم بها الآن وبوجهة النظر هذه . وكم يسعدنى أن أقول لكم ان كل من حدثتهم قد أحلوها محل الاعتبار .
وسوف نبارح لندن الى جنيف عندما نرى أن وجودنا فى لندن لم يعد مثمرا ، وسوف نبارح جنيف الى مصر عندما نعرف أن وجودنا فى جنيف لم يعد مثمرا ، وهذا هو كفاحنا أيها السادة ، لا نضيع دقيقة واحدة من حياتنا ، لا نستغلها من أجل كفاحنا .
وليس هذا بعجيب لأن مبدأ مصر الفتاة يقول :
« حاسب نفسك كل ليلة ماذا قدمت من أجل بلادك » .
وهذا ما نفعله بالليل وبالنهار ، وفى كل دقيقة ، أن نحاسب أنفسنا ماذا فعلنا من أجل بلادنا واستقلال بلادنا ، والله يوفقنا والله يرعانا . والمجد لمصر

قرار المجتمعين

وعقب سماع هذا الخطاب قرر المجتمعون إرسال البرقية التالية لرئيس وزراء انجلترا ووزير خارجيتها وزعماء أحزابها :

« الطلبة المصريون في جامعات انجلترا الذين يرمزون إلى التعاون الودي بين الأمتين الانجليزية والمصرية ، والمجتمعون بحضور الأستاذين أحمد حسين وفتحي رضوان مندوبي مصر الفتاة يلتمسون من الحكومة الانجليزية أن تسرع باجابة المطالب القومية ، بابرام معاهدة التحالف بين البلدين ، وتعزيز الدفاع الوطني ، والاعتراف بحقوق مصر الكاملة في السودان وانهاء الاحتلال ، وعدم الاعتراض على إلغاء الامتيازات والمحاكم المختلطة ، وبهذا تستطيع انجلترا أن تكون واثقة من اخلاص المصريين ومعونتهم الصادقة المثمرة تحية للامبراطورية العظيمة والمجد لمصر »



الكفاح فى لندن

— ١٥ —

بدأ الفرسان الثلاثة يكافحون في لندن كفاحا مستميتا جبارا، يفوق كل تصور أو خيال، فقد كان على هؤلاء الثلاثة أن يهزوا عاصمة امبراطورية، وأن يحملوها على الشعور بهم، والأحساس بوجودهم، والاستماع بعد ذلك لقضيتهم. ولو أن زيارتنا لمدينة لندن كانت في ظروف عادية فى خلال سكون الأحوال فى مصر، لما استطعنا أن نفعل قليلا أو كثيرا، ولكن يقظة الشعور فى مصر، وسقوط هؤلاء الشهداء من شباب مصر، قد جعل كل انجليزى يلتفت نحو مصر، فلا يكاد يسمع بنبأ وجود وفد من شباب مصر حتى يتلهف على مقابلته واستطلاع ماعنده من قول . .

ولذلك فقد شرعنا فى كتابة عشرات من الخطابات إلى الشخصيات البارزة، من رجال السياسة الانجليزية المشتغلين بالقضية المصرية، نوابا ولوردات، ورجال صحافة، ولقد تلقينا الردود دائما على خطاباتنا، وهى تحدد لنا موعدا لمقابلة من نرجو مقابلته. فقابلنا رؤساء تحرير الصحف جميعهم، واستمعوا لما عندنا من بيانات، وقابلنا السير جون وارد لوملن رئيس اللجنة المصرية فى البرلمان الانجليزى، والسير مردوخ ماكدونالد النائب الانجليزى، وجرت لنا مع الرجلين أحاديث ومباحثات، وقابلنا أحد اللوردات المشتغلين بالمسألة المصرية، والمسائل الشرقية على العموم، وهو اللورد لا نجتون. ثم شرعنا فى مقابلة زعماء المعارضة، فقابلنا زعماء العمال الثلاثة أتلى ولانسبورى وجرينوود. وقد كان الميجر أتلى هو زعيم العمال البرلمانى الرسمى، والمستر لانسبورى هو زعيم حزب العمال المحبوب الذى يتمتع بأكبر شخصية شعبية فى انجلترا. وفي كل هذه المقابلات كنا نشرح وجهة نظر الشباب المصرى فى حرارة وقوة، فكان محدثونا لا يسعهم الا أن يتأثروا باخلاصنا، وأن يكبروا هذه الشجاعة والجرأة التى دفعتنا الى المغامرة إلى بلاد الانجليز، بغير حول أو طول أو صفة رسمية، لكى نحادث قادة الانجليز.

وبدأ البرود الانجليزى يذوب أمام حرارة الايمان المصري ، ففتحت لنا الأبواب ، ودعينا إلى مختلف الاجتماعات ، على أن أعظم ماحصلنا عليه من نصر في هذه الفترة جزاء وفاقا لما بذلناه من مجهود متواصل بالليل والنهار ، هو دعوتنا لشهود مؤتمر العمال الاشتراكى فى جامعة كارديف ، والتحدث فيه عن القضية المصرية . وقد كان الفضل الأكبر فى تلقينا هـذه الدعوة يعود إلى زميل مصرى ، هو الأستاذ محمد يحيي الذي كان شديد الصلة بحزب العمال فاستطاع أن يحصل لنا على هذه الدعوة الكريمة . ولعل من الطريف أن يعرف القراء أن طلاب جامعة لندن من الانجليز ، وفى جامعة كارديف كان يدعو بعضهم بعضا لسماع خطبنا بالأعلانات الآتية «شاب مصرى ممن يقتلون الانجليز في مصر يعرض القضيـة المصرية » « هل تريد أن تحي طلبة الجامعة المصريين وأن تتلقى عليهم درسا فى الشجاعة ومكافحة الظلم » . ولعل ذلك يعطى القارىء فكرة عن كيف استطاع الشباب المصرى فى هذه الفترة أن يثير اهتمام شباب العالم كله واعجابه .

وسافرنا الى مدينة كرديف ، وحضرنا مؤتمر الطلبة الاشتراكيين الذى عقد فى جامعة كارديف . ودعيت إلى الخطابة لأول مرة وسـط الانجليز وكان جو البرود الذى يسود اجتماعهم قد ملأنى فزعا ، من مواجهتهم بحرارتى الشديدة ، فالانجليز يخطبون وهم يتثاءبون ، ويتكلمون وهم يغمغمون ، ولا يكاد الخطيب منهم يخرج يديه من جيوبه ، أو يكف عن مواصلة التدخين إبان خطابه ، وإذا كان ذلك هو حال الخطيب فتستطيع أن تتصور حال السامعين . .

والقوم هناك لايبدون الاستحسان بالتصفيق !! وانما يغمغمون بكلمة (اسمعوا ، اسمعوا) كعلامة على الرضاء والتقدير !! فاذا اشتدت بهم الحماسة ، فقد يزيدون على ذلك أن يحكوا أقدامهم في الأرض هذا كل ماهناك .

وقد كنت مذ وطأت أقدامى أرض انجلترا وأنا أتعـلم الانجليزية ، فأطالع الجرائد كل صباح وأحفظ كل كلمة نافعة ومفيدة ، وأحاول أن

أتكلم مع كل انجليزى فى الشارع ، وأخيراً جعلتنى المقابلات والمحادثات المتعددة مع الساسة الانجليز ، أعرف كيف أستعمل الكلمات اللازمة لشرح وجهة نظرى . وقد كنا قد أعددنا الخطبة التي سألقيها في هذا الاجتماع، وكنت سأتلوها من ورقة في جيبي ، ولكنى بعد أن حضرت هذا الاجتماع وشاهدت كيف تنهال الاسئلة على المتحدث بعد أن يفرغ من القاء حديثه ، تهيبت الموقف وترددت عن الكلام في هذا الجو الغريب . ولكن رئيس المؤتمر قطع على ترددى إذ أعلن الحاضرين أنه قد وفد إلى الاجتماع مندوبو الشباب المصري وسيحدثوننا عن القضية المصرية في عشر دقائق .

ووجدت نفسى عند منصة الخطابة وعيون الأنجليز تحدق بي من كل جانب فغلى الدم فى عروقى وامتلأت بالأرادة والعزم أن أمثل الشباب المصري فأحسن تمثيله وأن أتحدث عن القضية المصرية فأجيد الحديث . . واندفعت أتلو الخطبة التي تلوتها من قبل أكثر من عشر مرات ، ونسيت أننى فى انجلترا ، ولم ألق بالا لأسلوب الأنجليز أو برود الأنجليز ، وخطبت كما لو كنت أخطب الشباب المصرى ، وارتفع صوتي مجلجلا فى سماء المكان ، وأهويت على المائدة بقبضة يدى مؤكداً ما أقول من عبارات ، فاذا بالمعجزة تتم ، وإذا بالحضور يضجون بالتصفيق والتهليل ، وإذا بالاجتماع يتحول إلى اجتماع مصري شرقى يفيض بالحرارة والحماسة .

قلت للقوم « إن وقوفي بين أيديكم وأنا الذى أمثل الشبان المتطرفين هؤلاء الذين يصيحون الآن فى شوارع القاهرة « لتسقط انجلترا » يدلكم على أننا لا نكره البريطانيين ولكننا نكره سياستهم القائمة على البطش والقوة وانتهاك الحقوق والوعود » . (عاصفة من التصفيق)

إنى أقول لكم أن مثل هذه السياسة لا يمكن أن تؤدى إلى النجاح لأنها سياسة غير طبيعية . فالطبيعة لا تعتمد على التعسف والبطش ولكن تعتمد على التعاون والتآزر والتآخى (تصفيق) ولقد سبقتكم امبراطوريات ، أذكر منها الامبراطورية الرومانية وقد اعتمدت هذه الامبراطورية على

التعسف والبطش فماذا كانت نتيجتها ، كانت نتيجتها الزوال والانحلال فهؤلاء الذين يتبعون نفس السياسة إنما يحفرون قبر انجلترا بأيديهم ، والكلمة الآن لكم أيها الشبان وأيها العمال . فهل تريدون أن تنهار دولتكم كما انهارت تلكم الدول التي سبقتكم أم تريدون الاحتفاظ بكيانكم . . . أن ذلك يتوقف على سياستكم المستقبلة » .

أى والله هذا كلام قيل فى وجه الأنجليز وفى عقر دارهم ، قيل في قوة وشجاعة فلم يتمالك الأنجليز إلا أن يصفقوا وأن يؤيدوا . .

ومضيت فى خطابى شارحا مطالب مصر وقضية مصر فى ايجاز وانتهيت وسط عاصفة من التصفيق عند انتهاء العشر دقائق المحددة لى . ووقف المستر جرينوود زعيم العمال الذى كان يشهد الاجتماع على أثري قائلا « أن هذا التصفيق جزء مما يستحق خطيب الليلة الذى أهاج مشاعرنا وهز عواطفنا وإنى لأعجب إذا كان هذا مبلغ تأثيره فينا نحن الأنجليز فكيف يكون مبلغ تأثيره فى مواطنيه فى مصر .

والآن أعلن باسمكم جميعا وأبعث بتحياتنا إلى شبان مصر المجاهدين وأدعوكم إلى وضع قرار نبعث به القاهرة ليعبر عن رأي شباب هذه المملكة في شباب مصر » .

ودارت مناقشة حول القرارات المقترحة وأخيرا أصدر مؤتمر الطلبة الاشتراكيين البريطانيين العام المنعقد فى جامعة كارديف فى أوائل سنة ١٩٣٦ القرارات الآتية :

« أن هذا المؤتمر

١ — يؤكد تأييده المطلق لكفاح الطلاب المصريين من أجل الدستور وحقهم فى الاستقلال والانضمام إلى عصبة الأمم .

٢ — يبدى استنكاره الشديد للأساليب التى يتبعها بعض الأنجليز في مصر لقمع المظاهرات .

٣ — يؤيد حزب العمال بكل قوة كفاح المصريين . »

وقد وافق المجتمعون على هذه القرارات بالاجماع وسط التصفيق والتهليل وأرسلت صورها إلى جميع الجرائد الأنجليزية والمصرية فكان لها دوى منقطع النظير وشعر المصريون أن وفد مصر الفتاة قد بدأ يحصل للقضية المصرية على انتصارات رائعة فى عاصمة الأنجليز.

رسالة

قد وصلنا إلى انجلترا ، وقد وضعنا نصب أعيننا أن نضع رسالة صغيرة عن القضية المصرية نبسط فيها وجهة نظرنا ، ثم نوزعها على الصحف وعلى رجال السياسة فى كافة أنحاء الامبراطورية ، وبينما كنا نزاول نشاطنا الذى شرحت لك طرفا منه فيما سبق ، كان العمل فى إعداد هذه الرسالة يجرى فى نفس الوقت . ولقد اشتركنا ثلاثتنا ، الدكتور مصطفى الوكيل والأستاذ فتحى وأنا ، فى وضع أصول هذه الرسالة باللغة العربية ، ثم عمد الدكتور مصطفى إلى ترجمتها باللغة الأنجليزية ، وعاوننا الأستاذ محمد نجيب المصرى النابه الذى يعيش في انجلترا مشتغلا بالصحافة ، عاوننا الأستاذ في تركيزها وصبها فى قالب انجليزى محكم . وقد تم وضع الرسالة وعهد إلى إحدى المطابع بطبعها، فأخرجت لنا بضعة آلاف على ما أذكر . وزعناها في جميع أنحاء الامبراطورية ، فصادفت نجاحا عظيما وأثنى عليها كل من طالعها من حيث الشكل والموضوع . فقد أعجب الأنجليز بصياغتها الأنجليزية الرائعة ، وقد كان الفضل فى ذلك يرجع إلى الأستاذ محمد نجيب بطبيعة الحال، كما أنهم أعجبوا بما تضمنته من حجج دفاعا عن القضية المصرية واستعراضا لمختلف أدوارها ، كما طالعوا فيها لأول مرة إيمان الجيل الجديد فى مصر ببلاده وكفاحه، لا فى سبيل حريتها واستقلالها فحسب بل وفى سبيل مجدها وعظمتها أيضا .

وإنى اكتفى باثبات القسم الأخير من هذه الرسالة ، وهو الذى تضمن مطالب مصر فى ذلك الوقت كما عبر عنها الرأى العام . ويلاحظ عليه بطبيعة الحال الأسلوب الهادىء ، المدعم بالحجج ، وذلك أننا كنا نكتب للأنجليز،

ولا سبيل لحمل الأنجليز على مطالعة مقال ما ، إلا إذا كتب بأسلوب خاص مركز تساق فيه الحجة على كل رأى يبدى . وإليك الآن نص هذا الجزء الأخير من الرسالة :

المطالب الوطنية

١ — تعاون حر ، وتحالف شريف بين مصر وانجلترا .
٢ — استقلال مصر التام ، وسيادتها الكاملة .
٣ — الغاء الامتيازات ، والمحاكم المختلطة .
٤ — الغاء ادارة الأمن العام الأوروبية .
٥ — حق مصر فى تقوية دفاعها طبق حاجاتها الضرورية ، وجعل التجنيد اجباريا .
٦ — الاعتراف بحقوق مصر الكاملة فى السودان .

هذه هي المطالب التي تحتاجها مصر سريعا لاستكمال استقلالها وهذا ماجئنا نطالب به لمصلحة الطرفين مصر وانجلترا .

ومن الواضح أن تحقيق هذه المطالب لمصلحة مصر ، ولكن ما يحتاج الى شيء من التفسير هو مصلحة انجلترا فى تحقيقها ، وهذا هو ما سأشرحه فى الأسطر التالية .

انجلترا وايطاليا

أما عن تقوية الجيش والتحالف الحر الشريف فتتجلى أهميته من الأزمة الدولية الحالية؛ لقد أثبتت الحرب الايطالية الحبشية ، وأثبت النزاع الذى قام بين ايطاليا وانجلترا حول مبادىء عصبة الأمم أن ايطاليا استطاعت أن تحشد على حدود مصر أكثر من مائة ألف جندى وأن تتبعهم بمائة ألف جندى آخرين وهكذا . . واذن فان البضعة آلاف جندى انجليزى فى مصر يصبحون فى مأزق حرج اذا ماقامت الحرب بين انجلترا وايطاليا ، ويصبح مركز انجلترا الحربى معلقا تماما على أسطولها الجوي والهوائى ، فأما أن يحصل على انتصار حربى كامل فى البحر والجو ويحول بين الايطاليين وبين التوغل فى مصر ، وفى هذه الحالة تكون هذه البضعة الآلاف جندى انجليزي في مصر زيادة عن الحاجة ولا عمل لها واما أن يفشل الأسطول الهوائي والجوى فى حماية مصر بحيث تنساب اليها ألوف الايطاليين ، وعندئذ يصبح مصير الجيش الانجليزى في مصر معروفا منذ الآن ، وأعنى به الفناء عن بكرة أبيه .

فالحد الفاصل اليوم مثل ما كان فى القديم هو الأسطول الانجليزى في الهواء والماء وقدرته على العمل ، فاذا انتصر فلا حاجة لجيش الاحتلال ، واذا انهزم فالويل لجيش الاحتلال .

كل هذا بفرض أن مصر تبقى على الحياد . . ولكن مصر لايمكن أن يكون ذلك موقفها مطلقا حيال حرب تقوم على أرضها وفى سمائها، فهي اما أن تأخذ هذا الجانب أو ذاك، ويتوقف على سياسة انجلترا حيال مصر أي الجانبين تختار .

موقف مصر اذا ما قامت الحرب

هل تقف انجلترا بجانب مصر موقف الحليف الطبيعي، فتحترم عهودها وتعترف لمصر بكل حقوقها ، واذن فان على مصر أن تدافع عن كيانها واستقلالها ومصالح انجلترا حليفتها ، أو أن انجلترا تحاول أن تقهر مصر وأن تسلبها حقوقها وأن تحطم سيادتها ؟ اذا كان الأمر كذلك فان انجلترا يجب أن تخرج من حسابها معونة مصر، وأن تتوقع على الضد عداءها، فهل تريد انجلترا معونة مصر القوية دائما، أو تريد أن تبقى فى نزاع دائم من الميدان المصري ؟ الكلمة الآن لانجلترا لتفصل فيها .

الامتيازات

أما بالنسبه لالغاء الامتيازات والمحاكم المختلطة ، فان الغاءها لن يمس بأي حال من الأحوال مصلحة انجليزية ، بل على العكس يشد أزر مصر على التحرر من نير هذه الامتيازات ، سوف تربح انجلترا كثيرا فى مصالحها الاقتصادية الخاصة فى مصر ، فضلا عن أن مصر والمصريين لن ينسوا لانجلترا هذه الخدمة الثمينة ، التي سيذكرونها دائما بالشكر والتقدير .

والحق أنه ليس هناك اليوم فى مصر، مايؤذي المشاعر الوطنية والكرامة الشخصية، أكثر من وجود هذه الامتيازات والمحاكم المختلطة ، التي تعرقل كل تطور وكل اصلاح ، وتحطم كل مظهر من مظاهر السيادة .

فتحت ظل الامتيازات ، لايدفع الأجانب فى مصر شيئا من الضرائب على رءوس أموالهم التي تقدر بمئات الملايين، ولا على دخلهم منها، بل ان البوليس المصري لايقدر على وقف أي مجرم . ولايمكن للمحاكم المصرية أن تتولى محاكمته . وتحت ظل الامتيازات تروج السموم البيضاء وتجارة الرقيق الابيض والخمور والقمار..وتحت ستار الامتيازات ترتكب كل صنوف الجرائم والدنايا .

والعامل .. العامل المصري المنكود لايمكن أن يحصل على حقوقه المشروعة ، لايمكن أن ينظم نقاباته واتحاداته وان تعترف بها الدولة بسبب هذه الامتيازات المقوتة .

السودان

وانا لنعود هنا لتكرار فائدة التعاون الودي بين المصريين والانجليز فى السودان وان انجلترا ستربح من ورائه شيئا كثيرا .

وحق مصر في السودان لا يعني مطلقا رغبة من رغبات الاستعمار أو الاستغلال ، لأن السودان كان دائما جزءا لا يتجزأ من مصر .

والسودان مفتاح الحياة لمصر والمصريين . كل هذا مضاف الي هذه الروابط العديدة التي تربط القطرين الشقيقين سواء في الدين ، أو اللغة ، أو الثقافة والعادات .

فاذا علمنا بعد ذلك كله ، أن السودان هو مخرج مصر الطبيعي اذا ما اكتظت بسكانها ، استطعنا أن نرى أنه من العبث المجادلة في حقوق مصر في السودان وان فصل السودان عن مصر ليس معناه وقف تطورها ونموها الطبيعي ، بل معناه تهديد كيانها بالذات .

ولكنا نتساءل : أحق أنه من صالح السودان والسودانيين أن ينفصل السودان عن مصر ؟ لا يمكن أن يكون هناك الاجواب واحد وهذا الجواب بالنفي ، فكما أن مصر لا تستطيع الحياة بدون السودان ، فكذلك السودان لا يستطيع الحياة بغير مصر ومعونة المصريين .

ولا أظن أن هناك واحدا من ساسة الانجليز يجهل أن مصر تدفع في كل عام ٧٥٠٠٠٠ جنيه مصري للسودان أي مقدار مايساوي خمس ميزانية السودان بأسرها ، التي تناهز في سنة ١٩٣٤ مبلغ ٣٫٧٧٤٫٩١١ جنيهاً ، وبغير هذه المعونة السنوية لا يمكن للحكومة السودانية أن توازن ميزانيتها بل أن تقوى على ادارة السودان .

والسودان في حاجة الي التطور والارتقاء فان مساحاته الضخمة بغير سكان ، وأراضيه الزراعية لا تجد من يستغلها أو يحسن استغلالها . وليس هناك غير رءوس الأموال المصرية والعامل المصري من يقوى على سد هذا النقص ، وافادة السودان وتحقيق رفاهيته .

وقد يكون من الحقائق التي يجهلها كثير من الانجليز الذين يقدرون العهود والمواثيق والشرف البريطاني ، أن حقوق مصر في ادارة السودان والاشراف عليه غير معترف بها في الوقت الحاضر ، وان القوات المصرية قد أجليت عن السودان في سنة ١٩٢٤ بناء على انذار بريطاني ، وتحت الضغط البريطاني أقيم سد من الحدود والجمارك بين البلدين بحيث تدهورت التجارة بين القطرين .

واذن فان هذه السياسة يجب أن تتغير حالا ليس فقط لمصلحة مصر والسودان ، بل ولمصلحة انجلترا أيضا ، فان المصالح الانجليزية والتجارة الانجليزية لن تنتشر الا في ظلال الصداقة والتعاون مع مصر .

ما هو رأى مصر الفتاة ؟

والآن ، ماهو رأى الشباب في مصر ، نحن فتيان مصر الفتاة ، نقول في غير ما تردد : أننا نرغب من أعماق قلوبنا أن نرى البلدين مصر وانجلترا متعاونين تعاونا وديا صادقا ، فنحن المصريين ، كأفراد ، نعجب بالانجليز وأخلاقهم ونقاليدهم ، وأننا لنضعهم في مستوى أعلى من غيرهم من الدول .

ما هو برنامجها

ولا أستطيع أن أترك هذه الفرصة تمر دون أن أقول كلمة عن برنامجنا : فان جمعية مصر الفتاة ، التي أتشرف برئاستها ، قد وضعت برنامجا وطنيا يعمل لاعادة بناء الأمة المصرية في مختلف النواحي وبعث مجدها القديم .. ففي الصناعة ، نريد أن نمصر الصناعات ، ونريد أن نقضي على الأمية ، ونريد أن نصلح في كل مكان ، نظام الأسرة ، والمدرسة ، والاجتماع ، نريد أن نثير كل معنوية المصريين وحيويتهم وايمانهم ، ونريد أن نرفع مستوى العمال في مصر وان نوفر لهم معيشة طيبة وحياة هنيئة ونريد أن نعيد بناء القرية المصرية وان نعطي الفلاح حقوقه المهضومة ، ونريد أن نكون أحرارا في بحارنا ، وأرضنا ، وجونا ، وذلك كله لمصلحة العالم ومصلحة بريطانيا ، فكل تقدم سياسي لمصر وارتقاء أدبي لها في العالم الاسلامي والشرقي ، يتيح لانجلترا محالفة أضخم كتلة متحدة في العالم ، وأعني بها كتلة المسلمين ويضمن لها صداقتهم .

مصر وانجلترا

هل يريد العامل الأنجليزي أن يكون حائلا بين العامل المصري وبين الارتقاء ، وأن يحيا كما يحيا العمال في جميع أنحاء العالم ، وان يتمتع بحقوقهم ؟! هل يريد الوطني الأنجليزي ، مهما كان محافظا ، أن يقسو على فلاحي مصر ، وأن يحول بينهم وبين الطعام والحياة ؟

اذا كان لا يوجد الانجليزي الذي يرغب في ذلك ، فلتعترف اذا لنا انجلترا بحقوقنا وحريتنا ، ولتحترم استقلالنا .. فلتمد لنا يد الصداقة ، ولها أن تعتمد على اخلاصنا . .

أما اذا أبت انجلترا الآن تستغل ضعفنا ، وتستخدم أساطيلها وأسلحتها ، في قهر المصريين واذلالهم ، فانها لن تنجح في كسر عزتنا . . ولن تقوى على تأخيرنا الي الوراء خطوة واحدة ، بل هي على العكس ، سوف تزيدنا اصرارا وعزما ، وسوف تمنحنا قوة وايمانا ، أما هي فسوف تخسر كل شيء ، سوف تخسر كل حب لها في قلوب خمسة عشر مليونا م أفراد شعب كانوا وسيكونون دائما أول من حمل رسالة الانسانية رسالة العلم والعرفان . والمجد لمصر» .

* * *

وقد كان من آثار هذه الرسالة ونجاحها : أن طلبت وكالة اليونيتدبرس التلغرافية حديثا مني عن القضية المصرية وجهاد مصر الفتاة . فأدليت اليها بحديث مسهب تحدثت فيه عن : مكانة مصر في العالم ومجدها التاريخي وحقها

فى استعادة مكانتها التقليدية كدولة حرة مستقلة زعيمة للعرب والمسلمين ، وركنا من أركان المجتمع الانسانى المتحضر .

وقد نشر هذا الحديث فى أكثر من خمسمائة صحيفة فى سائر أنحاء أوربا بمختلف اللغات الأنجليزية والألمانية والفرنسية والسويدية والفلمنكية بل والروسية ، وظلت الجرائد التى نشرت الحديث ترد علينا بعد عودتنا إلى مصر ! . فكان يدهشنا إلى أبعد حد اتساع المدى الذي وصل اليه نشر هذا الحديث، إذ أنه لم يحدث أن نجح حديث عن مصر مثل هذا النجاح من قبل.

خطاب عام

وكان علينا بعد ذلك كله ، أن نواجه الشعب الانجليزى فى خطاب عام يعلن عنه فى الصحف ، ويدعى إليه كل راغب في الحضور ، وكنت متهيبا أشد التهيب من هذا الاجتماع ، فلم تكن لغتى الانجليزية بالتي تسمح لى أن أرتجل الحديث ، وإذا كان من الممكن التغلب على هذه العقبة كما فعلت فى مؤتمر كارديف ، وذلك بالمطالعة من الورق ، فى المؤتمر المذكور لم توجه الى أسئلة عقب القاء كلمتى لضيق الوقت ، أما عندما نكون نحن الداعين إلى الاجتماع ، وتكون القضية المصرية هى محور الاجتماع ، فلابد أن تنهال على الأسئلة ، ولابد أن أناقش وأن أستجوب ، وقد كان ذلك ما أخشاه كل الخشية ، ومع ذلك فقد كان لابد من عقد الاجتماع ، بل والشروع فى عقد عدة اجتماعات ، تمشيا مع مقتضيات الدعاية اللازمة للقضية . ولذلك فقد توكلت على الله وأقدمت على عقد الاجتماع وفي نفسى عزم وإيمان ، أن أمثل مصر فأحسن تمثيلها ، وأن أدافع عن قضية بلادى فأجيد الدفاع .

ولابد لكل اجتماع فى انجلترا من رئيس يشرف عليه ويقود المناقشات ، ويعرض فى ختام الاجتماع القرارات التى يراد الموافقة عليها ، ولم يكن باستطاعة المصريين الذين سبقونا فى الدعاية للقضية المصرية ، أن يحصلوا

على شخصية مثل التي حصلنا عليها لترأس اجتماعنا ، ونعني بها المستر لانسبوري وهو أحد زعماء الشعب الانجليزى المحبوبين جدا ، زعيم حزب العمال عقب استقالة المستر ماكدونالد ، فكان ذلك آية النجاح الذى وصلنا إليه ووفقنا الله إلى احرازه بفضل اخلاصنا وإيماننا . واخترنا لعقد الاجتماع أحد صالات لندن المشهورة باجتماعاتها السياسية المحترمة ، وتدعى (كنجزواي هول) ووجهنا دعوة عامة للجمهور الانجليزى ، لشهود الاجتماع ، وطبعنا بضع مئات من التذاكر وزعناها على رجال الصحافة والنواب والرجال المختارين .

وفى الموعد المحدد لألقاء الخطاب ، اكتظت القاعة بالجمهور ، رجالا ونساء ، وكان الشبان المصريون في طليعة الحضور بطبيعة الحال ، وقد جاءوا يشهدون كيف تعرض قضية مصر على الشعب الانجليزي ، ويشدون أزرنا ويدعمون حجتنا .

وافتتح الاجتماع المستر لانسبورى بخطاب طويل أيد فيه المطالب الوطنية المصرية ، وقد نشرت جميع صحف حزب العمال الانجليزي تصريحات المستر لانسبورى لأهميتها وخطورتها ، فكان لذلك أكبر الأثر فى توجيه الحكومة الانجليزية .

واعقب المستر لانسبورى الأستاذ فتحى رضوان فألقى خطابا عرض فيه للنهضة المصرية ، ومظاهر التطور الاقتصادى والاجتماعى فى مصر ، ورسم الخطوط الأساسية لبرنامج مصر الفتاة الانشائى والتعميرى .

ثم دعيت إلى الخطابة ، فألقيت خطابي العام الأول والأخير ، للشعب الانجليزى فى ذلك الوقت ، فان الحوادث تطورت سريعا بعد ذلك بحيث أغنتنا عن مواصلة عقد هذه الاجتماعات .

ولست أري ضرورة لأثبات نص هذا الخطاب لأنه لايخرج في معناه عن كل ماسبق ، وانما الشيء الذي أحسب أن كل قارى متشوق إلى معرفته ، وهو الجدير بالتسجيل الذكرى والتاريخ ، هو ذلك التوفيق العظيم الذى

صحبنى في هذه الليلة ، فقد وقف المستر جورج لانسبوري عقب القاء خطابى وقال: «كم كنت أتمنى أن يكون هذا الخطاب الذى سمعناه الليلة من الأستاذ أحمد حسين ، قد ألقى فى البرلمان الانجليزى ، ليدرك الأعضاء كيف يجيد غير الانجليز نطق لغتهم والخطابة بها ، وكيف تمتلىء نفوس أبناء مصر بالايمان بالحرية والاستقلال ، حتى تمكنوا من الوقوف فى صميم عاصمة الانجليز مثل هذه المواقف الرائعة» .

ثم فتح المسترى لانسبورى باب المناقشة ، ووجهت إلى الأسئلة ، فاذا بى أجيب عليها فى قوة وحرارة ! . وإذا بالأكف ترتفع بالتصفيق لهذه الاجابات القوية السديدة المفحمة، ولعل أصدقائى المقربين جدا كانوا أكثر الناس دهشة لذلك الموقف ، وهم يعرفون مقـــدار تهيبى وترددى مواجهة هذا الموقف من قبل ، خوفا من أن تخوننى قدرتى على الارتجال باللغة الانجليزية ! . . ولكنها الضرورة وساعة الخطر وما تبعثه فى النفس من قوة واقتدار ... ولكنه الأيمان .

وقد قرر المجتمعون إصدار قرار يؤيدون فيه مطالب مصر القومية ويدعون الحكومة الانجليزية للدخول فى مفاوضات سريعة مع مصر لتحقيق هذه المطالب وقد نشرت الصحف الانجليزية ذلك القرار .

***

كان النجاح الذي صـــادفناه فى هذا الاجتماع ، باعثا للتفكير في عقد اجتماع آخر فى إحدى قاعات البرلمان الانجليزى ، لكى يتســنى لفريق من النواب الانجليز أن يشهدوه ، وقد وافق المســتر لانسبورى على الاقتراح مغتبطا ؛ لأنه كان أول من أثاره وأظهر استعداده للاشراف على تنظيم الاجتماع والدعوة اليه .

ولكن نظرا لغياب أعضاء المجلس بمناسبة أجازة رأس السنة ،وعدم عودتهم إلى لندن إلا بعد الأسبوع الأول من فبراير ، كان لا بد من الانتظار ثلاثة أسابيع قبل التمكن من عقد الاجتماع ، فرأينا أن ننتفع بهذه

الفترة بالعمل فى ميدان آخر . ولما كان من برنامجى أن أسافر إلى جنيف مقر عصبة الأمم لأدعو فى ذلك الميدان الدولى لقضية مصر ، وحقها فى الانضمام إلى عصبة الأمم كدولة مستقلة ذات سيادة، بغير حاجة إلى إذن الانجليز أو تصريح بانضمامها ، فقد رأيت أن أنتهز فرصة عطلة البرلمان الانجليزى لكى أسرع إلى جنيف ، حيث كان مجلس العصبة يوشك على الانعقاد للنظر فى المشكلة الحبشية وغيرها .

وفى مساء ١٨ يناير سنة ١٩٣٦ الساعة الثامنة مساء ، بارحت أنا والاستاذ فتحى محطة فكتوريا ، وكان فى وداعنا الدكتور مصطفى الوكيل ونفر من اخواننا وزملائنا المصريين ، وعندما وصلنا إلى باريس ، قرر الاستاذ فتحى أن يعود إلى القاهرة ، فواصلت السفر بمفردي إلى سويسرا تنفيذاً لبرنامجنا ، واتماما للخطة الموضوعة .

الكفاح فى جنيف

ولم لا أسميه كفاحا ، وقد كان كفاحا مستميتاً لا ينقصه عنصر من عناصر الكفاح ،. هو كفاح ضد البرود وضد الأهمال ، وضد الضجيج والدوى الذي كانت تحدثه القضايا الكبرى ، هو كفاح ضد الفقر والحاجة وقلة الأنصار والأعوان ، وأخيرا هو كفاح الغريب الفقير الصغير ، عند ما يحاول في زحمة الدنيا أن يرفع رأسه ، وأن ينصب قامته وأن يثبت وجوده ، ويرغم الدنيا على الانصات له .

وصلت إلى جنيف ، وهى هائجة مائجة ، بمناسبة انعقاد مجلس عصبة الأمم الذى سيبحث المشكلة الايطالية الحبشية ، وليصدر فيها قرارا حاسماً بانزال العقوبات على ايطاليا ، التى ترغى وتزبد وتهدد وتتوعد . . . وكانت الأعصاب متوترة ، هل تتفاقم الأزمة فتقع الحرب العالمية الثانية أم تمر العاصفة فى سلام . في ذلك الجو وصلت إلى جنيف ، ولم أكن أعرف بها أحدا ، ألجأ اليه أو أستعين به سوى الأستاذ على الغاياتى ، صاحب جريدة

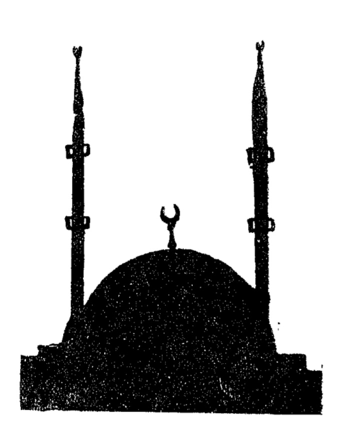
منبر الشرق ، الذى كان يقيم فى سويسرا منذ بضعة عشر عاما ، وقد اتخذها موطنا ثانياً له ، واستقر فيها يرفع لواء القضية المصرية ، وقضايا الأمم الشرقية كلها . لم يكن بيني وبين المجاهد القديم سابق معرفة ، ولكنى كتبت له من لندن أن يحجز لى غرفة ، وأن يتوقع وصولى ، ولقد استقبلنى الرجل فأحسن استقبالى ، وأكرم مثواي ، وعرفنى بالمصريين القلائل الذين يعيشون فى جنيف،وعلى رأسهم المجاهد الصادق الدكتور زكى على ، وأعلننى الأستاذ على الغاياتى أنه يضع نفسه وتجربته وجهده ، في خدمة المهمة التي جئت من أجلها ، وهى الدعاية للقضية المصرية التي وقف عليها حياته .

وبدأ يعرفنى إلى الصحفيين ويجمعنى وإياهم كى أحدثهم عن مهمتي،وهى وجوب ضم مصر إلى عصبة الأمم ،وأن يكون ذلك بقرار من المجلس ، وبدأت الصحف تنشر الأحاديث نقلا عنى ، وقد أفادني حديث شركة اليونايتدبرس، الذى وزعته من لندن، فقد جعل شخصيتى معروفة لدى جميع الصحفيين ، كما أن شخصية الأستاذ على الغاياتى ومكانته فى جنيف ، قد ساعدت على افساح المجال لى ، فلم يكد يمر يوم دون أن تعرض الجرائد لقضية مصر وفاق الوجهةالتي أدعو لها .

وقد كان برنامجى فى جنيف ، أن أقدم للسكرتير العام لعصبة الأمم مذكرة باسم الشعب المصري ، أقرر فيها حق مصر في الانضمام إلى عصبة الأمم كدولة مستقلة ذات سيادة كاملة ، وأهيب فيها بمجلس العصبة أن يتولى دعوة مصر بالذات إلى الانضمام إلى العصبة .

وكان الدكتور وحيد رأفت ، أستاذنا بكلية الحقوق،قدزودنى قبل سفري بمذكرة ضافية في هذا الموضوع ، فاتخذتها أساسا للمذكرة النهائية التي تقدمت بها إلى السكرتير العام لعصبة الأمم . وقد قام الدكتور زكى على بترجمة المذكرة إلى الفرنسية . ثم أعمل فيها الأستاذ على الغاياتي قلمه مهذبا ومصححاً ومختزلا ،حتى انتهى بنا الأمر إلى مذكرة جليلة من

الناحية الشكلية ، والموضوعية ، وفى الثلاثين من شهر يناير سنة ١٩٣٦ ذهبت أنا والأستاذ على الغاياتي إلى مقر عصبة الأمم ، حيث قدمنا مذكرتنا إلى السكرتير العام ، ووزعنا بعد ذلك نسخاً منها على خمسمائة صحفي يعملون في أروقة عصبة الأمم ، فلم تمض أربع وعشرون ساعة حتى كانت الصحف فى جميع أنحاء العالم تتحدث عن مذكرة مصر التى قدمتها إلى عصبة الأمم ، وقد كان ذلك آخر ما يمكن أن أطمع فيه من نجاح وتوفيق ، بحيث لم أر موجباً لأطالة إقامتى في جنيف ، فاعتزمت العودة من جديد إلى لندن لاستئناف الكفاح والجهاد بها وعقد هذا الاجتماع المنشود فى البرلمان الانجليزى ... ولكنه لم تمض أيام قليلة حتي كنت أشد الرحال لا إلى لندن من جديد ولكن إلى القاهرة ... إلى مصر العزيزة .



النجاح فالعودة

— ١٥ —

سقوط وزارة نسيم — تأليف وزارة على ماهر
الشروع في المفاوضات بين مصر وانجلترا

سافرت من مصر وهى مكبلة مقيدة بحكم ديكتاتورى على رأسه توفيق نسيم باشا ، ذلك الرجل الذي لم يكن ينقصه الا القليل لكى يصاب بالخرف ، وكانت ثورة الشباب على أشدها في طلب الحرية والاستقلال. ولا سبيل لذلك الا باتحاد الاحزاب ، وتأليف جبهة موحدة ، وعودة الدستور ولقد أشرت فيما سبق أننى لم أكد أبرح مصر حتى اتحدت الأحزاب ، وعاد الدستور ، وفى إبان مقامى في جنيف ، جاءت الأنباء المثيرة من مصر تتحدث عن سقوط وزارة نسيم باشا ، وتأليف وزارة على ماهر باشا وإعلان انجلترا استعدادها للدخول فى مفاوضات لحل القضيـــة المصرية وتدعيم استقلال مصر .

وإذن فقد تحققت كل الأغراض التى قام الشباب قومته من أجلها .. وسقط الطاغية ، وعاد الدستور ، واتحدت الأحزاب ، وبدأت المفاوضات من أجل الاستقلال ، فلم يبق أمامى الا أن أسرع الى مصر لأستأنف العمل والجهاد في داخل البلاد ، لانجاح هذه المفاوضات التي اتخذت القاهرة محلا لها . ولذلك فقد حزمت أمتعتى على عجل وبعثت إلى الجرائد المصرية بالنداء التالى فنشرته جميعها في أعز أنهارها :

نداء الى الشباب والشعب المجيد

بدموع الفرح تلقيت هذا النبأ ، نبأ الشروع فى اتمام المفاوضات مع انجلترا ، وحل القضية المصرية ، فان هذا هو ما يتمناه كل مصري ، وهـذا ماسعيت من أجله فى عاصمة الانجليز واذن فلم يعد أمامى الا أن أعود الى بلادى ، ساجداً لله شكراً أن وفقنى للقيام بواجبي ، لقد كان عهداً أن أدافع عن قضيتها فى كل مكان ، وأحمد الله أن كفاح مصر بأسرها ، قد آتى ثمارها .

الى مصر اذن .. الى مصر الحبيبة العزيزة الغالية .. الى مصر المقدسة الخالدة .. الى المياه العذبة والسماء الصافية ، ووداعا أيها الغرب المكهرب الملبد بالغيوم .. وداعا أيتها الرعود والثلوج والظلام . . وداعا أيتها الطبيعة القاسية ، التي علمت الانسان كيف يقسو على أخيه الانسان . ولكنى اذ أبارح هذه البلاد ، وأقترب من الوطن العزيز أبعث بندائى الى شباب مصر ، من الاسكندرية حتى أقاصى السودان .. لقد عملت باسمكم، وتكلمت بصوتكم ، واذا كانت مصر قد استعادت دستورها ، فلقد اعدتموه بدمائكم.. وغداً عندما تحقق مصر استقلالها ، فستكونون دفعتم ثمن ذلك من أجسادكم. أنتم الذين بعثتم روح مصر ، وأنتم الذين ستسهرون على حراستها ، أنتم الذين أوقدتم الجذوة ، وأنتم الذين ستعملون على اذكائها . لا فضل لأحد عليكم ، فأنتم القادة . هذا هو شعاري وهذا هو كفاحي المقبل باسم الشباب وبجهود الشباب . سوف نبنى مصر الحديثة ، وسوف نشيد استقلالها ، وسوف ننسج مجدها ، فهلموا جميعا الى راية مصر صفاً واحداً، وصوتاً واحداً واهتفوا من أعماق قلوبكم: « مصر فوق الجميع ».

أحمد حسين

رئيس جمعية مصر الفتاة

***

وأخيراً عدت إلى مصر التي أحببتها الحب كله ، والتى كرست حياتي على العمل من أجلها .

ولقد كان استقبالا رائعاً ، ذلك الذى استقبلت به مذ وطأت أقدامى أرض الوطن المقدس ، فعلى رصيف الميناء مثل ما فى محطات السكة الحديد من الاسكندرية حتى القاهرة ، كانت كلها تغص بمئات من أنصار الجمعية وجنودها، وكانت الأقمصة الخضراء تشرق لأول مرة بلونها الجميل البراق وقد ازدهرت وتكاثر عددها ، فلم أتمالك نفسى من أن أذرف دموع الفرح والشكر لله ، الذى كلل جهادي بهذا النجاح، وأعادنى إلى مصر سالماً غانماً ، لأرى هؤلاء الذين أحبهم ويحبوننى، ويسعدنى الكفاح فى صفوفهم من أجل حريتهم واستقلالهم .

وكان فرع الحزب فى الأسكندرية قد أعد لى اجتماعا حافلا لأخطب فيه بمجرد وصول السفينة إلى الميناء ونزولى منها ، ووزعت ألوف من رقاع

الدعوة إلى هذا الاجتماع بمسرح ديانا، فى الساعة الخامسة من اليوم العاشر من شهر فبراير سنة ١٩٣٦ ، وقد نجح الاجتماع والاحتفال نجاحا منقطع النظير ، ونشرت جميع الصحف ملخصا وافيا لخطابى . وقد سافرت بعد ذلك إلى القاهرة ، وقد شاء الحظ الحسن أن تسقط وزارة نسيم باشا فى هذه الفترة ، وأن تتألف وزارة على باشا ماهر ، وهو رجل صديق لمصر الفتاة ، وكان من بين وزرائه سعادة محمد على علوبة باشا ، الذى طالما حضر اجتماعات مصر الفتاة ، وأمانها ببعض أمواله ، بل والذى كان على رأس الذين ودعونى بالمحطة عند سفرنا إلى لندن . فلا عجب إذا أطلقت الحرية لمصر الفتاة ، فصرح لها بعقد هذا الاجتماع فى الاسكندرية ، ولم يتدخل البوليس فى الاستقبال الذي أعد لى في محطة القاهرة . فكانت مظاهرة منقطعة النظير ، لم يسبق لمصر الفتاة أن شهدتها من قبل ، وكان ذلك آية النجاح والكفاح الذى وصلنا اليه ، بعد هذه الثلاث السنوات من الكفاح المتصل الصادق بالليل والنهار ، في مصر وخارج الحدود ، شرقا وغربا .

ولقد أقيم اجتماع ثان بدار مصر الفتاة ، بمجرد وصولى من المحطة ، وأقيم بعد ذلك اجتماع ثالث في مسرح برنتانيا ، وألقيت فى كل هذه الاجتماعات خطبا مستفيضة عن رحلتى ومهمتي في أوربا ، وليس يتسع المجال لأثبات كل هذه الخطب ، فأجتزىء بنشر خطاب الاسكندرية ، الذى دعوت فيه إلى وجوب المحافظة على الجبهة الوطنيـة ، والإتحاد بين الأحزاب ، وناديت بوجوب إدخال مصر إلى عصبة الأمم بالفعل ، فكان حقا واقعا ما اعتبر خيالا جامحا ، عند تقديمى بمذكرة انضمام مصر إلى العصبة .

وهكذا يشاء الله سبحانه وتعالى أن لا ندعو إلى دعوة ، أو نتجه إلى وجهة معينة ، إلا وتحققها الأيام والحوادث ، وهو الأمر الذى يضاعف دائما أبدا فى ثقتنا بكفاحنا ، وأننا لاشك واصلون إلى كل ما نريد ونعتزم تحقيقه .

خطبة الأستاذ أحمد حسين

في اجتماع ديانا بالاسكندرية

أيها السادة . . .

مهما كنا نعد أنفسنا جنوداً مكافحين — في حالة كفاح دائم ! — مهما كان يجب أن نكون على استعداد دائم لخوض المعركة في أي لحظة وفي أي ساعة ، مهما كنا ومهما كان هذا مذهبنا ، فصدقوني ، أن أصحابي كانوا قساة على يوم أن أعدوا هذا الاجتماع لأخطب فيه بعد ساعات من وصولي الىهذا القطر العزيز!. وأرى أنهم ليسوا قساة اذ لم يتركوا لي الوقت الكافي لأستريح من وعثاء السفر ، لأن الله ، ولله الحمد ، جعل لنا مراكب مصرية لا نعرف فيها وعثاء السفر . وصدقوني أنيأمضيت أيام البحر في أكل ونوم وراحة .. واذن فقد صار حتما على أن أنزل الي ميدان العمل بمجرد نزولي ، واذن فهم ليسوا قساة من هذه الناحية . لا وليسوا قساة لأنهم لم يفسحوا لي الوقت لأتمتع في هدوء بأرض الوطن ، ولأشرب من ماء النيل العذب ، ولأستنشق هواء مصر العليل . فقد تمتعت بأرض الوطن ، وقد شربت ماء النيل ، واستنشقت عبير مصر ، امنذ وطأت أقدامي أرض الباخرة . وبارك الله في طلعت حرب الذي نقل لنا النيل في مرسيليا . ولكنكم ستشعرون معي بقسوتهم عندما تلاحظون أنهم لم يتركوا لي الوقت الكافي لأطالع الصحف ، لم يتركوا لي الوقت الكافي لأعرف مجرى الأمور السياسية ولأوازن بين المسائل المختلفة ، حتى اذا تحدثت جاء حديثي منطبقا على الساعة الراهنة وما يجب أن يكون .. ولكنهم فعلوا ووضعوني أمام الأمر الواقع ، وها أنذا بين أيديكم لأخطبكم.

أبناء مصر :

هل تعرفون من المسئول عن هذه الحالة ، انه أخي فتحي ، فلولاه لأشفقوا على قليلا ولقدروا ضرورة اطلاعي على أحوال مصر . ولكنه . . وقد كان معي ، حتى أيام قليلة ماضية ، فهو لا يمكن أن يخدع مثلكم ومثل أصدقائي . ولا يمكن أن يجابه بهذا الاعتراض الذي تقدمته ، بل سيبادر بالقول أننا في أوروبا كنا نطالع أخبار مصر يوما بعد يوم ، وساعة بعد ساعة ، وكنا نطالعها في الجرائد ، ونسمعها في الراديو. وكنا نطالعها بالتفصيل بعد أيام قليلة واذن فلا عذر لي من هذه الناحية — وهذا حق ، ولولا هذا لما قبلت بأي حال من الأحوال أن أخطبكم الليلة . فلعله يدهشكم — أو لعله يسعدكم — اننا في أي مكان من أمكنة أوروبا ، في باريس ولندن وجنيف ، لا بل

في أصغر قرية ، وفوق قمم الجبال ، كنا نطالع أخبارمصر. وتسمعها وربما قبل أن يطالعها سكان الصعيد !. وأنى لأذهب أبعد من ذلك فأقول ما سوف لا تصدقونه ، وأعنى به اننا نسمع بعض الأخبار قبل أن يسمعها من فى القاهرة أنفسهم . ففي مصر لا تصدر الجرائد الا فى الصباح وفى الساعة الثالثة وما بين هذين الميادين مجهول . أما فى أوروبا فى كل ساعة ، وفى كل نصف ساعة ، تصدرجريدة جديدة تحمل بالتلغراف آخرأنباء مصر، وفى أظهر مكان وفى أكثرها احتراما ، أنها لظاهرة بديعة أيها السادة ، بل أنها لظاهرة تملؤنا أملا وايمانا وتزيدنا عزما على عزم . فقد بدأت مصر تحتل مركزها فى العالم الدولى كأمة حية ناهضة ، لها كل مظاهر الحياة ، وحقوق الأحياء كما يفهمونها . بدأت مصر تحت تأثيرحوادثها الأخيرة تقرع أسماع العالم بشدة، وتذكر العالمين أن على ضفاف النيل شعبا جديرا بالحياة والمجد مسلوب الحقوق ، مهدر الحرية ، وقد حانت الساعة التى يرفع فيها هذا الظلم ، وينعم هذا الشعب بالحرية والاستقلال .

صوت مصر

واذا قلت لكم ان العالم بدأ يشعر ان الساعة قد حانت لأن يرفع الظلم عن مصر وعن شعبها ، فاياكم ان يخيل لكم ، ان هناك يداً ستمتد لكم لرفع هذا الظلم واياكم ثم اياكم ان يخيل لكم ان هناك فى العالم صوتا سيرتفع للدفاع عن قضيتكم ، لا يوجد الاصوت واحد ويدواحدة، وهذا الصوت هو صوتكم، وهذه اليد هى يدكم أنتم .أتعرفون لماذا سمع العالم صوتكم ، لان هذا الصوت قد ارتفع على صوت البارود ومدافع الاساطيل أتعرفون ، لماذا وقف العالم ليسمع شكاتكم ؟ لأن شبابكم قد عبد الطريق بدمه هزأ بالموت والسجن والتعذيب. انتصفوا لأنفسكم ينتصف العالم لكم، حلوا قضيتكم بأيديكم فيصفق لكم العالم طربا وكونوا أقوياء فيخافكم الأقوياء . وهذا هو مبدئى الذى سافرت به ، والذى عدت به ، وأنا أشد ايمانا واعتقادا به واصراراً على تنفيذه .

العهد والميثاق

عندما بارحت القاهرة ، أذعت على الناس عهدا وميثاقا ، وسأذكر هذا العهد فى هذه الساعة وأنا مثلج الصدر راضى النفس ، فلم يكن فيه حرف واحد لم يتحقق . ولم يكن فيه جزء خاص بى لم أنفذه . قلت انى اذ أسافر الى أوروبا ، فلن أعود وفى حقيبتى الاستقلال أومشروع معاهدة . لا! لست أسافر لحل القضية المصرية لان القضية المصرية ستحل هنا فى القاهرة ، لا فى أى مكان آخر . ستحل القضية المصرية يوم تأتلف الاحزاب ، وتتوحد صفوفنا ، يوم يترفع كبراؤنا عن المناصب ويحتقرون الذهب، وسوف تحل قضيتنا عندما نقبل على التضحية ونسترخص الأرواح من أجل مصر — وسوف تحل القضية المصرية عندما نؤمن بضرورة حلها .

حمداً لله ! فلم أكد أسافر ، ولم تكد أحزابنا تأتلف ، حتى عاد الدستور سريعا . ولم تكد بضعة أرواح تزهق على مذبح التضحية ، حتى استمعت انجلترا لمطالب مصر ، تقدمت تجيب بعض المطالب وتستعد للمفاوضة .

انتصار ارادة الامة

وهأنذا أعود لأري مصر العزيزة متمتعة بالدستور ، ولأري الأحزاب كتلة واحدة ، والأمة من خلفها صفاً واحداً ، ولأري الشباب مازال متحفزاً ومستعدا فى كل لحظة لبذل تضحيات جديدة وأرواح جديدة . وفي الحكم وزارة لعلها الأولى فى تاريخ مصر ، بل لعلها نقطة حاسمة فى تاريخ مصر ، وزارة رفعتها الى الحكم الأحزاب المؤتلفة بأرادة واحدة ، وتؤيدها ويحبوها بعطفه جلالة الملك فالأمة بأسرها ، تؤيد هذه الوزارة التي تنتظرها مهام جسام : اجراء مفاوضات ، واقامة برلمان ، وتنفيذ عدة مشروعات اصلاحية ، عرف بها رئيس هذه الوزارة وبعض زملائه . وانى أرى فى كل ذلك انتصارا لارادة الأمة ، أرى في كل ذلك مصر القوية التي تظهر كل فضائلها فى الساعات التي يخيل للناس وللدنيا أنه قد قضى عليها .

لا أرى الآن فى مصر الا كل ما هو جميل ، يزهى به شعب صالح للحياة . ملك أحس بالأيام الحرجة التى يجتازها شعبه ، فامتزج به يواسيه ويحبه ويشاطره الرجاء والأمل والكفاح ، ويخلع عن أكتافه رداء الملكية الذى يلبسه ، لأجل اعزازوطنه ، كيما يخاطب الشعب بألفاظ الأبوه ، وكى يقول لكبار الأمة اجلسوا فليس بيننا اليوم عظيم او صغير ، ولكننا أفراد أسرة واحدة يعملون لأجل رفعة وطنهم .

ألستم ترون أيها السادة : أن كل هذا جميل ، وان روح الشب التى انتصرت هي روح الديمقراطية الحقيقية ، وان مصر هزمت كل أعدائها الذين طالما تحدثوا فى مصر عن ملك وشعب ، وشعب وملك ، فاذا بهم لا يرون الا مصر ، ولا يرون الا أسرة واحدة ، ياالهي ! وهذه الأحزاب المجتمعة فى صعيد واحد ، محمد محمود بجانب النحاس بجانب صدقى ، ألستم ترون قوة الشعب التى فعلت ذلك ، لطالما كانوا يقولون ان جلوس هؤلاء على مائدة واحدة مستحيل ، ولم يتزعزع ايماني لحظة واحدة بأن مصر وشعبها يفعلان المستحيل دائما . لقد كانت انجلترا تسرح وتمرح ، وكانت مطمئنة راضية فهى ليست فى حاجة الى أن تعترف بوجود مصر ، لاوليست وحاجة الى أن تبقى على شبه هذا الأستقلال الذى تتمتع به مصر ، بل لماذا لا تتخذ من الاسكندرية قاعدة بحرية اذا راق لها ذلك . وما هذا الصراخ حول الدستور ، ومن أنتم حتى تحصلون على الدستور . ؟ فعلت انجلترا ذلك مطمئنة الى اختلاف الأحزاب فى مصر ، واختلافها معناه ان تحكم انجلترا مصر بواسطة المصريين الى الأبد وبين عشية وضحاها ، اذا بالشباب لا يعرف الأحزاب ، وبين عشية وضحاها اذا بالأحزاب جبهة متحدة ، واذا بالمعجزة قد تمت ، محمد محمود بجانب النحاس الى جانب صدقى .

معجزة الائتلاف

لو تعلمون كم هللت طربا في انجلترا ، وكم أحسست بالسعادة والغبطة عندما كنت أجد الانجليز حيارى مبهوتين ، يسألونني تارة : بم أعلل ذلك ، وكيف تم الائتلاف ، وتارة يظهرون حقدهم وبغضهم بهـذه الجبهة ، ومقياس الأجادة هنا هو الغيظ هناك . ومقياس الأصابة هنا هو الحقـد هناك . فاذا ما أحسنتم فسوف يلعنون ويصخبون ، واذا أسأتم فهناك التصفيق والتهليل ، لأنكم اذا ما كنتم أقوياء ألزمتموهم الحجة ، واذا ما أسأتم مهدتم لهم طريق ابتلاعكم والقضاء عليكم . ولقد أحسست عظمة مصر كلما حلوا عليها ، وكنت أتمثل ضخامة هذا العمل الذي قام به الشباب ، كلما بدا لهؤلاء الانجليز مستحيلا .

في قلوبهم مرض

لقد شرعوا يحملون على مصر ، وشرعوا يأخذون من هذا الائتلاف حجة ضد مصر ، وضد صلاحيتها للحياة ، فكيف تنسى مصر لصدقي باشا ما فعله ، وكيف تنسى لمحمد محمود باشا ما فعله ، وكيف يجلس هؤلاء على مائدة واحدة ؟ لا . اننا شعب ضعيف ، واني لواثق أيها السادة ان في المصريين بعض المرضى الذين يشاطرون الانجليز هذه النظرة ، هناك بعض الأطفال وهناك بعض الأشخاص الذين فوت عليهم هذا الائتلاف بعض المصالح ، كما فوت على الانجليز ، هناك أشخاص تؤرقهم هذه الجبهة ويحاولون أن يطعنوا مصر وأخلاق مصر ، ولـكن لمثل هؤلاء أقول مثل ما قلت للانجليز ، ان هذه الجبهة هي التي يجب أن يستمد منها كل مصري ايمانه بقدرتنا على القيام بجلائل الأعمال ! . لقد طالما نعوا على المصريين تشتت كلمتهم ، وأقسم لـكم أن الانجليز كانوا في مقدمة الناعين كي يتخذوها حجة على عدم صلاحية مصر للحياة الدستورية والحياة الراقية ، فاذا ما ائتلفت الأمة ساعة الخطر ، اذا ما نسيت أحقادها وأحزابها ، وتكاتفت أمام العدو المشترك ، اذا ما تلاقي المصريون بنعمة الله اخوانا ، فهزوا الغاصب وأحرجوه ، اذا ما أعطت مصر للشرق ، بل للعالم بأسره ، مثلا رائعا في توحيد الصفوف ساعة الخطر ، جاء هؤلاء الأعداء ، وهؤلاء المرضى ، ينعون على مصر توحيد كلمتها وجمع قواها .

لا أيها السادة : عاش النحاس باشا ، وعاش طويلا وعاش طويلا ، وعاش صدقي بجانب النحاس وعاشت الجبهة كلها متراصة متحدة . ان هذا مثل أعلى للتضحية وانكار الذات ، مثل أعلى للفناء من أجل الوطن ، ويجب أن نشكرهم من أجله ، ما بقوا يعملون للوحدة ويسعون اليها .

الوحدة . . الوحدة

تألفت الجبهة كما قلت لـكم ، فعاد الدستور ، وسقطت هذه الوزارة العاتية ، والتي كان يجب أن تسقط منذ أمد بعيد . هذه الوزارة التي راحت ، ولست أملك الآن ، أنا الذي

لا أعرف الكره والحقد ، لست أملك بالرغم منى الا لعنة أصبها على أيام هذه الوزارة السوداء ، وعلى كل مااقترفت فيهامن آثام ، والتى لم تشأ أن تبارح الحكم الا بعد أن تلطخ صفحاتها بدماء الابرياء والشبان .

عاد الدستور ، وسقطت الوزارة ، وتألفت هذه الوزارة ، وتقدم الانجليز يظهرون استعدادهم للمفاوضة . ولست أعرف ما يجرى وما يتم من محادثات فى هذه الأيام.ولكنى أبعثها اليكم من فوق هذا المنبر ، كلمة حارة ، كيما تستقرفى نفوسكم،وكيما تنفذ من هذه الجدران لتستقر فى نفوس الأربعة عشر مليونا ، أبعثها اليكم من هذا المنبر كلمة حارة، لتقرع أذن كل زعيم ، وكل شاب : هي أن تحافظوا على وحدتكم ، على جبهتكم ، قووا ايمانكم تحصلوا على كل شيء .

هذه الوحدة التى دفعنا ثمنا لها كل هذه الآلام يجب أن تبقى ، وأن تستمر . فهى التى سننتصر بواسطتها ان لم يكن اليوم فغداً .

ولذ فأنى أعلن باسم مصر الفتاة ، بل باسم الشباب قاطبة ، أن الوحدة يجب أن تستمر باخلاص ، والويل لكل من تحدثه نفسه بالخروج على هذه الوحدة كائنا من كان . أن الشباب لن يرحم كل من يعبث بارادة الأمة . ومصر الفتاة اليقظة لن تسمح لكائن من كان أن يحطم سفينة النجاة! . وأعود الى سياق الحديث فأقول: انه قد وقع كل ما تنبأت به، وقطعت الأمة شوطاً بعيداً فى سبيل أمانيها .

مهمتى فى أوربا

أما مهمتى فى أوربا ، كما جاءت في العهد الذى أخذته على نفسى ، فهى أن أسمع العالم المتمدين صوت مصر وارادتها . هى أن أهيب بهؤلاء السادة الذين يتحدثون عن حرية الشعوب وحماية الضعفاء،الذين يدافعون عن استقلال الحبشة ، أن مصر أيضا لها استقلال، ومصر أيضا لها كرامة ، ومصر أيضا لها حرية،فاذا فعلوا بهذا الاستقلال،وماذا فعلوا بهذه الحرية وهذه الكرامة.

وأشهد أيها السادة : لقد فعلت ذلك أنا وأخى فتحى رضوان فى لندرة ، وبعد ذلك فى جنيف .. فى لندرة قابلنا زعماء ، وقابلنا موظفين وكان الجميع يحسنون الاصغاء لنا ! أتعرفون لماذا ! لأن الحوادث التى كانت تجرى فى القاهرة كانت تضطرهم للاصغاء.ولقد عقدنا اجتماعات وشاهدنا اجتماعات . ووزعنا نشرات ومقالات وأحاديث ، وفى كلمة فهمنا الانجليز وفهمونا . فما الذي فهمنا منهم وما الذى فهموه منا .

خصوم شرفاء ولكن ...

فهمنا الانجليز أيها السادة وأعجبنا بهم:أعجبنا بآدابهم،أعجبنا برقيهم،وأحسسنا كما أحس زعيمنا سعد زغلول بالأمس أنهم خصوم شرفاء معقولون ، ولكن على شرط . على شرط

واحد أيها السادة ، وفي اغفال هذا الشرط خطر وأى خطر ، اغفال هذا الشرط هو السر في النكبة التي أصابتنا في العشر السنوات السابقة على هذه الحوادث الأخيرة ، اغفال هذا الشرط هو الذي أعجز حكوماتنا المتوالية أن تفعل شيئا من أجل مصر . نعم ان الانجليز خصوم شرفاء معقولون ، أقولها بأعلى صوتي ، ولكن على شرط أن يكون خصومهم أقوياء ، أما ان كان خصومهم ضعفاء فالويل كل الويل للضعفاء ، سوف يصبح الشرف والعقل وسيلة للقضاء على الخصوم الضعفاء .

القميص الأخضر

فان ارادت مصر أن تتفاهم مع الأنجليز ، أن أرادت مصر أن تجني ثمرة شرف الانجليز ومعقوليتهم ، فيجب أن تكون قوية بتوحيد صفوفها ، يقظة بشبيبتها واستعدادها الدائم للتضحية . يجب أن تكون مصر قوية بنظامها ، والنظام هو نصف برنامج مصر الفتاة . فمنذ الساعة الاولي نادينا بضرورة النظام وتنظيم الشباب ، منذ الساعة الأولي أحسسنا بهذه القوة الكامنة في توحيد الزى ، وارسال الاناشيد ، فنادينا بالقميص الاخضر ، وفرق المجاهدين . فهزأ منا أقوام ، وسخر غيرهم ، وحاربنا آخرون ، ولكنا ظللنا على عزمنا وصبرنا ثلاث سنوات كاملة ، عانى فيها القميص الاخضر ما عانى . فكم اقتيد شباب منا الي السجون ، وكم مزقت العصى أجسادنا . وفي هذه القاعة بعض الضباط يشهدون على ذلك ، فلما كنت في أوروبا وسمعت عن تأليف فرق القمصان الزرق ، أسعدني هذا الانتصار . أسعدني أن شعر الشباب بالحاجة الى النظام ، أسعدني أن فكرة مصر الفتاة في النظام والعسكرية قد انتصرت ، فالنظام هو القوة ، ومتى صرنا أقوياء فسوف يسمعنا الانجليز ، سوف يصغون لنا . وكلما زدنا في القوة زاد حبهم لنا ، وعطفهم علينا ، فليسمعها كل مصري وليسمعها كل شاب ، ليسمعها كل زعيم ، علينا أن نكون أقوياء وأن نكون أقوياء بالنظام .

هذا هو ما فهمته من الأنجليز ، أما ما أفهمته لهم فهو اننا في مصر ، المتطرفون او المعتدلون سواء ، نرغب في صداقتهم ، نرغب في التحالف معهم ، تحالف الحر للحر . فان قبلوا هذه الصداقة فرحبا بهم . فليعطونا حقوقنا وسوف نكون أصدق حلفائهم أما اذا رفضوا هذه الصداقة فيجب ألا ينتظروا منا الا خصوما أشداء ، لا نكل ولا نمل ولا نلين . نعرف كيف نحاربهم وكيف نستخلص حقوقنا ، وكيف نهدمهم في الساعة المناسبة .

وفي جنيف

أما في جنيف ، أيها السادة ، فلقد فهمت أشياء أخرى على جانب عظيم من الخطوره ، فهمت أن مصر قد قطعت شوطا بعيداً في الحياة الدولية ، وأن العالم بأسره يتطلع لها ويترقب حضورها .

حضرت جلسات مجلس العصبة ، عدة أيام متوالية ، وتتبعت كل أعمـالها باهتمام ، فقرت فى ذهنى عدة نتائج هي التي أعود مزوداً بها من جنيف ، وهي التي ستصبح مبدأ من مبادئى. أما الملاحظات التى لاحظتها فى حضورى كل جلسات مجلس العصبة ، فهى أهمية هذه الأداة الضخمة من حيث الدعاية والتأثير على الرأي العام الدولى . أجل قـد يكون هذا التأثير اليوم ليس من القوة بحيث يؤدى الى نتائج عملية ضخمة ، ولـكنه تأثير على كل حال ولست أشك لحظة فى أن هذه العصبة ، لو عاشت عدة سنوات أيضاً، فانها ستنتهى بأن يصبح لها تأثير مادى فعلا .

تصوروا أيها السادة ، خمسمائة صحافى ، يمثلون صحافة العالم بأسره ، يتلقفون كل كلمة صغيرة أو كبيرة ، هامة أو تافهة ، كى يطيروا بها الى بلادهم ، فاذا بالعالم بأسره يتناقل ما قيل فى جنيف بعد القائه بساعات قليلة . ولقد رأيت أمما صغيرة تدافع عن قضيتها والعالم بأسره يتتبع هذا الدفاع ، ولقد رأيت دولا صغيرة استطاع ممثلوها فى المجلس بما لهم من شخصية أن يؤثروا حتى على الدول الـكبيرة . ولقد رأيت وزير خارجية انجلترا المستر ايدن يشترك فى أعمال العصبة عدة أيام متوالية ، ليل نهار بالرغم من وفاة ملك الانجليز .

ورأيت مندوب دولة باراجواى يتحدى دولة عظيمة كروسـيا ، ويستشهد بالعالم على حقه ، ولم تجد أمامه ثورة لتيفنوف وزير خارجية روسيا . وفى كلمة أحسست بلذعة الألم فى نفسى لغياب مصر عن هذا المجتمع الدولى ، وتخيلت مقدار التفوق الذى يمكن أن يحوزه ممثل مصر على كثير من ممثلى العـالم ، والذين لايكاد بعضـهم يبين أو يفهم ، بينما تسـتطيع مصر أن ترسل عقولا مشرعة ، وأدمغة مفـكرة . أحسست بالألم أن لا يدوى صوت مصر ، فيتناوله هؤلاء الصحفيون وتنشره صـحافة العالم ، فى الوقت الذى تنفق مليونا من الجنيهات على المفوضيات والقنصليات ، وبضع مئات من الألوف على سنن المؤتمرات والمظاهر التى قلما تحرك أصبعا فى سبيل القضية المصرية . وأحمد الله أنى قت بواجبى الجزئى ، فأعددت مذكرة بحق مصر فى الدخول فى عصبة الأمم ، وقدمتها لسـكرتير العصبة العام ، فتلقفتها صحافة العالم ، واهتمت بها دوائر العصبة .

تقصير معيب

وبعد أن تحدثت مع أكثر من مندوب من مندوبى الدول ، وبعد أن تحدثت الى عشرات الصحفيين ، لا بل بعد أن تحدثت مع بعض المسئولين في جمعية الأمم نفسها ، تحول ألمى الى غضب وحنق على كل هذه الحـكومات التى قصرت حتى الآن فى الانضمام للعصـبة ، وكل شىء مهيؤ لقبولها . فلن تقدر انجلترا أن تعارض طلب مصر فى وقت تدافع فيه عن الحبشة ، لاعقبات قانونية أو سياسية ، الطريق ممهد أمام مصر لتصبح عضوا فى جمعية الأمم ، وهذه مسـألة من أخص المسائل المصرية التي لا يمـكن للانجليز أن يعترضوا عليها ، فالدخول فى عصبة الأمم لا يسـاوي أكثر من التوقيع على أى معاهدة من المعاهدات الدولية .

الى رئيس الوزراء

واذن فاني ألفت نظر رئيس الوزارة المصرية الى هـذه الحقيقة ، ينبغي المبادرة الي الانضمام الى عصبة الأمم سواء نجحت المفاوضات أولم تنجح ، هذا حق لمصر ولا ينبغي تعليقه على نجاح المفاوضات أو فشلها . وهناك ، هناك في عصبة الأمم ، ستبرهن مصر على حيويتها وقدرتها ، فتدافع عن استقلالها وكرامتها ، و سوف تكون آذان العالم بأسره مفتوحة لها ، وسوف يكون الرأي العام بأسره فى جانبها ، ولكن على شرط واحد ، أيها السادة ، وهو أن نكون أقوياء ، وأن نكون أقوياء أولا وأخيرا .

لقد عدت

وها أنذا أيها السادة قد عدت ، فاذا ما سألتموني عن برنامجي فاني أقول لكم انه يتلخص في هذه الكلمة ، التي كررتها لكم ، وأعني بها أن نكون أقوياء ، وأن تعد الشباب لأن يكون كامل السلاح والعدة ، هناك مفاوضات ستأخذ مجراها عما قريب ؛ وسأتكلم فى القاهرة عما يجب أن تتمخض عنه هذه المفاوضات ، ولكني أبادر منذ الآن فأعلن رغبتي من صميم قلبي . فى أن تنجح هذه المفاوضات ، وسوف نتحاشى كل عمل يكون من شأنه أن يعكر الجو أمام الحكومة وأمام المفاوضات .

لن نضيع الوقت

ولكننا فى انتظار ذلك لن نضيع الوقت ، بل سنمضي فى طريقنا مسقطين من حسابنا نجاح المفاوضات أو إخفاقها ، ذلك أنه اذا نجحت هذه المفاوضات فسوف يكون ذلك نقطة الابتداء في جهادنا لبعث مصر واعادة كل مجدها القديم ، أما اذا فشلت فان جهادنا متواصل ومستمر . وانني أدعو الشباب للتهيؤ والاستعداد ، مع ضبط الأعصاب ورباطة الجأش . ادعو الشباب الى الالتفاف حول راية مصر الفتاة ، ومبادىء مصر الفتاة . أدعو الشعب المصري بأسره الى مواصلة كفاحنا السلمي فى ميدان الاقتصاد مثل ما فى ميدان الاجتماع والاخلاق .. لا تشتروا الا من مصري ، ولا تلبسوا الا ما صنع فى مصر ، لا تتكلموا الا بالعربية ، ولا تردوا على من لا يخاطبكم بها .. قووا أرواحكم وعزائمكم بالامتناع عن الخمور ، وعدم الأسراف فى الملاهي . تمسكوا بالفضيلة والأخلاق ، امتلئوا ايمانا بالله وايمانا بأنفسكم ووطنكم ، فقد كنتم سادة الدنيا يوما من الأيام ، وسوف تصبحون سادتها بقوتكم وايمانكم ، سوف تصبحون سادتها بدينكم وعلومكم ، سوف تصبحون كذلك يوم تعرفون تاريخكم جيدا ، وتثقون بأنفسكم وتملأون قلوبكم شجاعة وجرأة ..

والمجد لمصر »

مات الملك عاش الملك

وزارة على باشا ماهر

— ١٦ —

وكانت وزارة على باشا ماهر ، وعلى باشا ماهر رجل من رجالات مصر النابهين وهو فذ بين رجال الجيل القديم ، ولقد بادر بمناصرة مصر الفتاة منذ اليوم الأول الذى طلبت منه نصرته ، خاصة وأن مصر الفتاة كانت تحفظ للرجل مواقفه المشرفة فى ثورة ١٩١٩ ، وجهاده الموفق لجعل الدستور المصرى على أحدث النظم العصرية ، وتحفظ له أخيرا ثورته فى التعليم عند ما كان وزيرا للمعارف فى سنة ١٩٢٥ ، فقد قلب مناهج التعليم رأساً على عقب،وحولها من برامج الاحتلال إلى برامج الحرية والاستقلال، فأدخل اليها التربية الوطنية ، واللغة الفرنسية لتنافس اللغة الأنجليزية ، وصحح مناهج التاريخ ،ووضع للمدرسين القواعد التى يجب أن يعالجوا على أساسها التاريخ المصرى ، وأخيرا جعل الرحلات في جميع أنحاء البلاد ، بل وخارج القطر ، جزءا لايتجزأ من مناهج التعليم . وأدخل السينما فى فى المدارس ، إلى غير ذلك من الأصلاحات الرشيدة ، ولقد استطاعت مصر الفتاة أن تتنفس الصعداء في ظل وزارته لأول مرة في تاريخها ، فرحنا نجتمع فى حرية ، ونجوب البلاد فى حرية ، وسرعان ما اشتد نشاط مصر الفتاة فى كل مكان ، فتألفت الشعب ، وأقيمت الاجتماعات العامة ، ودعيت للخطابة فيها في سراداقات تتسع للالوف من المستمعين . وبدأت روح مصر الفتاة تسري فى كل مكان . ولما أن كان العيد اجتمعنا ، بعد ثلاث سنوات كاملة من اجتماعنا الأول ، فوق صخور الأهرام ، وألقيت فى ذوى الأقمصة الخضراء الذين وفدوا إلى الاحتفال بالعيد من كافة أنحاء القطر، ومنهم من حضر سيرا على الأقدام ، خطابا ناريا ، هاجمت فيه خصوم

مصر الفتاة ، هجوما عنيفا لأول مرة ، وفندت الإتهـامات التى وجهوها لمصر الفتاة ، وأظهرت كيف كذبتها الحوادث والوقائع واحدة بعد أخرى.
ولقد نشر هذا الخطاب فى طبعة إيمانى الأولى وهو منشور فى العدد ٢٢ من جريدة الصرخة الصادر فى ١٠ مارس سنة ١٩٣٦ والذى يحوي فوق ذلك صورا رائعة لهذا الاحتفال العسكرى المهيب لذوى الأقمصة الخضراء.
وكانت المفاوضات بين مصر وانجلترا تجرى في هذه الأيام فى القاهرة ، وكان حتما علينا أن نتربص نتيجة هذه المفاوضات وما تسفر عنه ، ولم يكن باستطاعتنا أن نسبق الحوادث ، أو نسرف في الهجوم أو الانتقاد ، فانصرفنا إلى تقوية صفوفنا وإعادة تنظيمها ، ونشر دعاياتنا.

مصر الفتاة والانتخابات

وكان مقرراً ، وقد عاد الدستور أن يجري على باشا ماهر انتخابات عامة فى أنحاء البلاد لأعادة تأليف البرلمان المصري ، بنوابه وشيوخه ، ولقد أجرى على باشا ماهر الانتخابات فى جو من النزاهة والحرية لم يسبق له مثيل من قبل أو من بعد ، وكانت فرصة سانحة لمصر الفتاة أن تظهر مدى ما وصلت إليه من تمثيل للرأى العام ، وتعبير عن إرادته ، لولا أن قانون الانتخاب يحتم أن يكون سن المرشح ثلاثين سنة ميلادية على الأقل ؛ ولما لم يكن فينا من بلغ هذه السن ، بل لم يكن فينا من بلغ خمسة وعشرين سنة فقد كان ذلك سببا قاهراً حال بيننا وبين خوض المعركة الانتخابية ، وقد أصدرت باسم مصر الفتاة بيانا نشرته الصحف بصدد موقفنا من الانتخابات ، وهذا نصه :

الانتخابات وجمعية مصر الفتاة

راع الكثيرين ألا يجدوا في المعركة الانتخابية صوت الشباب الذى حمل لواء الكفاح ، والذى أعاد للأمة دستورها وهيبتها ، راع الرأي العام ألا يجد مرشحين لمصر الفتاة ، مرشحين يعبرون عن الجيل الجديد وآمال مصر الحقيقية ، فوجهت

الينا مئات الأسئلة عن سبب عدم اشتراكنا فى الانتخابات وخوض غمارها ، أهو عجز منا أو ضعف أو زهد فى الانتخابات . والحق أن الأمر ليس هذا ولا ذاك ، ولكنه نتيجة حتمية لقانون الانتخابات . فواضعوه قد تعمدوا أن يقصوا الشباب عن معركة الانتخابات ، فحددوا سن النائب بثلاثين عاما على الأقل ، معارضين فى ذلك كل ماجرى عليه العرف فى البلاد الدستورية ، وهو أن لكل ناخب الحق فى أن يفوز بعضوية مجلس النواب . ولما كانت مصر الفتاة ، وليس فى قادتها ، وكلهم من الشباب ، من يملك هذا النصاب من السن ، فنحن بهذا محرومون من خوض المعركة الانتخابية .

وكم كنت أود من صميم قلبي أن تكون هذه الانتخابات وسيلة لاظهار روح الشباب والكفاح ، كم كنت أود أن تدور هذه المعركة الانتخابية حول المبادىء والبرامج ، لاحول الألقاب والأشخاص ، كم كنت أود أن أعرض على الأمة برنامج الشباب السياسى والاقتصادى والاجتماعى الذى من شأنه أن يبعث من مصر مصراً جديدة ، وأن يحقق استقلالها وسيادتها وحريتها ، ولكن تشاء الأقدار أن تضم هذه المعركة الانتخابية القادمة الى سابقاتها من المعارك بكل ما فيها من خصائص وأشكال . على أن كفاحنا خارج البرلمان سيكون أشد منه تحت قبته ، وها نحن أولاء ماضون فى طريقنا والله يرعانا ويهدينا سواء السبيل .

احمد حسين

رئيس جمعية مصر الفتاة

مات الملك

وشاء الله أن يقع فى هذه الفترة حادث يختم صفحة من تاريخ مصر ليفتح صفحات جديدة ، فقد مات الملك أحمد فؤاد العظيم ، مات الملك فؤاد بعد أن جمع القلوب حوله ، وكان له أكبر الأثر فى تأليف الجبهة المتحدة من الأحزاب المصرية ، وبعد أن أعاد الدستور للبلاد ؛ ورسم للمفاوضين طريق الحرية والاستقلال . مات الملك فؤاد فبكته مصر بأسرها ، بعد أن أظهرت لها الأيام والسنون والحوادث المتعاقبة ، كم كان هذا الملك عظيما محبا لمصر ولعظمة مصر ومجد مصر . لقد كان الملك فؤاد ممن يؤثرون العمل فى صمت ومن وراء ستار ، فلم يجعل ذلك منه إبان حياته ملكا شعبيا ، بل لطالما أساء الشعب فهمه وفترت عواطفه بالنسبة له . ولكن الموقف الرائع الذى وقفه أخريات حياته ، عندما جابه الانجليز بالرغم من مرضه وضعفه ،

وعندما جمع رجالات مصر حول فراش مرضه وناشدهم الله والوطن أن يتحدوا من أجل مصر ، هذا الموقف الخالد فى تاريخ مصر الحديثة ، فتح عيون الشعب على عظمة الملك فؤاد ووطنيته ، وما بذله من جهد فى سبيل أمته ، فأفعمت قلوب الشعب بالمحبة له والأشادة باسمه . وكأن ذلك كان مسك الختام ، وكأن الله قد أراد أن يكافىء الملك أحمد فؤاد على اخلاصه وصدقه فيارح هذه الدنيا هو في ذروة مجده ، وليس في مصر كلها من لا يبكيه بالدمع المتون .

مات احمد فؤاد ، ووجفت القلوب واضطربت ، وتساءل كل انسان وماذا يكون موقف مصر ، وماذا يكون موقف انجلترا ،وهذه أول مرة يموت فيها الملك فى ظل الاستقلال والدستور المصرى ؟ ! ! هل يتدخل الانجليز كما اعتادوا التدخل من قبل، وماذا يكون موقف الشعب المصرى إزاء هذا التدخل ؟ !

وهنا تجلت مقدرة على باشا ماهر الفائقة ، ووطنيته واخلاصه ، فقد تصرف بسرعة وحزم شديدين، فى تطبيق قواعد الدستور . فاجتمع مجلس الوزراء ونادى بولى العهد فاروق ملكا على مصر ، وبهذا صح فى مصر ما يصح في كل بلد مستقل عندما يقولون « مات الملك ، عاش الملك ! ! » ولم تكد الدنيا تسمع بأنباء وفاة الملك فؤاد حتى كانت تسمع بعد ذلك بساعات قلائل تولية الملك فاروق عرش آبائه وأجداده ،وتم ذلك بدون تدخل الأنجليز عن قرب أو بعد ، بل بدون أن يعرض الأمر على الأنجليز الذين وجدوا أنفسهم أمام الامر الواقع المحكم ، فلم يستطيعوا الا أن يقروه وأن يرضوا عنه ، خصوصا وأن المفاوضات كانت في ذلك الوقت جارية لوضع هذه المحالفة والمعاهدة التى كانت تحرص انجلترا كل الحرص على إبرامها .

ولقد كتبت في جريدة الصرخة مقالا تاريخيا أؤبن به الملك الراحل ، وأستقبل به الملك الجديد وهو جدير بالتسجيل لخطورة المناسبة .

مات الملك الشيخ وجاء الملك الشاب

هي صفحة تطوى وجيل بأسره يفسح الطريق

وهي صفحة تنشر وجيل بأسره يتقدم الى الامام، في عزم وثبات ويقين

مات فؤاد صاحب الأمجاد الكثيرة والأعمال الباهرة ، مات فؤاد العاهل العظيم الذي حرر مصر من ربقة الاستعباد وقادها الى التحرر والاستقلال ، الذي قاد مصر الضعيفة الفقيرة الهزيلة حتى صيرها قادرة غنية رافعة الرأس موفورة الكرامة . مات فؤاد الذي اقترن اسمه طوال سبعة عشر عاما بكل ما هو جميل وجليل ، بكل ماهو نافع ومفيد، مات فؤاد الذي نقش اسمه على ألوف من المؤسسات والمشاريع التي ملأت مصر بالحياة والعزة والثروة ،هذه الشركات وتلك المصانع ، أي واحد منها لا يحمل حجره الأساسي اسم فؤاد ، هذه المدارس ودور التعليم ، هذه الجامعة وهذا الأزهر ، هذه الجمعيات وكل هذه الأعلام ألم يزينها دائما اسم احمد فؤاد وأنها شيدت في عصر أحمد فؤاد . مات فؤاد الذي حكم مصر سبعة عشر عاما لم تخل من هنات هينات ، ما في ذلك شك، ولكن هل يكون الكمال الا لله وحده ... وأين هذا الأنسان الذي تنزهت صفاته وجلت أعماله عن الخطأ، الا الرسل عليهم الصلاة والسلام ، أو لم يقل لنا شاعر الحكمة أن « كفى المرء نبلا أن تعد معايبه » فهو نخار ما بعده نخار لجلالة الملك الراحل ، وبجد ما بعده مجد أن يبحث الناس في حكمه الطويل فلا يجدون الا كل ما هو حسن وجميل ، ولا يجدون من الأغلاط الا النذر القليل وكان حسن النية فيه من غير شك وربما لم يكن مسئولا عنه الى حد كبير .

هذا هو جلالة الملك الراحل وهذه أقدار أول ملك لمصر المستقلة الذي قاد سفينة مصر في أعصب الساعات وسط الرياح والعواصف حتى قربها من الميناء ، وهو بعد ذلك المصلح المعمر البناء، الذي ملأ مصر عملا وتجديداً .

على أن وفاة جلالة الملك فؤاد، وارتقاء جلالة الملك فاروق تبعث في نفوسنا أملا وتفاؤلا وايمانا جديدا ، فلست من هؤلاء المتشائمين الذين ينظرون الى المستقبل بمنظار أسود ، بل ان ايماننا ليجعلنا نشعر بالاغتباط واليقين بأن مستقبل مصر سيكون أسعد من ماضيها ، وأن الحوادث تقربنا من غايتنا العظيمة، هذه التي نرى عندها مصر القوية التي تمتد حتى خط الاستواء ، والتي تحالف الدول العربية وتتزعم الاسلام، بأن جلالة الملك فاروق أول ملك قد عينته الأرادة الشعبية منذ أكثر من مائة عام أي منذ أن اتفقت كلمة المصريين على انتخاب محمد على باشا رأس العائلة المالكة فان جلالة الملك الراحل قد تلقى خطابا من المندوب السامي بمبايعته بالسلطنة . ومن قبله السلطان حسين بايعه المندوب السامي كذلك .

ومن قبل كانت الفرمانات التركية تتدخل في تعيين والى مصر . أما جلالة الملك فاروق فهو أول ملك مصري عتيد جاءت به ارادة شعب مصر المستقلة السعيدة ، وهنا لا يسع الانسان الا أن ينحني اعجابا وتقديرا لهذا الرجل الذى قام بهذا العمل العظيم وأعنى به صاحب الدولة علي باشا ماهر رئيس الوزراء ورجل الساعة الذى أنقذ مصر من شر كبير. مات فؤاد وقد طويت بموته صفحة الجيل القديم ، فلقد كان علما على هذا الجيل ، وكان ممثلا لكل صفاته ، وكان أعظم من فى هذا الجيل فلا يوجد رجل واحد من جيل الملك الراحل يستطيع أن يتزعم الجيل كما تزعمه الملك فؤاد وإذن فقد طويت هذه الصفحة الى غير نشور حتى يوم الحساب بكل ما فيها من حسنات وسيئات ونشرت صفحة جديدة هى صفحة الجيل الجديد صفحة الشباب بكل ما فى هذه الصفحة من قوة واعتزاز وتطلع لمستقبل أسعد وأمجد وبارك الله في جلالة الملك فاروق الذى عبر عن عهده فأحسن التعبير، والذى تكلم باسم الشباب فأجاد الكلام فقد قال « وانى أتعهد أن أعمل حتى تتبوأ مصر المكانة اللائقة بها بين الأمم » أجل سوف يعمل جلالة الملك فاروق وسوف نعمل جميعا معه . سوف نكافح وسوف نناضل وسوف نعمر وسوف نصلح . سوف نكون أقوياء أشداء أعزة سادة لبلادنا ، لا نعرف مستعمرا ولا نقره ، ولا نرضى بدخيل ولا نقره، ولا نرضي بذل أو عبودية . استغفر الله ، بل لا نرضي برائحة ذل أو ذكر الذل . هذا هو العهد الذي نستقبله فى ظل جلالة الملك فاروق . فليصمت الناعقون ، ولتقطع ألسنة المتشائمين وليفسحوا الطريق للشباب والجيل الجديد . ليفسحوا الطريق للملك الشاب ولجموع الشباب، ليفسحوا الطريق فأن لنا سواعد وفى قلوبنا ايمان، ولنا ارادة تهد الجبال وتذيب الحديد . والمجد لمصر .

احمد حسين

رئيس جمعية مصر الفتاة

انتصار الحياة الدستورية

وزارة الوفد

— ١٧ —

لم يدم حكم على باشا ماهر طويلا ، فقد كانت وزارته في صبغتها بمثابة وزارة انتقال ، وقد دام حكمها مائة يوم ، كانت كلها خيراً وبركة على مصر من غير شك ، ووقعت في هذه المائة يوم أحداث جسام لا تمر فى حياة الأمم أمثالها كثيراً ، فكان على مصر أن تؤلف وفداً للتفاوض مع انجلترا فى قضية الاستقلال، وقد ألف على باشا ماهر هذا الوفد من جميع الأحزاب برئاسة مصطفى باشا النحاس ، وكان على الوزارة أن تعيد الحياة النيابية ، فأجرت الانتخابات التى أشرنا إليها فيما سبق ، والتى جرت فى حرية لم يسبق لها مثيل ، ثم كان هذا الحادث الذى مات فيه الملك فؤاد ، وتولى الفاروق عرش البلاد .

ولما كان الملك فاروق لم يبلغ سن الرشد بعد ، فقد أقيم مجلس الوصاية المؤلف من صاحب السمو الملكى الأمير محمد على ، وشريف باشا صبرى ، وعزيز باشا عزت ، وقد كان الرأي العام يخشى كل الخشية أن يكون نسيم باشا واحدا من هؤلاء الأوصياء ، لما كان معروفا ومشهورا من أنه واحد منهم بناء على طلب الأنجليز بالذات ، ولكن عند ما فتحت وصية جلالة الملك تبين أن اسمه قد استبعد فى اللحظة الأخيرة ، فتنفست البلاد الصعداء .

لم يكد على باشا ماهر يفرغ من توطيد أركان الدولة ، حتي كان عليه بحكم الدستور أن يفسح الطريق لوزارة الأغلبية التى أسفرت عنها الانتخابات، ولم تكن هذه الوزارة سوي وزارة الوفد التى جاءت الى الحكم بأغلبية كبيرة. ولم يكد صاحب الدولة مصطفى باشا النحاس يتقلد منصب زمام الحكومة حتي بادرت بتهنئته، فبعثت إليه بالبرقية التالية :

حضرة صاحب الدولة مصطفى النحاس باشا

مجلس الوزراء

إن تقلدكم الوزارة انتصار باهر للحياة النيابية ، وتوطيد لدعائم الدستور يقابله المصريون جميعاً بفرح وابتهاج ، وإني لأتمنى لحكومتكم كل توفيق في تحقيق برنامجها الذي تفضلتم باعلانه ، والمجد لمصر

احمد حسين

رئيس حزب مصر الفتاة

ولقد شرحت باستفاضة ماتنطوي عليه هذه البرقية من معان ، فى مقال افتتاحى أري أن أسجله بنصه لأهميته وخطورته بالنسبة لتاريخ العلاقات بيننا وبين الوفد ، وستظهر هذه المقالة أننا لم نجن على الوفد فى يوم من الأيام ، وأننا رغم الخصومة الشديدة التى وجهها إلينا ، ظللنا ننظر إليه كممثل أعلى للشعب والأغلبية ، وعملنا دائماً أبداً على التعاون معه فيما يعود على البلاد بالاستقلال والنفع ، وعلى الشعب بالحرية ، والرفاهية ، والفائدة وأننا لم نكن ، ولن نكون في معارضتنا للوفد ، ولغيره من الأحزاب إلا طلاب حق ، وإنصاف ، وحرية

الوزارة الجديدة . وكيف نستقبلها

تهنئة وترحيب وصراحة فى الحق

وأخيرا جاءت الوزارة الدستورية ، وزارة الأغلبية ، وزارة الوفد فحق على كل مصري الابتهاج ، والفرح ، ولنا فى ذلك عدة أسباب :

أما أول هذه الأسباب ، فهوما أجبت به يوما السير جون وارد لوملن رئيس اللجنة المصرية فى البرلمان الانجليزى ، عند ماكنت فى لندرة في الشتاء الماضى ، فقد عرف الرجل من تقارير وزارة الخارجية البريطانية ، انني لست على وفاق تام مع الوفد ، فرأي أن ينتهز هذه الفرصة ، وأن يستغل ذلك فسألنى :

علام تتحمسون لدستور سنة ١٩٢٣ ، وأنتم واثقون أنه يرفع الوفد الي الحكم بأغلبية ساحقة ، وأنه يقصى الأكفاء عنه ؟ فأجبته اجابة قاطعة ، اضطرت الرجل أن يحترم ما فيها من وطنية ومنطق ، واخلاص لمصر وحريتها . اذ قلت له ان دستور مصر ،

مظهر من مظاهر استقلالها ، وسيادتها فكل عدوان على هذا الدستور ، انما هو عدوان على استقلال مصر ، قبل أن يكون عدوانا على الدستور . واذن فقد وجب على كل مصري أن يدافع عن الدستور ، دفاعه عن الاستقلال ، والا كان مفرطا ، وخائنا ، ومارقا ، وانى لأرجو أن أرى أعدائي يتحكمون في باسم استقلال مصر وسيادتها ، خير من أن أراني منعما مترفا بالحرية في ظل استقلالها المحطم ، وكرامتها المهدرة .

أما ثاني الأسباب التي تحدو بي للترحيب بالدستور ووزارة الأغلبية ، فهو ما يحدثه من الثقة في نفوس أفراد الشعب ، وشك خصومهم في امكان التغلب على ارادتهم ، فاليوم يشعر كل مصرى أن له ارادة وله قدرة ، وأن كفاحه الطويل وثباته قد نصره وحقق أمانيه . واذن فالكفاح ، والثبات الثبات دائما .

واليوم يشعر المصريون أنهم ليسوا أولئك الضعفاء الذين لا يملكون لأنفسهم قليلا أو كثيرا . واليوم يعرف من تحدثهم أنفسهم بالاعتداء على ارادة الأمة وكرامة الأمة أن مصيرهم الهزيمة والاندحار . وهذا المعنى وحده ، يكفى لحملى على الهتاف من أعماق قلبي اليوم للدستور ، وانتصار ارادة الأمة .

انفى بلد مثل مصر ، يحاول الانجليز أن يسيطروا على حريتها ، وأن يتدخلوا فى مرافقها أن فى بلد مثل مصر مغلوبة على أمرها ، ويراد بها أن تبقى طويلا فى الأسر والتأخر ، ليس من شيء سوى الحياة الدستورية يلقى الضوء على جميع تصرفات الحكومة ، ويجعلها تجرى تحت رقابة الشعب ونوابه . ليس غير الدستور تتطور في ظله الآراء الحرة ، وتنطلق الأقلام ، وترتفع الأصوات المدوية ، تهيب بالأمة أن تتطور ، وأن ترقى وأن تحصل على حقوقها . وهذا هو ثالث الأسباب الذى يحدو بي وبكل مصرى ، أن يقابل تقلد الأغلبية للحكم بالابتهاج والترحيب .

فما بالك وقد أعلن رئيس الأغلبية برنامجا نص فيه على اتمام الاتفاق مع انجلترا ، وتسوية المسائل المعلقة التى تشوب استقلال مصر ، وأنه سيضمن العدالة والحرية لجميع الأحزاب على السواء . وأنه سيصلح في كل مكان ، وأنه سيجعل محور اهتمام الحكومة خاصا بالفلاح . وكل هذه مسائل لا يسعنا الا أن نقابلها بالابتهاج والترحاب ، والا كنا خائنين بعهودنا التى قطعناها على أنفسنا ، وهى أن نمجد كل ما فيه خير لمصر ، وتحقيق لاستقلالها ورفاهيتها .

فالاتفاق مع الانجليز بما يحقق استقلال مصر وسيادتها الكاملة غير المشوبة بنقص ، هو جل ما يصبو اليه المصريون ، من الاسكندرية حتى خط الاستواء .

وهو أم ما يصبو اليه جنود مصر الفتاة ، الذين يريدون أن تفرغ مصر من بعض مشاغلها مع الأنجليز ، وأن تتحلل من كثير من قيودها ، حتى تنطلق الى الامام في تنفيذ برنامجنا العتيد ، والذين تريدون به أن تحيوا مجد أمة ، حتى ليشرق على العالمين .

ومن ذا الذى لا يطرب لسماع كلمة العدالة ؛ وهي نور الله ، ورحمته على العالمين . من

ذا الذى لا يبايع الوزارة على نشر العدالة ، والحرية والمساواة بين الجميع. من ذا الذى لا يتمنى من الله أن يوفقها فى تحقيق هذا الذي أخذته على عاتقها .

بارك الله في وزارة تتعهد أن تجعل الفلاح محور اهتمامها . فالفلاح هو مصر وكل تجاهل للفلاح ، تجاهل لمصر ، وكل تقصير فى حقه ، تقصير فى قضية الوطن والانسانية .

فنحن نهنيء الوزارة الجديدة ما بقيت عاملة على تحقيق هذا البرنامج . نهنيء الوزارة ما نشرت الحرية ، والعدالة ، وحققت المساواة . نهنيء الوزارة ما عملت على استكمال مصر سيادتها . وهـذا هو العهد بيننا وبينها ولعنة الله على من يحنث بالعهد، أو يخرج عليه .

أجل فوالله لن نسكت على ضيم ، ولن نتغاضى عن تفريط . ووالله لنكونن كما كنا ، دائما أشداء فى الحق ، لا يثنينا بطش أو وعيد ، ولا يؤخرنا ارهاب أو تهديد .

ونسأل الله أن يهدينا جميعا سواء السبيل ... والمجد لمصر .

احمد حسين

رحلة فى الصعيد

سيرا على الأقدام

— ١٨ —

كان مؤدى الخطة التى قررنا انتهاجها بالنسبة للوزارة الجديدة ، خطة التهنئة والترحيب ، ثم التربص بها لمعرفة إلى أى حد تطابق أفعالها أقوالها ووعودها ! وكان مؤدى استمرار المفاوضات بين مصر وانجلترا من ناحية أخرى ، أن فكرت فى استغلال هذه الفترة من الهدوء والانتظار فى عمل إيجابي لتحقيق أغراضنا وأهدافنا ، ففكرت فى القيام برحلة أبتدىء فيها من الشلال صوب القاهرة ، مخترقا صعيد مصر كله سيرا على الأقدام ، أي مايقارب ألف كيلو متر . وكان هدفى من هذه الرحلة أن أجوس خلال الوطن المصرى بلدة بلدة ، وقرية قرية ، وشبرا شبراً ، ولاسبيل إلى ذلك إلا عن طريق السير على الأقدام . فرأيت أن أقدم على هذا الأسلوب لما فيه من دعاية لصلابة عودنا وقوة مراسنا ، ولما فيه من تعويد للشبان على استسهال كل صعب ، والصبر على كل مشقة . فليس كالسير على الأقدام مايغرس في الانسان عديداً من الفضائل، على رأسها فضيلة الصبر. ولقد تحمس للفكرة معى بضعة نفر من أعضاء مصر الفتاة ، قرروا أن يزاملونى في رحلتى ، وأن يشتركوا معى فى هذه الغزوة السلمية لصعيد مصر. وكانت الرحلة يعد لها منذ زمن بعيد ، فلما جاءت وزارة النحاس باشا كان ذلك ميعاد تنفيذها ، فأعلن عنها فى الصحف.

ولقد كانت هذه الرحلة بهذا الأسلوب محل دهشة وتهكم ، في بعض الأحيان ، وادعاء بأنه من المستحيل تنفيذها . . ودهش الناس بالأخص من أن نختار فصل الصيف لهذه الرحلة ، وأن نجتاز صعيد مصر فى أيامه المحرقة سيراً على الاقدام . . ولكن كل هذه الصعوبات والتهويلات

لم تكن تزيدني إلا عزما على وجوب الاقدام على هذه الرحلة . ولذلك فقد حددت اليوم والساعة التى تقوم فيها البعثة إلى الصعيد، وهى الساعة الثامنة من مساء يوم الخميس ٢٨ من شهر مايو .

ونشرت فى مصر الفتاة ووزعت على جميع الصحف البيان التالى :

بعثة مصر الفتاة فى الصعيد

مطالب مصر الفتاة من الحكومة

أسافر فى مساء الخميس ٢٨ مايو فى تمام الساعة الثامنة الى الشلال مصطحبا معى عشرة من مجاهدى الجمعية القدماء . ومن الشلال سوف نقصد القاهرة سيراً على الأقدام متنقلين من بلد الى بلد ، ومن قرية الى قرية ، متحدثين الى الفلاحين جماعات وأفرادا . وليست هذه الرحلة الا تنفيذا لعهد قطعته على نفسى أن أحيا كما يحيا الفلاحون ، وأن آكل كما يأكلون ، وأن أشرب مما يشربون ، وأن أتحمل شظف العيش الذى يتحملون . فقد طالما أهملنا الفلاح وهو سر الحياة فى مصر ، وسر مجدها . فلقد جعلنا من الفروق والحواجز بين رجل السياسة والفلاح سدودا وأى سدود . ومصر الفتاة التى لها سياسة جديدة وروح جديدة ، تقدم دليلا على صدق كفاحها ، فتختار فصل الصيف للقيام بهذه الرحلة الشاقة ، التى نسأل الله أن يوفقنا لاتمامها . واخترنا أن تكون رحلتنا مظهراً من مظاهر الكفاح الروحى والنفسى ، فنصبر على الشدة ونسير على الأقدام ، باحثين عن روح مصر الحقيقية بين ثنايا الريف ، روح مصر الخالدة التى صارعت الزمن وبهرت الدنيا وأشرقت على العالمين .

واذا كنت أرجو أن تتم هذه الرحلة فى ظل الحرية العامة التى أباحها الدستور ، والتى أعلنت الوزارة تحقيقها لجميع الأحزاب على السواء ، فانى أتوجه قبل سفرى ، الى الحكومة والبرلمان ، بضعة مطالب يؤمل الشباب تحقيقها على وجه السرعة فى أشهر الصيف المقبلة ، ولا يقبل فيها مهادنة أو تأخيرا وهى :

أولا — العمل على زيادة الجيش زيادة سريعة كافية للدفاع عن مصر ، فان خطر الحرب أصبح يهدد مصر أكثر من تهديده لأى بقعة أخرى فى العالم .

ثانيا — العمل على حل مشكلة المحاكم المختلطة باصدار قرار بالغائها ، بعد عام من تاريخه تطبيقا لمرسوم انشائها ، واتخاذ الاجراءات التمهيدية لالغاء الامتيازات ، لتدبير المال اللازم لزيادة الجيش ، ويكون ذلك باعلان من جانب الحكومة المصرية .

ثالثا — الغاء قانون الاجتماعات وحماية الموظفين واضراب معاهد التعليم وجميع القوانين الاستثنائية والمقيدة للحرية .

رابعا — تخفيض مرتبات كبار الموظفين الذين يتقاضون فوق المائة جنيه ، وذلك أسوة بما فعل جلالة الملك ، وبنفس النسبة ، وصرف جزء من الوفر لصغار الموظفين لتحسين حالهم .

هذه هي المطالب التي يرجو الشباب المبادرة بتنفيذها . وانى اسأل الله أن لا تنقضي أشهر الصيف الأربعة حتى نكون قد فرغنا منها ، كيما نواجه الطوارىء الجديدة في العام المقبل ، بأكثر مما نحن قوة ومناعة واستعداداً لتحقيق رسالتنا . رسالة السلام . والمجد لمصر .

الحكومة تعترض

وقبيل سفر البعثة بأربعة وعشرين ساعة تلقيت دعوة من حسن باشا رفعت وكيل وزارة الداخلية لمقابلته ، فذهبت اليه في الموعد المحدد فاذا به يحيطني علما أن ارتداء القميص الأخضر في هذه الرحلة ممنوع ، وأن دولة رئيس الحكومة يسلم على ، ويطلب منى العدول عن هذه الرحلة أو على الأقل عدم ارتداء الاقمصة الخضراء فيها .

فقلت له أما عن العدول عن الرحلة فهذا ما لا محل له بحال من الأحوال وما لا أعرف سببا يدعو اليه ، فأنا حر أذهب حيثما اشاء ، وأنى اشاء ، وأنا كرئيس كجماعة سياسية أختار الوقت الذى يناسبني للسفر فيه الى هذا المكان أو ذاك . أما بالنسبة للاعتراض على ارتدائي واخواني القميص الأخضر فهو اعتراض غير مفهوم ، لأن الحكومة الحاضرة قد أنشأت فرقا للأقمصة الزرقاء ، فلست أعرف كيف تبيح لنفسها ما تحرمه على الناس . ولست أعرف ، ونحن في ظل الدستور ، بأي سلطان تحول الحكومة بين مصرى وبين أن يلبس ما يشاء ويختار من زى ، ما دام أنه لا يخالف القانون . فاذا كانت الحكومة تريد أن تحظر علينا ارتداء القميص الأخضر فلتحظر أولا على اتباعها لبس القميص الأزرق ، أو فلتصدر قانونا يحرم على المصريين لبس الأقمصة الملونة ، وعندها يكون

هذا المنع مفهوما . أما في ظل الدستور والحرية ، فلست أجد أي ممنوع لأن تحجر الحكومة على حريتي بهذا الأسلوب .

قال لي حسن باشا رفعت: ولكن الحكومة ستكون مضطرة الى مضايقتك والاصطدام بك ، اذا قمت بهذه الرحلة مرتديا هذا القميص الأخضر . قلت له إن ذلك ليس سببا يدعوني بحال من الأحوال للرجوع عن عزمي فسوف أسافر ، وللحكومة أن تفعل بي ما تشاء قوة واعتسافا ، ولكنني لن أسمح لها أن ترهبني لكي أكف من تلقاء نفسي عن ممارسة حقوقي .

وافترقنا على ذلك فكان ذلك أول نذير بالشر المستطير الذي سيقع بيننا وبين حكومة الوفد . ولعل الطالع لهذا الكتاب يلحظ أننا لم نكن البادئين بالعدوان ، وأننا على العكس من ذلك هنأنا الحكومة ورحبنا بها وتمنينا لها كل نجاح وتوفيق ، وكنا مخلصين وصادقين في رغبتنا في التعاون مع حكومة الوفد لمصلحة البلاد . ولو أن دولة مصطفى النحاس باشا استدعاني شخصيا لمقابلته والتفاهم معي لتغير الموقف من غير شك ، أما أن يوسط بيني وبينه حسن فهمي رفعت باشا وهو الذي كان يمثل في كل عهد وفي ظل كل حكومة قوة البطش بمصر الفتاة ، فقد ساعد ذلك على خلق جو من سوء التفاهم بيننا وبين الحكومة ، ظل يشتد ويتفاقم حتى وصل الى درجة سيئة خسر فيها الوفد كثيرا ، وخسرنا من جراء هذا الصدام الذي كان أولى منه التفاهم والتعاون على كل ما يحقق مصلحة للبلاد .

بدء المعركة

رأينا أن نسافر في الموعد المحدد من محطة الجيزة بدلا من محطة العاصمة لكي نتفادى اجراءات المنع في محطة العاصمة . وقد نجحت خطتنا فلم يعترضنا أحد ، وأسرع بنا القطار قاصدا الشلال ، فوصلنا الى نهاية الخط الحديدي المصري .

والحق أنني لا أعرف ماذا أثبت وماذا أغفل من انباء هذه الملحمة التي بدأت بيننا وبين الحكومة ، فقد وصلنا في صباح الجمعة ٢٩ مايو سنة ١٩٣٦ ، ولقد كان ذلك حدثا في تاريخ مصر الفتاة ، بل وفي تاريخ مصر الحديثة كلها ، بغير شبه أو مثيل . فقد بدأ صراع بين الدولة والحكومة ، ممثلة في رجال البوليس ، وبين نفر من الشبان الذين لا حول لهم ولا قوة ، ولا يملكون من أسلحة الدنيا الا ايمانهم وعزيمتهم التي لا تقهر . وقد استمر هذا الصراع طويلا الى انتهى بانفجار مدو هز مصر من أقصاها لأدناها ، بل وتجاوز مصر الى خارج الحدود ، واهتزت اسلاك البرق تبعث بانبائه الى جميع انحاء العالمين .

بدأ الصراع بمجرد وصولنا الى محطة الشلال ، حيث وجدنا قوات ضخمة من رجال البوليس في انتظارنا ، ولم نكد ننزل من القطار حتى أحاطوا بنا إحاطة السوار بالمعصم ، وقادونا الى مكان بعيد عن كل عمران تحيط به مياه راكدة ، وحتموا علينا أن يكون ذلك هو محل اقامتنا ، فرضينا بذلك ، وأسرعنا الى نصب خيامنا والاستقرار في ذلك المكان . وضرب البوليس حصارا على هذا المعسكر لكي يحول دون اقتراب أحد منه ، أو دون تسرب أحد ممن في داخله . وبدأت بعد ذلك سلسلة من الحوادث والاحتكاكات والأزمات والاعتداءات والمغامرات ، وامتلأت صفحات جريدة الصرخة بالأنباء المفصلة يوما بعد يوم ، وساعة بعد ساعة لهذه المعركة التاريخية ، وبالمجهود العجيب الذي قامت به هذه البعثة في قطع عشرات من الكيلومترات سيرا على الأقدام وليس يتسع المجال هنا لأثبات ذلك كله ، وإلا احتاج ذلك إلى كتاب آخر في حجم هذا الكتاب واكتفي بتسجيل بيان ، أصدرته مصر الفتاة بعد قليل من بدء الرحلة ، إلى الأمة مصدر السلطات ، وفي ذلك البيان إشارات سريعة وموجزة لبعض مالقيته بعثة مصر الفتاة من أحداث ، في تلك الفترة من تاريخها .

جمعية مصر الفتاة

تطلب حماية الدستور لبعثتها فى الصعيد

بيان إلى الأمة مصدر السلطات

١— أعلن رئيس جمعية مصر الفتاة ، أنه وعشرة من مجاهدى مصر الفتاة ، سيقومون برحلة من الشلال الى القاهرة سيراً على الاقدام ، للاتصال المباشر بالفلاح فى كوخه وقريته ، والتعرف إلى آلامه وآماله ، وحدد للسفر من القاهرة مساء يوم ٢٨ من مايو سنة ١٩٣٦.

٢— وقبل الميعاد المحدد ، وفد على دار الجمعية ضابط مباحث قسم الموسكى ، وطلب من رئيسها باسم الحكومة الاقلاع عن الرحلة ، أو على الأقل عدم ارتداء القميص الأخضر في أثنائها .

٣— وكان حتماً أن يقابل ذلك الطلب الغريب بالرفض ، ثم كان اتصال رئيس الجمعية بكبار موظفي وزارة الداخلية ، الذى تمسك بعده كل فريق برأيه .

٤— ولكن البعثة سافرت فى الميعاد المحدد ، وبقمصانها الخضراء ، ولم يعترضها عندئذ معترض .

٥— ويظهر أن الأمور بيتت على أن تبتدىء مشاق البعثة ، والاعتداءات عليها ، عند وصولها الي بداية الرحلة . حيث يمكن ارتكاب كل شيء وحيث يعز الدليل ويسهل الأنكار .

٦ ـ فما ان وصلت البعثة الى الشلال حتى تلقفها البوليس ، وحاصر خيامها ، ومنعها من الاتصال بالناس ، ومنع الناس من الاتصال بها . وكان من أثر ذلك أن أعيد الى اسوان خمسة من شباب اسوان ، تسللوا الى البعثة خفية من البوليس ، وفى غسق الليل ، وعن طريق النيل ، وبعد سفرة دامت خمس ساعات ، أعاد البوليس الى اسوان هؤلاء الشبان الخمسة بعد اكتشاف أمرهم . وكان من أثر ذلك أيضاً ان ضرب ضابط البوليس أحد أعضاء شعبة مصر الفتاة باسوان المجاهد سامى جورجى بالسوط على وجهه فأدماه ، لانه حاول الاتصال بالبعثة ، ومدها بالمؤونة .

٧ ـ ثم طلب مدير اسوان من البعثة ، أن تلبس أقمصة (كاكية) تفضل بها متبرعا ، وجعل هذا شرطاً لاستمرار البعثة فى رحلتها ، قائلا ان تلك ارادة الحكومة .

وشاء خمسة من اعضاء البعثة ، أن يتعرفوا مدى ماتريده الحكومة فتظاهروا بقبول رغبة المدير ، وتطوعوا للتضحية الغالية فخلعوا شعارهم الأخضر المقدس رمز مصر وأملها ، ولبسوا قميص الحكومة الكاكى ثم سافروا الى اسوان . ولشد ما دهشوا عندما أحاط بهم البوليس بمجرد وصولهم ، وشحنهم فى عربة من عرباته وأعادهم تحت الحفظ الى الشلال ، حيث اودعوا من جديد خيام البعثة .

٨ ــ ولما كان فى اخذ من حريات أعضاء البعثة ، واستعمال القسوة مع افرادها ، ومع الأهلين ، لما كان فى هذا أو ذاك جرائم يعاقب عليها القانون العام ، فقد أبرق بها المركز العام للجمعية فى مصر الى النائب العام ، كما أبرق بها رئيس البعثة الى النائب بنيابة اسوان ، وكلاهما يطلب من حماة القانون حماية القانون .

٩ ــ وفى نفس الوقت ، كانت الحكومة يبيت للبعثة اجراء أشــد عنفاً ، وأبلغ في الجرأة والاعتداء على الحريات العامة والاستهتار بها ، اذ أبلغت سلطاتها باسوان البعثة بأنها ، أى الحكومة ، اعتزمت أعادتها بالقوة الي مصر في قطار الخامسة والنصف مساء . وكان رد البعثة مطابقاً لتقاليد جمعيتها : ان تلك ارادة الحكومة ، ولكن ارادة البعثة هي أن تبقى وأن تقوم برحلتها ، وانه لا توجد فوق الارض قوة تستطيع أى قوة منعها واذا أرادت أي قوة ذلك المنع فدون ذلك ارادة الاعضاء ، وتقاليد جمعيتهم ، وهي الدفاع عن حرياتهم وحريات المصريين فى اشخاصهم ، بكل ما اوتوا من يقين وكرامة ووطنية ثم ليكن ما يكون .

١٠ ــ وأمام ذلك اليقين القوي ، وتلك الكرامة الوطنية ، تراجعت الحكومة عن عزمها فى « شحن » البعثة بالقوة الى مصر ، ثم رأت ان تهجم على ارادة اعضائها من من طريق آخر ، هو طريق منع القوت والمؤونة ، الأمر الذى اضطر رئيس البعثة الى أن يوجه الى مدير اســوان خطابا يسجل فيه تلك « الوحشية » كما أسماها ، ويعلن فيه عزمه ، وعزم صحبه ، أن يقابلوا الحكومة فى نصف الطريق الذى تريد ، بأن يخففوا عنها بعض العبء ، فيضربوا باختيارهم عن الطعام .

١١ ــ وكان المركز العام للجمعية يوالي الصحف بتلك الأنباء حال ورودها عليه من سكرتيرية البعثة أو رئاستها ، فكانت الصحف تتحاشى نشر تفاصيلها لغرابتها . حتي دلت الصحف بأن بعض الوقائع أبلغ الى النائب العام والى رئيس مجلس النواب فتيقنت أن الأمر جد لا هزل فيه ، ولا مبالغة . وأنها أمام أمور واقعة ، وان كانت شاذة فى غرابتها فتوسع بعضها في النشر ، وكتب البعض الآخر معلقاً مستنكراً وكان من جراء ذلك أن تقدم نائب محترم هو سعادة هارون سليم ابو سحلي باشــا نائب فرشــوط ليستجوب الحكومة عنها .. فطلبت الحكومة اسبوعين للرد على الاســتجواب ، وينتهى الأجل الذى ضربتــه في يوم الاثنين ٢٢ يونيو ، وانا لجد شغوفون بأن نسمع ما تقول ، وعسانا لا نسمع شيئاً من تلك الردود التي كانت تذاع فى « العهد البائد » ، أو العهود البغيضة ، عنــدما كان رجال الحكومة الحاضرة فى مثل موقفنا .

١٢ ــ وكان لابد مما ليس منه بد . كان لا بد الموقف من تغطية ، وكان لا بد وأن تكون تلك التغطية بالسماح للبعثة فى متابعة رحلتها ، فسمح لهــا ، ولكن في كنف البوليس وفى حراسته ، اذ تتلقفها أفراده وجماعاته على طول الطريق ، يمنعونهــا

عن الناس ، ويمنعون الناس عنها فطورا ينجح البوليس وتارة لا ينجح . حتى قطعت البعثة ، وفى هذا الحر المضنى ، نحو ٥٠ كيلومترا وصلت بعدها الى دراو ، حيث كانت تنتظر أن يكون حامل خيامها قد ضربها فى مكان مريح تستطيع البعثة ان تجدد فيه نشاطها ، ولكنه ضربها بأمر البوليس داخل «قشلاق» قديم متهدم بعيد عن العمران وفى جوف الجبل .

١٣ـ واهتزت أسلاك البرق بالاحتجاج الى مختلف المصادر الحكومية ، ولكن بدون جدوى ، فاضطرت البعثة دون أن تأخذ قسطها الكافى من الراحة، أن تتابع سيرها الي كوم امبو ، ثم الي ادفو ، حيث أشرفت عليها يوم الجمعة ١٢ يونيو . وهناك علمت أن حامل خيامها وكان سبقها بطريق القطار قد اعترضه حكمدار البوليس نفسه بمحطة ادفو ، ولم يسمح له بالنزول الى البلدة . وقد كان فيها من أهلها من ينتظر مقدمه ليستضيفه ويستضيف البعثة . وتركه حكمدار البوليس هكذا محجوزاً دون أن يمده بالطعام أو ما يسد به رمقه ، وقد تصادف ان كان خالى الوفاض اذ لم يعمل حسابا لتلك المعاملة الشاذة ، فاضطر الرسول ان يستنجد تلغرافياً بالمركز العام بمصر طالباً امداده بنقود لتأكل .

ومنعت البعثة هى الأخرى من دخول ادفو ، كما منعت من تأدية صلاة الجمعة بأحد مساجدها ، فاللهم اغفر لأخى . . . انه مأمور ! !

١٤ـ ومضى يوم السبت ١٣ يونيو ، ونصف يوم الأحد ، ولم ترد على المركز العام أخبار من البعثة ، وقد تركناها خارج ادفو . بأمر البوليس ، فقلقت عليها الخواطر وأرسل المركز يستفهم تلغرافياً من ادفو ، فردت اليه برقيته ، ومعها ما يفيد بأنها لم تسلم لأن البعثة سافرت شمالا .

وبعد ذلك بقليل ورد من رئيسها البرقية الآتية :

« اصبحت حالة البوليس لا تطاق ، قابلوا رئيس ، الوزارة الحالة حرجة .
«احمد حسين»

ونحن نختم بهذه البرقية بياناتنا الأول الى الأمة مصدر السلطات ، وهى غنية بما فيها عن كل تعليق ولا شك أننا سنسمع قريباً ، وقريباً جداً ، صوت الرأى العام مدويا بالاحتجاج على من اعتدوا على الحريات التى كفلها الدستور ، وضمنتها قوانين الدولة .

١٥ـ وجمعية مصر الفتاة لا تشكو ولا تتململ ، فليست الشكوى او التململ في برنامجها وانما وهى الدستورية الصميمة ، وهى التى كانت فى مقدمة مهنئي دولة رئيس حزب الأغلبية بعودة الدستور ـ تريد لمصر حياة دستورية سليمة . وليس من سلامة الحياة الدستورية فى شيء امتهان الحريات العامة ، والاستهتار بها ، ومعارضة مصرى ووضع العراقيل فى طريقه كلما اراد التنقل داخل بلاده ، والدستور صريح فى أن حرية الانتقال مكفولة .

١٦ ـ وجمعية مصر الفتاة ، مركزها العام ومجلس جهادها، وشعبها، وجنودها، وأنصارها ، في كافة أنحاء القطر المصرى ، ترى من الوفاء عليها لرئيسها ، ومن معه من المجاهدين. أن لا تختم بيانها هذا قبل أن تعلن مشـــاركتها لهم في كل ما يقولون ويفعلون ويتحملون، في سبيل الله والوطن والملك . والله أكبر والمجد لمصر . »

***

ذلك هو بيان مصر الفتـــاة الذى أذاعه المركز العام في ذلك الوقت. وهو لايعطى سوي فكرة ضئيلة عن هذه الملحمة بين بعثتنا والحكومة ..

هل يتصور القارىء أننا اضطررنا في بعض المراحل إلى أن نقطع خمسين كيلوا متراً في نهار واحد . بل هل يتصور القارىء أو يصدق أننا قطعنا في شوط واحد المسافة بين اســـنا والأقصر ، وهى تربى على السبعين كيلو مترا ، لأن البوليس كان يحول بيننا وبين أن نميل شرقا أو غربا ، أو أن نرجع القهقرى ، فلم يكن أمامنا إلا أن نسير نحو الأمام ، ونحو الأمام دائماً . . .

ولقد تورمت قدماى في نهاية الأمر، وعطبتا وكان ذلك أشدمايؤلمنى في هذه الفترة ، ولكننى صممت بالرغم من ذلك كله أن أمضى فى رحلتى بالرغم من كل شىء . . . وحسبي الآن أن أذكر أسماء بعض هذه البلاد التى اجتزناها فى رحلتنا وهي : الشلال ـ أسوان ـ دراو ـ الجعافرة ـ دار السلام ـ جبل السلسلة ـ الكاجوج ـ سلوى ـ الرديسية ـ أدفو ـ السباعية ـ الترعة ـ أســنا ـ العديسات ـ المطاعنة ـ الشغب ـ أرمنت ـ نجع الجسور ـ البياضـــية ـ الأقصر ـ خزام ـ السنهورية ـ قوص ـ الأشراف ـ قنا ـ المخادمة ـ دشنا ـ فاو .

وحسبي أن أقول للقاريء: إنه مامن مكان من هذه الأمكنة إلا ولنا فيه قصة ولنا فيه واقعة تروى ، وتحكى فليرجع إلى جريدة الصرخة من شاء أن يطلع على تفاصيل هذه الملحمة الـكبيرة.. وكان ولا بد لهذا المجهود أن يحدث أثره في الرأى العام . . . وكان لابد لهذا المجهود الذى بذلناه وهذا الضغط الذى احتملناه أن يؤتى ثماره في الرأى العام . . . فكانت القنبلة وكان الانفجار المدوي الذى اهتزت له أرجاء العالمين .

اتهام مصر الفتاة

بالخيانة العظمى

— ١٩ —

كانت فتيلة هـذه القنبـلة المدوية ، ذلك الاستجواب الذى تقدم به سعادة هارون باشا ابو سحلى نائب فرشوط ، وأحد رجالات الادارة المشهورين في مصر. كنت قد تعرفت بسعادته ابان رحلتى على ظهر الباخرة النيل الى ايطاليا . واتصـل بيننا الود بعد ذلك وتبادلنا الزيارات فلما ان وقعت بنا هذه الاضطهادات لجأ اليـه اخوانى مستغيثين لـكى يستجوب الحـكومة فى هذه المخالفات الدستورية ، فتقدم بأول استجواب فى هذه الدورة النيابية ، أو فى هذا العهد الدستوري الجديد . فكان مجرد تقديم الاستجواب ونشر نصه في الصحف أكبر انتصـار لبعثة مصر الفتاة ، ودعاية لها ، لفت الأنظار الى ما تعانيه وما تـكابده . واليك نص هذا الاستجواب :

« هل أصدر دولة وزير الداخلية أمراً بمنع سفر أعضاء جمعية مصر الفتاة فى رحلة الى الصعيد ما داموا يلبسون القميص الخاص بهذه الجمعية ؟

وهل سمح دولته بعد ذلك بسفر هؤلاء الاعضاء بهذا القميص حتى وصلوا الى أقصى الصعيد وعسكروا في خيام لهم بالشـلال ؟ ثم هل عاد دولته فأمر بمحاصرة هذه الخيام بحرس دائم من البوليس يرد عنهـا الزائرين ، ويحول بين هؤلاء الشبان وبين التجول والاتصال بالناس ؟

وهل أصدر أمراً بضرب الزائرين لهذه الخيام بالسياط على وجوههم واستعمال العنف والشدة معهم ؟

وهل سمح دولته ان مدير أسوان قدوزع على أعضاء الجمعية المعسكرين فى الشلال قمصانا كاكية مما يلبس عساكر البوليس حتى لا يشاهد أعضاء

هذه الجمعية بالقمصان الخضراء الخاصة بهم فلما لبسوها وذهبوا الى اسوان أعادهم الى الشلال بالقوة ؟

إذا كان دولته قد أصدر هذه الأوامر ، فهل هناك فى قانون الدولة ما يبيح للداخلية ان تمنع أحدا كائناً من كان من لبس الزى الذى يريده ، والأقامة في المكان الذى يحبه ، ونشر الدعوة التى يهواها ، مادامت في حدود القانون والدستور ؟ وهل يعلم دولته ان رئيس الوزراء قد استعرض هو ووزير الزراعة شبانا يلبسون قمصانا زرقاء فى سيدى جابر وأنه أعلن رضاه عنهم وعن نظامهم ؟

فاذا كان دولته يعلم ذلك فهل هناك نص فى الدستور أو القانون يبيح لجماعة ما يحرمه على جماعة أخري ؟ »

هارون سليم ابو سحلى
نائب فرشوط

* * *

رد واتهام

هذا هو الاستجواب الذى تقدم به هارون باشا وهو على فراش المرض وقد أحدث تقديمه هزة في الرأى العام لغرابة الوقائع التى احتواها ، وتشوق كل انسان في مصر سماع مايقوله رئيس الحكومة رداً على هذا الاستجواب. ولكن انساناً واحداً فى مصر لم يدر بخلده لحظة من اللحظات أن الرد سيكون بمثابة قنبلة تنفجر في سماء الحياة المصرية ، لم يتخيل أحد أن رئيس الحكومة سيرد رداً يخلق مصر الفتاة خلقاً ، ويرتفع بها إلى الصف الأول من عطف الأمة المصرية واهتمام العالم الخارجى ، لم يتوقع إنسان فى مصر أن هذا الاستجواب سيثير فى طول البلاد وعرضها عاصفة مدمرة تجرى الدماء أنهاراً فيكون قتال في كل مدينة وفى كل قرية ، وتكون مشاجرات وتكون مساجلات حادة وعنيفة ، تدخل إلى كل شارع وإلى كل حارة وكل زقاق ،

بل وإلى كل بيت . وينقسم المصريون إلى قسمين قسم صغير يؤيد رئيس الوزارة ويوافقه على قوله، وقسم يؤلف الأغلبية العظمى فى البلاد ستنكر هذا الرد وينحاز بكل عواطفه وتأييده إلى مصر الفتاة . لقد كان مايتوقعه كل انسان أن يجيء رد رئيس الحكومة منكراً لهذه الوقائع التى وردت في الاستجواب وأن يقول أن شيئاً من ذلك لم يحدث ، وأن مصر الفتاة وبعثها تتمتع بالحرية المطلقة فى تجوالها وأن الاجراءات التي تتخذ إنما هى لحماية أعضاء هذه البعثة من غضب الشعب الحانق عليها ... أجل كنا نتوقع أن يصور رئيس الحكومة قوات البوليس التى تحيط بنا وتحاصرنا وتحول بيننا وبين الاتصال بأحد إنما تفعل ذلك رحمة بناوحماية لأرواحنا، وقد كان مجرد تصورنا هذه الاجابة يملأ قلوبنا بالغيظ والحنق ولم نكن نعرف كيف نرد على رئيس الحكومة لوقال مثل هذا القول، ولم نكن نعرف كيف نطلع الرأى العام على عدم صحة هذا الادعاء . ولكن شاء الله أن لايرد رئيس الحكومة هذا الرد، أو أن يرد أي رد مألوف في مثل هذه الظروف ... شاء الله أن يكون رد رئيس الحكومة صدقاً في تاريخ البلاد وأن يكون مقدراً له أن يقيم الدنيا ويقعدها ..

واليك الآن هذا الرد الذي أصبحت مشوقا لمطالعته كل التشوق . لقد اعتذر المرحوم هارون باشا مقدم الاستجواب عن حضور الجلسة بسبب مرضه بل وطلب من مجلس النواب أجازة حتي آخر دور الانعقاد، ولكن الاستجواب فى هذه الحالة لايسقط لأنه ملك المجلس بأكمله ولذلك فقد تقدم الأستاذ عبد العزيز الصوفانى وأعلن تمسكه بالاستجواب، وأن المجلس فى انتظار رد رئيس الحكومة . فوقف رئيس الحكومة صاحب الدولة مصطفى النحاس باشا . وألقى من فوق منصة مجلس النواب الرد التالى :

« ثبت لدى وزارة الداخلية أن جمعية مصر الفتاة تعمل لحساب دولة أجنبية ضد مصلحة البلاد (ضجة) ولذلك قررت الوزارة حرصا على مصلحة

الدولة أن تمنع تجوال أعضاء هذه الجمعية في القري بزى خاص . وقد بذلت لرئيس الجمعية النصيحة الودية بالعدول عن السفر إلى الصعيد فلم يستمع لهذه النصيحة ، وسافر هو ومن معه إلى أسوان ولم يتعرض لهم أحد، ولكن اتخذت الاجراءات للحيلولة بينهم وبين التجوال فى القري بزي خاص والاتصال بالأهالى وذلك للسبب الذى بيناه .

«وليس صحيحاً ماذكر في الاستجواب من إصدار الأوامر بضرب الزائرين لخيام الجمعية . وقد ادعى أحد الأشخاص فى أسوان أن البوليس ضربه عندما كان يريد الاتصال بأعضاء الجمعية فى خيامهم وحققت النيابة هذه الشكوى فثبت عدم صحتها وحفظها النائب العام إداريا .

«أما عن القمصان الكاكى فأن مدير أسوان أخبر أعضاء الجمعية بعدم موافقته على تجوالهم بالقمصان الخضراء ، فادعوا عدم وجود لباس آخر معهم فأعطاهم قمصانا من الكاكى فلبسوها . . ولكن لما اتصل بعلمنا ذلك أصدرنا إليه أمرنا بمنعهم من التجوال فى الزي الكاكى أيضا .

«هذا ولم تعرض الحكومة لجمعية مصر الفتاة فى المدن الكبرى ، بل تركت أفرادها أحراراً يلبسون ما يشاءون فى حدود القانون .

«وسبق لهذه الجمعية أن طلبت عقد اجتماع عام بمدينة الفيوم فى شهر إبريل سنة ١٩٣٦ وصرحت وزارة الداخلية بعقد هذا الاجتماع على غير رأى مدير المديرية ، فتسبب عن هذا التصريح تجمهر كاد يؤدي إلى إخلال خطير بالأمن العام، واضطر البوليس إلى إطلاق النار، والمحافظة على أعضاء الجمعية ، إلى أن رحلوا من مدينة الفيوم فى فجر اليوم التالى عائدين إلى القاهرة .

«كما أنه قد وصلت لوزارة الداخلية أخيرا تقارير من حضرتى مديرى أسوان وقنا تفيد عدم ارتياح الأهالى لوجود هذه الجماعة بين ظهرانيهم ، وممن أمضوا هذه التقارير حضرة نائب إسنا المحترم .

«وإن هذه الجماعة التى تنطوى أغراضها وعلاقاتها على مايضر بمصلحة

الدولة الكبري لا يصح مقارنتها بجماعة الشبان الذين يلبسون القمصان الزرقاء والذين تقوم مبادؤهم على احترام النظام والقانون والعمل لخير البلاد وينتمون إلى هيئة سياسية مسئولة» (تصفيق)

* * *

ألقى دولة النحاس باشا رده ، ولم يكد يغادر المنبر بعد إلقائه حتي هبت العاصفة ، ولم تلبث أن تحولت خارج البرلمان إلى عاصفة جانحة .

ذهل أعضاء مجلس النواب لهذه الاجابة ، فحلق على رءوسهم الطير ، ومرت لحظات قبل أن يستردوا أنفاسهم . ثم بدأ رد الفعل ، لما قال رئيس الوزراء ، يتجلى .

طالب الأستاذ فكرى أباظه بوجوب جعل الجلسة سرية لمناقشة هذا الاتهام الخطير ، ولكى يتمكن رئيس الحكومة من تقديم ما لديه من أدلة الاتهام ، ولكن رئيس الحكومة رفض أن يجعل الجلسة سرية ، وقرر أنه لن يقدم للبرلمان أي دليل ، فالمسألة تتعلق بسلامة الدولة وأسرارها العليا ، التى لا يمكن البوح بها ، وعلى المجلس أن يثق بالحكومة بدون مناقشة ، لأن الحكومة لم تصرح بما صرحت به إلا بعد التثبت والتحقيق .

ولكن المجلس لم يرض بذلك ، ولم يسكت عليه ، فاندفع الأعضاء من هنا وهناك يناقشون رئيس الحكومة ، ويحرجونه ، ويطالبونه بالدليل .

وكان ممن تكلموا فى هذا اليوم ، فأحسنوا الكلام دفاعا عن مصر الفتاة ، سعادة عبدالمجيد ابراهيم صالح باشا ، فقد راح يناقش إجابة رئيس الحكومة ويظهر ما انطوت عليه من تناقض ، وضعف يدل على عدم صحة الاتهام .. فكيف يثبت لدى وزارة الداخلية ما ثبت لها من اتصال هذه الجماعة بدولة أجنبية ، ثم تسمح لهم بالتجول وبنشر الدعاية فى المدن دون الريف ، فى الوقت الذى كان يجب أن تضرب على أيديهم ضربا يحول بينهم وبين أى عبث بمصالح البلاد في المدن قبل الريف . .

وكيف تسكت الحكومة عن تقديم أمثال هؤلاء الخونة إلى المحاكمة ، ليدافعوا عن أنفسهم فتثبت براءتهم أو يحكم عليهم فينالوا جزاء ما كسبت أيديهم .

وبدأ رئيس الحكومة يرى جو المجلس النيابي مكفهرا ، وبدأ يشعر بموقفه الضعيف ، وأن اتهامه لم يلق هوى في نفوس النواب ، بل على العكس قد أحدث رد فعل جعل الجماعة لديهم محل عطف وتقدير .

فأسرع رئيس الحكومة إلى استخدام سلاحه الأخير ، وهو أن يهيب بالنواب أن يثقوا به وأن يكفوا عن كل مناقشة ، ووضع شخصيته وكرامته فى الموضوع .

ولما كانت أغلبية المجلس الساحقة من الوفديين ، فقد أقفل باب المناقشة وتقرر الانتقال إلى جدول الأعمال .

ولكن المناقشة التي أقفلت فى مجلس النواب ، قد فتحت على مصاريعها خارج البرلمان : فى الشوارع ، وفى المقاهى ، وفي النوادي ، وبين جدران المدارس والمصانع والمتاجر ، وفي الحقول وفى المزارع .

لقد راح كل مصرى يسائل أخاه المصرى هل سمعت ماقاله النحاس باشا فى البرلمان من اتهامه مصر الفتاة بالخيانة ، فيجيبه الآخر في أسف أجل لقد سمعت . فيسأله الثانى عن رأيه ، فلا يكون الجواب إلا في اتجاه واحد ، هو عدم تصويب النحاس باشا فيما قال وفعل . لقد كان حقا عليه أن يقدم الدليل ، لقد كان واجباً عليه أن يقدم هذه الجماعة إلى المحاكمة ، فأما وهو لم يفعل فما كان عليه أن يلقى الكلام على عواهنه ، ويمس شبانا أطهارا بهذه القسوة ، ويقذفهم بهذا الاتهام الخطر ، دون أن يقدم على ذلك دليلا أو شبه دليل ، ودون أن يهيء لهم فرصة الدفاع عن أنفسهم .

كان ذلك هو حكم الرأي العام ، بل حكم الوفديين أنفسهم ، ولم يتحمس لكلام رئيس الحكومة إلا هذا الفريق من الوفديين الزرقين من لابسى الأقمصة الزرقاء . .

أما الصحف الوفدية نفسها، أما نواب الوفد، أما عقلاء الوفد، أما كل صاحب رأي فى الوفد، فقد أنكر ذلك الموقف كل الانكار، وإذا كان ذلك هو موقف الوفديين استطعت أن تتصور ماذا كان موقف غير الوفديين من هذا الاتهام.

ولقد كانت خطورة الاتهام بحيث جعلت البلاد تهتز له من أقصاها إلى أدناها، وصدرت الصحف العربية والافرنجية وليس لها موضوع رئيسى إلا هذا الاتهام، ولم يجد مراسلو الصحف الأجنبية في مصر مايبرقون به إلى أربعة أركان المعمورة إلا هذا الاتهام لمصر الفتاة، والمناقشات التى دارت حوله.

فلو أن مصر الفتاة جاهدت عشر سنوات متواصلة لتعلن عن نفسها لما استطاعت أن تعلن عن وجودها بمثل ما أحدثه هذا التصريح من ضجة وإعلان، وفى عشية وضحاها انتقلت مصر الفتاة من حركة صغيرة محلية إلى حركة عالمية تتطلع الدنيا كلها إلى أبنائها، وتحاول أن تعرف من أمرها كل شىء. فقد حاولت انجلترا أن تعرف ما هى هذه الدولة الأجنبية، وأطلت ايطاليا وألمانيا برأسيهما ليعرفا كنه هذه الدولة الأجنبية، وتلمست روسيا الشيوعية حقيقة هذه الدولة، وهرع المراسلون لصحف الدنيا كلها إلى دار مصر الفتاة يبحثون وينقبون ويعلمون عن مصر الفتاة ما لم يكونوا يعلمون.

فى صفوف مصر الفتاة

أما رد الفعل في صفوف أبناء مصر الفتاة فقد كان رائعا وجليلا، لقد انفجرت حماستهم، وثارت كرامتهم، وغلا الدم فى عروقهم، وأعلنوا عزمهم على الدفاع عن شرفهم وعرضهم بدمائهم ... وعلى عكس مما كان يتصور النحاس باشا، من أن هذا الاتهام من شأنه أن يصرف شباب مصر الفتاة عنها، زاد تعلقاً واستمساكا بها، بل وعصبية لها، واستعدادا

للتضحية فى ظل رئيسها . ففى جميع انحاء القطر من الاسكندرية حتى أسوان، هرع أعضاء مصر الفتاة الى النيابة العمومية ، يضعون أنفسهم تحت تصرف النيابة للتحقق معهم ، ويعلنون تضامنهم مع رئيسهم ومجلس جهاد مصر الفتاة ، الذى بادر بمجرد إلقاء هذا البيان بالابراق الى النائب العام ، يضعون أنفسهم تحت تصرفه للتحقيق معهم فيما ادعاه عليهم رئيس مجلس الوزراء ، فكان ذلك مظهراً رائعا لتضامن أبناء مصر الفتاة ، وقوة إيمانهم واخلاصهم ، فاهتزت البلاد كلها اعجابا بذلك التضامن العجيب .

ولقد أسرع المركز العام في القاهرة باقامة اجتماع فى مسرح برنتانيا ليرد على اتهام رئيس الحكومة ، فكان تهافت الرأى العام على حضور هذا الاجتماع لا مثيل له من قبل ، بحيث أعيد طبع التذاكر بضع مرات ، واحتشد فى مسرح برنتانيا أضعاف أضعاف ما يتسع له حتى خشى عليه الانهيار .

وفى ذلك الحشد وقف سكرتير الجمعية العام ومساعده يخطبان مدافعين عن موقف مصر الفتاة ، فاستقبلها الجمهور بالتصفيق المتواصل بضع دقائق تكريما لهما ، واعلانا للثقة بمصر الفتاة . وكانت موجة من الحماسة لم يسبق للبلاد أن شهدتها فى اجتماع سياسى منذ سنوات وسنوات .

الاقمصة الزرقاء تهاجم

على أن قيادة الاقمصة الزرقاء كانت قد قررت منذ علمت بنبأ الاجتماع أن تهاجمه ، وقد تسربت أنباء هذا الهجوم قبيل الاجتماع ، ولكن أعضاء مصر الفتاة لم يحفلوا به ، وظنوه إشاعة من الاشاعات ، ولما جاء أوان الاجتماع ورأوا هذه الجموع الغفيرة من البوليس الذى يحيط بمكانه أمنوا واطمأنوا الى انه لن يكون هناك عدوان ، لأنهم لم يتصوروا أن تكون هذه القوات الضخمة من البوليس متآمرة مع فرق الاقمصة الزرقاء ، وأنها ستفسح لهم الطريق ، وستعينهم على الفتك بأبناء مصر الفتاة . وقد

تمت المؤامرة، فعمل البوليس منذ أول الاجتماع على اعتقال كل الأعضاء البارزين من ذوى الأقمصة الخضراء ، بحجة أنهم اعتدوا على بعض الوفديين الذين جاءوا لحضور الاجتماع . فلما جاءت الساعة المتفق عليها إذا بألوف من ذوي الأقمصة الزرقاء ينقضون على مكان الاجتماع ، وهم مسلحون بالخناجر ، ويحاولون الفتك بهذا العدد القليل من ذوي الأقمصة الخضراء الذي كان فى الاجتماع . ودارت معركة رهيبة أبدى فيها بعض مجاهدى مصر الفتاة ألوانا عجيبة من البطولة والاستبسال التي أذهلت المهاجمين . فقد استطاع مجاهد واحد هو سليمان افندى الماوردى أن يتصدي لجوعهم ، وأن يبطش بكل من يحاول الهجوم عليه ، فكانوا يفرون مذعورين ، الى أن تكاثروا عليه وظلوا يضربونه ويقاومهم حتي أثخنوه بالجراح ، فسقط مغشيا عليه بعد أن أصاب منهم ما يزيد عن العشرين ، ولم يسقط إلا بعد أن جاء المدد ، وهرع اليه بعض نفر من أبناء مصر الفتاة يذودون عنه .

ولقد أصيب في هذه المعركة عدد كبير من ابناء مصر الفتاة ، وجاءت عربات الاسعاف الى ميدان المعركة تنقل الى مستشفى قصر العينى الجرحى الذين سقطوا نتيجة المؤامرة الدنيئة .

وقد كان لهذه المعركة بعد تصريح رئيس الحكومة أثر بالغ في الرأي العام ، الذي ازداد عطفا على مصر الفتاة ، والذى استنكر عن بكرة أبيه هذا العدوان الوحشى الذى لا يدل إلا على الفوضى وانقلاب الأوضاع . ولم تخف الصحف عن بكرة أبيها اشمئزازها من هذا الاعتداء الذى وقع من ذوي الأقمصة الزرقاء المسلحين بسلطان الحكومة .

عودتى الى القاهرة

دهمتنى هذه الأخبار ، كما دهمتنى الأخبار السابقة عليها ، الخاصة باتهام رئيس الحكومة ، وكنا قد وصلنا فى رحلتنا الى مدينة نجع حمادي ، عندما وصلتنا أنباء معركة مسرح برنتانيـــا ، فرأيت ان أسرع بالعودة الى

القاهرة ، بعد أن وصلت الأمور الى هذا الحد من الخطورة . كنت قد تعمدت أن أتجاهل تصريح رئيس الحكومة ، وأن لا أجعل له تأثيراً فى إتمام رحلتى ، واكتفيت بأن بعثت الى النائب العام فى مصر برقية أضع فيها نفسى تحت تصرفه للتحقيق معى فى اتهام رئيس الحكومة ، وأعطيته مهلة للشروع فى هذا التحقيق ، بحيث اذا لم يفعل اعتبر اتهـام رئيس الحكومة ضربا من ألوان العبث ، ولا يبقى على إلا أن أستأنف رحلتى التى بدأتها من الشـلال ، وقد انقضى الموعد المضروب للنائب العـام . ولم يصلنى منه أي رد على برقيتى ، فاستأنفت رحلتنا ووصلنا إلى نجع حمادى . وقد أتيح لى في الأيام القليلة التى مرت بعد القاء تصريح رئيس الحكومة أن أشهد العطف الشديد الذى أحاطنا به الرأى العام ، بمـا فى ذلك رجال البوليس أنفسهم الذين علا صوتهم باستنكارهم لاتهام رئيس الحكومة ، وبدأوا يحسنون معاملتنا قدر استطاعتهم ، ثم كانت أنبـاء معركة برنتانيا ، وأنباء هذه الدماء التي أريقت من أبناء مصر الفتـاة ، وأنباء هذه الموجة من الاضطهاد الخانق الذى بدأ حول مصر الفتـاة فى القاهرة ، وهنا لم يسعنى إلا أن أقرر العودة لأكون الى جوار إخواني فى هذه المحنة . وقد كان من رأيى دائما ، وسيبقى من رأيى حتي نهاية العمر ، أن أكون على رأس إخوانى وزملائى في أى معركة من المعارك التى تخوضها مصر الفتاة .

ولم نكد نصل إلى القاهرة حتى اشتركنا فى المعركة على الفور . ففى مساء اليوم الذى وصلت في صباحه إلى القاهرة أحاطت جموع الشبان الغفيرة من ذوي الأقمصة الزرقاء بدار الحزب فى العتبة الخضراء ، وهى تنادى بالويل والثبور وبسقوط احمد حسين الخائن ، فرأيت أن أطل على هذه الجماعة وأن أخطب فيها ، و قد كان ذلك تحديا للخطر المحدق بي ، ولم يكن هناك غير هذا الأسلوب لدفع هذا الخطر ، فقد فوجىء القوم عندما وجدونى أطل عليهم وأصيح فيهم طالبا منهم السكوت . . ولقد

سكتوا وبدأت أخطب فيهم ، وبدأ تأثير موقفي وحديثي يسيطر على الموقف ، ولكن واحداً من بين الجموع الزرقاء صاح بهم كيف تسكتون عليه اقتلوه ! . قال ذلك وقذفني بحجر، فانهالت الأحجار من كل مكان ، واضطررت للتراجع تحت وابل من الأحجار ، ولكن الله سلم في هذه الليلة فلم أصب بسوء ، وكان الدخول إلى مقر مصر الفتاة دونه عدة أبواب ودهاليز وسلالم فتحصن بها أعضاء مصر الفتاة واستعدوا بالعصى والأسلحة في حالة اقتحام الدار ، ولكن ذوى الأقمصة الزرقاء تهيبوا الهجوم علينا في عقر دارنا ، فظلوا محاصرين المكان عدة ساعات ، والبوليس لايحرك ساكنا ، إلى أن بدأ عددهم يقل بالتدريج في ساعة متأخرة من الليل ، ثم لم يلبثوا أن انصرفوا، وانصرف كل منا إلى بيته .

وهذا الذي حدث في القاهرة، حدث مثله في كل مدينة من مدن القطر المصري ، حيث هاجم ذوو الأقمصة الزرقاء نوادى مصر الفتاة وأعضاء مصر الفتاة ، ودارت معارك رهيبة سقط فيها جرحى بل وقتلى . وشاءت الظروف أن يكون القتلى من ذوي الأقمصة الزرقاء ، فكان منهم قتيل في كفر الزيات وقبض على أعضاء مصر الفتاة بتهمة ضرب أفضى إلى موت ... وكان قتيل آخر منهم في دمنهور ، وقد كان ذلك حادثا هز البلاد هزا ، وكنت سأفقد حياتي في هذا الحادث، مما يجعلني أعود اليه بشيء من التفصيل بعد قليل .

الدفاع

أمام الشيوخ والنواب

— ٢٠ —

كان لابد من دفاع يقال رداً على اتهام رئيس الحكومة ، بصورة منظمة ، تبلغ أسماع الرأى العام المثقف، فرأينا أن خيرطريقة لذلك هو أن ندعو لفيفا من أعضاء مجلس الشيوخ والنواب ، ومندوبى الصحافة المصرية والأجنبية ، لكى ألقى فيهم خطابا أدافع فيه عن نفسى وعن حركة مصر الفتاة ، فأقمنا لذلك حفلة شاى فى محل « على الدلة » ، وأرسلنا بطاقات الدعوة إلى أكثر من مائة من المدعوين الذين اخترناهم من بين الشيوخ والنواب ورجال الصحافة .

ولكن الحكومة لم تسمح بهذا الاجتماع وصادرته ، وحال البوليس بين الشيوخ والنواب وبين الدخول إلى مكان الاحتفال ، فكان هذا التصرف الجديد من جانب الحكومة ، أحد التصرفات التى عززت جانب مصر الفتاة وأضعفت جانب الحكومة . فالنحاس باشا قد اتهم ولم يقدم دليلا ، فاذا أضيف إلى ذلك محاولته أن يسد علينا الطريق للدفاع عن أنفسنا بأى أسلوب من الأساليب ، فقد أصبح ذلك هو الدليل الذى لا ينقض: على أن ما قاله كان لونا من ألوان الحرب الحزبية التى أراد أن يكيد بها لرهط من الشبان الأطهار ، ومع ذلك فقد استطعنا أن ننشر الخطبة فى مجلة الصرخة ، وأن نطبعها على حدة ، ونوزع منها آلاف النسخ . وقد كان ذلك آخر العهد بانتظام جريدة الصرخة ، فهى لم تلبث عقب نشر هذا الخطاب أن أصبحت محلا للاضطهاد والمصادرة ، عددا بعد عدد دون استثناء ، إلى أن اضطررنا فى نهاية الأمر إلى الكف عن إصدارها جملة ، لأن صدورها بات مستحيلا فى ظل هذه المصادرة المتعاقبة ،

حتى بعد أن كففنا عن كل كتابة في السياسة ، وراح الاستاذ فتحى رضوان يملأ الجريدة بمقالات تهكمية حول مارلين ديتريش وجريتا جاربو وأيهما أجمل وأبرع ، وحول الفاكهة المصرية ومصيرها ، ولكن ذلك كله لم ينج الصرخة من المصادرة ، فكان لابد من وقفها .
واليك الآن نص ذلك الخطاب ، الذي كان مقررا أن يلقى على الشيوخ والنواب ، وحالت الحكومة دون إلقائه ، وإن لم تحل دون نشره ، والاشارة اليه في سائر الصحف .

خطاب

« باسم الله ، والله أكبر » أيها السادة ، أبدأ حديث هذا المساء «باسم الله ، والله أكبر » هذه الكلمة التى نرددها كلما اشتد علينا الأمر وادلهمت الخطوب ، فنجد فيها قوة ، ونجد فيها أملا وحياة . هذه الكلمة التى فتح بها أجدادنا الدنيا بأسرها،وذابت تحت حرارة ايمانهم بها الحصون ، ودكت تحت معاول اخلاصهم الجبال . وبهذهالكلمة السرمدية نجابه بدورنا حصون الاتهام فندكها ، وجيوش الباطل فنهزمها .

وهل أستطيع قبل أن أمضى فى حديثى الا أن أشكركم من أعماق قلبى .. أشكركم لهذه الفرصة الذهبية التى أتحتموها لى ، كيما أحدثكم قليلا عن مصر الفتاة . وحديثى عن مصر الفتاة لن يقف عند حد دفع الاتهام وازالة الشبهات . لا أيها السادة ، فان الاتهام الذى قذفنا به لم يعلق بنا حتى الآن ، فأن الصحافة (وليبارك الله لنا فيها) والرأي العام ، مستودع القوة والسلطات ، ومن قبل هؤلاء النواب المحترمون ، كل هؤلاء قد حكموا لنا سلفا، وأصدرواحكما ببراءتنا ، براءة مشفوعة بالعطف والتأييد . فهذه الألوف من التأييدات التى انهالت علينا ، وهذه البرقيات ، وهذه الرسائل بلهذه المقالات التى فاضت بها الصحف دفاعا عنا ، ان لم يكن من ناحية الشكل على الأقل ، كل هذه أدلة على أننا قد ربحنا قضيتنا ، وأننا خرجنا من هذه التهمة التى ألصقت بنا مرفوعى الرأس موفورى الكرامة ، لا ، بل أكثر كرامة ، وأكثر رفعة من ذى قبل فليست المحنة الا كالنار بالنسبة للمعدن النفيس ، يخرج منها أشد لمعانا وشعاعا ، وكذلك نحن .. خرجنا من المحنة أكثر قوة وعصبية ، وايمانا بمستقبلنا وجهادنا ، وحصلنا على ما لم يكن لنا من قبل .. حصلنا على عطف الرأى العام وتأييده .

محكمة الرأى العام

أصدر الرأى العام حكمه فى صالحنا اذن ، ولو سألتم الرأى العام لماذا حكمت لصالح هذه الجماعة ، لما استطاع الرأى العام أن يجد جوابا غير أنه قد حكم لنا لأن دافعا فى نفسه قد حمله على أن يحكم لنا ، ولكن هل دافعنا عن أنفسنا ، اللهم لا .

لقد قال رئيس الحكومة ، وهو أكبر رجل فى الدولة بعد جلالة الملك ، اننا قوم نعمل لحساب دولة أجنبية ضد مصلحة بلادنا .

ورئيس الحكومة المتكلم يمثل حزب الأغلبية فى مصر ، فكان جديراً بالناس أن يصدقوا هذا القول ، كما اعتادوا أن يصدقوا كل ما قيل لهم بالأمس عن هذا السبيل ؟ أجل كان جديراً بهم أن يفعلوا ذلك ، ولكنهم لم يفعلوا لماذا !؟ هل قدمنا مستنداتنا ودفعنا التهمة ؟ كلا اننا لم نفعل ذلك ! حقيقة لم يقدم رئيس الحكومة دليلا على اتهامه ولكن ، ألم يقل انه من أسرار الدولة التى لا يجوز الاباحة بها . ألا يكفى ذلك فى اقناع الرأي العام بأن هناك أدلة وأن سلامة الدولة تقتضى كتمانها ؟ حتى هذا أيها السادة لم يوقف تطلع الرأي العام للدليل ، ولذلك فلم يقتنع بهذا الرد ، وأصدر حكمه لصالحنا ، ما فى ذلك شك . وأقسم لكم أن الرأى العام ، يوم ان أصدر هذا الحكم لم يفكر طويلا قبل اصداره ، وأقسم لكم أن الرأى العام يوم أن حكم لم يوازن الأدلة و يقرع الحجة بالحجة . فان أناساً ممن انتصفوا لنا لا يعرفون القراءة ولا الكتابة ، ولم يزد ما عرفوه عن الجمعية الا أن رئيس الحكومة قد قال عنها : انها تخون بلادها . ومع ذلك فانه لم يصدق ذلك ، بل واستنكر هذا القول قبل أن يفكر فيه ، أو يعيه ، أو يتدبره ، لأنه غير قادر على التفكير أو التدبر ، أتعرفون اذن أيها السادة بأى وسيلة حكم لنا الرأى العام ، لقد حكم لنا بضميره ، لقد حكم لنا بقلبه ، لقد حكم لنا بغريزته . وصدقونى أن القول بأن ارادة الجماعة هى من ارادة الله ، وأن ارادة الشعب من ارادة الله ، صدقونى أن هذا القول هو من سنن الله سبحانه وتعالى ، والتى لن تجد لها تبديلا . ذلك أن الضمير المشترك بين الجماعة ، محور العواطف الانسانية بأسرها ، لا يمكن الا أن يكون قبساً من روح الله سبحانه وتعالى ، والذى يحوى كل هذا الكون وأودعه كل صفاته . ومن هنا كان الشر من صفات الفرد ، ولكنه لا يمكن أن يكون من صفات الجماعة ، والجريمة من صفات الفرد ولا يمكن أن تكون من صفات المجتمع ، فالمجتمع هو مصدر الخير ، وهو مصدر الشرائع العادلة ، والرأى العام فى مجموعه لا يخطىء الا تحت مؤثرات وقتية ، لا يمكن أن تدوم طويلا ، سرعان ما يعود بعدها الى طبيعته الأولى ، والتى وصفتها لكم . فللجماعة ضمير وللجماعة عاطفة ، وللجماعة غريزة . هذا الضمير ، وهذه العاطفة هى التى حكمت لنا ، وبرأت ساحتنا ، قبل أن تتقدم اليها بدليل واحد .

شباب الأمة لا يخونه

أجل ! لقد لزع الناس ولم يصدقوا . وأقسم أنهم لو جاءوهم بألف دليل ودليل لما صدقوا ، لأن هناك ماهو أقوي من الأدلة . هناك القلب الذي لا يخطىء مطلقاً ، والذى يرتفع فوق الأدلة ، وفوق الحجج . فنحن لا ندرك الله بعقولنا ، مثل ما ندركه بأحساسنا ، وقلوبنا . ذلك أن العقل من المادة ، أما العاطفة فمن الروح ، والروح من أمر الله سبحانه وتعالى .

والا فأى قلب يصدق أن شباب الأمة وزهرتها ، شباب الأمة الذين هم فى كل أمة عدتها وذخيرتها ، الذين هم مستودع أملها ورجائها ، من الذى يصدق أن جنود الوطن هم الذين يخونونه وأن آخر حصن من حصون الدفاع هو الذى يسقط قبل غيره ، من الذى يقول ان شباب الجامعة ، وهم الذين قدموا أرواحهم ثمنا للدستور والمفاوضات ، شباب الجامعة ، وهم الذين ضرجوا الأرض بدمائهم هاتفين « مصر فوق الجميع » ، فكان ان تحركت مصر بأسرها ، وتحرك الانجليز بالتالى ، فتراجعوا عن موقفهم المعروف ازاء الدستور . شباب الجامعة ، هؤلاء لا يمكن أن يعملوا لحساب دولة أجنبية ضد مصلحة بلادهم ، لأن جمعية مصر الفتاة ليست الا شباب الجامعة . فنحن الذين أسسناها كنا بالأمس من طلاب الجامعة ، وجنودها اليوم هم شباب الجامعة . وهؤلاء الذين يحيطون بكم هم زعماء الجامعة وأعز شبابها . هؤلاء هم الذين وصفهم رئيس الحكومة بأنهم يخونون بلادهم . فمنذا الذى يصدق هذه الدعوى ، وأى مصرى له قلب يمكن أن يستمع لها ؟ ذلك أن هذه التهمة لو صحت ، أيها السادة ، فعلام كل هذه الضجة اذن ؟! وعلام هذا النعيق وهذا الصراخ ؟! ألا فلتمزق الأعلام ، ولتحطم الصروح ، ولتقطع الألسنة ، أولتكم الأفواه !! ولتحل الأحزاب ، ولتعطل الصحف ، وليبصق فى وجه الهاتفين بالحرية والاستقلال ! ! ولنسجل على أنفسنا الخزى والعار ، ولنطأطىء الرءوس راضين بالذلة والعبودية ، ذلك أن شباب مصر يخونون بلادهم لحساب دولة أجنبية . . .

هذه هى النتيجة المنطقية لاتهام رئيس الحكومة . فأى مصري يرضى بهذه النتيجة ويقرها ؟ وأي مصرى لا يثور عليها ويستنكرها ! فهل عرفتم بعد ذلك لماذا حكم لنا الرأى العام بدون أن نقدم دليلا أو بيانا ؟! هل عرفتم لماذا أحاطنا بالعطف والتشجيع ؟! ذلك لأنهم يريدون الحرية والاستقلال ، ذلك لأنهم يريدون المجد لبلادهم ، يريدون الكرامة والشرف والرجولة ، ومن هنا فقد انتصروا لنا . واذن فاجتماعنا اليوم للدفاع عن قضيتنا ، وهى قضية قد فصل فيها ، ليس لأنكم فى حاجة الي دليل ، فالبديهيات لاتحتاج الى دليل . ولكن نشكر صاحب الدولة رئيس الحكومة ، فقد أتاح لى باتهامه فرصة الحديث عن جمعية مصر الفتاة ، وبرنامج مصر الفتاة . وأنتم الذين سمعتم القذف فى جمعية مصر الفتاة ، جئتم الليلة لتسمعوا كلمة الخير عن مصر الفتاة .

ماهي جمعية مصر الفتاة

فما هي مصر الفتاة أيها السادة ؟ أهي جمعيـة ، اهي حزب ، أهي جيش ، أهي ثورة أهي حركة ، أم هي فـكرة من الفـكر ؟ ! .

قد تكون جمعية مصر الفتاة مزيجا من كل ذلك في الظاهر ، ولـكنها في نهاية الأمر ليست الا ايمان شاب ، ليست الا ايماني الذي نشـأت ودرجت عليه ، اختلط بلحمي وعظمي ، وسري في شرايينى مسرى الحياة ، مصرالفتاة وماتنطوى عليه من فكرة ومبدأ هى الحياة التيأحيا بها ، هى الأمل ، وهى الرجاء ، هي التي ضحيت من أجلها بكل شيء : بشبابي وراحتي وحبي ، ولست أحسب نفسى أنني قدمتشيئا ، هيالتي آثرتمن أجلها أن أحيا فقيراً وأن أموت فقيراً ، وأن يمضيعلى اليوموالبيومان بغيرقوت ، ولستأحسب نفسي الا أغنيالناس طراً ، وأسعدالناس طرا ، مصرالفتاة هيايماني بأن هذهالبلاد عظيمة ، خلقها الله لتعلم الدنيا بأسرهاوأنها يجب أن تعود سيرتها الأولي ، معلمةللانسانية ، وهادية ومرشدة للناس فهي في ملتقيالطرق بين الشرق والغرب ، وفي وسط الدنيا بأسرها بلادنا الغالية التيقدسها اللهوكرمها ، وأعدها كيما تـكونزعيمة للعالمين. أعدها لتكونزعيمة للعالمين ، يوم أن أجرى فيها النيل فحول الصحراء الى جنات عدن ، وحول الفنـاء الى وجود قبل أن توجد الحياة وتوجد المدنيات ، وأكرمها وقدسها يوم أن تجلى فيها وتحدث في أراضيها بما لم يحدث في أي بقعة أخرى من بقاع الدنيا ، وهذا هو ما تعلمنا اياه الـكتب السماوية بأسرها . فالتوراة والانجيل والقرآن كلها تحدثنا عن الله سبحانه وتعالى ، وأحاديثه مع موسى وتجليه فوق جبل الطور .

مصر بلاد الدين والعلم

بلاد مقدسة ، قدسها الله وأكرمها يوم أن أخرج منها الاديان جميعا ، وحمي فيها الاديان جميعا ، فاليهودية والمسيحية والاسلام كلها وجدت موئلا حصينا في مصر ، وعاشت بين آلهاجنبا الىجنب في صفاء وولاء .. لااضطهاد ، ولاتعذيب ، ولاتعصب ، ولا قتـال . فمصر هى التى أخرجت الديانة الموسوية ، وهي التى حمت المسيحية عندما كانت كنائسها تقفـل في كل مكان ، تحت معـاول روما ، ومصرهيالتي كانت تحمي المسيحيين ، وما عيد الشهداء الذي يحتفل الأقباطبه حتي اليوم الا أثرا من آثار مصر التي قاومت الوثنية بدماء أبنـائها . وهي مصر بعد ذلك التي تزعمت الاسلام ، وحملت لواءه ، وقاومت أوربا الصليبية بأسرها ، عندما حاولت أن تعتدى عليه . فمصر هي التي قدمت للانسانية ذخيرتهـا الروحية وهي التي قـدمت لهـا ذخيرتهـا من المعرفة والعلوم والحضارة . فجامعة عين شمس هى التى علمت الدنيا قديما ، واليها جاء فلاسفة الاغريق

والرومان ، فلما أغلقت جامعة عين شمس أبوابها فتحت الاسكندرية جامعتها . وهى التى قامت من جديد تنشر النور وتضيء أرجاء العالمين . فلما توالت الحوادث وانتهت جامعة الاسكندرية بعثت جامعة الازهر منذ ألف عام . وبينما كانت أوربا والعالم يسبح فى ظلمات العصور الوسطى ، كان الازهر هو المنارة التي لم تقدم للانسانية الاسلام وعلومه فحسب ، ولو أن هذا فى حد ذاته هو أعظم تراث يقدم للانسانية ، بل كانت تقدم له أيضا علوم الطب والفلك والرياضة . وكل ميراث الانسانية من العلوم والمعرفة .

ومصر ، أيها السادة ، هى التى لم مجدها الحربي من حين لآخر فبهر الدنيا بأسرها . ولست أعود بكم الى عهد الفراعنة ، أو الى عصر صلاح الدين ، لست أعود بكم الى هذه العهود التى حاربت فيها مصر أوربا كلها فانتصرت عليها ، ولكنى أذكركم بمصر منذ نيف ومائة عام ، عندما كان سكانها لا يتجاوزون ثلاثة ملايين ، وميزانيتها لا تزيد عن المليون . في ذلك الأمس القريب بدأت مصر نهضتها الحديثة فهزت الدنيا هزا ، وسار الفلاح المصري ، خلف ابراهيم باشا ، يهزج أهازيج النصر ، حتى قرع أبواب أوربا . فى ذلك الأمس القريب سارت جيوشنا المنتصرة ، في الشرق والغرب والشمال والجنوب ، فصيرت البحر الأحمر بحيرة مصرية فى أراض مصرية . وبسطنا سيادتنا على شرق البحر الأبيض المتوسط ، ووقفت ممالك الدنيا تشاهد هذه النهضة الباهرة ، من بلاد خيل للناس أنها من سقط المتاع .

العهد الذى قطعته على نفسى منذ الطفولة

منذ طفولتي أدركت هذه الحقائق ، ومنذ طفولتى أقسمت أن أقف نفسى ، وحياتى وشبابى على بعث هذه الأمة بعثاً جديداً أحول ضعفها قوة ، وشكها ايماناً ، وفرقتها وحدة ، وتخلفها تطورا وارتقاء ، ومنذ اللحظة الأولى التى كرست فيها نفسى لهذه الغاية ، لم أدخل فى حسابى ، هل أقدر على اتمام هذه المهمة ، أو لا أقدر ... لم أدخل فى حسابى ، هل أنا الشخص الذى تحتاجه هذه الامة ليقظتها ، أم لا ... لم أدخل فى حسابى ، هل أنا كفء لانجاز هذا العمل العظيم ، أم لا .. : وكل الذي فكرت فيه أن كل مصرى عليه أن يقوم بواجبه ، ولقد آمنت بمصر ومجدها ، فأيقنت أن واجبي هو أن أنشر هذا الايمان ، وأن أعمل لنشره غير مدخر فى هذا جهدا ، أو ما لا ، أو باخل بنفس ، أو نفيس .. منذ اللحظة الاولى آليت على نفسى أن لا أتكلم الا عن مصر ، وأن لا أعمل الا من أجل مصر ، وأن لا أحيا الا من أجل مصر ، وهذا هو تاريخ طفولتي وشبابي بأسره ، سلسلة متصلة الحلقات في هذا الكفاح الذى رسمته لكم ، ولقد أخذ هذا الكفاح شكله العملى ابتداء من سنة ١٩٢٨ ، أي عندما كانت سنى قد بلغت السابعة عشرة فى هذه السنة عهد الى بتحرير مجلة المدرسة الخديوية ، وكان ذلك عقب رحلة الى صعيد مصر ،

وزيارة آثارها ، كان لها أكبر أثرفى ايقاظ نفسى . وأخذت أكتب فى هذه المجلة سلسلة مقالات بعنوان «رسالتى» لوأنكم طالعتم هذه المقالات ، وأرجوأن تسمحوا لى أن أتلو عليكم بعض فقرات منها ، اذن لعرفتم كيف أن مصر الفتاة هى كما قلت لكم ، ايمان اختلط بدمى وعظمى مذ كنت صغيرا ، وانني اليوم لا أقول حرفا واحدا لم أقله بالأمس قبل أن تتصل بى الدول الاجنبيـة ، وقبل أن أعمل لحسابها ... ذلك أننى كنت حدثا لا يسمع عنى الناس .

انشاء جريدة الصرخة

فلما أن حصلت على البكالوريا ، واجتمعت وأخى فتحي ودخلنا الى الجامعة ، اتفقنا مع واحد من معارفنا أن يحصل لنا على رخصة لجريدة أسميناها الصرخة وقد صدرعددها الأول فى ٣ مارس سنة ١٩٣٠ .

في مارس سنة ١٩٣٠ ، أصدرنا العدد الأول من الصرخة ، وكنا ولا نزال فى المهد أيها السادة ، بالنسبة لرجال السياسة ، والوزراء ، والزعماء . .

منذ ست سنوات . وكنا كما يريدون أن يصورونا فى هـذا المهد ، مغمورين ، مستضعفين . . فماذا قلنا فى هذه الجريدة ، وماذا كتبنا ، والى أي الأفكار دعونا . . أحمد الله أن بقى في محفوظاتى نسخ من هذه الجريدة ، سأوزعها عليـكم كيما تلمسون بأيديكم كيف أن مصر الفتاة التي تتهم اليوم بأنها صنيعة أجنبية ، لم تقل حرفا واحداً لم تقله منذ ست سنوات ، ولم تتحول ، ولم تتبدل قيد شعرة عن هذا الايمان الذى نشأ فى صدورنا ، اذ كنا أطفالا لا نعرف من الدنيا الا الله خالقنا ، ومصر وطننا . .

فى هذه الأعداد الأولى ، دعوت لمصر الفتاة كما أنفذها اليوم . . فى هذه الجريدة دعوت لبعث مصر ، كما أدعو اليوم لبعثها . . لا أيها السـادة . . بل في هذه الجريدة علقت على المفاوضات بمناسبة سفر الوفد الرسمي الى انجلترا بكلام لا أستطيع أن آزيد عليه حرفاً واحداً اذا أردت أن أعلق على مفاوضات اليوم . .

فـماذا أستطيع أن أقول المفاوض المصرى اليوم أكثر من ذلك . . . وماذا تقول مصر الفتاة غير ذلك . . .

مشروع القرش

تابعت كفاحى أيها السادة ، وقد بدأت جموع الشباب تنصرف عن السياسـة وتخلد الى السكينة ، وقد زهدت فى كل كفاح ، أو جهاد ، ففكرت فى حركة أستطيع بها أن أوقظ الشباب من سباتهم العميق ، وأن أتدرج بهم الى مصر الفتاة ، فناديت بمشروع القرش الذى تعرفونه .. دعوت المصريين الى جمع قرش من كل مصرى ، وتشييد مؤسسة

بالأموال المتجمعة ترد على مصر كرامتهـا ، وتوفر عليها نقودها،وتزيدنا عزة ووطنية ، فكان أن سخر الناس مني ، واعتبروا ما أقول خيالا فى خيال ، وهاجتنى الجرائد ، وهاجتنى بعض الأحزاب ، ولـكنى سرت فى طريقي حتى نجح المشروع ، وجمعنا سبعة عشر ألفا من الجنيهات ، ثم أربعة عشر ألفا فى العام التالى ، فلما شرعنا فى التفكير في انشاء مصنع، قلت نريد طرابيشاً فقالوا مستحيل . فقلت وماقيمة الرجل وماقيمةالأمة ، ان لم تحاول المستحيل .

وبعد صعوبات ، وعقبات ، ودسائس ، ظفرت بانشاء مصنع الطربيش،فكان انتصار للايمان والشباب.

وكان النجاح قذى فيعينالشانئين ، والحاسدين،فشرعوا يحاربوننى ويكيلون لي التهم، فقالوا عنى سارق الألوفمن مشروع القرش،وأننى اقتنيت من مشروع القرشالسيارات والعمارات ، والله يعلم أنني فى هذه الآونة أجوب القاهرة على ساقي ، لأنني لا أملك أجرة الترام .

انشاء جمعية مصر الفتاة

على أننى كنت قد انتهيت من دراسة الحقوق ، وخرجت الي ميدان الحياة ، وكنت قد ابتعثت حولى شبابا يؤمن ايماني بمصر ، ومجد مصر ، ويضحى بكلشيء من أجلمصر، فرأيت أن الساعة قد حانت كيما أخطو الخطوة الاخيرة ، فى سبيل تنفيذ مبادىء مصر الفتاة ... فأعددت برنامجها ، ومبادئها ، ودعوت زملائى لتأسيس الجمعية فوافقونى ، وم أكثر حماسة وغليانا منى ...

ولما كنت أعتقد أن رسالتى فى مشروع القرش قد كملت بانشاء المصنع ، فقد قدمت استقالتى ، ونزلت الى ميدان الجهاد بكل ما أملك ، وكل ما فى الطاقة البشرية من قدرة ومجهود ...

هكذا خرجت جمعية مصر الفتاة الى الوجود كهيئة سياسية منظمة ، فماهي الدعامات ، وما هو البرنامج الذي اتخذناه نبراسا لنا فى كفاحنا الجديد ...

فأولا لمصرالفتاة غاية تختلف عنغايات الأحزاب الأخرى ، ونظرة للحوادث تختلف كل الاختلاف عن نظرة أى سياسي في مصر ، أو زعيم من الزعماء . . .

فرجال السياسة فى مصر ، أو قل زعماء السياسة ، كل مايصبون اليه ويفكرون فيه ، هو أن يحصلوا لمصر على معاهدة من انجلترا تحقق لمه.شيئا من استقلالهافيظل الاحتلال، ولذلك فان كل أساليبهم ، وكل جهادهم محصور فى هـذه الدائرة الضيقة ، ولما كانت وسيلتهم الى تحقيق ذلك هى المفاوضة ، فقـد أصبحت المفـاوضة هي الطريق الوحيد للحصول على استقلالنا . .

أما جمعية مصر الفتاة أيها السادة ، فإن نظرتها تباين ذلك كل المباينة ، فنحن نؤمن بأن بلادنا عظيمة ، وبأن لها رسالة للدنيا بأسرها ، وأننا يجب أن نعمل للمجد والتفوق ، وأن الاستقلال ، أو بمعنى آخر اي معاهدة تقدمها لنا انجلترا ، ليست الا الخطوة الأولى فى سبيل ارتقاء السلم الذى يوصلنا الى زعامة الدنيا الروحيــة على الأقل ، فمصر الفتاة قد اتخذت غاية لجهودها أن تصبح مصر فوق الجميع ، دولة شـــامخة تتألف من مصر والسودان ، وتحالف الدول العربية ، وتتزعم الأسلام ، هــذه غايتنا أيها السادة ، وهى غاية قد يرى الشيوخ أنها خيال في خيال ، ولــكنى مؤمن بامكان تحقيقها ، بل انى مؤمن أنها ستتحقق ، كما أنا مؤمن برؤيتي لــكم الآن وبجديثى معــكم ، وانى لأرى العقبات فى طريق تحقيق ذلك البرنامج هينــة لينة ، ولست أرى كما يخيــل للبعض أن انجلترا ستحول دون تنفيذ هذا البرنامج ، لأنى واثق أن الساعة ستأتى ، يوم أن ترى انجلترا نفسها في حاجة الي أن تتبوأ مصر هذه المكانة العليا لتكون لها حليفة قوية قادرة .

وسائلنا الايمان والعمل

وغايتنا هذه كما ترون ، تحتاج الى ايمان وعمل كيما تحقق ، وهــذه هي كل وسائلنا ، الايمان والعمل . . فنحن نؤمن بحقنا ، ونحن نؤمن بغايتنا ، فنحن نؤمن بوسائلنا ، ونحن نؤمن بالنجاح في نهاية الأمر .

أما العمل ، فهو عمل في ثلاثة ميادين : الميدان الروحي الخلقي ، والميدان الاقتصادى ، ثم الميدان النظامي أو العسكرى . وعن طريق هذه الثلاثة ميادين ، ستحقق هذه الغاية العظيمة التى حدثتكم عنها . .

في الميدان الروحى والخلق نريد أن نعيد للدين قدسيته ، وأن نعيد للأخلاق قوتها ، ذلك أن الدين للنفس والجماعة عـــدة روحية تجعلها تصبو الى الـكمال ، والمثل العليا ، فهؤلاء الذين يجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأرواحهم ، هؤلاء الذين يعرفون أن هناك سيداً يرتفع اليه العمل الصالح ويثيب كل امرىء بما عمل ، هؤلاء هم فقط الذين يخدمون أوطانهم ، وهؤلاء هم الذين يعرفون معنى الرجولة ، والشرف والـكرامة ، وعلى العكس ، أولئك الذين انصرفوا عن الدين ، وزهدوا فى المثل العليا ، وأضعفت فى أنفسهم قوة الضمير والرقيب الداخــلي الخفى ، هؤلاء هم الذين يدمرون المجتمعات بشهواتهم ، وهؤلاء هم الذين يصانعون المستعمر ، ويرضون بالاحتلال فى ســـبيل مصالحهم الذاتية ، التى يرفعونها فوق كل شىء . .

ومن هنا أيها السادة أدعو الى الدين ، والتمسك بالدين ، وفضائل الدين وروحه ، وأنا أقدس الأخلاق وأمجدها ، وأحارب كل اعتداء عليها ، ولذلك فقد جاء فى مبادئنا : تطهير مقاطع الخمور ودور اللهو والحرام . وجاء في برنامجنــا : تطهر فصل لربك ، وأم المسجد يوم الجمعة ان كنت مسلما ، والـكنيسة يوم الأحد ، ان كنت مسيحيا ، ويوم السبت ان كنت اسرائيليا .

وجعلنا شعار جهادنا يبتدىء بكلمة الله ، ايماناً منا وثقة منا أن الذى لاخير فيه لربه لايمكن أن يكون فيه خير لوطنه ، وأن الدين منبع الأخلاق ، ولقد قال شاعرنا الخالد ان الأمم هى الأخلاق .

هذا هو الميدان الأول من ميادين جهادنا .

كفاحنا الاقتصادى

أما الميدان الثانى ، فهو كما قلت لكم الميدان الأقتصادى ، فنحن نريد أن نعالج كل هذا الفقر الذى يعانيه السواد الأعظم . . ونريد أن نعالج الاختلال فى ميزانية الأفراد في مصر ، ونريد أن نوفر لمصر من الأموال مايمكنها في المستقبل القريب من أن تلعب هذا الدور الذى نصبو اليه ، ولا سبيل لاصلاح ذلك كله ولا تحقق هذه النتائج ، الا بأن نشجع كل ماهو مصرى ، ونقبل على كل ماهو مصرى ، فمصر يجب أن تمتلىء بالمصانع التى تغزل قطننا وصوفنا ، وكتاناتنا ، ومصر يجب أن تمتلىء بالمصانع التى تنتج لنا كل ماتحتاجه ، فنوفر بهذا عشرات الملايين من الجنيهات نصرفها كل عام فى التافه والحقير ، مما يمكن عمله فى مصر بأيد مصرية .

والفلاح المصرى ، يجب أن يكون محور اهتمامنا بتخفيف الضرائب عنه ، وذلك يكون بانقاص مرتبات الموظفين الباهظة ، فان هذه المرتبات نوع من الاختلال الاقتصادى فى مصر ، فبينا هناك بضعة ألوف من الموظفين يتقاضون مرتباً يزيد على المائة جنيه ، هناك ثلاثة عشر مليوناً قد لايدخل فى يدهم الا بضعة قروش فى العام بطوله ، يأكلون اللحم مرة واحدة ، ويرتدون الجلباب الى أن يمزق على أجسادهم .

هذا الاصلاح الاقتصادي بتشجيع كل ماهو مصرى ، وانشاء المصانع والمتاجر ، وتوفير قليل من الثروة فى يد الفلاح كفيل بأن يغني مصر فى عشر سنوات ، ويملأها بمئات الملايين من الجنيهات التي تمكننا من تحقيق برنامجنا العظيم .

كفاحنا العسكرى

أما ميداننا الثالث ، فهو الميدان النظامى أو العسكرى ، فانتا من المؤمنين بالقوة أيها السادة ، وأن الأرض ارث للقوى ، وأن الشعب الضعيف جدير بالفناء . فسنة الله فى أرضه هي تنازع البقاء ، هذه هى النظرية التى سجلها القرآن بقوله « فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » وقال الله سبحانه وتعالى في موضع آخر « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ومن رباط الخيل »

فالقوة هى حصن الفرد ، وهي حصن الجماعة والشعوب ، واذا كان زعيمنا الراحل يقول الحق فوق القوة ، فانى أقول ان الحق هو القوة . . والقوة لايمكن أن تنبع الا من الحق . . فيوم أن أومن أنى على حق فأنا قوى ، والعكس بالعكس .

ونحن المحامين ، أكثر ما نكون شعوراً بذلك ، فعند ما ندافع عن قضية حق فنحن أقوياء ، ونحن على استعداد أن نتحدى النيابة ، وأن نتحدى القانون ، وأن نتحدى الدنيا كلها بعدالة قضيتنا .

فالحق اذن مصدر للقوة ، وعلى صاحب الحق أن يتذرع بالقوة للحصول على حقه ، والا فلا حق له . هذا هو ما تعلمنا اياه حوادث القانون الدولي بأسرها ، ولست أحسب أن ما جري فى الحبشة ببعيد . فلم أكن أعتقد يوماً من الأيام أن الحبشة ستدفع عنها عصبة الأمم ، أو الخمسين دولة التى طبقت العقوبات بقادرة على أن تدفع عن الحبشة رصاصة واحدة . وعندى لو أن الدول بدل كل هذه الضجه صدرت الأسلحة الى الحبشة فى الساعة المناسبة لتغيرت نتيجة هذه الحرب .

فعلى الشعوب التى تريد الحياة أن تتذرع بالقوة : القوة الروحية أولا ، والقوة المادية ثانياً . ومن هنا فنحن نجاهد لخلق جيل قوى من الشباب المصري ، قوى ببنيته وجسده ونظامه . فالنظام هو قوة الجيوش الحديثة ، ونحن نريد أن نغرس روح النظام فى مصر فتتضاعف قوانا .

هذه هى الثلاث قواعد التي عليها كفاح مصر الفتاة ، فاذا انتصرنا وسارت هذه المبادىء فان لنا برنامجاً عمرانياً انسانياً ، يجدد مصر فى كل الميادين ويعدها لأداء رسالتها

محاربة خصوم الجمعية بنشر الاتهامات

منذ خروجنا الى الحياة الرسمية ، من ثلاث سنوات ، والحكومات المختلفة تحاربنا ، ما عدا حكومة ماهر باشا . حاربنا حزب الوفد فاتهمنا أول ما اتهمنا أننا صنائع الانجليز ، ثم قالوا عنا سارقو مشروع القرش ، ثم قيل عنا صنائع الابراشي . واذن فالاتهام الجديد ليس الا صورة جديدة من الصور التى يراد تصويرنا بها كيما نهزم ، ونتوقف عن جهادنا . ولو عرف النحاس باشا حقيقتنا ، لعرف أننا بحيث لا تؤثر فينا هذه الاتهامات ، ولا يمكن أن ترتفع الي مستوي أقدامنا . ذلك لأننا لا نطمع فى حياتنا الا أن نؤدى واجبنا . واذن فنحن لا يمكن أن نهزم : فلا مطامع شخصية لنا ولا لذاتنا . لسنا نريد كراسى الحكم فالاتهام يبعدنا عنها . ولسنا نتقدم فى الانتخابات فالاتهام يسقطنا فيها . واننا نقول كلاماً لا يمكن أن يرفض سماعه مصرى واحد ، اننا نقول كلاماً لايمكن أن يتأثر به مصرى واحد . والا فأي مصرى لا يحب أن يسمع أناشيد المجد والفخار التى نلقيها ونتحدث بها . . أى مصرى واحد يغضبه أن نقول له « لا تشتر الا من مصرى ولا تلبس الا ما صنع فى مصر ، ولا تأكل الا طعاماً مصريا » . أى مصرى واحد لا يفرحه أن نقول له « بلادك هي مصر والسودان لا ينفصلان ولا يتجزءان » . أي مصرى واحد لا يسعده أن يري الشباب فى صفوف منتظمة تستعد لبذل أرواحها فى سبيل قضية بلادنا . فحركتنا لا تهدم لأنها صوت الجيل الجديد وجهاده ، ومن يرد أن يحطمنا كمن يريد أن يحطم مستقبل مصر ، وجيش الغد القريب .

من أين نجيء بالنقود ؟

يتساءلون من أين نحضر النقود التي نقيم بها هذا العمل العظيم ؟ ولو أنهم دخلوا الى أصغر شعبة من شعب مصر الفتاة وأجروا فيها تحقيقاً بسيطاً ، لعرفوا من أين نصرف على هذه الحركة . فهذه القروش التي يدفعها كل عضو هي التي تؤلف رأس المال الصغير . فاذا كان الله يبارك فيها ويجعلها تعادل عشرات الألوف من الجنيهات ، فذلك هو عمل الايمان وذلك هو سر الله سبحانه وتعالى .

وهل ذنبي أيها السادة أن يكون خصمي جاهلا بقوتي ؟ ! فخصومهم يكونون اعتقادهم عنا على الوجه الآتي : « دول شوية عيال منين بيجيبوا الفلوس ؟! » ولست مطالباً بالرد على هذا السخف ، ولست مطالباً بالرد على هذا الجهل . فجمعية مصر الفتاة هي جيل بأسره ، ولا يوجد شاب واحد مثقف في مصر ، وفي نفسه وطنية صحيحة لا ينضوي تحت لوائها وجمعية مصر الفتاة لها مئات الشعب في أنحاء مصر ، وجمعية مصر الفتاة فيها عشرات الألوف من الأعضاء ، ومن بين هؤلاء الاعضاء الغني والفقير ، ومن بينهم من يتبرع بمبالغ كبيرة للجمعية. فبدلا من أن يحاول خصومنا أن يتعرفوا حقيقة حركتنا وخطورتها أن لا يتعاموا عن الحقائق ، ثم يصرخون من أين يجيئون بالنقود ؟! من أين يجيئون بالنقود هل لكم أيها السادة ان تزوروا دار مصر الفتاة كيما تعرفوا منها أن تاجر الورق يداينا بسبعين جنيها . هل لكم ان تزوروا الجمعية لتعرفوا اننا لم نسدد بعد ايجار الشقة التي نقيم فيها منذ شهرين . ولست اقول لكم هذه الاشياء كيما اشكو وأتضجر بأننا فقراء ، ولكنني أسرد هذه الحقائق كيما اظهر لكم اننا لاسر لنا ، وأي بوليس سري من مئات رجال البوليس السري الذين يملئون جمعيتنا ، يعرف هذه الحقائق ويعرف الصعوبات التي نعانيها في الحصول على المال .

خذوا مثلا هذا الاجتماع . . من أين حصلنا على نقوده ؟ حصلنا عليها من الاكتتابات التي جمعناها بالقرش والقرشين ، حتى جمعنا اربعة جنيهات هي مصاريف هذا الاجتماع . اليس سخفاً ما بعده سخف ان يقال عنا اننا نشتغل لحساب دولة أجنبية ، أسائل نفسي عن هذا الذي يخون بلده ما الذي يضطره لذلك الا أن يرغب في الثروة والجاه والمال . فلماذا لم يحاول أي واحد من هؤلاء الذين يدعون هذه الدعوى أن يزورني في بيتي ليرى في أي حجرة أنام ، وأي طعام آكل . كيف يتخيل هؤلاء الذين قالوا هذه الدعوة أن خائننا لبلاده يسافر الى الصعيد في الصيف كيما يسير على أقدامه . ولديهم من التقارير أنني كنت أسير حافي القدمين وانني كنت أسير أحيانا وأقدامي قد تمزقت من السير . ولديهم من التقارير أن هذا الخائن كان يأكل في رحلة هو واخوانه خبزا وجبنا . وأننا كنا نشرب مياه البرك . هذا نحن أيها السادة ، وهذا هو أسلوب خيانتنا ، أن نقدم كل شيء من أجل بلادنا .

وليهنأوا هم بوطنيتهم التامة عليهم الذهب ، والتي أسكنتهم القصور .

صفحتي وصفحتهم :

هذه هي صفحتي أيها السادة وتلك هي صفحتهم ، لقد كنت أستطيع أن أبقى مديراً في مشروع القرش ، وأن أشيد في كل جام مصنعاً أكون مديراً له . وكنت أستطيع أن أكون محامياً أكسب مئات الجنيهات من حين لآخر ، وكنت أستطيع أن أكون موظفاً في أعلى الدرجات ، كما عرض على أكثر من مرة . ولكن ها أنذا لست في وظيفة ، ولا أملك مليماً واحداً . ها أنا يحاربونني من كل جانب ، حكومة وغوغاء ، فما الذي يغريني على احتمال ذلك كله ؟ ! ومن أين أستمد الشجاعة لمجابهة ذلك كله ، الا أن أكون مخلصاً لبلادي ؟ مخلصاً لبلادي أولا وأخيراً . . والله وحده هو الذي يعلم ذلك ، فهو الذي يمنحني القوة والتأييد .

يقولون أيها السادة « ان البينة على من ادعى واليمين على من أنكر » ولم يقدم خصمي دليلا على قذفه ، وها أنذا قدمت الدليل لكم على براءتي ، بأن سردت لكم صفحة أعمالي وهي كل ما أملك دليلا على طهارة جهادي وسلامتي من الأغراض . على أنني أذهب الى أبعد من ذلك فأقسم لكم اليمين . لا بل اني أفعل ماهو أكثر من ذلك ، أفعل مادعا اليه رسول الله خصومه عندما قال لهم : « تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ، ونساءنا ونساءكم ، وأنفسنا وأنفسكم ، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين »

فتعالوا يامن ثبت لكم أننا نعمل لحساب دولة أجنبية ضد مصلحة وطننا ، تعالوا نبتهل الى الله أن يجعل لعنته على الكاذبين ، واني لأبادر منذ الآن ، فأستعوضك يارب !؟ يامن تعلم مافي القلوب وحنايا الضلوع ، يامن تعرف اخلاصي ، يامن أنطقتني وأجريت الدم في شراييني . . يارب ! ! يامن تحصى علينا الأنفاس وخلجات الأعين . . اللهم ان كنت تعرف عني الكذب والخيانة ، فاللهم زلزل الأرض تحت قدمي ، اللهم اسحقني سحقاً ، ولا تبق على الأرض منافقاً واحداً . وان كنت تعرف الأخلاص والصدق مني ، فاللهم أنزل سخطك وغضبك على الكاذبين المنافقين ، اللهم أنزل سخطك وغضبك على الخائنين المارقين ، اللهم أنزل سخطك وغضبك على من يقذف الناس بالباطل ، وهو يعرف أنه باطل .

نحن والدولة الاجنبية

يقولون انني في خدمة دولة أجنبية ، وأنا الذي تحاربني ادارة الأمن العام الأوربية لأنها تعتقد أنني عدو الأجانب . أنا في خدمة دولة أجنبية ، وهاهي «الاجيشيان جازيت» تقول عنا أننا جمعية لاهم لهم الا طرد الأجانب . ذلك أنه عرف عن مصر الفتاة مقاطعتها لكل ماهو أجنبي . عرف عن مصر الفتاة أن محور جهادها هو تعظيم كل ماهو مصري ، والتقليل من شأن كل ماهو أجنبي ، عرف عن مصر الفتاة أنها متعصبة ضد الأجانب ، والأجانب جميعاً من غير استثناء . فدولة ايطاليا قد طلبت من الحكومة

المصرية في عهد وزارة عبد الفتاح يحيي باشا ، أن تحاكمنا وقد قدمنا للمحاكمة بالفعل ، ولا تزال القضية منظورة أمام محكمة الجنايات ، وهي مؤجلة الي دور مقبل . ويستطيع أى واحد منكم أن يطلع على هذه القضية .

أما ألمانيا فقد كان لها موقعة معنا ، بمناسبة سيرك هاجنبك الألماني ، فقد دعونا لمقاطعته ، وقبض على عشرات من أعضاء الجمعية بسبب مقاطعته .

وانجلترا هاهى ذى تخاصمنا ، وترسل علينا صواعقها ، على لسان رئيس الوزارة بأيعاز من ادارة الأمن العام الاوربية .

أما روسيا فليس فى مبادئنا سطر واحد ، أو كلمة واحدة ، أوحرف واحد ، لايحارب الشيوعية ولا يناقضها . فنحن الذين ندعو للأديان ، ونحن الذين ندعو للوطنية المتطرفة ، ونحن الذين نقدس الملك ، ونحن الذين نقاطع كل ماهو أجنبي ، لايمكن أن يقال اننا من دعاة الشيوعية .

فماذا بقى من الدول الاجنبية لنكون متصلين به ضد مصلحة وطننا ، الا أن تكون اليونان أو رومانيا أو الحبشة تفكر فى أمتلاك مصر ! يالهـا من كبيرة ! يالها من كبيرة أيها السادة ، لاتؤثر فينا نحن بقدر ماتؤثر في مصر بأسرها ، يالهـا من كبيرة طعنت مصر طعنة نجلاء أمام الدنيا وأمام العالم ، أن يقول رئيس وزارتها أن شبابها يخونونها . ألا ترون أن رئيس الحكومة قد وصم مصر وصمة عار الي الأبد . ألا ترون أنه قد أضعف حجته في المفاوضات غدا ، عندما تقول انجلترا « أريد كذا وكذا من الضمانات » فأذا حاول أن يعارضها جابهته بكلامه ، وأن هناك دولا أجنبية بمساعدة المصريين تريد أن تحتل مصر . سامح الله النحاس باشا ، كنت أحسبه اذا اكتشف خيانة مثل هـذه الخيانة أن يقدم رأسنا للجلاد ، كيما يبرهن للدنيا أن ثمن الخيانة فى مصر هو القتل ، أو اذا لم يكن لديه من الأدلة مايكفي لأعدامنا ، أن يستر قليلا وأن يدارى هذا الخزي ، لا أن يسجله على أمته .

نحن والاجانب

نحن دعاة دولة أجنبيـة ، نحن الذين تصيح منا الاجانب ، ويتهموننا بالتعصب ، وهنا أريد أن أقف قليلا وأن أفسر هذه الناحية من برنامجنا . وهل نحن نكره الاجانب ؟ اذن اسمعوها منى أيها السادة كلمة صريحة جريئة ، اسمعوها كلمة لامواربة فيها ولاعداء . اننا لا نكره الاجانب ، ولكننا نكره أن يتحكم فينا الاجانب . أجل فنحن لا نكره احدا ، ونحن لانضمر حقدا لأحـد ، ولكننا نريد ان نكون السادة لبلادنا . نريد ان نكون أحراراً في بلادنا ، وبعدها سنكون كرماء لضيوفنا . فلسنا نرضى بعد اليوم عن وجود الامتيازات ، ولسنا نرضى عن وجود المحاكم المختلطة ، هذا هو الحاجز ، فأنى أعلن بأعلى صوتى أن مصر قد خلقها الله لا لتكون موئلا للأجانب ..

ونحن على استعداد أن تقاسم الأجانب خيرات هذه البلاد ، على استعداد أن تفتحها لهم على مصاريعها ، فلا يجدون فيها الا كل اكرام وترحاب ، ولكن على شرط أن نكون على قدم المساواة . أما أن يظن الأجانب أننا نقل عنهم رتبة في الأنسانية ، فهذا مالا نرضاه وهذا هو مانقاومه بكل قوانا . وهذا مايجعل الأجانب يظنون خطأ أننا نكره الأجانب ولا نحبهم . وعلى أية حال فهذا يدلكم كيف جاء اتهام النحاس باشا فى أقوى نقطة من مصر الفتاة ، فكان هجومه علينا من هذه الناحية كمن يهاجم الأسلام من ناحية التوحيد ويدعى أن الأسلام يعدد الآلهة .

نحن والانجليز

يحاول الانجليز أن يفهموا النحاس باشا أن الاتصال بدولة أجنبية معناه الخيانة فيصدقهم النحاس باشا ، ويقذفنا بهذا القذف الشنيع والذى أساء به الي مصر قبل أن يسيء الينا ، واني أصرخ بأعلى صوتى كيما يسمعها السادة الانجليز وليسمعها النحاس باشا ، نريد لهذه البلد حريتها واستقلالها ، نريد لهذه البلادحقوقها ومجدها ، فان أعطانا اياها الانجليز فبها ونعمت ، هذه أيدينا نمدها لهم فى وضح النهار ومعها قلوبنا و صداقتنا ، أما ان أبوا الآن يغتصبوا حقوقنا وأن يهدروا كرامتنا ، فان ندخر وسعاً فى العمل على استخلاص حقوقنا ، ولورأينا أن الاتصال بدولة أجنبية سيقربنا من الاستقلال والحرية ، فلن نتأخر دقيقة واحدة عن هذا الاتصال ، لأننا نعتقد أننا ان لم نفعل ذلك نكون خونة لبلادنا ، مصر وانجلترا ، اما أن نكون في سلام ووئام وصداقة على قدم المساواة ، واما أن نكون حرباً عوانا لا تعرف هوادة ولا لينا ، هذا هو رأيى فى الاتفاق بين مصر وانجلترا ، تلتها فى لندن ، وسجلتها فى مذكرتى التى وزعتها هناك ، وها أنذا أقولها على رؤوس الاشهاد كيما تبلغ أسماعهم من جديد ، ان مصر ترغب من صميم قلبها أن تكون حليفة مخلصة لانجلترا ، ونحن على استعداد لأن نصون مصالح انجلترا بأموالنا ودمائنا ، ولكن فليتركونا أولا أحرارا في جيشنا ، وفى بلادنا ، فليردوا لنا سوداننا ، فليعاملوننا كدولة كاملة السيادة ، ولها حق البقاء والمساواة ، لئن نظر الانجليز لنا هذه النظرة فهاأنذا أحمد حسين الذين يقولون عنى متطرف ، انى سأكون أول رجل يقف بجانب انجلترا ، أو يدافع عن قضايا انجلترا ، أما ان أبى الانجليز الا أن ينظروا لنا هذه النظرة الحقيرة ، الا أن يحتلوا بلادنا ، ويجردونا من السلطان والسيادة فى الداخل والخارج ، فلا ينتظر الانجليز منى ومن اخوانى ومن كل شباب مصر ، بل من كل مصر،لا ينتظرون منا الا اننا سنعرف كيف نموت فى ميدان الشرف . .

ليست الدنيا ذهبا ومناصبا وقصوراً أيها السادة ، بل الدنيا حرية وكرامة وشرف ، ونحن جيل جديد نأبى الخنوع والذل ، ولا نرضى بأقل من الحصول على الشرف الكامل ، أو الموت فى سبيله . .

كلمة أخيرة

هذه هى مصر الفتاة ، وهذه هي مبادؤها وبرنامجها وروحها ، فليقولوا عنا اننا نعمل لحساب دولة اجنبية ، فليقولوا عنا أننا خونة لبلادنا ، فليقولوا عنا ما شاء لهم الهوى ، فهذه هى صفحتنا فليرونا صفحتهم ، وهذه هى مبادؤنا فليرونا مبادئهم ، وهذا هو موقفنا من الانجليز فليرونا موقفهم ، وهذا هو موقفنا من الأجانب ، فليرونا موقفهم . اننى أتحداهم ان يكون لهم برنامج مرسوم فى أى ناحية من نواحى الحياة المصرية ، أتحداهم ان تكون لهم مبادىء ، أو أن تكون لهم وسائل ، اذن فعلام يتهمون الناس بالباطل ، وينسون أنفسهم ، علام يهاجمون الناس والدليل يعوزهم ، لا انها ارادة لله سبحانه وتعالى فى ان يظهر حقيقتنا ، وان يكشف عنا للدنيا بأسرها ، فكان هذا الاتهام كيما يكون هناك دفاع .

فشكراً للنحاس باشا من أعماق القلب على ما أتاحه لى من فرصة للدفاع ، وشكراً لكم يا من جئتم الي هذا المكان لتسمعوا أقوالى ..

وبعد أيها السادة اننا ماضون في طريقنا على بركة الله وبمعونته ، ووالله لن يثنينا وعد ولا وعيد ، ولن يخيفنا ارهاب او اضطهاد ، اننا مع الله ومن كان مع الله فالله معه .

والله أكبر



رفع دعوى على رئيس الحكومة

— ٢١ —

ورأيت بعد هذا الخطاب أن أتقدم خطوة جديدة في الهجوم على رئيس الحكومة ، فرأيت أن أرفع عليه دعوى مدنية ، أطالبه فيها بتعويض مقداره عشرة آلاف من الجنيهات. فكان لرفع هذه الدعوى رنة اعجاب في جميع أنحاء البلاد ، فقد أظهرت مدى ما وصلنا إليه من السيطرة على الموقف ، بحيث تحولنا إلى مهاجمين لرئيس الحكومة بعد أن كان هو المهاجم لنا . وفيما يلي صورة من عريضة الدعوى التي رفعناها على الحكومة في ذلك الوقت :

انه في يوم

بناء على طلب الأستاذ احمد حسين المحامي عن نفسه وبصفته رئيسا لجمعية مصر الفتاة ، ومقيم سكنا بشارع عمر بن عبد العزيز رقم ٧ بالمنيرة .

ومحله المختار مقر الجمعية المذكورة رقم ٥ بالعتبة الخضراء .

أنا محضر بمحكمة

قد انتقلت في التاريخ المذكور بعاليه الى الجهة المذكورة حيث المحل والمقر الرسمي لحضرة صاحب الدولة مصطفى النحاس باشا بصفته الشخصية، وبصفته رئيسا لمجلس الوزراء ووزيرا للداخلية، مخاطبا اياه وأعلنته بالآتي .

أعلن الطالب في ابان شهر مايو سنة ١٩٣٦ باعتزامه القيام برحلة الى الوجه القبلي هو ونفر من أعضاء — جمعية مصر الفتاة — سيراً على الأقدام ، ابتداء من الشلال حتى القاهرة ، متنقلين من بلدة الى بلدة ، ومن قرية الى قرية ، مستطلعين حالة الفلاح ، وناشرين ما يقدرون على نشر من مبادىء الجمعية التي تدعو لعبادة الله وتقديس الوطن والاخلاص للعرش، والتي تدعو لتشجيع كل ما هو مصري وملء النفوس بالايمان والاخلاص والرجولة ، ويظهر أنه عز على الحكومة أن يقوم حزب غير حزبها بهذه الدعاية ذات الأثر الكبير في صفوف الفلاحين ، فأرسلت الى الطالب تنبه عليه ألا يرتدي القميص الأخضر ، ولما كان هذا الطلب لا يستند الى أي قانون بل أن الحكومة تشجع ارتداء قميص من لون آخر هو الأزرق، فقد رفض الطالب اطاعته وسار في رحلته هو وثمانية من رفاقه غادروا القاهرة في قطار الساعة الثامنة من مساء يوم ٢٨ مايو ، وبمجرد وصولهم الى الشلال

أحاطهم البوليس بضروب من الاضـطهاد والتضييق تتنافى مع أبسط قواعد الحرية التى يفرضها القانون والدستور ، فمن حصار يحول بينهم وبين اتصال الناس بهم ، ومن منعهم عن شراء الطعام أحيانا ، بل وصل الاضطهاد الى درجة منعهم من (صلاة الجمعة) فى أكثر من مكان واحد ، فى مدينة ادفو من أعمال مديرية أسوان مثل ما فى مدينة حزام من أعمال مديرية قنا ، وقد حققت النيابة في هذه الواقعة الأخيرة وتحرر بذلك محضر ، وقد هال مجلس النواب هذه الاجراءات الشاذة التي تتعارض مع أبسط قواعد الحرية ، فقدم حضرة النائب المحترم هارون سليم أبو سحلى باشا استجوابا للحكومة يسألها عن صحة هذه المعلومات ، والدافع الذى يدفع الحكومة لاتباعها ، وكيف توفق بين هذا وبين قيام الحياة النيابية والدستورية.. ولقد كان المفهوم أن الحكومة سترد على هذا الاستجواب بأن تنفى حوادث الاضطهاد وأن تدعي أن البوليس أنما يقوم بأجراءاته الشاذة لكى يحمينا ، كان المفهوم أن يرد دولة رئيس الحكومة هذا الرد خصوصا وقد أوعز الى بعض الجرائد الموالية له بالكتابة فى هذا المعنى ، فأشارت اليه جريدتا المقطم والكوكب .

أجل كان منظوراً أن يجيب رئيس الوزراء هذا الجواب ، وهكذا يتخلص من هذا المأزق بما لا يسيء به الي أحد ، بقدر الأمكان ولكن رئيس الحكومة ، والذى هو رئيس الوفد فى الوقت نفسه ، رأى أن ينتهز هذه الفرصة كيما يقضى على — جمعية مصر الفتاة — ويحطم شخصية احمد حسين المعنوية ، ويصمه بأشنع الوصمات ، فاذا به يفاجيء مجلس النواب والأمة بأسرها فى مساء يوم ٢٢ يونية سنة ١٩٣٦ ، بتصريح مؤداه أنه قد ثبت لدى وزارة الداخلية أن — جمعية مصر الفتاة — تعمل لحساب دولة أجنبية . أى أنه قد وصم الجمعية ابتداء من رئيسها الى آخر أعضائها بتهمة الخيانة العظمى وهى أشنع جرائم الدنيا بأسرها ، وقد يصفح الناس عن القاتل أو أشد المجرمين خطرا . ولكنهم لا يتسامحون مع الخائن ، هذا الذى يبيع وطنا بأسره للعدو .. ولقد تكون التهمة معقولة بعض الشيء لو أن رئيس الحكومة صرح أنه قد ثبت لديه ، أو أنه قد علم أن — جمعية مصر الفتاة — متصلة بدولة أجنبية ، اذن لما كان فى كلامه كثير من الحرج أو خروج عن جادة القانون ، ولكنه أبى الا أن يقذف الطالب ورفاقه بجريمة الخيانة العظمى كاملة الأركان والصفات ، وأن يقذف الطالب بها فى أسلوب لا يتطرق الشك الى صحته ، ذلك أنه استعمل عبارة « قد ثبت لدي وزارة الداخلية » والثبوت معناه اجراء التحقيق وموازنة الأدلة ، ثم اصدار الحكم .. ولقد هال مجلس النواب هـذه التهمة الشنيعة فطالب رئيس الحكومة بالدليل فاعتذر عن الدليل ، بحجة أنه من أسرار الدولة ، فدعوه الى جلسة سرية فامتنع كذلك ، فطالبوه بتقديم المقذوف فى حقهم الى القضاء ولكن هذا لم يعجبه أيضا ، وهكذا أصبحت أمام حالة قذف لا دليل عليها ، أستغفر الله بل قذف لم يترك المقذوف فى حقه فرصة الدفاع وتبرئة نفسه .. ولذلك لم يسع الطالب هو واخوانه الا أن يتقدموا للنائب العمومى الذى لم يحرك ساكنا فى الموضوع ، وهكذا ظل اتهام رئيس الحكومة قائما بغير دليل.

وعلى هذا فقد أوجد رئيس الحكومة الطالب واخوانه فى حالة شاذة فهم موصومون بأشنع جرائم الدنيا بأسرها ، التى تحتقرم أمام مواطنيهم ، لا بل تبرر الاعتداء عليهم وسفك دمائهم دفاعا عن الوطن العزيز ، بدون أن تعطي لهم فرصة للدفاع عن أنفسهم .. ولسنا فى هذا نتجنى على رئيس الحكومة ، فان تصريحه قد أوجد هذه النتائج الطبيعية، فاذا بجموع الشباب التى تتبع دولته والتى كال لها الحمد والثناء فى مجلس النواب عندما كان يقذف ويسب فى « جمعية مصر الفتاة » ، بل صنوف الاعتداءات، فا نتهزت فرصة اجتماع صرحت الحكومة بعقده في مساء الجمعة ٢٦ يونيه بمسرح برنتانيا فهاجمته بقوتها المسلحة، واصطدمت مع جنود مصر الفتاة فأسفرت المعركة عن كثير من الجرحى .

وقد أعقب هذا الاصطدام اصطدام جديد فى يونيه بمناسبة عودة الطالب من الصعيد ، والذى هالته هذه الجرائم التي ترتكب ضده وضد أعضاء جمعيته فقرر العودة السريعة، وقد أحاطت جموع شباب الوفد بدار « جمعيـة مصر الفتاة » وأخذت تهتف بسقوط (احمد حسين الخائن .. والكلب احمد حسـين) وتقذف دار الجمعية بالطوب ، ولم تقتصر هذه الاعتداءات على القاهرة فحسب ، بل تناولت جميع شعب مصر الفتاة فى جميع أنحاء القطر المصري كما سنبينه فى المرافعة.

واستمرت هذه الحالة عدة أيام توالت فيها الاعتداءات ، ولم يوقفها الا سخط الرأى العام واشمئزازه من هذه الحوادث ، وحملة الصحافة على الحكومة ورجال الأمن العام وصماحها بهذا العبث والاعتداء .

ولم يكن ذلك كله الا نتيجة طبيعية لهذا القذف الذى رمى به رئيس الحكومة رئيس جمعية مصر الفتاة وأعضائها ، ولما كان الطالب محروما من أن يشكو دولة رئيس الحكومة الى النيابة بسبب قانون حماية الموظفين من ناحية وبسبب الحصانة النيابية من ناحية ثانية ، وبسبب ان ماقيل كان فى مجلس النواب من ناحية ثالثة . .

وبناء عليه ونظرا لأن الطريق الجنائي مسدود على الطالب وهو الطريق الوحيـد الذى يثبت براءته ، ويرد له شرفه وشرف اخوانه ، فلم يبق أمام الطالب الا أن يلجأ الى المسئولية المدنية مطالبا فيها بالتعويض لرد شرفه المهان والخسائر التى تكبدها بسبب هذا التصريح الخطير . . اذ لما كان الطالب ليس رئيسا للوزارة ، وليس من الأغنياء ، فيستطيع بجاهـــه أو ماله أن يشكل حزبا . . وكل الذي يملكه هو شرفه وكرامته وجهاده ، فاذا أصيب فى هذا الشرف وهذه الكرامة من رجـل كرئيس الحكومة ، دون أن تعطى له فرصة الدفاع عن نفسه . . ويظهر أثر هــذا الاتهام عمليا فى هذه الاعتداءات المتكررة التي على الجمعية ، فان هذه الأضرار كلها لايمكن أن تقوم بمال في الواقع ، ولـكن الطالب يكتفى بعشرة آلاف جنيـه مصرى تعويضا عن جزء من هذه الاضرار .

بناء عليه :

ولما سيبديه الطالب فى جلسة المرافعة والمذكرات .

أنا المحضر سالف الذكر ، قد أعلنت دولة المعلن اليه بما تقدم ، وكلفته بالحضور أمام قاضى التحضير بمحكمة مصر الكلية الابتدائية الأهلية الكائن مركزها بسراى المحكمة بباب الخلق بمصر بالجلسة التى ستعقد بها علنا فى تمام الساعة الثامنة من صباح يوم الثلاثاء ٢٠ اكتوبر سنة ١٩٣٦ ، حتى بعد تحضير القضية تحال على احدى الدوائر المدنية لمحكمة مصر الابتدائية الأهلية ، لسماعة الحكم عليه بأن يدفع للطالب عشرة آلاف جنيه والمصاريف والأتعاب وشمال الحكم بالنفاذ المؤقت ، مع حفظ كافة حقوق الطالب الأخرى .

* * *

ولقد ظلت هذه الدعوى تتداول في الجلسات طوال أيام حكومة النحاس باشا ، إلى أن سقطت وجاءت وزارة محمد باشا محمود ، وفى هذه الأثناء كان اتهام النحاس باشا لم يعد له أى أثر ، بل إن رفعته قد عدل عنه فيما بعد . وأدرك أن مصر الفتاة فوق كل شبهة ، وكل ريبة ، وأن رجال القسم المخصوص فى وزارة الداخلية الذين أمدوه بهذه المعلومات الخاطئة قد غشوه وخدعوه . وقد كان لعدول رفعة النحاس باشا عن موقفه بالنسبة لمصر الفتاة فيما بعد أكبر الأثر في تحسين جو العلاقات بين مصر الفتاة والوفد ، وعلى ذلك فقد جاء الوقت الذى رأيت فيه أنه لم يعد هناك محل للاستمرار فى هذه الدعوى التى كان من الجائز أن أخسرها من الناحية القانونية باعتبار أن رئيس الحكومة لا يمكن أن يسأل بأي حال من الأحوال عن تصريحات ألقاها في مجلس النواب ، ولذلك فقد تنازلت عنها ، وأسدل الستار بذلك على هذه العاصفة الهوجاء .

مأســـــاة دمنهور

— ٢٢ —

على أننا لا نستطيع بحال أن ندع هذه الصفحة من تاريخ مصر الفتاة دون أن نشير لهذه المأســـاة الرهيبة التي وقعت في دمنهور ، والتي بدأت بمهزلة إجرامية كدت أفقد فيها حياتي ، لولا أن نجاني الله منها بأعجوبة من الأعاجيب .

فقد أشرت فيما سبق لهذه الموجة من الاضطهاد التي غمرت البلاد ، وكانت مصر الفتاة هدفا لها ، وكان أصحاب الأقمصة الزرقاء هم القائمون بها . وكانت مدينة دمنهور إحدي المدن التي وقع فيها ما وقع في غيرها من بلاد القطر ، فكثرت حوادث الاصطدام والمشاجرات بين أعضـاء مصر الفتاة وذوي الأقمصـة الزرقاء . فعمد رجال الادارة إلى إغلاق دار مصر الفتـاة بحجة أنه ناد بدار بغير رخصة . فرفع أعضـاء مصر الفتاة دعوى مسـتعجلة يطلبون فيها إعادة فتح الدار ، وذهبت إلى دمنهور لأترافع في هذه القضية ، فلم أكد أصل حتي بدأ الفصل الأول من هذه المأساة ، أو بالأحرى المهزلة الاجرامية .

أحسست باكفهرار الجو بمجرد وصولي إلى المحطة ، فقد أحاط بي أعضاء مصر الفتاة وهم في حالة عصبية ، وعلمت منهم أن هناك مظاهرات تطوف بالبلد احتجاجا على حضوري إليهـا ، ولكني سـخرت من ذلك ولم ألق إليه بالا . وركبت عربة قادتنا إلى المحكمة ، وقد أحاط بعض نفر بالعربة ، وهتفوا ضـدي هتافات عدائية ، ولكن وقف الامر عند هذا الحد ، واستطعنا أن نصل إلى المحكمة في ســلام . ونفذت إلى قاعة الجلسة ، وجلست في المقاعد الأمامية المخصصة لحضرات المحامين ، وانتظرت ريثما يأتي دور قضيتنا . ولكن لم يكد يستقر بي المقام حتى سمعنا المظاهرات

وهى آتية من بعيد تهتف بسقوط احمد حسين وسقوط مصر الفتاة . ولما كان هناك بوليس يحيط بدار المحكمة فلم يدر بخلدنا أبداً أن البوليس سيسمح للمتظاهرين بالاقتراب من دار المحكمة ، ولذلك فقد كانت مفاجأة مزعجة أن سمح البوليس للمظاهرة بالاقتراب من أبواب المحكمة الخارجية ، بل سمح لهم بالدخول إلى ساحة المحكمة الداخلية ، ثم حدث ما لم يحدث في تاريخ مصر أبداً ، فقد اقتحم المتظاهرون قاعة الجلسة نفسها ، لكى يبطشوا بأحمد حسين ويقتلوه ، إذا استطاعوا ، في ساحة العدالة نفسها .

وهرب القاضى إلى حجرة المداولة ، ودخلت معه إليها . وهنا ، وهنا فقط رأى البوليس أن يحول بين المتظاهرين وبين اقتحام حجرة المداولة ، حتى لا يعتدوا على القاضى نفسه ، فلم يكن هناك أحد يعرفنى شخصيا . وفى حجرة المداولة المحاطة بالرعاع والغوغاء الصاخبين ضد أحمد حسين ، نظرت قضية إغلاق دار مصر الفتاة ، ولست أحسب أن لذلك مثيلا في تاريخ القضاء المصرى بأ كمله ، فلقد كان الطوب ينهال علينا فى أثناء المرافعة . وكان من الطريف أننى أردت أن أتحدث عن الاضطهاد الذى تلقاه مصر الفتاة ، فاذا بالقاضى يقول لى تكلم فى الموضوع يا أستاذ . فصرخت فى وجهه ممسكا بهذا الطوب الذى كان ينهال علنا « أترى حديثى عن الاضطهاد ليس في الموضوع ؟ فهل هذا الطوب وهذه الأحجار في الموضوع يا حضرة القاضى ؟ ! » .

ورحت أندد بالحكومة وتصرفاتها ، وأندد بهذه الفوضى التى أصبحنا نعيش فيها ، ولم يستطع القاضى إلا أن يسمعني حتى النهاية فقد كان ما يجرى حولنا غريباً ، بل فى غاية الغرابة .

وأخيرا تمت المرافعة ، وأجل القاضى اصدار حكمه أسبوعا ، وصعدوا بنا إلى الدور الأعلى من بناء المحكمة ، بينما كانت المظاهرة التى تحيط بدار المحكمة قد تحولت إلى ثورة عاتية يطالب فيها الثائرون برأس أحمد حسين .

واقترح على رجال الأدارة أن يهربونى من بناء المديرية المتاخم لدار المحكمة ، وأفهمونى أنهم سيضعون لى سيارة على باب المديرية ، فما على إلا أن أركبها لكى تنطلق بى وتخرجنى الى خارج المدينة .

وكانت السيارة المقترحة تقف على باب المديرية وسط الثائرين ، ومع ذلك فقد جازفت وذهبت اليها ، ولم أكد أستقر بها حتى كشفت أن ليس بها سائق ، وأن الجمهور الغاضب المحنق الذى كان يحيط بالسيارة إحاطة السوار بالمعصم قد بدأ يستريب فى هذا الشخص الجالس بالسيارة وحانت منى التفاتة إلى باب المديرية فوجدت أحد رجال البوليس السرى يشير الى المتظاهرين من طرف خفى إلى ناحيتى ، وأنتى أحمد حسين الذي يطلبونه ، فلم أكد ألمح هذه الحركة حتى قفزت من السيارة وعدوت على سلم المديرية في نفس اللحظة التى كشف فيها المتظاهرون أن ذلك الشخص الذى دخل الى السيارة أمامهم لم يكن سوى احمد حسين .

وقد كانت هذه مؤامرة سافرة على قتلى ، ولذلك فقد اقتحمت باب مدير المديرية ، الذى كان في ذلك الوقت هو محمود بك غزالى ، ونددت بتصرفات الأدارة وطالبت بتمكينى من السفرحالا ، ووضع حد لهذه المهزلة .

ولكن المدير لم يحرك ساكنا ، وانصرف عند الظهر من دار المديرية يهتف له المتظاهرون طويلا ، وسمحوا له بالمرورلأنهم في ذلك الوقت كانوا قد ألفوا من أنفسهم حرسا وطنيا ، وأعلنوا الحصار على دار المديرية والمحكمة ، فلا يخرج منها انسان الا بأذن ، ولا يدخلها أحد إلا بأذن من حضرات الثوار .

وخرج جميع الموظفين فى منتصف الساعة الثانية ، وبقيت بمفردي ، ومعى ابن عم لى كان قد صحبنى من مصر ، وكان حكمدار البوليس يجلس معنا وهو ثائر على هذه الحالة من الفوضى والهمجية ولكنه أعلننا بأنه مغلول اليدين لا يستطيع أن يفعل شيئا ، فالأوامر المعطاة له أن لا يتعرض بحال من الأحوال للثائرين .

واستدعى الحكمدار بالتلفون ، وكلف القيام بمهمة من المهات ، وعبثا حاول أن يظهر خطورة الموقف وأن تركى في هذه الساعة معناه تعريضى لأشد الخطر . لقد كانت الأوامر صريحة ، فيجب أن يتركني وينفذ ماطلب منه خارج مدينة دمنهور بأكملها .

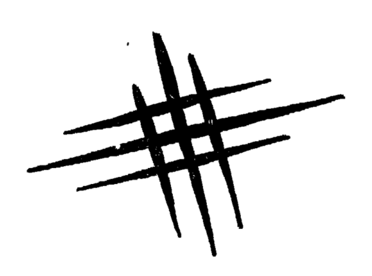
وتركنا الحكمدار وأبقى معنا اثنين من الكونستبلات وكانت هذه هى القوة الوحيدة التي بقيت إلى جوارنا لحمايتنا من القتل على يد هذا الجمهور الساخط ، الذي كان يطالب برأسنا . على أننى قررت أن اخرج من المديرية بأى ثمن من الأثمان ، فطلبت من رجلى البوليس ، وكانا قد امتلآ بالأخلاص لى ، أن يحضرا لى سيارة البوليس ، وأن يوقفاها على الباب ، وأن يتركا محركاتهـا فى حالة حركة حتى تنطلق بمجرد ركوبى بهـا . فأسرع أحد الرجلين إلى إحضار العربة وكان أمينـا هذه المرة فلم يخبر أحدا بأننى سأركبهـا ، ولم تكد تقف على البـاب حتى بادرت بالنزول ، وسلم المديرية في دمنهور يواجه الباب الكبير . فلم أكد أظهر على أول السلم حتى لمحنى الجمهور ، ولكن المفاجأة أذهلته كل الذهول إذ لم يتصور أحد أن يكون هذا الهـابط على الدرج بهذا الهدوء وهذا الابتسام هو احمد حسين ، ولكنه كان احمد حسين الذى أكمل الشوط فى هدوء حتي وصـل إلى باب السيارة ، وسط الاندهاش أو الذهول ، الذى ولدته المفاجأة وقوة الشخوص . ولم أكد أضع قدمى فى داخل السيارة حتي كانت الدهشة قد زالت من الجماعة ، فانقضوا على السيارة وانهالت عليها الأحجار كالمطر ، ولكن السيارة كانت قد انطلقت وزاد في انطلاقها هذا السيل من الأحجار ، الذى أصاب السائق فجعله كالمجنون ، فراح يعدو وسط الجماهير لا يلوي على شيء !. كانت هذه ثوانى دقيقة وخطيرة من أخطر ما مر بى فى حياتى ، وما يمكن أن يمر بها بعد الآن . لقد تحول زجاج السيارة الذى كان يحيط بى من كل جانب الى ذرات ، تحت تأثير هذا المطر من الأحجار ، ومزقت جوانب السيارة شر ممزق ، وأصيب

السائق ، وسقط ابن عمى وسط المتظاهرين لأن السيارة انطلقت قبل أن يتمكن من التعلق بها ... ومع ذلك كله فقد وجدت نفسى بعد قليل خارج المدينة سليما معافي ، لم أصب بأى سوء . . . وقد كان ذلك معجزة إلهية من غير شك ، وكان معنى ذلك أن الله قد أجاب دعائى وحمانى فى هذا اليوم العصيب بعظيم قدرته ، وانجانى من الضيق والكرب العظيم ، فله الشكر والحمد ما بقيت حيا ، ويوم أموت ، ويوم أبعث فى الموقف العصيب . لم يكن لى سلاح فى ذلك اليوم إلا ايماني بالله ، وبينما كان الثوار يصيحون نريد رأس أحمد حسين ، الموت لأحمد حسين، وبينما كان رجال البوليس يتسللون لواذا من حولى ، لم أجد أمامى إلا أن أسجد لله طالبا منه العون والمدد ، فجاءتنى النجدة فنجوت على هذه الصورة الكريمة ، حيث خرجت جهارا نهارا ، وفى وسط المتظاهرين الذين أسقط في أيديهم ، وامتلأوا بالغضب عندما نجوت من شرهم .

لقد انهالوا ضربا على ابن عمى الذى أوقعه سوء الطالع فى أيديهم ، وظلوا يضربونه حتى خيل اليهم انه قد مات وقضى نحبه ، ثم انطلقوا بعد ذلك فى البلد يعيثون فسادا ، يقتحمون بيوت أعضاء مصر الفتاة ، ويعتدون على كل من يتخيلون أنه من مصر الفتاة ، وعندما يتحول الأمر إلى هذه الفوضى ، فان حياة الناس تصبح فى خطر ، سواء منهم الوفدى وغير الوفدى ، ولم يكن طبيعيا أن تنتهى هذه الحالة إلا بعد أن تقع مأساة دامية ، ولقد وقعت هذه المأساة ، وكان ضحيتها من ذوى الأقمصة الزرقاء ، بل لعله رئيس من رؤسائهم . واتهم رئيس شعبة مصر الفتاة عبد الرحمن افندى أبو الوفا بقتله ، واتهم معه بعض نفر من أعضاء مصر الفتاة ، وأدرك البوليس انه يجب أن يضع حدا لهذه الفوضى ، وخشع ذوو الأقمصة الزرقاء بعد إذ سقط منهم قتيل في الصراع بينهم وبين أعضاء مصر الفتاة . وعادت السكينة إلى دمنهور من جديد ،وهدأت هذه العاصفة العاتية ، ولكن بعد أن مات ضحية من ضحايا الفوضى والاضطراب والعدوان .

كان لهذا الحادث تأثير عميق في أنحـــاء البلاد ، فقد كفت على أثره اعتداءات ذوى الأقمصة الزرقاء ، ورأت الحكومة أن من واجبها أن تفرض على أتباعها شيئا من الهدوء والنظام ، غير أنها انتهزت فرصة هذا الحادث لكى تصدر أمرها باغلاق دور مصر الفتاة فى جميع أنحاء القطر المصرى ، بما فى ذلك المركز العام . ولكن مصر الفتاة أثبتت أن لحمها مر يستعصى على الآكلين ، وأن الخير كل الخير فى الاقلاع عن كل تحرش بها أو محاولة للاعتداء عليها فى ظل الفوضى والهمجية . .

وقد حكم القضـــاء بعد ذلك ببراءة مصر الفتاة من دم هذا القتيل ، إذ قضى ببراءة عبد الرحمن افندى أبى الوفا ، فكان ذلك نصراً رائعاً اهتزت له جنبات مصر. ولم يكن بوسع محكمة الجنايات أن تقضى بغير ذلك ، بعد أن استعرضت حوادث دمنهور الغريبة ، وما ســـادها من فوضى وروح إجرامية ، وصلت إلى حد اقتحام مجلس القضاء ، ومحاصرة دار الحكومة لقتل احمد حسين تحت سمع الحكومة وبصرها .



معاهدة سنة ١٩٣٦

وفى ذلك الوقت الذى كان فيه الخصام قد بلغ أشده بيننا وبين الوفد وحكومة الوفد ، كانت المفاوضات الجارية بين مصر وانجلترا قد بلغت نهايتها ، ولم يبق الا التصديق عليها ، وقد كان من الواضح أن هذا العنت الذى لقيته مصر الفتاة ، كان خطة مدبرة تسبق التصديق على المعاهدة حتى لاتستطيع مصر الفتاة أن تتصدى لانتقاد هذه المعاهدة ومحاربتها . فقد اشتهرت مصر الفتاة بالتطرف فى الوطنية ، وكانت نصوص المعاهدة التى تم الاتفاق عليها أبعد مايكون عن تحقيق المطالب الوطنية ، فهى تجعل الاحتلال الأنجليزى فى مصر شرعيا ، وهو ماكان يصبو اليه الانجليز منذ ستين سنة ، وهى تربط بين مصر وانجلترا فى تحالف أبدى إلى نهاية العمر ، وهى تجعل من مصر دولة مشدودة إلى عربة الامبراطورية الانجليزية ، كما كان يشد الأسرى والمغلوبون على أمرهم فى الزمن القديم . . وكان مقدرا أن مصر الفتاة ستثور في وجه هذه المعاهدة ، وستؤلب الجماهير عليها وتدعوها الى رفضها ، فرأي القسم المخصوص في وزارة الداخلية ، وهو ممثل الاحتلال فى داخل الحكومة المصرية ، أن يقذف مصر الفتاة بهذا الاتهام الشائن ، ليتخذه ذريعة في الوقت المناسب للقبض على رؤساء مصر الفتاة ، وليقلل من قوة مصر الفتاة وقوة دعايتها ، ولكن هذه الخطة قد حبطت كما رأينا وظلت مصر الفتاة قائمة فى الميدان يدوى صوتها فتتجاوب به البلاد من أقصاها لأدناها . . وجاء الوقت الذى أعلن فيه أنه قد تم التوقيع على نتائج المفاوضات ، وأن وفد المفاوضات المصرى سيسافر إلى لندن لابرام المعاهدة ، وفي ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٦ أبرمت معاهدة التحالف والصداقة بين مصر وبريطانيا العظمى ، ولما كانت هذه الوثيقة تؤلف

صفحة تاريخية فى حياة مصر الحديثة ، وتعتبر أساس الحياة السياسية فى مصر طوال العشر السنوات التالية ، فقد رأيت أن أثبتها بنصها في هذا الكتاب للذكرى والتاريخ ، غير أننى اقتصرت فى نشرها على ذكر المواد الرئيسية دون الملاحق والمذكرات والمحاضر الملحقه بهذه المعاهدة لأن المقام يضيق عن إيرادها ، ويمكن تلخيص هذه الملاحق فى أنها نقض لما جاء فى المعاهدة من أن الاحتلال لمصر قد انتهى ، فقد عملت هذه الملاحق على تثبيت دعائم الاحتلال الفعلى لمصر .

وسيأتى فيما بعد إشارة كاملة لهذه النصوص والاشتراطات الجائرة ابان مناقشة المعاهدة والتعليق عليها فى خطابي العام الذى ألقيته لهذا الغرض.

معاهدة تحالف

بين حضرة صاحب الجلالة ملك مصر
وحضرة صاحب الجلالة فى المملكة المتحدة

لندن في ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٦

بين حضرة صاحب الجلالة ملك مصر .

وحضرة صاحب الجلالة ملك بريطانيا العظمى وأرلندا والأملاك البريطانية وراء البحار وامبراطور الهند .

بما أنهما يرغبان فى توطيد الصداقة وعلاقات حسن التفاهم بينهما والتعاون على القيام بالتزاماتهما الدولية لحفظ سلام العالم .

وبما أن هذه الأغراض تتحقق على الوجه الأكمل بعقد معاهدة صداقة وتحالف تنص لمصلحتهما المشتركة على التعاون الفعال لحفظ السلام وضمان الدفاع عن أراضيهما وتنظيم علاقاتهما المتبادلة فى المستقبل .

قد اتفقا على عقد معاهدة لهذه الغاية وأنابا عنهما المفوضين الآتية أسماؤهم :

حضرة صاحب الجلالة ملك مصر .

قد أناب عن مصر :

حضرة صاحب الدولة مصطفى النحاس باشا رئيس مجلس الوزراء .
» » السعادة الدكتور أحمد ماهر رئيس مجلس النواب .
» » الدولة محمد محمود باشا رئيس مجلس الوزراء سابقا .
» » » اسماعيل صدقي باشا رئيس مجلس الوزراء سابقا .
» » » عبد الفتاح يحيي باشا رئيس مجلس الوزراء سابقا .
» » المعالي واصف بطرس غالى باشا وزير الخارجية .
» » المعالى عثمان محرم باشا وزير الأشغال العمومية .
» » المعالى مكرم عبيد باشا وزير المالية .
» » المعالى محمود فهمي النقراشي باشا وزير المواصلات .
» » أحمد حمدي سيف النصر باشا وزير الزراعة .
» » السعادة حافظ عفيفى باشا وزير سابق .

وحضرة صاحب الجلالة ملك بريطانيا العظمى وارلندا والأملاك البريطانية وراء البحار وامبراطور الهند (الذى سيشار اليه فى نصوص هذه المعاهدة بعبارة صاحب الجلالة الملك والامبراطور)

قد أناب عن بريطانيا العظمى وأرلندا :
سعادة الرايت أونورابل أنتونى ايدن وزير جلالته للخارجية .
سعادة الرايت أونورابل جيمس رامزى ماكدونالد رئيس المجلس الخاص .
سعادة الرايت أونورابل السير جون سيمون مستشار ملكى وعضو مجلس العموم ووزير للداخلية.
سعادة الرايت أونورابل فيكونت هاليفاكس حامل أختام جلالة الملك .
سعادة السير مايلز ويدربيرن لامبسون المندوب السامى لجلالته فى مصر والسودان .
الذين بعد تبادل وثائق تفويضهم التى تخولهم سلطة كاملة والتى وجدت صحيحة ومستوفية الشكل قد اتفقوا على ما يأتى :

(المادة الأولى)

انتهى احتلال مصر عسكريا بواسطة قوات صاحب الجلالة والامبراطور .

(المادة الثانية)

يقوم من الآن فصاعدا بتمثيل صاحب الجلالة الملك والامبراطور لدى بلاط جلالة ملك مصر وبتمثيل صاحب الجلالة ملك مصر لدى بلاط سان جيمس سفراء معتمدون بالطرق المرعية .

(المادة الثالثة)

تنوى مصر أن تطلب الانضمام الي عضوية عصبة الأمم . وبما أن حكومة صاحب الجلالة في المملكة المتحدة تعترف بأن مصر دولة مستقلة ذات سيادة فانها ستؤيد أى طلب

تقدمه الحكومة المصرية لدخول عصبة الأمم بالشروط المنصوص عليها في المادة الأولى من عهد العصبة .

(المادة الرابعة)

تعقد محالفة بين الطرفين المتعاقدين الغرض منها توطيد الصداقة والتفاهم الودى وحسن العلاقات بينهما .

(المادة الخامسة)

يتعهد كل من الطرفين المتعاقدين بأن لا يتخذ فى علاقاته مع البلاد الأجنبية موقفا يتعارض مع المحالفة وأن لا يبرم معاهدات سياسية تتعارض مع أحكام المعاهدة الحالية .

(المادة السادسة)

اذا أفضى خلاف بين أحد الطرفين المتعاقدين ودولة أخري الى حالة تنطوى على خطر قطع العلاقات مع تلك الدولة تبادل الطرفان المتعاقدان الرأى لحل ذلك الخلاف بالوسائل السلمية طبقا لأحكام عهد عصبة الأمم أو لأى تعهدات دولية أخري تكون منطبقة على تلك الحالة .

(المادة السابعة)

اذا اشتبك أحد الطرفين في حرب بالرغم من أحكام المادة السادسة المتقدم ذكرها فان الطرف الآخر يقوم في الحال بانجاده بصفته حليفا وذلك مع مراعاة أحكام المادة العاشرة الآتي ذكرها .

وتنحصر معاونة صاحب الجلالة ملك مصر ، فى حالة الحرب أو خطر الحرب الداهم أو قيام حالة دولية مفاجئة يخشى خطرها ، فى أن يقدم الى صاحب الجلالة الملك والامبراطور داخل حدود الأراضى المصرية ومع مراعاة النظام المصري للادارة والتشريع ، جميع التسهيلات والمساعدة التي في وسعه بما فى ذلك استخدام موانيه ومطاراته وطرق المواصلات .

وبناء على هذا فالحكومة المصرية هى التي لها أن تتخذ جميع الاجراءات الادارية والتشريعية بما في ذلك اعلان الأحكام العرفية واقامة رقابة وافية على الأنباء لجعل هذه التسهيلات والمساعدة فعالة .

(المادة الثامنة)

بما أن قنال السويس الذى هو جزء لا يتجزأ من مصر هو في نفس الوقت طريق عالمى للمواصلات كما هو أيضا طريق أساسى للمواصلات بين الأجزاء المختلفة للامبراطورية البريطانية فالى أن يحين الوقت الذى يتفق فيه الطرفان المتعاقدان على أن الجيش المصرى أصبح فى حالة يستطيع معها أن يكفل بمفرده حرية الملاحة على القنال وسلامتها التامة يرخص صاحب الجلالة ملك مصر لصاحب الجلالة الملك والامبراطور بأن يضع فى الأراضى المصرية بجوار القنال بالمنطقة المحدودة فى ملحق هذه المادة قوات تتعاون مع القوات المصرية لضمان الدفاع عن القنال . ويشمل ملحق هذه المادة تفاصيل الترتيبات الخاصة بتنفيذها .

ولا يكون لوجود تلك القوات صفة الاحتلال بأى حال من الأحوال .
كما أنه لا يخل بأى وجه من الوجوه بحقوق السيادة المصرية .

ومن المتفق عليه أنه اذا اختلف الطرفان المتعاقدان عند نهاية مدة العشرين سنة المحدودة فى المادة السادسة عشرة على مسألة ما اذا كان وجود القوات البريطانية لم يعد ضروريا لأن الجيش المصرى أصبح في حالة يستطيع معها أن يكفل بمفرده حرية الملاحة على القنال وسلامتها التامة فأن هذا الخلاف يجوز عرضه على مجلس عصبة الأمم للفصل فيه طبقا لأحكام عهد العصبة النافذ وقت توقيع هذه المعاهدة أو على أى شخص أو هيئة للفصل فيه طبقا للاجراءات التى قد يتفق عليها الطرفان المتعاقدان .

(المادة التاسعة)

تحدد باتفاق خاص يبرم بين الحكومة المصرية وحكومة المملكة المتحدة ما تتمتع به من اعفاء ومميزات في المسائل القضائية والمالية قوات صاحب الجلالة الملك والامبراطور التي تكون موجودة فى مصر طبقا لأحكام هذه المعاهدة .

(المادة العاشرة)

ليس فى أحكام هذه المعاهدة ما يمس أو ما يقصد به أن يمس بأي حال من الأحوال الحقوق والالتزامات المترتبة أو التى قد تترتب لأحد الطرفين المتعاقدين أو عليه بمقتضى عهد عصبة الأمم أوميثاق منع الحرب الموقع عليه بباريس في ٢٧ أغسطس سنة ١٩٢٨ .

(المادة الحادية عشرة)

١ — مع الاحتفاظ بحرية عقد اتفاقات جديدة فى المستقبل لتعديل اتفاقيتى ١٩ يناير و ١٠ يوليو سنة ١٨٩٩ قد اتفق الطرفان المتعاقدان على أن ادارة السودان تستمر مستمدة من الاتفاقيتين المذكورتين ويواصل الحاكم العام ، بالنيابة عن كلا الطرفين المتعاقدين ، مباشرة السلطات المخولة له بمقتضى هاتين الاتفاقيتين .

والطرفان المتعاقدان متفقان على أن الغاية الأولى لادارتهما فى السودان يجب أن تكون رفاهية السودانيين .

وليس فى نصوص هذه المادة أى مساس بمسألة السيادة على السودان .

٢ — وبناء على ذلك تبقى سلطة تعيين الموظفين فى السودان وترقيتهم مخولة للحاكم العام الذى يختار المرشحين الصالحين من بين البريطانيين والمصريين عند التعيين فى الوظائف الجديدة التى لا يتوفر لها سودانيون أكفاء .

٣ — يكون جنود بريطانيون وجنود مصريون تحت تصرف الحاكم العام للدفاع عن السودان فضلا عن الجنود السودانيين .

٤ — تكون هجرة المصريين الى السودان خالية من كل قيد الا فيما يتعلق بالصحة والنظام العام .

٥ — لا يكون هناك تمييز في السودان بين الرعايا البريطانيين وبين الرعايا المصريين في شؤون التجارة والمهاجرة أو في الملكية .

٦ — اتفق الطرفان المتعاقدان على الأحكام الواردة في ملحق هذه المادة فيما يتعلق بالطريقة التي تصبح بها الاتفاقات الدولية سارية في السودان .

(المادة الثانية عشرة)

يعترف صاحب الجلالة الملك والامبراطور بأن المسئولية عن أرواح الأجانب وأموالهم في مصر هي من خصائص الحكومة المصرية دون سواها وهي التي تتولى تنفيذ واجباتها في هذا الصدد .

(المادة الثالثة عشرة)

يعترف صاحب الجلالة الملك والامبراطور بأن نظام الامتيازات القائم بمصر الآن لم يعد يلائم روح العصر ولا حالة مصر الحاضرة .

ويرغب صاحب الجلالة ملك مصر في الغاء هذا النظام دون ابطاء .

وقد اتفق الطرفان المتعاقدان على الترتيبات الواردة بهذا الشأن في ملحق هذه المادة .

(المادة الرابعة عشرة)

تلغي المعاهدة الحالية جميع الاتفاقات أو الوثائق القائمة التي يكون استمرار بقائها منافياً لأحكام هذه المعاهدة . ويجب أن يعد باتفاق الطرفين المتعاقدين ، اذا طلب أحدهما ذلك ، بيان بالاتفاقات والوثائق الملغاة وذلك في مدى ستة أشهر من نفاذ هذه المعاهدة .

(المادة الخامسة عشرة)

اتفق الطرفان المتعاقدان على أن أي خلاف ينشأ بينهما بصدد تطبيق أحكام المعاهدة الحالية أو تفسيرها ولا يتسنى لهما تسويته بالمفاوضات بينهما مباشرة يعالج بمقتضى أحكام عهد عصبة الأمم .

(المادة السادسة عشرة)

يدخل الطرفان المتعاقدان في مفاوضات ، بناء على طلب أي منهما في أي وقت بعد انقضاء مدة عشرين سنة على تنفيذ هذه المعاهدة ، وذلك بقصد اعادة النظر بالاتفاق بينهما في نصوص المعاهدة بما يلائم الظروف السائدة حينذاك . فاذا لم يستطع الطرفان المتعاقدان الاتفاق على نصوص المعاهدة التي أعيد نظرها يحال الخلاف الى مجلس عصبة الأمم للفصل فيه طبقا لأحكام عهد العصبة النافذ وقت توقيع هذه المعاهدة أو الى أي شخص أو هيئة للفصل فيه طبقا للاجراءات التي يتفق عليها الطرفان المتعاقدان .

ومن المتفق عليه أن أي تغيير في المعاهدة عند اعادة نظرها يكفل استمرار التحالف بين الطرفين المتعاقدين طبقا للمبادىء التي تنطوي عليها المواد (٤ و٥ و٦ و ٧) .

ومع ذلك ففي أي وقت بعد انقضاء مدة عشر سنوات على تنفيذ المعاهدة يمكن الدخول في مفاوضات برضا الطرفين المتعاقدين بقصد اعادة النظر فيها كما سبق بيانه .

(المادة السابعة عشرة)

يصدق على المعاهدة الحالية ويتبادل التصديق عليها فى القاهرة فى أقرب وقت ممكن ويبدأ تنفيذها من تاريخ تبادل التصديق عليها وعندئذ تسجل لدى السكرتير العام لعصبة الأمم .

واقرارا بما تقدم وقع المفوضون السابق ذكرهم هذه المعاهدة ووضعوا أختامهم عليها .
وتحررت فى لندن من صورتين فى اليوم السادس والعشرين من شهر أغسطس سنة ١٩٣٦



مصر الفتاة تحارب المعاهدة

- ٢٤ -

لم تكد نصوص هذه المعاهـــدة تعلن وتذاع حتى هبت مصر الفتاة لمحاربتها ، وعمل كل مامن شأنه ان يحول دون تصديق البرلمـان المصرى عليها ، وقد جاء توقيع المفاوضين المصريين على هذه المعاهدة بمثابة مهماز شحذ قوانا من جديد ، وبعث فينا كل نشاطنا وكل حيويتنا وكل عنادنا وقدرتنا على الكفاح والجهاد ، فأستاجرنا دارا جديدة اتخذتها مكتبا لى بدلا من دار مصر الفتاة القديمة التي أغلقتها الحكومة وحالت دون إعادة فتحها ، واستأجرنا جريدة جديدة وهى جريدة الضياء بدلا من الصرخة التى اضطررنا لوقفها نظرا لتوالى المصادرة عليها ، وانتهزت فرصـــة تصريح الحكومة بعقد الاجتماعات العامة لمناقشة نصوص المعاهدة لـكى أتقدم بطلب تصريح لنا لعقد اجتماع عام نعقده بدار الحزب الوطنى ، الذي كان قد حل محل جمعية الشبان المسلمين فى هذه الدار التى تقع في شارع مجلس النواب ، وفى الموعـــد المضروب للاجتماع وهو مساء السبت ٣٠ أكتوبر سنة ٩٣٦ عقدالاجتماع وسط حماسة بالغة لم يسبق لها مثيل في كل تاريخ مصر الفتـاة ، وحسبك أن تعلم أن الموعد المقرر لمبـدأ الاجتماع كان هو الساعة الخامسة ، ولـكن سرادق الاجتماع امتلأ بالجمهور ابتداء من الساعة الثانية بحيث لم يتمكن الوف من الراغبين فى حضور الاجتماع أن يحضروه ، لأن قوات البوليس الضخمة التي أحاطت بمكان الاجتماع قد حالت بين الجمهور وبين الوقوف بالقرب من سرادق الاجتماع ، ولقد حدثت مصادمات ومناوشات صغيرة في خلال الاجتماع ، ولـكن ذوى الأقمصة الخضراء استطاعوا أن يسيطروا سيطرة تامة وكاملة على الموقف فمر الاجتماع حتى نهايته دون أن تتمكن قوات الشعب التى أرسلت خصيصا للاخلال بالنظام ، من أن تعمل شيئا .

وفيما يلي الخطاب الذي ألقيته في هذه الليلة ، وحللت فيه بعض نصوص المعاهدة واظهرت مواضع الخطر فيها على حرية مصر واستقلالها ومستقبلها مما حققته الحوادث وأظهرته الأيام ، ولما كان هذا الخطاب هو أول خطاب ألقيته على الجماهير بعد اتهام النحاس باشا لنا بالخيانة العظمى ، فقد كنت مضطرا أن استهل الخطاب بالأشارة إلى هذا الاتهام ، وبالدفاع عن مصر الفتاة .

خطاب

أيها السادة :

يظهر أن هناك مقدمة لابد منها فى مستهل حديثى ، فلست أشك لحظة فى أن بين صفوفكم من يخالفوننى فى العقيدة السياسية ومن يتحمسون للحكومة الحاضرة والمعاهدة . . ولست أشك فى أن الكثيرين من هؤلاء قد جاءوا تحدوهم الرغبة الطيبة في التفام والاقتناع ، وأن هناك غيرهم قد جاء معتزما احداث حدث من الأحداث ، فالى هؤلاء والى هؤلاء أوجه كلمة الابتداء ، وكل الذى أرجوه أن تلقى آذاناً صاغية وقلوبا واعية .

اننا فى جمعية مصر الفتاة لا نحمل حقداً لمصرى واحد ، ولسنا نكره مصريا واحداً ، ذلك لأننا نعلم أن الأنجليز اذا كانت قد استطاعت أن تحطم استقلالنا ، وأن تتصدق علينا بعد مائة سنة من تحطيم امبراطوريتنا بهذه المعاهدة الهزيلة المشوهة . . فتهلل لهذه المعاهدة التى تفرض علينا الاحتلال والفقر ، اذا كنا قد وصلنا الى هذه الحالة التعسة فليس ذلك الا لأن الغاصب قد عرف كيف يحطم كتلتنا ، وكيف ينفذ الى وحدتنا فيمزقها . . اذا كنا قد رسفنا فى العبودية خمسين عاما ، فما ذلك الا لاختلاف كلمتنا ومحاربة بعضنا لبعض ، وتراشقنا بالتهم والسباب . ولم يستطع الغاصب أن يتغلغل فى بلادنا الا لأننا انقسمنا شيعا وأحزابا ، كل فريق منا يعتدى على الآخر وتركنا الغاصب يسرح ويمرح ويغنم ويربح ، فهو يكسب من هؤلاء وهؤلاء وهو الفائز أولا وأخيرا .

ومن هنا فنحن لا نحقد على مصرى واحد ، ولكننا نحب الجميع ونتمنى لهم الخير ، حتى لو آذونا واعتدوا علينا لما أنقص ذلك مقدار شعرة من حبنا لهم ، لأنهم مصريون أولا وقبل كل شيء . ولما كنا قد كرسنا حياتنا من أجل مصر والمصريين ، ولما كنا لا نطمع فى هذه الحياة الدنيا فى مال أو منصب أو عرض من أعراض الحياة ، فنحن لايمكن أن نحقد على مصرى مهما أساء أو اعتدي . وكل الذى نفعله اذا اشتد بنا الأذى وتضاعف البلاء أن نرفع أكف الضراعة الى المولى سبحانه وتعالى ، ونقول كما قال سيد الخلق (رب اغفر لقومى فانهم لا يفقهون) .

هذا هو مبدؤنا وهذا هو طابع جهادنا . أجل قد نشتد في خصومتنا ، وقد نهاجم معارضينا بقوة وعنف ، ولكنا نفعل ذلك لا كرها منا فيهم ولا حقداً عليهم ، ولكن رغبة منا فى اصلاحهم ورؤيتهم أطهارا أقوياء أعزاء . فنحن نحب الخير لخصومنا ونرجوه، وهذا لا يمنعنا أن نصارحهم بخصومتنا غير هيابين ولا وجلين ، فاذا عرف خصومنا الحق كنا أول من يفرح لذلك . بل كنا أول من يسير فى صفوفهم ويشد أزرهم ، غير بخلاء بتضحية مهما عزت ومهما غلت .

هذا نحن وهذا موقفنا ، واذن فالي هؤلاء الذين جاءوا الي هذا الاجتماع وفى قلوبهم شيء من الحقد على مصر الفتاة ، أرجو أن ينتزعوه مؤقتا، ليستمعوا الى فى رفق وهدوء ، حتي اذا انتهيت من خطابى كنتم قضاة وحكاما عدولا . فان وجدتمونى محقا ، فهذه يدى ، وهذا كتاب الله أعاهدكم عليه ، أن أبقى طوال حياتى مخلصاً لما تريدون . أما ان وجدتم أنى مخطىء فهذا دمي فلتسفكوه حلالا لكم .. وهذه روحى فلتزهقوها كما يحلو لكم، العهد بينى وبين الناس طرا أن أعمل من أجل مصر ومجدها ، فان رغبتم فى ذلك فهو الفضل من ربي ، وأن رغبتم عن ذلك فلا فائدة لحياتى وانى أهبها لكم تتصرفون فيها كما تريدون . ولكنى أسألكم شيئا واحداً هو أن تستمعوا الى وأن تحسنوا الاستماع ، ثم احكموا في نهاية الأمر .

لماذا دعوناكم

دعوناكم لنتحادث سويا فى شأن المعاهدة المعروضة علينا ، والتى ستعرض على البرلمان بعد يومين ، وقد جئتم الى هنا لتسمعوا هذا الرأى حتى تقرنوه بما عندكم من آراء ، ولكن قبل أن يكون من حقنا أن نناقش المعاهدة ، قبل أن يكون لنا شرف النصح والارشاد والقيادة ، ألا يجب على قبل ذلك أن أقول كلمة أبدد بها هذه الغيوم وهذه السحب التى أظلت مصر الفتاة . ألا يجدر بى أن أقضى على هذا الشك الذي خيم فى سماء جهادنا ، وأن أزهق الباطل الذى التصق بنا ، ألا يجدر بى قبل أن أحاسب المفاوضين على ما جاءوا به ، أن أحاسب نفسى أولا وأن أرد على ماوجه الى من تهم .؟

اتهام النحاس باشا

قيل عنا أيها السادة اننا نخدم دولة أجنبية ، واننا نعمل لصالحها ضد مصلحة وطننا ، وهذه تهمة أيها السادة لو صحت لكانت رءوسنا جديرة بالمشنقة ، ولكان بطن الأرض أولي بنا وأحق . ولو أن هذه التهمة كانت صحيحة أيها السادة ، لوجدتم الأرض وقد تزلزلت تحت أقدامى ، ولوجدتم السماء وقد تساقطت كسفا فوق رأسى . لو أن هذه التهمة كانت صحيحة اذن لوجدت فى كل مصرى منتقما ، ولخفت النور وخفت الناس ،

وتواريت خزيا وعارا .. ولكن ها أنتم ترونني واقفا أمامكم رافع الرأس شامخاً معتزا .. معتزاً بمصريتي، معتزا بإيماني ، معتزا بجهادي .. لا أخاف على ظهر الأرض انسيا واحدا ، ولكني أخشى الله وحده ، فهو الذي خلقني وهو الذي هداني ، وهو الذي يميتني وهو الذي يحييني .

لو اني كنت الرجل الذي وصفوه ، لما وجدت حجة أخدعكم بها ، ولما وجدت جنانا أجابهكم به : ولما وجدت مستمعا واحداً يستمع الى فضلا عن هذه الألوف المؤلفة ، فالمجرمون ان عاشوا فهم يعيشون في الظلام ، والمتآمرون لا يتحدثون الى الناس .

اتهمونا أيها السادة فقيل لهم في مجلس النواب أبرزوا الدليل ، فقالوا لا هذه أسرار لا تذاع . فطلبوا منهم عقد جلسة سرية ، فقالوا لا ، ان هذه مسائل لا تطرح على البرلمان. فقيل لهم قدموم الى المحاكمة فقالوا لسنا نريد أن نلجأ الى المحاكم . فاعجبوا ، اعجبوا من هذه الحكومة التي تترك الخونة يفسدون في الأرض . اعجبوا من هذه الحكومة التي تسمح لنا بالسير والتحدث والخطابة والاجتماع وهي تقول عنا : اننا نعمل ضد مصلحة مصر. ألستم ترون معي أنه لو صح ما تدعيه هذه الحكومة لوجب أن تسقط حالا لأنها عاجزة عن الضرب على أيدي الخونة والمفسدين ؟! ولكنهم يعلمون أننا أطهار كالأطفال، أنقياء كالثلج ، وهم لا يستطيعون أن يجابهونا اذا ما قرع الدليل بالدليل .

محاولاتنا الدفاع عن أنفسنا

على أننا من ناحيتنا لم ندخر وسعاً في دحض اتهامهم عن أيسر طريق فتقدمنا ببلاغ الى النائب العام ورجوناه سرعة التحقيق معنا . . فماذا فعل . . انه لم يفعل شيئا ولا يستطيع أن يفعل شيئا لأننا أطهار أبرياء . .

فكرنا بعد ذلك في دعوة فريق من نواب الأمة لنعرض عليه بعض الحقائق، ولندافع عن أنفسنا. فدعوناهم الى حفلة شاي متواضعة ولكن الحكومة لم تصبر على هذه الدعوى فحالت بيننا وبين عقد الاجتماع بالقوة، فاعجبوا لهذه الحكومة الدستورية التي تحول بين النواب وبين شخص من الأشخاص ، فهل فعلت ذلك الا لأنها تعرف أننا أطهار أبرياء .

فماذا بقي بعد ذلك لنعمله ، لقد رفعنا قضية مدنية على رئيس الحكومة نطالبه بتعويض عن قذفه ايانا . وقد نربح هذه القضية ماديا وقد لا نربحها لاعتبارات قانونية ولكن نحن المنتصرون معنويا على كل حال .. فان اولئك الذين يعملون في الظلام لا يقفون في المحاكم ولا يطالبون رئيس الحكومة بتعويض، ولكنهم يهربون من وجه القضاء والعدالة . ولكنا فعلنا ذلك أيها السادة لأننا مطمئنون الى براءتنا ماضون في طريقنا الى الأمام في غير ما تردد أو ضعف . . أما هذه الاتهامات فانها عنوان شرفنا . . فلا يوجد مصلح واحد في الدنيا لم توجه اليه الاتهامات .

وهل هناك أشرف أو أجل من سيد الخلق عليه الصلاة والسلام ، أذكروا كم أوذى فى جهاده وأى اتهامات قد وجهت اليه . اذكروا كيف اضطر بعد ثلاثة عشر عاما من جهاده أن يهاجر من بلدته تفاديا من القتل .. وقد كان الله قادراً أن يحميه من أذاهم وأن يجعل الدنيا طيعة له فى طرفة عين ولكن الله أراد أن يكون قدوة نبراساً فى الصبر والثبات واحتمال الأذى فى سبيل العقيدة . . وقد جاءت الساعة التى انتصر فيها نور محمد عليه الصلاة والسلام . جاءت الساعة التى قال فيها كلمته المشهورة وهو يحطم أصنام مكة « قل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا » وأين نحن من رسول الله أيها السادة، ولكن واجبنا أن نتأسى به وأن نعتبر بحياته. وسوف تأتى الساعة التى نقول فيها بدورنا « لقد جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا » .

المفاوضات والمعاهدة

صبرنا على هذا الاتهام وصبرنا على صنوف من الأعنات والأرهاق ، فلقد صودرت جريدتنا مرات متعاقبة ،ثم أغلقوا دور جمعيتنا فى أنحاء مصر ثم اعتدى علينا . وكان ذلك كله بحجة قيام المفاوضات . كانوا يقولون سوف تأتى للأمة بالاستقلال التام لمصر والسودان،أو كانت الناس تتوهم ذلك. ولما كنا نعكرعليهم هذا الجو فلامانع من اضطهادنا لمصلحة المجموع وسلامته ، ولامانع من أن نكون كبش الفداء لهذه الأمة وأن نكون قربانا لحريتها واستقلالها .

ثم أعلنت المعاهدة التي طال انتظار الأمة لها فاذا رأينا أيها السادة . رأينا عجبا وغماً . ثم فجعنا ما أفزعنا وملأنا رعباً . رأينا معاهدة تفرض على مصر احتلالا وتسلب مصر حقوقا مشروعة كانت لها دائما أبداً ورأينا هؤلاء الذين نادوا دائماً بالاستقلال التام لمصر والسودان يقبلون ما هو أقل من الاستقلال الذاتى لمصر ، الذي عرض علينا منذ عشرين عاما فرفضناه بأباء . ورأيناهم يرضون بأن يصبح السودان مستعمرة انجليزية . ولو وقف الأمر عند هذا الحد لما كان هناك محل للفزع والخوف . ولكننا فزعنا عندما رأينا أن هذا الاحتلال يراد فرضه على مصر باسم الاستقلال والشرف . امتلأنا فزعا عندما رأينا آن كل من يشير الى هذه المعاهدة بنقص يصبح خائنا، وأن كل من يذكر الأمة بجهادها الصحيح يصبح مارقا ، وأن كل من يذكر السودان أو الجلاء يصبح زنديقاً طريداً .

فمصر الفتاة تعمل لحساب دولة أجنبية ،والحزب الوطني لحساب دولة أجنبية،وكل معارض في مصر هو معارض مأجور ولحساب دولة أجنبية .

هذا هو ما أفزعنا وملأنا خوفا على هذه الأمة، وما يدبرلها ويحاك من خلف الستار، فان الرضا بالذل أشر من الذل نفسه، والرضا بالعبودية أشنع من العبودية نفسها . ولا عيب فى أن يتغلب قوى على ضعيف فيستعبده ، ولكن العيب كل العيب أن يرضى الضعيف

بذلك وأن يعتاده . فما بالكم اذا تعدى الرضا الى التحبيـــذ، واذا انقلب التحبيذ الى تمجيـد . فأقيمت مهرجانات وزينــات ودقت طبول ايذانا بالعهد الجديد . والعهد الجديد فيه ما فيه من تحطيم لسيادتنا واهدار لـكرامتنا .

قبول وقبول

كنت أفهم أيها السادة من الناحية النظرية كما قال لى أحد النواب أن يقبل فريق من المصريين هذه المعاهدة ، وهم كارهون مضطرون ، يقبلونها وهم يبكون بمقدار ما تمس كرامتهم وبمقدار ما تهدم من سيادتهم .

انني أفهم أن يقف بعض النواب فيقولون اننا نقبل هذه المعاهدة على ما فيها من عيوب وما فيها من عدوان وسنعمل على تعديلها بما يصون استقلال مصر وكرامتها ويحقق آمالها بعد عام واحد أو عامين . أجل كنت أفهم هذا الوضع وأستسيغه الى حد ما ، ولـكن الذى لا أفهمه وأراه مخيفا ومفزعا أن يحرص الناس على تمجيد المعاهدة وهي تفرض عليهم الذل والعار ، وان تحشد الألوف للهتاف والتصفيق ، وأن تشحن قطارات السكة الحديد من كل صنف من الناس وأن تقام أقواس النصر وتكلل الهامات بالغار وأن تحارب المعارضة لأنها تنادى بمجد مصر ، واستقلال مصر وحريتها .

لا . . لا أيها السادة هذه هي الجريمة بعينها وهذا هو ما أعلن من فوق هذا المنبر بقوة وعزم انني سأحاربه ، وسأحاربه بكل ما أوتيت من قوة، ولن يقعدني وعد ولا وعيد ولن يؤخرني سجن أو تشريد .

المعاهدة ومشروعية الاحتلال

هذه المعاهدة المعروضة على مصر معاهدة باطلة لا تساوى الحبر والورق الذي كتبت عليه ،على رأى بعض الأساتذة المحترمين الذين رأوا فيها استغلالا لا شك فيه .

هذه المعاهدة باطلة، وهى نكبة النكبات على مصر اذا حاول المحاولون ان يظهروها فى مظهر الاستقلال ، وواجب كل مصرى بل واجب كل شاب بصفة خاصة ان يحول دون وقوع هذه الـكارثة . فاذا قبلها البرلمان فقد أصبح واجبنا وواجب الأمة أن لا نعترف بمشروعيتها وان نعمل على تمزيقهـا بأسرع ما نستطيع، لأنهـا مابقيت قائمة فلن تقوى مصر على ان تخطو خطوة واحدة نحو الأمام ، بل سوف ترون ان مصر ستتدهور الى الحضيض فى ظل هذه المعاهدة لأنها قد جعلت مركز مصر اسوأ بمراحل مما كانت عليه .

فقد دخلت انجلترا مصر فى سنة ١٨٨٢ . ودخلت بخدعة ودسيسة ، فلما قيل لها ان دخولك الى مصر هو اغتصاب وهو عمل غير مشروع قالت انى لا أحتل مصر وليس فى نيتى ان أحتلها، ولـكننى دخلت لحماية العرش ولتوطيد الأمن، وسأخرج منها حالما تنتهي هـذه المهمة . فلما انتهت المهمة وأصبح العرش موطدا أكثر مما كان مقررا له لم يخرج الانجليز. وظلوا يحتلون أرض مصر غصبا وعدوانا .

فلما ذكروا بوعودهم قالوا : بلى بلى نحن لا نريد أن نحتل مصر وسوف نجلو عن أرض مصر، ولكننا فقط نريد أن نحمي أصحاب الجلاليب الزرقاء من عسف الباشوات. فلما ثار في وجهها الفلاحون بمناسبة حادثة دنشواي، وسخر الفلاحون من دعوتها حمايتهم وقيل لها اخرجي فانهم لا يريدونك واصلت انجلترا عدوانها واغتصابها مدعية في هذه المرة انها انما تحمي الاقليات . فلما ثارت مصر في سنة ١٩١٩ وقد اتحدت كل عناصرها ووقف جميع المصريين صفا واحدا يناوئونها ويدافعون عن كرامة وطنهم، قالت انجلترا أنا في مصر لأنها لازمة لنا ويجب أن نبقى فيها الى الأبد . وهكذا انكشف الستار عن نواياها وتجردت من كل ثيابها وظهر للعالم اغتصابها كريها فظيعا ، بينما تجلت ارادة الأمة في أن تعيش حرة سيدة، فأصبح لا مناص للانجليز من أن يعودوا لستر موقفهم وتبرير وجودهم في مصر . وأي مبرر أجل من أن يظلوا محتلين مصر باسم الصداقة والتحالف . واذن فلتدفع مصر الى التحالف مع انجلترا دفعا . ولتجبر على قبول معاهدة تخول للانجليز حق احتلال مصر الى الأبد ، فيصبح بقاؤهم في مصر شرعيا ويعود اخراجهم من مصر من رابع المستحيلات، فلن توجد قوة في العالم بعد ذلك تستطيع اجلاءهم عن مصر الا بعد أن تحطم الامبراطورية الانجليزية أولا .

وفي ظل التحالف والصداقة يستطيعون ان يجندوا مصر، بسكانها وأموالها ، لخدمة الامبراطورية الانجليزية .

هذا هو المثل الأعلى للسياسة الانجليزية كما استقر بعد ثلاثين سنة من الاحتلال عندما رسمها لهم اللورد ملنر في تقريره المشهور . واذن فقد أصبحت بغية الانجليز أن يحصلوا من مصر على معاهدة تجعل احتلالهم مشروعا وتطلق أيديهم في مصر اذا قامت الحرب ابان الأزمات الدولية ، ولكن من أين لهم بهذا الرجل الذي يقبل مثل هذه المعاهدة . من أين لهم بالرجل الذي يعتدي على بلاده هذا العدوان فيفرط في حقوقها ويسلمها للانجليز .؟ ان رجال الحزب الوطني وهم الذين خلقوا الوطنية في مصر خلقا قد رفضوا دائما أن يتحدثوا مع الانجليز قبل الجلاء المطلق . واذن فلا مناص من تحطيم هذا الحزب لأنه خطر على سياسة الانجليز المقبلة أي خطر، وبهذا أشار اللورد ملنر في تقريره أيضاً .

أما سعد زغلول ذلك الرجل الذي كان يعتبر بالنسبة للحزب الوطني معتدلا فهو لا يرضى بدوره بأقل من الجلاء، واذن فلينفى وليشرد حتى تلين قناته، وليشجع الأحرار الدستوريون لأنهم في ظن الانجليز أكثر اعتدالا ومرونة . ولكن الأحرار الدستوريين لم يكونوا أقل من غيرهم تمسكا بحقوق بلادهم في الاستقلال التام الكامل فرفضوا أن يسلموا بما خيل للانجليز أنهم سيسلمون به ، وقطع عدلي باشا المفاوضات وعاد الى مصر رافع الرأس لأنه لم يرض بالتسليم للانجليز والتفريط في حقوق البلاد ، فعل ذلك وهو الموصوف بالاعتدال وهو الذي ضرب بالطماطم والبيض عند عودته لما عزاه الناس اليه من التفريط والتهاون .

وهنا لم تر الانجليز مناصا من أن تجرب أسلوبا جديدا، فأعادت سعد زغلول من المنفى، ورفعته الى الحكم، ودعته للمفاوضة ظنا منها أن الحكم سيلين قناته .. فلما أصبح رئيسا للوزارة دعته الى لندرا وعرضت عليه ما تريده من مصر، وهو أقل بمراحل مما حصلت عليه فى معاهدة آخر الزمن ! فقد كان كل ما تصبو اليه انجلترا هو أن تضع بعض الجنود البريطانية فى شرق القنال، على أن تقدم لنا كل ما نطلبه من الضمانات والتعهدات حتى نأمن تدخل هذه القوة فى شئوننا، فرفض سعد زغلول بإباء وشمم، وقال قولته المشهورة « دعونا للانتحار فأبينا أن ننتحر » ثم شرح مطالب الانجليز وموقفه منها فى خطابه الذى ألقاه عقب عودته والذى قال فيه :

« انهم طالبونا أن تكون لهم قوة عسكرية فى أرض مصر على شرط الا تتدخل فى شئوننا، ولنا الحرية التامة فى أن نشترط ما نشاء من الشروط، ونطلب ما نريد من الضمانات لئلا تتمكن هذه القوة من التدخل فى شئوننا، فرفضنا رفضا باتا، لاننا نعلم أن وجود عسكرى واحد على الأرض المصرية مخل بالاستقلال . رفضنا ذلك وما أظن أن رفضى هذا عمل من الأعمال الجليلة، لأن الرجل لا يعتبر فاضلا ولا ذا عمل جليل بمجرد كونه امتنع عن خيانة وطنه » .

الفرق بين الامس واليوم

هذا هو كلام سعد، بل هو كلام كل مصرى، بل هو كلام أى وطنى فى الدنيا بأسرها، فهل فيه خفاء وهل فيه غموض ... وهل يعوزنا بعد ذلك أن نناقش وأن نحاجج كيما نقول بأعلى صوتنا ان معاهدة سنة ١٩٣٦ هى كارثة وطنية وجريمة لا تغتفر..

يقول سعد بل يقول كل مصري ان بقاء جندى واحد يهدم الاستقلال، فماذا تقولون فى معاهدة آخر الزمن التي تجعل الجندى الواحد عشرة آلاف والتي تجعل من مصر مطاراً للطائرات البريطانية، والتى تطلب من مصر أن تبنى لها ثكنات أشبه بالقلاع وأن تخط مدينة كاملة لتكون رمزاً للعبودية والاستعمار .

ماذا تقولون فى معاهدة آخر الزمن التى تحتم علينا أن نفتح لها طرقا، حتى يسهل عليها اخماد كل حركة واخفات أى صوت .

ماذا تقولون فى معاهدة آخر الزمن التى تطلب منا أن نصرف على الاحتلال وأن ندفع تكاليفه، وأن نخرب ماليتنا من أجل سواد عيونه .

ماذا تقولون فى معاهدة آخر الزمن التى تجعل للانجليز الحق اذا ما قامت أزمة دولية فى أن تحتل مصر من أقصاها الى أقصاها، وأن تستخدم مواصلاتها وأرضها وجوها، وأن تستغل كل مواردها وأن تفرض على الحكومة المصرية أن تعلن الأحكام العرفية، وتفرض الرقابة على الصحف والرسائل، أى أنه يكفى أن تقوم أزمة فى الشرق البعيدين روسيا واليابان لنرى جحافل الانجليز تسد علينا نور الشمس، وتسلبنا القوت والهواء، باسم الصداقة والتحالف .

واذا كان سعد زغلول قد قال عن ابقاء قوة في شرق القنال لأجل محدود انه انتحار ، فماذا كان يمكن أن يسمى هذا البلاء الذي قبله المفـــاوضون المصريون اليوم اذا كان الانجليز يجرأون على عرض مثل هذه المقترحات عليه ؟ .

واذا كان سعد زغلول ومن خلفه الأمة قد رفضت ذلك الانتحار فى سنة ١٩١٩ وفى سنة ١٩٢٤ ، فما الذى جعلها تقبله بعد ذلك ؟

هل تدهورنا الى الخلف فأصبحنا كالعبيد كلما امتد بنا الزمن رخصت قيمتنا .. أم هل عقمت أرحام النساء فلم تعد تنجب رجالا . أم هل أصيبت العقول بجنة ومرض .

ما الذي حل بنا وما الذى أصابنا فأقبلنـــا على الانتحار راضين مغتبطين مهللين مكبرين ؟!!

لا والله أيها السادة ، لم نرجع الى الوراء ولم ننهزم ، ولم تتقهقر مصر ، ولم تضعف ، ولم تتبدل السماء غير السماء ، والأرض غير الأرض ، ولـكن الذى تبدل م هؤلاء الساسة الذين نكصوا على اعقابهم ، فأنهكهم الاضطهاد ، فملوا وسئموا طول الطريق ...

لم تتبدل الأرض غير الأرض ، ولـكن الذى تبـدل م هؤلاء الذين كانوا شــبابا فأصبحوا شيوخا ، وعجزوا عن حمل الأمانة فاستـلموا ، ومن خلفهم جيش لم يصبه الوهن أو الـكلال .

نجاح الانجليز

وهكذا نجح الانجليز أخيرا ، وكالت مساعيهم بالفوز . فان جاز لأحد أن يضفر اكاليل الغـار على هامته فهم الانجليز ، وان جاز أن تقام أقواس النصر فى لنـدرا وليس فى القاهرة . وان كان هناك بطل فى هذه الصفقة فهو السـير مايلز لامبسون ، الذى اعاد فتح مصر لانجلترا .. ولـكنه هذه المرة فتح أبدي شرعى يتم وسط التصفيق والتهليل .

لقد كان الانجليز يطمعون فى رجل واحد ليوقع لهم المعاهدة باسم الأمة ، فجمع لهم مايلز لامبسون أحزاب الأمة بأسرها ماعدا الحزب الوطنى فى صعيد واحد . جمع لهم صدقي باشا مع محمد محمود مع عبد الفتاح يحيي مع الشمسي وعفيفى ، وعلى رأس هؤلاء بطل الوطنية ورمز الاستقلال النحاس باشا الزعيم الأمين!!

هؤلاء جميعاً ، ومن خلفهم مجلسا نواب وشـيوخ ، يوقعون على صك العبودية والذل الى الأبد ، فأى نجاح كهذا النجاح ، وأى فوز كهذا الفوز ! !

لقد فتح مايلز لامبسون كما قلت لـكم مصر ثانية من غير تـكاليف .. أستغفر الله بل بتـكاليف تدفعها مصر .

كيف وصلت الأمور الى هذا الحد .. كيف تدهورنا كل هذا التدهور . .

ابحثوا عن سر ذلك في هذه السـنوات الطويلة التى قضاها هؤلاء السـادة بعيداً عن كراسى الحـكم .

ثم ابحثوا عن سر ذلك ؟ تجدونه السبيل الوحيد لاستدامة الحكم فى المستقبل كما خيل لهؤلاء السادة .

بعض نصوص المعاهدة

ليس لى نيتى أن أستعرض معكم نصوص المعاهدة نصاً نصاً . . وأن نناقش ما فيها فان هذا يكون امتهانا لوطنيتكم وكرامتكم ، هذه الوطنية وتلك الكرامة التي ترى في وجود جندي أجنبي واحد اهدارا لاستقلال مصر .

ليس في نيتى أن أوقر أسماعكم بتفاصيل المخازى التى تملأ هذه المعاهدة ولكنى سأعرض عليكم مثلا من أمثلة الغفلة التي يراد وقوع الأمة فيها . . سأعرض عليكم مثلا من أمثلة التغرير بهذا الشعب المسكين . يقولون لكم اننا جئنا كم بمعاهدة أفضل بمراحل من معاهدة ١٩٣٠ ، ولست أريد أن أستعرض الفروق العديدة بين هذه المعاهدة ومعاهدة آخر الزمن وبين معاهدة سنة ١٩٣٠ ، لست أريد أن أطيل الحديث لأبين أن معاهدة سنة ١٩٣٠ ، لم يكن بها طرق ولا تكنات ، ولم يكن فيها احتلال الاسكندرية ، ولم يكن فيها احتلال جوى كأشنع احتلال يمكن أن يتصوره العقل ، فكل هذه تفاصيل تستطيعون الوقوف عليها بمجرد القاء نظرة على المعاهدتين ولكن تعالوا أضع أيديكم على نص صغير يختلف فى المعاهدتين ، ومع ذلك يترتب عليه جعل الاحتلال أبديا . فقد جاء فى مفاوضات سنة ١٩٢٠ فى المادة الخاصة بابقاء الجيوش الانجليزية فى مصر ما يأتى :

« بما أن قنال السويس الذى هو جزء لايتجزأ من مصر هو فى نفس الوقت طريق عالمى للمواصلات كما هو أيضا طريق أساسى للمواصلات بين الأجزاء المختلفة للامبراطورية البريطانية فالى أن يحين الوقت الذي يتفق فيه الطرفان المتعاقدان على أن الجيش المصرى أصبح فى حالة يستطيع معها بموارده الخاصة أن يصد هجوما على القنال حتى يصل مدد الحليف فان جلالة ملك مصر يرخص لصاحب الجلالة البريطانية بابقاء قوات بريطانية للدفاع عن القنال » .

فبقاء الجيوش البريطانية في مصر معلق بقدرة الجيش المصري على صد هجوم مفاجيء على القنال بموارده الخاصة المدة اللازمة لوصول مدد الحليف . . وقد أخبرني أحد الذين اشتركوا فى هذه المفاوضات أن هذه المدة التي يجب على الجيش المصرى فيها أن يدافع حتى يصل مدد الحليف قدرت بثمانية أيام ، وهو الزمن اللازم لوصول الجنود البريطانية من انجلترا . واذن فقد كان يكفى أن يصبح جيش مصر في حالة تمكنه من المقاومة لمدة ثمانية أيام حتى يخرج الانجليز من مصر ، أو بمعنى أصح يكفي أن يبلغ الجيش المصرى عشرين ألفاً من الجنود حتى يخرج الانجليز من مصر ، لأنهم لا يضعون لحماية القنال أكثر من عشرة آلاف جندي .

اسمعوا الآن ما هو النص الجديد في معاهدة آخر الزمن :

« بما أن قنال السويس الذى هو جزء لايتجزأ من مصر هو في نفس الوقت طريق عالمى للمواصلات كما هو أيضا طريق أساسى للمواصلات بين الأجزاء المختلفة للامبراطورية البريطانية . فالى أن يحين الوقت الذى يتفق فيه الطرفان المتعاقدان على أن الجيش المصرى أصبح فى حالة تستطيع معها أن يكفل بمفرده حرية الملاحة على القنال وسلامتها التامة يرخص الخ . . . »

أى أن الجيوش الانجليزية لا تخرج من مصر الا بعد أن يصبح الجيش المصرى قادرا على الدفاع عن مصر . والدفاع عن مصر ضد من ؟ . ضد ايطاليا لأنها هي الخطر الملحوظ في الوقت الحاضر ، ولما كان موسولينى قد صرح مرارا وتكرارا أنه يستطيع تجنيد ثمانية ملايين عسكرى في ساعتين ، ولما كان يستطيع أن يهاجم مصر بمليون عسكرى ، فان مصر لا يمكنها أن تقف أمام هذه القوة بأقل من مثلها ، أي بمليوني عسكري ولما كان من المستحيل أن تتوفر لمصر هذه القوة فى زمن السلم ، فقد أصبح من المستحيل بالتالي خروج الانجليز من مصر .

أنظروا أيها السادة شناعة هذا التغيير ، الذى حسبوا أن الأمة لن تفطن اليه ... أنظروا كيف تلاعبوا بالنصوص فحولوها من نصوص معقولة الى حد ما ، الى نصوص جائرة تفرض على مصر عبودية أبدية .

مغزى وجود العساكر الانجليزية

يقولون لنا ولماذا تهولون فى تفسير بقاء العساكر الانجليزية فى مصر ، وهى لم تعد جنود احتلال ، ولكنها جنود دولة حليفة . وهل قال الانجليز فى أى يوم من الأيام غير ذلك ، فيا للسخرية ويا للعبث ! !

واذن علام تبقى انجلترا هذه الجنود وتصرف عليها هذه المبالغ الطائلة ان لم يكن لاذلال مصر واحتلالها ! يقولون ان ذلك للدفاع عن قنال السويس ، ويجدون من المصريين البلاهة الكافية لتصديق ذلك ! اسمحوا لى أن أقول انه من البلاهة أن نصدق ذلك ، وأن يجوز علينا بعد خداع طال خمسين عاما . فان قنال السويس ان كانت مهددة بهجوم مفاجىء فسيكون ذلك عن طريق ايطاليا أو المانيا أو دولة من هذه الدول العظمى ، وقد رأينا كيف أن أى دولة من هذه الدول تستطيع أن تهاجم مصر بنصف مليون جندى على الأقل . فاذا كان الحال كذلك فهل يستطيع أى فرد فيكم أن يقول لى ماذا تساوى العشرة آلاف جندى انجليزى ازاء هذا الطوفان من الجنود المهاجمة تؤيدها بضعة مئات من الطائرات ؟ . ألا تشعرون معى أن هذه العشرة آلاف جندى ستكون ذبيحة لأول هجوم جدى مفاجىء من هذه الدول القوية ؟ ! انما يحتاج الدفاع عن قنال السويس فى أيام السلم الى مائة ألف جندى . أما اذا قامت الحرب

فلا أقل من مليون عسكري . سيقولون أن انجلترا سترسل هذا المليون اذا ما شبت الحرب أوشعرت بقرب وقوعها . فنقول لهم وما قيمة العشرة آلاف اذن بجانب المليون ما دام لامناص من ارسال هذا العدد الضخم من الجنود ابان الحرب، وما قيمة هذه العشرة آلاف جندي أيام السلم وهل توجد دولة واحدة فى الدنيا تضع جنوداً على أرض حليفتها أيام السلم ؟

الغرض الحقيقى من وضع الجنود

الحق أنهم لايبقون هذه الجنود للدفاع عن قنال السويس ، فهى لا تصلح لهذه الغاية ولكنهم يبقونها لغرض آخر تصلح له تماما أتعرفون ما هو ؟ أجل انكم تعرفونه هو احتلال مصر واذلالها ، وفرض ارادة الانجليز عليها ، واظهارها فى مظهر الدولة التابعة الذليلة . . واشعار الدنيا بأسرها أنها مستعمرة انجليزية .

عشرة آلاف جندى لا تصلح الا لشىء واحد ، وهو أن تكون عدة للسفير الانجليزى المتاز يعتد بها أمام الحكومة المصرية اذا فكرت فى أن تتجاهل وصاياه وارشاداته .

عشرة آلاف جندي تخيم على بعد ثلاث ساعات من العاصمة ، وأربعمائة طيارة مجهزة أقوى تجهيز يمكنها أن تصل الى أى جزء من أجزاء مصر فى أقل من ساعة ، وهى قادرة على أن تقلب المدائن رأسا على عقب يوم أن تفكر مصر فى أن ترفع رأسها كدولة مستقلة أمام الانجليز .

قارئ الطرق

أن اعوزكم الدليل على ذلك ... فدونكم هذه الطرق التى تشق مصر من مشرقها الى مغربها ومن شمالها الى جنوبها ، هذه الطرق التى جعلت شرطا أساسيا للجلاء عن القاهرة والاسكندرية ، ماذا تعنى وما هى أهميتها للدفاع عن مصر ضد المغير الأجنبي ؟. بل هي على العكس كما يقرر العسكريون سلاح ضد مصر ، وضد الدفاع عنها اذا ما سقطت ثغور مصر ، ووطأت أقدام المغير أرضها . . اذ تنقلب هذه الطرق أكبر مسهل لغزو مصر .

واذن فان انشاء الطرق ضد مصلحة الدفاع عن مصر من غير شك ، ولكنها فى الواقع موجهة ضد مصر ، فقد فكروا فيها لاخماد كل ثورة يمكن أن تشتعل فى أقصى الصعيد . . فهم يريدون أن يسيطروا على مصر بأسرها وهم فى قلاعهم على ضفاف القنال .

ولما كان سلاح الحروب الحديثة هو الطيران ... فليكن الاحتلال أتم وأظهر جويا ، واذن فلتنشىء لهم مصر المطارات فى كل بلد يريدونه ولتخصص لهم الحظائر وليطيروا أنى شاءوا ومتى أرادوا وكما يحلو لهم ..

فائدة انشاء الطرق فى افلاس مصر !!

على أن بناء الشكنات وانشاء الطرق لاتقف فوائده العظيمة المحتل عند هذا الحد، كلا، فان له فوائد مزدوجة . . بل فوائد لا تعد ولا تحصى ، ولا يمكن أن تستقصى ، كما يقولون . . اذ ينفع من ناحية أخري في تدمير الثروة المصرية ، وعرقلة النهوض وعدم امكان أى اصلاح واعداد .

سوف يبنون الشكنات بعشرة ملايين ، وسوف يشقون الطرق بما يزيد على العشرة الملايين ، وسوف ينشئون مطارات للسادة الانجليز تكلفنا بضعة ملايين أخري . . وسنكلف ببناء ثكنات جديدة للجيش المصري في السودان بعد أن احتلوا ثكناتنا القديمة ، وسوف يكلفنا هذا بضعة ملايين أخري ، وهذا هو الخراب المالى قبل أن نستفيد أية فائدة من الاستقلال المزعوم . يريد الانجليز أن يعيدوا التاريخ من جديد ، وأن يمثلوا مأساة الدمار المالى مرة أخرى . . وليس فيكم من يجهل ان انجلترا حاولت أن تغزو مصر بالقوة فى سنة ١٨٠٧ فأرسلت حملة الى مصر ، بقيادة فريزر يؤيدها أسطول انجلترا سيد البحار ، فما كان من مصر والمصريين الا أن طردوم وقذفوا بهم الي البحر .. وفى موقعة رشيد أبادوا الجيش الانجليزى عن بكرة أبيه ، ففر الانجليز مذعورين وأسرعوا الى سفنهم و بلادهم أذل ما يكون المهزومون . .

وكان ذلك درساً قاسياً للانجليز لم ينسوه مدى العمر ، تعلموا منه أن الشعب المصرى لايؤخذ قسرا . . فشرعوا يحيكون الدسائس للحصول ، عن طريقها ، على ما عجزوا عن الحصول عليه بالقوة فماذا فعلوا . .

لقد وقفوا بالمرصاد لمصر أيام محمد على . فلما وجدوا الامبراطورية المصرية قد تكونت . . لما وجدوا مصر قد أصبح لها جيش يزيد على ربع مليون مقاتل ووجدوا لها أسطولا يهز الأساطيل ، عند ما وجدوا مصر المنتصرة تنتقل من فتح الي فتح ومن نصر الى نصر ، أثاروا أوروبا بأسرها علينا ، وعقدوا حلفا لتحطيم مصر فتم لهم ما أرادوا ونجحوا فى سلب مصر حقوقها فى معاهدة لندرة سنة ١٨٤٠ ، ثم أخذوا بعد ذلك يزينون لاسماعيل باشا وسائل الاسراف ويلوحون له بالقروض تلو القروض . . حتى اذا كبلوا مصر بالديون أخذوا يضغطون عليها فى وحشية لا تمكنها من تنظيم شئونها ، وهكذا ساقوا مصر الي هاوية الافلاس..وهكذا دخلوا الي مصر فى ظل الافلاس والدسائس .

ويظهر لى أن انجلترا تريد بمعاهدة سنة ١٩٣٦ أن تكرر هذه المأساة بأن تدفع مصر الى صرف ثلاثين مليونا أو يزيد لتنفيذ المعاهدة . ونحن لا نكاد نعرف من أين نحضرها وليس شك فى أن ذلك لايمكن أن يكون الا رغبة فى افلاس مصر . .

والا فهل يستطيع هؤلاء الوطنيون العظام أن يقولوا لنا من أين سيجيئون بالمال .؟! يقولون انهم سيفرضون ضرائب جديدة .. وفضلا عن أن هذه الضرائب ستكون عبئا

جديدا على المصريين فهي لن تزيد قيمتها كما قدروها عن ثلاثة ملايين من الجنيهات على أقصى تقدير.. فماذا تفيد هذه الثلاثة الملايين ؟ واذا صرفناها لانشاء الثكنات والطرق فمن أين لنا المال اللازم لتكبير جيشنا وتزويده بالمعدات الحديثة الأمر الذى يحتاج الى عشرات الملايين .. واذا فرضنا واستطعنا أن نأخذ نصف الميزانية لهذا الغرض فماذا يكون مصير المشروعات العمرانية التى تحتاجها مصر ، والتى ينبغى القيام بها فوراً ، كاصلاح القرية ونشر التعليم وتكوين أسطول جوى وأسطول بحري تجاري .. وحربي؟! سيقولون ان هناك الاحتياطى تؤخذ منه هذه الأموال وكأنهم نسوا أن الاحتياطى لا يكاد يكفي لشيء من هذا كله ومع ذلك فقد أصبح هذا الاحتياطى أساساً من أسس المالية في مصر فأصبح المساس به يعرضها لهزة عنيفة قد لا تسلم منها أبداً .

واذن فليس أمام الحكومة المصرية الا مايشيعونه من ضرورة عقد قرض ، أو أن يمد مشروع قنال السويس لخمسين سنة جديدة فى مقابل مبلغ من المال . هذا المشروع الذى رفضته مصر منذ سنوات بأباء وشمم. اذ كل من القرض ومد امتياز قنال السويس نكبة لا تعد لها نكبة .

وهكذا ترون أيها السادة أن مصر لا توجد بها الأموال اللازمة لتنفيذ المعاهدة ، وان وجدت بها فان هذا يكون معناه تعطيل باقي مرافق الدولة فلا ينالها الاصلاح . فهل فكر هؤلاء الساسة الكبار ، هل فكر هؤلاء الذين عقدت لهم ألوية النصر، في هذه الكارثة المالية التى ستحل بمصر من جراء المعاهدة . .

لقد كانت هناك مشاريع حيوية لكل مصر مثل مشروع اصلاح القرية المصرية ورفاهية الفلاح . فوقف هذا المشروع ، وغيره ، لعدم وجود المال اللازم . وسيظل الفلاحون المصريون يشربون السم الناقع ويعيشون مع البهائم ، سيظل الفلاحون المصريون يكدون ويشقون كيما تبقى ثكنات جيش الاحتلال تزدان بالمسارح والملاهى ، وكل مظاهر الترف والنعيم . !

لقد كنا نفهم أيها السادة أن الانجليز تحتلنا بالقوة رغم أنوفنا ، ولكننا لم نتصور مطلقاً أن ستأتى الساعة التى نبنى فيها لجيوش الاحتلال ثكنات وطرقا ، ونحن نعرف أن ذلك يدفع بنا نحو الخراب . . لم نكن نتصور أن هناك مصريا واحداً سيقدم على ذلك فى يوم من الأيام أو يوافق عليه .

يقول البعض ان مصر اذا كانت قد خسرت فى النقطة العسكرية ، فقد كسبت فى نقط أخرى ، ويخيل لهم أنهم ماداموا قد سموا الاحتلال بالنقطة العسكرية فقد جعلوه هينا بسيطا تافها ، كما يبدو من التسمية .. وأعنى بها كلمة « النقطة » .

ولكنها نقطة أيها السادة أشبه بهذه التى تقع على العين فتحيل نورها ظلاما . . أو هى نقطة كتلك التى تقع على الانسان فتسرع به الى القبر .

النقطة العسكرية هى كل القضية المصرية ولا يوجد بين مصر وانجلترا سوى هذه النقطة، لأنها الاحتلال ، الذى عملت له انجلترا دائما أبداً . فهذه المعاهدة تمكن انجلترا

من أن تظل محتلة مصر احتلالا أبديا ، وهي بعد ذلك ترعي مصالح انجلترا الاقتصادية ، وماذا يريد الانجليز أكثر من ذلك ؟ وما الذى نكون قد ظفرنا به . بعد ذلك؟ يقولون لنا ظفرنا بالسودان ، فلنر ماذا فعلوا بالسودان .

السودان

أجل من حقنا أن نتساءل بعد ذلك كله ، وماذا فعلت المعاهدة بالسودان ، ماذا فعلت بقلب مصر النابض وينبوع حياتها . ماذا فعلت بالسودان الذى فتحناه بدمائنا وأموالنا ، والذى يسكنه شعب هو من أفراد شعبنا يدين بديننا ، ويتحدث بلغتنا ، ويحس باحساساتنا ؟ ماذا فعلوا بالسودان الذى تدخل الانجليز في ادارته معنا بمعاهدتى سنة ١٨٩٩ ، فاعتبرنا ذلك اجراما ما بعده اجرام . ولم يوجد وزير واحد بعد ابرام هاتين المعاهدتين رضى أن يعترف بهما أو يرضى عنهما .

يقول النحاس باشا فى كتابه الأخضر عن مفاوضات سنة ١٩٣٠ والذى أصدره فى هذه الأيام فى صفحة ٣٣ ، للمستر هندرسون فى صدد الحديث عن السودان :

« ان كل ما نريده هو عدم الاشارة الى معاهدتى سنة ١٨٩٩ لأنهما ممقوتتان فى مصر كل المقت . »

هذا هو موقف مصر من السودان ، وهذا هو موقف النحاس باشا نفسه من السودان فهو لا يرضى عن الاشارة الى معاهدتى سنة ١٨٩٩ ، لأنهما ممقوتتان كل المقت فى مصر .

فماذا فعلت معاهدة آخر الزمن بالسودان؟ أتعرفون ماذا فعلت .. لقد جعلت اتفاقيى سنة ١٨٩٩ مثلا أعلى وحلما من الأحلام ، وفرضت علينا أن نحترم الأمر الواقع .. والأمر الواقع هو أن السودان من ممتلكات انجلترا يديره موظف انجليزى هو حاكم السودان . . على أن معاهدة آخر الزمن كى تسخر منا سمحت أن يكون سكرتير هذا الحاكم مصريا ، وأن يسمح لمفتش الرى بحضور مجلس الحاكم حينما يعرض على المجلس مسألة تخص الرى . .

الله .. الله .. وهذا هو كل مالنا فى السودان .

« وقالوا لنا سيعود الجيش المصرى الى السودان ، ولكن هل تعرفون سيعود على أى شكل ؟ سيعود على اعتباره فرقة فى الجيش الانجليزى تخضع لحاكم السودان . وان كنتم تعجبون لشىء فاعجبوا لهذه الأمة التى ترسل أبناءها ليكونوا تحت امرة رجل أجنبي يتصرف فيهم كما يريد وكما يحلو له . . واعادة انجلترا الجيش المصرى الى السودان كيما يرابط على الحدود الحبشية فاذا بدأ الطليان فى الاغارة على السودان كان أبناء مصر هم أول من يتلقون الصدمة . وأول من يموتون دفاعا عن السودان ، اذا فكر الايطاليون فى الاغارة عليه .

هذا هو سر ارسال الجيش بهذه الطريقة العجيبة التى لم نسمع بها من قبل ، وأعنى بها وضع الجيش المصري تحت امرة موظف انجليزى .. ولقد أرادوا بهذا أن يقطعوا كل صلة بين جيش مصر فى السودان وبين وزير الحربية . وهكذا يستطيع حاكم السودان اذا لزم الأمر أن يأمر جيش مصر بالعدوان على السودان ، أو المصريين أنفسهم ، فان فكروا فى الاحتجاج أو الامتناع كانوا عصاة متمردين يرمون بالرصاص .

فاضحكوا ، اضحكوا أيها المصريون على مامنحتموه فى السودان بل اضحكوا أكثر، فان المهزلة لم تتم فصولا ! فقد سمح لكم أن تهاجروا وأن تتملكوا فى السودان مثل الانجليز سواء بسواء . الله أكبر ! أيها المصريون .. يجب أن تطربوا لأنه قد سمح لكم بأن تتملكوا فى السودان مثل الانجليز .

أيها السادة .. ان الألم يحز فى نفسى حزاً فلا أستطيع مواصلة الكلام فى موضوع السودان ، فان الخطب أجل من أن يوصف أو يتحدث عنه . لقد أصبح المصريون خداما للانجليز فى السودان ، وأصبح السودان بموجب هذه المعاهدة ملكا للانجليز ، فلا حول ولا قوة الا بالله !!

الامتيازات

أما عن الامتيازات فيقولون سامحهم الله : ان مصر قد كسبت فيها كسباً كبيراً ولكن أرجو ان تسمحوا لى أن أقول لكم ان هؤلاء الذين يظنون هذا الظن لايمكن الا أن يكونوا ضعفاء الثقة بأنفسهم وبيلادهم .. ومن هنا فهم يرون أن تعديل ماتحن فيه من ذل كسب عظيم مابعده كسب .. هؤلاء الذين يخيل لهم أن هذه المعاهدة قد فعلت شيئا فى مسألة الامتيازات هم هؤلاء الذين ينظرون الى الاجانب نظرة الوضيع للرفيع ، والصغير للعظيم .. والا فأى انسان مكتمل الوطنية والايمان بوطنه يرضى أن يكون الأجنبي فى بلاده أرفع منه درجات ، أى مصرى يعرف قدر نفسه يرضى أن يكون للأجانب محاكم مختلطة الى أجل غير مسمى .. وكيف نرضى أن نساوم الدول وأن نرجوها أن تتنازل عن بعض امتيازاتها فتحولها الى المحاكم المختلطة . هذه المحاكم التى رأيتم كيف أنها تمتهن لغتنا وتمتهن كرامتنا ، فضلا عن أنها محاكم أجنبية تعمل لصالح الأجنبي ، من الذى يرضى بهذا الحل فى الامتيازات الا المستضعفين والذين لا يعرفون لوطنهم ماينبغى له من احترام وتقدير .

يقولون ان هذه المعاهدة هى معاهدة الشرف والاستقلال ، فلما قلنا لهم وكيف توفقون بين الاستقلال وجيش الاحتلال ، قالوا لنا : ان هذه جيوش دولة حليفة !!

فلنسائلهم هذه المرة وكيف توفقون بين الاستقلال ، وبين وجود محاكم مختلطة، نسائلهم أرونا دولة واحدة فى الدنيا بأسرها توجد فيها محاكم يجلس فيها قضاة أجانب ليحكموا على الوطنيين الا فى مصر ، بلد العجائب . كنا نتوقع أيها السادة الغاء هذه

المحاكم ، والغاء الامتيازات الأجنبية ، منذ أمد بعيد فاذا بهذه المعاهدة توطد أركان المحاكم المختلطة الى مدة من الزمن معقولة غير ممدودة ، وأرجو أن تضحكوا معى من هذه التعبيرات التى لايمكنكم أن تعثروا عليها فى أى معاهدة من معاهدات العالم . ولكنكم تجدونها فى معاهدة آخر الزمن لأنها معاهدة الشرف والاستقلال . مدة معقولة غير ممدودة ، وكم تساوى معقولة هذه من الزمن ، من الذي يحدد هذه المعقولية . من الذى قال لهم ان مصر ترضى أن تحيي في ظل المحاكم المختلطة سنة واحدة ، بل يوما واحداً ، تصوروا أيها السادة أن الأجانب فى كل بلاد العالم يتمتعون بحقوق أقل مما يتمتع بها أصحاب البلد الأصليين . . أما فى مصر فان وثيقة شرفها واستقلالها تسجل عليها أن يبقى المصريون أذلة بالقياس الى الأجانب . .

ان الامتيازات يجب أن تلغى بجرة قلم ، وحالا . والمحاكم المختلطة يجب أن تلغى بجرة قلم ، وحالا . فاذا كانت معاهدة آخر الزمن تبقى على الامتيازات والمحاكم المختلطة فما ذلك الا لأنها تريد أن تظل مصر ناقصة السيادة ، وأن يظل العالم ينظر الى مصر نظرته الي دولة غير متحضرة ، تعيش فى ظل الانجليز والأجانب .

ملخص

واذن فان هذه المعاهدة أيها السادة تسجل الاحتلال وتجعله مشروعاً بعد أن كان غصباً ، ونحن مضطرون نتيجة لهذا التحول أن ندفع تكاليف الاحتلال ونفقاته ، ونثبت دعائمه بانشاء الطرق والثكنات والمطارات . وهذه المعاهدة قد حولت السودان الي مستعمرة انجليزية ، وأضاعت علينا حقنا فى الغاء الامتيازات بجرة قلم . واذن فكل دفاع عن المعاهدة وكل ادعاء بأنها حققت لمصر استقلالها ، وأنها معاهدة الشرف ، هو ادعاء باطل لا أساس له .. وعلى هؤلاء الذين توجوا جهادهم بهذه المعاهدة المشوهة أن يعتزلوا السياسة ، وأن يقبعوا فى عقر دارهم . لقد طال مانادوا فى هذه الأمة أنهم سيحصلون لها على استقلالها التام أو الموت الزؤام . لقد طال ماقالوا للأمة الاستقلال التام لمصر والسودان ، ولم تتردد الأمة تبعاً لذلك أن تمنحهم ثقتها التي لاحد لها وها هى جهودهم تتمخض عن هذه المعاهدة .

واذن فليفسحوا الطريق للشباب. وليفسحوا الطريق للجهود الجديدة ، والكفاح الجديد . أما اذا حاولوا أن يعترضوا طريقنا وأن يخفتوا أصواتنا ، وأن يصادروا جهودنا ، فان جنايتهم على الامة تكون جناية مضاعفة . وعندها فسنقاومهم بكل مالدينا من وسائل ، وسوف ننتصر عليهم من غير شك باذن الله .

معاهدة باطلة

أما موقفنا الآن بالنسبة للمعاهدة فهو انا لانعترف بصحتها أو مشروعيتها ، فهى معاهدة باطلة ، سواء قبلها البرلمان أو لم يقبلها . . فان قبول البرلمان لمثل هذه المعاهدة

لا يقدم ولا يؤخر ، ولا يمكن أن يؤثر على سيادة الأمة بأى حال من الأحوال ، فان مجلس النواب لايجوز له أن يتنازل عن أى حق من حقوق مصر ، ولا أن يبرم اتفاقات من شأنها المساس لسيادة مصر . فما بالكم وهذه المعاهدة تتنازل عن مصر بأسرها للانجليز ، وتحطم بسيادة مصر الي الأبد . . فاذا وافق البرلمان على هذه المعاهدة فهى موافقة من لايملك هذا الحق ، وهى موافقة لاتقيد الا أشخاص الوزراء والنواب ، أما باقى الأمة فسوف تعرف كيف تتحرر من هذه المعاهدة وتمزقها .

نحن والسير مايلز لامبسون

ويحضرنى الآن موقف كان بينى وبين السير مايلز لامبسون بمناسبة المفاوضات التى تمخضت عن هذه المعاهدة ، ولاشك أنكم تذكرون أن المحادثات كانت قد طالت واستغرقت عدة أشهر ، وأخذ مايتسرب عنها من الأنباء لايدل الا على أنها ستصل الى هذه النتيجة السيئة التى وصلت اليها . فبادرت بارسال خطاب الى السير مايلز لامبسون احذره فيه من ضرر المراوغة ، وألفت نظره الى أن الشيوخ أصبحوا لا يمثلون روح الأمة تمثيلا حقيقياً ، وأن الجيل الجديد أصبح لا يرضى بأقل من الاستقلال التام لمصر والسودان ، وأن أى اتفاق لا يحقق هذه الآمال فهو اتفاق يرفضه الشباب وترفضه الأمة . . . وأنه ليس يكفى أن يوقع دولة النحاس باشا ومن معه هذه المعاهدة كيما ترضى الأمة بأسرها ، ذلك أن النحاس باشا ومن معه لا يستمد قوته الا بمقدار ما يترجم عن ارادة مصر القوية الشابة المتجددة ، فاذا فشل النحاس باشا فى ترجمة هذه الارادة فان المعاهدة التي سيوقعونها لا تقيد أحدا فى مصر ، الا هؤلاء الذين وقعوها ، أما من عدام فانهم براء من هذه المعاهدة .

وقد غضب السير مايلز لامبسون غضبا شديدا ، أو غضبت معه كل دار المندوب السامي ، كيف يجرؤ احمد حسين على أن يرسل هذا الخطاب . فأوفدوا المستر سمارت لمقابلة دولة على باشا ماهر ، بالرغم من ان جلالة الملك فؤاد كان قد توفى يومها الى رحمة الله ، فى هذا اليوم العصيب ذهب المستر سمارت ليلفت نظر دولة ماهر باشا لهذا الخطاب ويعلنه بعدم رضاء الدار . .

ولكن دولة ماهر باشا فضلا عن انه كان مشغولا بالحوادث الجسام ، والتي كانت حاسمة فى تاريخ مصر ، ما كان يمكنه وهو الذى عرف بالوطنية والنزاهة أن يؤثر على تصرفات مصر الفتاة بأى شكل من الأشكال ..

ثم انتهت مدة الوزارة الماهرية بعد أيام قليلة من هذه الشكوى ، وجاءت الوزارة الوفدية وبدأت معها اضطهادات مصر الفتاة ، التى أريد بها اخماد انفاسها عقابا لها على هذا الخطاب .

ولكن السير مايلز لامبسون لو كان ممن يحبون الصراحة لوجب أن يطرب لهذا الخطاب ، فها هو دولة النحاس باشا ومعه كل رؤساء الاحزاب قد وقعوا على معاهدة آخر الزمن ، فاذا بها معاهدة لا ترضى مصر الهرمة فضلا عن مصر الفتاة .

واليوم أروني مصريا واحدا يعرف تفاصيل هذه المعاهدة ويرضى بهـا ، أجل انكم تسمعون تصفيقا ، وتسمعون سفسطة من بعض الأشخاص ، ولـكنى أقسم لـكم أن كل مصري سليم يدافع عن المعاهدة فهو لم يطالع نصوصها ، ولم يقف على محتوياتها ، والا فانه يوم يفعل ذلك لا يستطيع أن يتمالك نفسه من الغضب والحنق على المعاهدة . فالذين يروجون للمعاهدة انما يستغلون جهل الجمهور وسذاجته ولـكن بقى أن نتساءل الى كم من الزمن يمكن أن يستمر هذه التمويه وهـذا الاستغلال ؟!. أجل قد يستمر شهرا وقد يستمر شهرين ، وقد يستمر أكثر من ذلك ، ولـكن غداً عند ما يرى أحوالهم تنتقل من سيء الى اسوأ ، عند ما يقولون لهم سنشرع فى تنفيذ المعاهدة فلا يرون بعدها الا ثكنات تبنى ، وطرقا تشق وملايين من الجنيهات تصرف لتوطيد دعائم الاحتلال ، فهلا تظنوا أن المصريين سيبقون بعد ذلك يطربون للمعاهدة أيضاً ... اؤكد لـكم أن هذا لن يكون ...

واذن فسوف تفتح الأمة أعينها عما قريب وعندها يعلم كل مصرى أننـا لم نكن نتجنى عليه يوم أن اظهرناه على ما فى هذه المعـاهدة من نكبات . . . عندما تعرف انجلترا أننا لم نتجن عليها يوم ان أنذرناها بأن كل معاهدة لا تحقق أمانى الأمة كاملة فهى لا تساوى الحبر أو الورق الذى كتبت عليه ، لأن الانجليز اذا كانوا قد خيل اليهم أنهم قد فرغوا من المسألة المصرية بتوقيع المعاهدة ، فسيرون انهم جد خاطئين ، وان المسألة المصرية سوف تصبح أشد قوة مما كانت قبل المعاهدة .

وسوف يغضب الانجليز علينا عند ما يسمعون بنبـأ اجتماعنـا هذا ، وما قيل فيه ولـكنهم لو أرادوا مجابهة الحقـائق لوجب عليهم أن يشكرونا لانا ندلهم على الحقائق التى لا يمكن اخفاؤها ، فهذه المعاهدة سواء وقعها البرلمان أو لم يوقعها فهي معاهدة باطلة .. لأنها تسلب سيادة مصر ، وتفرض عليها احتلالا .. والقانون الدولى لا يعترف بهذه المعاهدة التى تمس سيادة الأمم . لأنها تكون قد تمت تحت الاكراه أو الغش ، وكلا الأمرين مفسد للرضـا وبالتالى لصحة العقود.

الطريق الصحيح للاستقلال

واذن أيها السـادة فعلينا أن نعد أنفسنا للطريق الصحيح للاسـتقلال ، والطريق الصحيح للاستقلال هو أن يصبح الشعب قويا ، وهذا هو ما نادت به مصر الفتاة منذ اللحظة الأولى . لقد نادينا دائما أبدا أن الحياة ارث القوى ، وأن المسـتقبل للشعب الظافر ، وأن لاحياة للضعيف . فلا المعاهدات ولا القوانين بكافية لحماية الضعيف ، ومن كان يعوزه الدليـل فهذه هي الحبشة وقضيتها لا تزال ماثلة فى الأذهان ، لم يغنها تأييد العالم بأسره أمام القوة ، فعلى هؤلاء الذين يخيل لهم أن الاستقلال يمـكن أن يـكون

نتيجة للمفاوضات وأن يتم عن طريق المعاهدات ، على هذا النفر من المصريين أن يفسحوا الطريق لمن هم أكثر علما بحقائق الأشياء منهم ، ومن هم أكثر استعداداً للكفاح منهم .

لا كرامة لنا الا اذا كانت لنا عدة ، وكانت لنا قوة ، وهذه العدة نستطيع أن نخلقها رغم أنف الغاصب ، اذا ما نظم الشباب صفوفه تنظيماً عسكريا ، وأخذ نفسه على الخشونة والتقشف والرجولة .

وهذا هو برنامج مصر الفتاة فنحن الذين نعمل لنشر الروح العسكرية ولمحاربة الضعف والتخنث والخور .. نحن الذين نعمل لتنظيم الشباب فى جماعات شبه عسكرية ، يربطها رباط المبدأ والعقيدة ، وكيف تحتمل فى سبيل مثلها الأعلى كل تضحية وعناء ..

نحن الذين نادينا وعملنا لجعل الشباب قوى الجسد عن طريق الرياضة والعسكرية .. وقوي الروح عن طريق التطهر والتدين .. نادينا بذلك وعملنا له فابتكرنا القميص الأخضر ليكون شعاراً للمجد والجهاد ..

ابتكرنا القميص الأخضر ، أو ألهمنا الله اياه لتتمثل فيه كل آمال الأمة وكرامتها ، كل عزها ومجدها .. فطلعوا علينا بالقميص الأزرق ، الذى تحول سريعا ليكون أداة من أدوات الطغيان والارهاب ..

وهكذا انحرفوا بالفكرة . فبعد أن كان التنظيم موجها لتحرير مصر ، ولخدمة قضيتها ؟ أصبح موجهاً للاعتداء على المصريين وارهابهم ... وبعد أن كان الأصل فى المجاهد ، أن يكون مثلا أعلى للاخلاق والرجولة والتفاني فى خدمة أبناء وطنه ، أصبح عكس ذلك .. وهذا ما يجعلنا أشد حرصا على أداء رسالتنا والتمسك بقميصنا .. هذا ما يجعلنا أشد ايمانا بأن النصر لنا في نهاية الأمر .. وليست تخيفنا هذه الجموع الزرقاء فهى جموع تعيش الآن فى كنف الحكومة ورعايتها ، وقد أصبحت ملجأ لكل غير ذى حرفة ، ولكل من يرغب في الاختفاء عن عين البوليس ..

ليست تخيفنا هذه الجموع الزرقاء ، فانها سريعة الزوال ، فلا مبدأ لها ولا عقيدة ولا رسالة ، فهى اذا ما قورنت بالقميص الاخضر فانها تكون أشبه شيء بمعاهدة آخر الزمن ، اذا ما قورنت بالاستقلال الصحيح ..

أن طريقتى فى الكفاح أيها السادة ، أن أعطى خصومى دائما فرصة ليثبتوا فيها جدارتهم ولذلك فقد أعطيت الوفد والحكومة فرصة طويلة للقيام بأعباء الأقمصة الزرقاء ، فاذا بهم قد انتهوا الى هذه النتيجة التي بينتها لكم والتى يعرفها كل مصرى ، وهى أن الأقمصة الزرقاء قد أصبحت عبئا على الناس وعبئا على النظام وعبئا على القانون ، واذن فقد أصبح وجود الأقمصة الخضراء وانتشارها أكثر لزوما من ذى قبل ، حتى لا تشوه الفكرة ، وحتى يوجد التوازن بين هذه القوى التي لا ضابط لها ، وقوة أخرى لها ألف ضابط وضابط .. ضابط من العقيدة .. وضابط من الثقافة .. وضابط من شرف الغاية .. وضابط من الدين ..

سوف نشرع فى تنظيم صفوف الأقصة الخضراء ، بعد اذ فشلت الأقصة الزرقاء . . وسوف تقاومنا الحكومة ، ولن نجد المال الذى يتوفر لدى الحكومة ، ولن نجد البوليس وكل موظفى الدولة فى خدمتنا ، ولكنا مع ذلك سنقوى وننتصر ، لأن سيدنا هو الله ، ومن كان الله سيده فالعبد لا يرهبه .

وسوف ترون غداً أيها السادة عندما تستيقظ الأمة وتنتصر مصر الفتاة ، سوف ترون كيف نحصل على الاستقلال الصحيح لمصر والسودان ، كيف نؤلف الحلف العربي ونتزعم الاسلام . .

سترون كيف نرتقي بالأخلاق ، ونعيد للدين قدسيته ، لأن محور جهادنا هو الدين . انا من المؤمنين بأن من ينصر الله ينصره ، ومن يخذل الله يخذله .. وان مانعيش فيه من ذل ، انما هو لتركنا الله والدين ، فقد قال الله وهو أصدق القائلين : « ان الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

سوف ترون أيها السادة عندما تنتصر مبادىء مصر الفتاة مبادئ الفضيلة والوطنية ، كيف تنتشر العدالة الحقيقية والحرية والمساواة .

سترون كيف ينتشر الرضا فلا يصبح هناك عامل متعطل ولا فقير واحد .

سترون كيف يقضى على المحسوبية ، والرشوة والوساطة ، وكيف لا يلى المناصب الا الاكفاء .

سترون كيف يصبح الفلاح عاملا منتجا ، يعيش كما يعيش الناس . وفي كلمة أيها السادة عندما تنتصر مصر الفتاة سترون مصر جديدة تهز العالمين وتقود الدنيا الى عصر جديد من النور والسلام تحت لواء الاسلام . .

والي أن يتم ذلك فانى أدعو طبقات الشعب جميعا أن يؤمنوا بوطنهم وأن يثقوا بأنفسهم أدعوكم جميعا الى تشجيع كل ماهو مصرى فقط ومقاطعة كل ماهو أجنبي .. أدعوكم الى طعام بلادكم وملابس بلادكم ، اعتزوا بمصريتكم واحتقروا كل ماهو أجنبي وطهروا أنفسكم من الأرجاس ، وحاربوا الشهوات .

وبهذا ، بهذا فقط سوف نسرع نحو غايتنا ، وسوف نحقق رسالتنا . . هذه هى مصر الفتاة أيها السادة لاعدة لها الا الله سبحانه وتعالي ، فهو رأس مالنا ، وهو سلاحنا ، وهو كل شيء بالنسبة لنا ومن أجل هذا فن أجل هذا فنحن لانهاب ولانخاف ، يقولون أن طريقنا طويل وانه ملىء بالصعاب ولكن مانسعى لبلوغه جدير بكل ثمن وجدير بكل تضحية ، انى أعلن هنا بأعلى صوت أن مصر الفتاة تنتقل من نصر الى نصر ولن يهزمها بطش حكومة ولا تعسف المتعسفين ، ان روحنا تسرى فى كل مكان ، وسوف ننتصر بأذن الله ، وعندها يفرح المخلصون . .

والله أكبر . . .

وبعـــد . . .

وبعد : فقد رأيت أن أقف عند هذا القدر من تاريخ كفاح مصر الفتاة تاركا بقية الكتاب إلى أجزاء أخرى تصدر فيما بعد ، فلا نزال أمامنا عشر سنوات من الكفاح المتصل الشاق المليء بكل صنوف التضحيات والمعارك الرهيبة بين الحق والباطل ، كم من محنة تعرضت لها مصر الفتاة ، كم من الاتهامات الخطيرة التي أريد بها العصف بمصر الفتاة قد وجهت إليها ، ثم لم تلبث أن ارتدت مهزومة مدحورة ، كم من مرة فتحت أبواب السجون وفتلت أحبال المشانق للقضاء علي ، ووضع حد لحياتي وجهادي ، ولكن الله الذي يعرف ما في قلبي من إخلاص وصدق أنجاني من ذلك كله ، وأخرجني من كل ضيق ومن كل مأزق ، رافع الرأس موفور الكرامة لأواصل كفاحي ضد الغاصب الأجنبي .

وكانت أول محنة وأكبر محنة صادفناها في هذه الفترة ، عندما أطلق عز الدين عبد القادر الرصاص على رفعة النحاس باشا في نوفمبر سنة ١٩٣٧ ، فقد كان هذا الحادث سبيلا لاضطهاد مصر الفتاة بالجملة اضطهادا لا مثيل له من قبل ، فزج بكل من تسامع البوليس عن انتمائه إلى مصر الفتاة في السجن من الاسكندرية حتى أسوان . فغصت السجون بأعضاء مصر الفتاة ، وسارت المظاهرات في الشوارع تهتف بسقوط مصر الفتاة ، وبوجوب القضاء عليها ، وشنق المجرمين ، وكنا نقيم في « الزنازين » التي لم تكن تفتح علينا إلا بضع دقائق في كل نهـار ، ولقد كانت ملحمة من أكبر الملاحم ، لم يكن لي سلاح فيها إلا الصوم والصلاة والابتهال إلى الله بالليل والنهار ، فلم تلبث حكومة النحاس باشا أن أقيلت ، ولم تلبث أبواب السجون أن فتحت لنا ، ولم يلبث التحقيق النزيه أن أسفر عن براءتنا الناصعة ، وعادت مصر الفتاة إلى الحياة والحركة ، أكثر نشاطا وأوفر عدة وعددا ، مما كانت في أي يوم من الأيام .

على أن الاصطدام بين مصر الفتاة وبين الحكومة الجديدة ، حكومة محمد باشا محمود ، لم يلبث أن تجدد بالرغم من الصداقة التى كانت تربطنا بمحمد باشا محمود ، فقد أصدرت الحكومة قانوناً يحظر ارتداء الأقمصة الملونة فترتب على ذلك حل الأقمصة الخضراء ، التي كان يتمثل فيها كل روعة مصر الفتاة وجهادها وإيمانها وتضحياتها .

ورفض محمد باشا محمود أن يجرى تعديلا فى قانون الانتخاب بحيث نستطيع أن نتقدم للانتخابات بالرغم من أن سننا لم يبلغ الثلاثين ، وهو النصاب الذى يشترطه القانون الحالى ، وبذلك حرمنا جميعا من الاشتراك فى هذه المعركة الانتخابية على الرغم من أننا كنا العنصر الحى الفعال فى السياسة المصرية . على أن ذلك كله لم يكن هو الذى باعد بيننا وبين وزارة محمد باشا محمود ، بل لقد باعد بيننا وبينه أنه لم ينفذ حرفا واحداً مما كان يدعو إليه وهو فى المعارضة وماحاربنا الوفد من أجله ، فلم يكن باستطاعتنا أن نجاريه أو نؤيده لشخصه ، ولعل القارىء لهذا الكتاب قد أدرك أنه لم يكن بيننا وبين الوفد خصومة شخصية ، وإنما كان خلافنا على المبادىء ، وهذا الخلاف نفسه هو الذى وقع بيننا وبين محمد باشا محمود ، فبينما كنا نريد إصلاحا عاجلا وسريعاً يقلب البلاد رأساً على عقب ، كان محمد باشا محمود ككل رجال الجيل القديم ، لايبذل جهداً في سبيل هذا الاصلاح .

وسافرت إلى أوربا مرة ثانية ، وزرت هذه المرة ايطاليا وألمانيا وتشيكوسلوفاكيا وانجلترا ، وقمت في هذه الأخيرة بدعاية واسعة النطاق لتعديل المعاهدة ، وقد نجحت فى رحلتي هذه بأضعاف أضعاف ما نجحت فى رحلتى الأولى ، ولقد تعدلت نصوص المعاهدة الخاصة بموضوع الثكنات ومقدار النفقات التي يتحملها كل من الجانبين ، وقد كان التعديل الذى تم على يد محمد باشا محمود تافها ولاخطورة فيه ، ولكن أهمية التعديل كانت من حيث المبدأ ، فقد كانوا يقولون إن هذه المعاهدة لا يمكن أن

تتغير أو يتبدل حرف منهـا قبل عشرين سنة ، ولكننا استطعنا بكفاحنا وجهادنا أن نحمل الحكومة على المطالبة بتعديل هذه المعاهدة بعد عام واحد من توقيعها ، فهدمنا بذلك قدسيتها والخرافة القائلة بأنها نهائية ، وأنها كاملة.

وفي ايطاليـا نظم لى برنامج استقبال حافل ، وكذلك فى المانيـا وتشيكوسلوفاكيا . وعدت إلى مصر ، فأقيمت احتفالات ضخمة ألقيت فيها خطبا عن مشاهداتى ومجهوداتي في أوربا ، وبدأت أضغط في خطبي ودعاياتى الى وجوب إنصاف العامل والفلاح ورفع مستوى معيشتهما ، بما يتفق مع ما وصل اليه العالم من تطور .

وكان محمد باشا محمود قد أدخل السعديين فى وزارته ، وكان النقراشى باشا وزير الداخلية ، والنقراشى باشا رجل يحقد على مصر الفتاة حقدا عجيبا لا تفسير له إلا أن تكون نفس ذلك الرجل تنطوى على نفسية معينة . وقد كان صراع وكان صــدام عنيف بيننا وبين النقراشى ، وقبض على عشرات من أعضاء الحزب ، وعلى رأسهم الدكتور مصطفى الوكيل ، بتهمة محاولة اغتياله ، ولكن النيـابة لم تلبث أن أطلقت سراحهم ، وفى هذه الفترة زرت السودان لأول مرة ، فكانت رحلة موفقة كل التوفيق تركت أثرها العميق فى نفسى ونفس السودانيين ، وعدت من السودان لأرى النقراشى باشا وقد أعد لنا سلسلة من المحاكمات الخطيرة ، وعلى رأسها الاتهام بمحاولة قلب نظـام الحكم بالقوة ، وكان الحزب فى ذلك الوقت يدعو لعقد مؤتمر عظيم كأعظم ماشهدت هذه البلاد من مؤتمرات سياسية ، فقد دعي اليه خمسون الفا ، وانفقت مبالغ ضخمة على الاستعداد لعقده ، ولكن النقراشى باشا الذي كان قد وافق على عقده أولا ، عاد فسحب موافقته ومنع الاجتماع ، وزج بنا فى السجون من جديد بدلا من ذلك ...

وفى هذا الوقت قام أعضاء مصر الفتاة في جميع أنحاء مصر بحركات ضد الحانات والخمور ، نزولا عند حد الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فحطمت بعض حانات للخمر في القاهرة والأسكندرية وبنى سويف وبور

سعيد وقنا والزقازيق وغيرها ، ولقد حملت مسئولية هذه الحركة فيما حملت ولا تزال القضية الخاصة بها معلقة حتى الآن لم يفصل فيها ، أما سائر القضايا الأخري فقد صدر عنها عفو ملكى عندما سقط هذا العهد وجاء الوفديون من جديد الى الحكم .

وعلى ذكر الوفد ، فقد كان خروجه من الحكم وعودته الى صفوف المعارضة فرصة لكى تتقارب وجهة نظرنا من جديد ، فقد قدر فى مصر الفتاة أنها قوة فتية تضم صفوف الشبان ، فليس من الخير معاداتها وخصومتها في غير داع أو موجب ، وقد كان لذلك التحول أكبر الأثر فى تطور العلاقات بين مصر الفتاة والوفد ، إلى أن جاء الوقت الذي أصبحت فيه مصر الفتاة فى شبه تحالف مع الوفد .

وقد كان من أبرز الأعمال التى تمت في هذه الفترة السابقة على قيام الحرب ، تلك الرسالة التى بعثت بها الى الهر هتلر زعيم ألمانيا أدعوه فيها الى اعتناق الاسلام ، كوسيلة محققة لانقاذ ألمانيا مما توشك أن تتردى فيه ، ولقد رحت فى هذه الرسالة أحلل سياسة ألمانيا وسياسة هتلر ، وأظهرت ما تنطوي عليه هذه السياسة من اخطاء فاحشة من شأنها أن تؤدي إلى انهيار ألمانيا ودمارها ، ولقد كان هذا الكلام يبدو في ذلك الوقت لونا من ألوان الجنون والخيال ، فقد كانت المانيا فى أوج قوتها وعظمتها ، وكان نجاح هتلر فوق كل شك وريبة ، واتخذ الكثيرون من هذه الرسالة فرصة للتندر والتنديد بأفكار مصر الفتاة ، ومع ذلك فقد جاء الوقت الذى تحقق فيه حكم ما جاء في هذه الرسالة بالحرف الواحد حتى لكأنها نبوءة صادقة ، وسوف يتسع الجزء الثانى من هذا الكتاب ليفصل ذلك كله .

وقامت الحرب ، ورحنا نعد أنفسنا لأخذ نصيبنا منها ، وسقطت فرنسا وأوشكت انجلترا على السقوط فأعددنا أنفسنا للاستفادة من هذه الفرصة ، واتهمنا من جديد بالثورة والاعداد لها ، وكانت أول جناية عسكرية من نصيب مصر الفتاة ، حيث اتهم الأستاذ توفيق الملط باحراز ديناميت لأغراض ثورية .

وأوفدنا الدكتور مصطفى الوكيل إلى العراق فلم تلبث حركة العراق أن بدأت فاشترك فيها نائبا عن مصر الفتاة ، وتطوع في الجيش العراقي وساهم بماله ونفسه من أجل إحراز النصر على الانجليز ، ولكن الثورة لم تلبث أن أحبطت واضطر رشيد عالى الكيلاني والحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين الى الفرار من العراق ، فسافر معهما الدكتور مصطفى الوكيل وظل يتنقل معهما من قطر إلى قطر ، والانجليز تلاحقهم باحتلال هذه الأقطار حتى استقر بهم الحال فى برلين .. وفى برلين استشهد الدكتور مصطفى الوكيل حاملا لواء المثل الأعلى فى مصر الفتاة، استشهد الدكتور القديس لأنه أبى أن يفر من برلين ، وإلا أن يظل على رأس ذلك المعهد الأسلامى الذى أنشىء هناك وكان استاذا فيه .

أما نحن فى مصر ، فقد زج بنا جميعا إلى المعتقلات ، حيث أمضينا فى الاعتقال نيفا وثلاث سنوات ، وخرجنا من الاعتقال قبيل نهاية الحرب لكى نستأنف كفاحنا من جديد . ومرة أخرى تجدد الاضطهاد وتجددت حرب الانجليز وحكومة السعديين لنا ، التي وليت الحكم بعد سقوط وزارة النحاس باشا الرابعة ، وقد جرت فى هـــذه الفترة انتخابات عامة رشحنا لها، وكدنا ننجح فى كثير من الدوائر ، بل لقد نجحت بالفعل فى دائرتى « محـكمة السيدة » ولكنى أقصيت عن النجاح قوة واقتدارا . ولم يلبث القدر أن انتقم لنا فاغتيل احمد ماهر وخر صريعا في دار البرلمان ، وتألفت وزارة النقراشى الذى كان أول أعمالها هو حرب مصر الفتاة والقضاء عليها، ولقد زج بى فى السجن أربعة أشهر كاملة بتهمة الاشتراك فى مقتل احمد ماهر ، ولكن التهمة كانت كاذبة، وخرجت منها بريئا ، واستأنفنا الحرب مع النقراشى باشا ، وفي هذه المرة شاطرتنا الأمة كلها هذه الحرب ، فلم يلبث أن سقط ، وتألفت وزارة صدقى باشـا التى جاءت لتحقيق مطالب البلاد القومية .

وتجرى الآن مفاوضات لوضع معاهدة جديدة تنظم العلاقات بين مصر وانجلترا ، والذى يهمنا أن نسجله الآن هو أن هؤلاء الذين وصفوا معاهدة

سنة ١٩٣٦ بأنها معاهدة الشرف والاستقلال هم أشد الناس اليوم نقمة على هذه المعاهدة ، فالوفد وعلى رأسه النحاس باشا يحمل اليوم لواء التطرف فيحارب كل فكرة تحالف مع الانجليز ، وعندما أصدر الانجليز بلاغهم الرسمى أنهم عرضوا على الحكومة المصرية الجلاء برا وبحرا وجوا بشرط عقد محالفة مع المصريين ، كان الوفد أشد الاحزاب سخطا على هذا الوضع لأنه يرفض أي تحالف مع الانجليز . وهكذا تطور الزمن وما كان يعتبر خيالا جامحا من شباب مصر الفتاة أصبح هو السياسة الحكيمة المتزنة التي ينادى بها الوفد ، وليس فى الشعب اليوم من لا يطالب بالجلاء ، وليس فى الشباب والطلاب والعمال من لا يدعو إلى الجهاد والثورة لاخراج الانجليز ، وهكذا نرى أنفسنا بعد اثنتي عشرة سنة من كفاحنا ، وقد ازدهرت جهودنا وأثمرت .

وإننى أكتب هذه السطور ، وقد وقفت المفاوضات بين مصر وانجلترا ولست أعرف ماذا يكون مصير هذه المفاوضات ، ولكن هناك حقيقة لا أشك فيها أبدا ، وهى أن الانجليز لن يخرجوا من هذه البلاد ، إلا إذا أكرهناهم على الخروج منها بجهادنا السياسى ، والاقتصادى ، والأدبى . لن يخرج الانجليز من مصر ، إلا إذا عرفنا كيف نموت فى سبيل الحرية .. لن يخرج الانجليز من مصر إلا بعد أن ينقرض هذا الجيل القديم من المستوزرين والمستضعفين ، ويقبض على زمام الأمور فى مصر حكومات شجاعة جسورة تعرف كيف تعلن الحرب على انجلترا إذا لزم الأمر .

شكر وتقدير

لا أستطيع أن أختم هذا الكتاب دون أن أتوجه بشكر عميق لأخوى العزيزين ابراهيم شكرى وابراهيم الزيادى لتعاونهما على إصدار هذا الكتاب .

كما أنوه بكل تقدير واحترام لجهود صديقى الأستاذ محمد رضوان احمد لما بذله من جهد فى تصحيح هذا الكتاب .

انتهى الجزء الاول

ويليه الجزء الثانى وفيه تفصيل لما أجمله
هـــذا الفصل الأخير

لا يزال الكتاب

مفتوحا

وبعد فلا يزال الكتاب مفتوحا ، ولا نزال غايتنا بغير تحقيق ومادام فى العمر بقية فهذا عهد الله على أن لا أكل ، ولا أمل ولا ألين ، حتى أرى مصر حرة مستقلة ، ذات سيادة وسلطان، تتألف من مصر والسودان ، وتحالف الدول العربية وتتزعم الأسلام ، وتحمل للدنيا كلها رسالة السلام والأخوة ، والمحبة العالية ، والله أكبر والمجد لمصر .

فهرس الكتاب



مطبعة الرغائب بالقاهرة